

مكتبة الدراسات الأدبية

١٥

سامي الكيالي

الأدب العربي المعاصر
في سورية



دارالمعارف بمطر



مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

الأدب العربي المعاصر، في سورية

١٩٥٠ - ١٨٥٠

مكتبة الدراسات الأدبية

١٥

الأدب العربي المعاصر في سورية

١٨٥٠ - ١٩٥٠

تأليف

سامي الكيالي

الطبعة الثانية



دار المغارف بمط

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . ع . م .



تقديم

هذا كتاب أقل ما يمكن أن أقول فيه إنه رائع كل الروعة ، ممتع أحسن الإمتاع . شعرت بهذا منذ بدأت قراءته إلى أن فرغت منها . وما أرى أنني أبلغ من إجادة تقديمي له ما بلغه الأستاذ الجليل الكريم شفيق جبرى .

فقد قدمه ووصفه أصدق وصف ولم يدع لى شيئاً يمكن أن أقوله إلا أن أهدي إلى الصديق العزيز سامى الكيالى أصدق التحية وأعمق التهنية بهذا العمل المتقن كل الإتقان ، وأن أهدي إليه أجمل الشكر من نفسى ومن قراء العربية جميعاً . فقد أهدي إلينا كلنا كتاباً نافعاً كل النفع ممتعاً كل الإمتاع عن الأدب السورى المعاصر .

وقبل وصول هذا الكتاب إلى " وصل إلى " كتاب آخر من صديق عراقى عن الأدب المعاصر فى العراق .

فهذه إذن طائفة جديدة من الكتب بدأها الصديقان الكريمان عن الأدب المعاصر فى قطرين شقيقين كريمين علينا أثيرين عندنا . وهما سوريا موطن الدولة الأموية والعراق موطن الدولة العباسية . وكـم أتمنى أن تتصل هذه السلسلة فيفرغ بعض الأدباء للآداب المعاصرة فى مصر وفى البلاد العربية الأخرى التى لم تنشأ عن أدها المعاصر كتب ككتاب الأستاذ سامى الكيالى .

وكـم أتمنى أن يعنى الأستاذ عبد الله كنون بالأدب المغربى المعاصر ، كما غنى بالأدب المغربى كله فى كتابه القيم : النبوغ المغربى فى الأدب العربى .

ومهما يكن من شىء فإنى أجدد التحية والتهنية والشكر من أعماق نفسى إلى الصديق الكريم سامى الكيالى على هذا الكتاب القيم الذى قرأته مرة ، وما أشك فى أننى سأعيد قراءته مرات أخر .

طه حسين

مقدمة

بقلم

شاعر الشام وأديبها الكبير

الأستاذ شفيق جبرى

لم أقرأ فى الأدب العربى المعاصر فى سورية تراجم جامدة ، وإنما رأيت من وراء هذه التراجم تاريخاً ناطقاً كأن القارئ يعاشر رجاله ويخالط كتابه وشعرائه وأصحاب الفكر فيه ، كأن هذا التاريخ قد انتفض من مكمنه ورمى إلينا برجال يعيشون بين ظهرانينا نجالسهم ويجالسوننا فيفصّحون عن شعورهم ويعربون عن أفكارهم . ولا نستطيع أن نعرف فضل كتاب الأدب العربى المعاصر فى سورية إلا إذا عرفنا العصر الذى نشأ فيه هذا الأدب ؛ فقد كان هذا العصر نتيجة عصر ظلمات فى الفكر واستبداد فى الحكم وسوء تصرف فى الأمور ، وقد وصف صاحب الكتاب هذا كله حتى انتهى إلى تصوير الرجال الذين نبّهوا الأفكار وبعثوا الهمم ونشّطوا العزائم فخلقوا ما نسميه النهضة فى البلاد ، كانت حياتهم مقدمة لهذه النتيجة التى وصلنا إليها ونعمنا بلذتها وهى نتيجة الحرية والاستقلال ، فلولا تنبيه رجالنا الأوائل ولولا تجرّدهم لتصوير ما كانت تعانيه البلاد من الظلم والاستبداد وتفرّغهم للإرشاد إلى حقوق الوطن فى الحرية والاستقلال لاستمرّت ظلمات العصر الماضى وتطاوالت أحقاب ظلمه واستبداده وسوء تصرفه . . .

لم يصوّر الأستاذ سامى الكيالى عصره وحده ولم يدوّن عوامل وحدها وإنما صوّر رجالاً خلقوا تاريخاً ، وأدباً أنشأ أمةً ، وفكرراً غرس حرية . وقد لزمه فى مثل هذه الحال أن يناسب بين الرجال الذين خلقوا هذا التاريخ وبين أسلوبه الذى يصف به هؤلاء الرجال ، ومن نعم الله أن الانسجام تام فى تصوير الرجال وفى الأسلوب الذى يصوّرهم صاحب الكتاب به ، وهذا موطن البراعة فى الكتاب

فأنت ترى في كل فصل من فصول الأدب العربي المعاصر في سورية حياةً في تصوير الكتاب والشعراء وأهل الفكر . إنك لا تدخل في هذا الكتاب على متحف فيه تصاوير ميتة ورسوم بأثقة وآثار دراسة وإنما تدخل فيه على متحف تكاد تنطق تصاويره وتشرق رسومه وتحرك آثاره .

إذا كنت أستصعب شيئاً في الأدب فإنني لأستصعب مثل كتابة التراجم سواء أكانت التراجم خاصة أم كانت أدبية ، فإن فنّ التراجم يستلزم مهارة لا يملكها كل واحد من الكتاب ، إن صاحب التراجم يلزمه أن يبعث رجاله بعثاً بحيث تكاد نراهم بأعيننا ونسمعهم بأذاننا فضلاً عما يحتاج إليه من نزاهة في الحكم وحسن نية في النقل ، فإن أكثر التراجم لا تخلو من نزعات ظالمة وأهواء مجحفة وأفهام معوجّة ، فإن أصحابها يعطون الناس أكثر مما يستحقون أو أقل مما يستحقون ، وبعضهم يطلقون على الناس صفات لا نصيب لهم من أكثرها ، وينزلونهم منازل ليست بمنازفهم ، وقد شهدنا هذا الأمر في الماضي ولا نزال نشهده في الحاضر بحيث يكاد الشك يخامر قلوبنا في صحة ما نقرؤه من التاريخ أو من التراجم .

لقد أعطى الأستاذ سامي الكيالي أكثر رجاله ما يستحقون فلم يبخسهم أشياءهم ، وإذا كان لا بدّ من ضرب الأمثال فإنني أضرب مثلاً واحداً ، لقد خلق الأستاذ العلامة محمد كرد على نهضة ونبّه أمة ومهما يقل فيه القائلون فلا ينبغي لنا أن ننسى فضله في هذا المعنى ، والأستاذ سامي الكيالي لم ينس هذا الفضل ، فقد وفّى كرد على حقه وأنزله منزلته في حين تنكّر له بعد موته من كان له أثر بليغ في شهرتهم ، فقد أحياهم ففضّلوا عليه بكل شيء حتى بيوم خاص يحصون فيه مآثره ويشيدون فيه بفضله على البلاد .

من هذه الناحية أرى لكتاب الأستاذ سامي الكيالي أثراً عادلاً فقد أنصف من أنكرنا فضلهم من رجالات بلادنا ونوّه بذكر من كدنا ننسح ذكرهم من أذهاننا، فهنيئاً له هذا الوفاء في ذكر فضل الناس وهذا التجرد في الحكم عليهم وهذه الحياة في تصوير تاريخهم .

الحركة الأدبية في سورية

١

حين نحاول تأريخ الحركة الأدبية في سورية ، خلال القرن المنصرم ، منذ عام ١٨٥٠ حتى عام ١٩٥٠ لابدّ من الرجوع إلى العوامل والظروف والأحداث التي رافقت حياة الفكر خلال هذه الفترة . . . وهي فترة طويلة مرّت بمراحل متعددة .. من الغيبة .. إلى فجر الإصلاح .. إلى بدء اليقظة .. إلى التفتح والانطلاق . . .

فقد كان الفكر ، في بداية القرن التاسع عشر ، يغطّ في سبات عميق . . . كان ينوء تحت كلكل كابوس ثقيل من جهالات عصور الانحطاط . . . وكان يئنّ من وطأة تلك الأنظمة الرجعية التي كانت تفرضها الدولة العثمانية على البلاد العربية ثم من تخلف الشرق عن ركب الحضارة الأوروبية . . . ومردّ ذلك أن الدولة العثمانية ذاتها كانت تتخبط في الدياجير المظلمة . . . تسودها أنظمة أوتوقراطية عتيقة تقوم على البطش والظلم والحكم الفردي المطلق . . . وكانت الأقطار العربية الواقعة تحت نفوذها وسيطرتها - ومنها بلاد الشام - تتخبط في نفس هذه الدياجير .

فالوالى الذى يحكم ديكتاتور مطلق . . ينفى ويقتل ويصادر الأموال وفقاً لمشيئته ، وإشباعاً لمطامعه ، ونزولاً عند رغبة سيده - سلطان البرّين وخاقان البحرين - فإذا خرج على إرادته وتلكأ في تنفيذ رغباته وأهوائه أمر بعزله . . وقد يأمر بقطع رأسه . فتاريخ الحكم في تلك الفترات المظلمة ، يعطينا أكثر من مثل واحد على هذا اللون من الحكم الأسود .

ففي سنة ١٨٠٧ كان يتولى إيالة الشام وال اسمه يوسف (باشا) ، وكانت مهمته أن يعمل على تخليص الحجاز من سيطرة الوهابيين .. وحاول أن يحقق رغبة مولاه . . فلم يوفق فأخفق وفشل . . وشعر أن أيام حكمه جدّ قصيرة . .

فانصرف إلى تصريف شئون الولاية وفق أهوائه .. وكان همه أن يكتنز الأموال لنفسه .. وشعر السلطان محمود أن متبوعه قد أخفق في مهمته .. إذ أخذ الشعب يجأر بالشكوى .. فما كان منه إلا أن أصدر ثلاثة فرمانات يقضى الأول منها بعزله ، والثاني بإعدامه وإرسال رأسه المقطوع إلى مقر السلطنة .. والثالث بمصادرة أمواله وأملاكه ..

ووكّل هذا الأمر إلى والى صيدا الذى اعتزم أن ينفذ إرادة مولاه فى زميله .. ولكنه لم يستطع .. لأن والى المعصوب عليه كان قد علم بما دبّر له ففر إلى مصر على قارب بحرى من اللاذقية إلى دمياط حيث نزل ضيفاً على محمد على باشا والى مصر الذى لم يمتنع ، مع أنه من متبوعى السلطان ، من أن يحتضنه ويغدق عليه الأموال فيعيش فى كنفه معزراً مكرماً !

هذا مثل من لون الحكم فى تلك الفترة المظلمة التى عاشتها سورية ، كما عاشتها سائر البلاد العربية ..

* * *

وظلّت البلاد تقاسى عنت هذه « الروح الفردية » التى شملت كافة مرافق الحياة .. إلى أن ثار المفكرون على هذه الأوضاع وطالبوا بالإصلاحات .. فكان بصيص للحياة الدستورية بإعلان المشروطية الأولى سنة ١٨٧٦ .. وارتقب الناس أن يروا تغيراً فى نهج الحكم وأن تشعّ بوادر الإصلاح .. ولكن شيئاً من هذا لم يتغير .. أى ظل الحكم المطلق الذى يركز على العنف والاستبداد والجهالات هو السائد إلى أن أعلنت المشروطية الثانية — ويراد بها النظام الدستورى — سنة ١٩٠٨ ..

* * *

وبدهى ، وقد مرّت بلاد الشام بهذه الحياة القلقة المظلمة المضطربة . أن تخضع الحياة الفكرية إلى هذه الألوان القائمة من سياسة الدولة .. أو من نظامها الأوتوقراطى العتيق الذى تتمثل فيه كل مظاهر عهد الانحطاط .

هذا ، وإذا كانت المدرسة هي التي تهيئ المواطنين لأن يعبّوا من رحيق العلم . . . وكانت سورية ، في تلك الفترة ، بعيدة عن المؤسسات العلمية ... قدرنا أى وضع كان عليه الفكر في سورية . .

فلم تعرف بلاد الشام في تلك الفترة ، حياة علمية كما نعرفها في عصرنا هذا . . . فلا مدارس . . . ولا معاهد ، ولا جامعات . . . ولا مؤسسات علمية . . . ولا شيء سوى المدارس الدينية التي كانت تعنى عناية واسعة بالدراسة التي تتصل بجوهر الدين مباشرة - بالفقه والتفسير واللغة وعلوم البيان . . . ثم . . . الكتابات . . . والدراسة فيها لا تعدى مبادئ القراءة والكتابة وأوليات الحساب . . . وظلت الحالة هكذا ، إلى أن تولى مدحت باشا بطل الدستور ولاية سورية فكان أول من أنشأ فيها المدارس المدنية . .

يقول محمد كرد علي : إنه افتتح في دمشق سنة ١٢٩٥ هـ ثمانى مدارس ابتدائية للذكور والإناث ، ودار صنائع ، وأسس مثل ذلك في أعمال الولاية الواسعة (١) .

وكانت البعث الأجنبية قد افتتحت بعض المدارس الخاصة التي اجتذبت إلى رحابها أبناء الأسر المسيحية ، وكانت تعنى بتدريس اللغة الفرنسية والإيطالية إلى عنايتها باللغة العربية . . . في حين كان التعليم في المدارس الأميرية يلقن باللغة التركية (٢) . .

« ومن هنا وجدت اللغة العربية موئلاً لها في المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية ، فانتشر تعليم الأدب العربي بين المسيحيين أكثر من انتشاره بين المسلمين » (٣) .

(١) « خطط الشام » ج ٤ ص ٨٢ .

(٢) ساطع الحصرى في كتابه « البلاد العربية والدولة العثمانية » ص ٨٣ .

(٣) « . . . عندما كان مدحت باشا والياً على الشام برز في دمشق رجل نابغة في علمه وتفكيره =

أى أن الحياة العلمية بمدلولها المتعارف عليه . . كانت محدودة النطاق . . وكان الفكر فى شبه غيبوبة . . قد صفته التقاليد الآسنة . . ومن أتيح له أن ينهل رشفات من المدارس الدينية . . وكان ذا ميل للدرس والبحث ومعاناة الأدب بمفهومه القديم . . رأيناه يعالج نظم الشعر . . ويرصع الرسائل الديوانية . . إلى محاولات عقيمة لكتابة مقامة- ، إلا من وعى صدره قبسات من الأدب الحى- أدب العرب أو أدب الغرب .

٣

وحين نقرأ الأدب الذى تركه أدباء العصر المنصرم نقرأ ألواناً من أدب ضعيف ، مهلهل ، يتسم بالخاكاة والتقليد . . لا يخرج فى مضمونه عن المدح والثناء والتهانى والغزل المذكر . . . ولا شىء غير هذه الألوان . . وهو فى صياغته ذو ارتباط وثيق بأدب عصر الانحطاط - الأدب الذى تقوم مادته على السجع والجناس وما إلى ذلك من تلك التزاويق اللفظية التى يمجّها ذوقنا الأدبى . . يضاف إلى كل ذلك عامل مهم كان له أثره غير المنكور فى جمود اللغة العربية وعدم تطورها ، وقد أشرنا إليه إشارة عابرة . .

فحين تأسست المدارس المدنية فى سورية كان التدريس فيها باللغة التركية . . حتى اللغة العربية كان يدرسها أساتذة أتراك ليست لهم السليقة العربية . .

= ونشاطه وإخلاصه وهو الشيخ طاهر الجزائري . لقد كان الشيخ ضليعاً بالعلوم العربية والدينية ، ومجيداً للتركية ، وعارفاً للفارسية ، ومطلعاً على مجمل العلوم العصرية ، وكان له صلة صداقة برئيس ديوان الولاية التركى واسمه بهاء بك ، فى أحاديث الشيخ معه أقنعه بضرورة افتتاح مدارس حكومية تدرس العلوم بالعربية ، وتعى بتدريس آداب هذه اللغة ، واحتجّ لرأيه هذا بأن مدارس الإرساليات الأجنبية من بروتستانتية وكاثوليكية كلها تدرس العربية وآدابها ، خلافاً لمدارس الحكومة العثمانية . فإذا طالت هذه الحال نشأ فى المدارس الأجنبية نشء له تفكير خاص ومذاهب سياسية لا تسرّ الدولة . ولذلك يجب مقاومة هذه النزعات بالطريقة التى يتبعها الأجانب .

وكان بهاء بك فاضلاً واسع التفكير ، سرعان ما اقتنع بصحة هذا الرأى ، وأقنع الولى مدحت باشا باتخاذ الأسباب الآيلة إلى تحقيقه . وكان مدحت باشا هو صاحب الدستور الأول الملقب بأبى الأحرار العثمانيين ، وكان مشهوراً بحبه للحرية وبمساعيه لإصلاح شئون الدولة .

« محاضرات عن القومية العربية » للأمر مصطفى الشهابى ص ٤٩ .

فنشأ الجيل القديم وأكثره يحذق اللغة التركية أكثر من معرفته لغة آبائه وأجداده ، ووجد الكثيرون من أبناء العرب ممن ينظم الشعر التركي ، ويؤلف الكتب باللغة التركية ، وينمق رسائل ديوانية لا تقل بقيمتها البيانية عما يكتبه أدباء الترك أنفسهم . .

وهكذا قد فرض العثمانيون - خلال حكمهم الطويل - فرضوا تعليم لغتهم فرضاً على أبناء العرب ، وكان من جراء ذلك أن ازداد سقم اللغة العربية ، وبدا عليها الهزال ، وتعطلت حياة الفكر .. وظل الأدب في انكماشه وغفوته السادرة ، يعيش في نطاق ضيق على ألسنة بعض الشعراء والكتاب والمفكرين وهم من القلة بمكان .

٤

على أن النسمات التي هبت من أوروبا . . ومن مصر التي سبقت سائر الأقطار العربية في التخلص من السيطرة العثمانية - أثارت في نفس غير واحد من رجالات الفكر نزعة الروح القومية . .

فكان ثمة تجاوب بين أدباء الأقطار العربية ومفكريها . . وكان التجاوب يدور في حدود الإصلاح الذي يتناول دفعة الحكم ، وتعميم التعليم لمحاربة الأمية ، ونشر المعرفة في جميع البلدان العربية .

ورأينا النزعة التحريرية - وهي ذات بواعث قومية تثير طائفة من الأدباء في بلاد الشام - أريد سورية ولبنان وفلسطين - تثيرهم لأن يرفعوا أصواتهم . . فكانت صيحات محمد عبده الإصلاحية ، وهي ذات طابع إسلامي ، تتلاقى مع صيحات عبد الرحمن الكواكبي الناصر العربي الحر .. إلى صيحات الشدياق واليازجي وأديب إسحق وحسّون والدلائل ومن إليهم من الكتاب والشعراء والمفكرين .. وكان نهج الجميع ، ولكل أديب وجهة نظره ، أن يوقظوا الروح النائمة لتهب وتستيقظ . . ثم لتكوين شعب واع يعيد سيرة أجداده ، ويسير سير الغرب في نهضته وتفوقه وبلوغه مرتبته ومنازله . .

ولكن كيف ؟

كانت الروح الاستبدادية ما تزال المسيطرة . . وكان الأدباء يخشون من

الروح بما فى نفوسهم .. وكانوا يحاولون الفرار إلى جو بعيد عن السيطرة ليستطيعوا أن يعبروا عن آرائهم بحرية .. فمنهم من سافر إلى مصر .. ومنهم من قصد باريس ولندن .. ومنهم من هاجر إلى أمريكا .. فكانت أصواتهم تتعالى هناك .. أى كانت الصيحات تأتى من بعيد .. إلى أن أعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ فانطلقت الألسنة تعبر عن مكنونات الصدور .. وصدرت الصحف ، وأخذ الكتاب يكتبون مقالات فى الحرية وفى ذم الاستبداد .. وأخذ الشعراء ينظمون القصائد فى مدح الدستور .. وكلهم يرقبون أن يبرز فجر جديد تشرق شمس على البلاد العربية ليتاح لها أن تتحرر ، وأن تسير فى ركب الحضارة .

٥

كان الأدب فى تلك الفترة التى سبقت الحرب العالمية الكبرى يسير متند الخطى .. وكان الكتاب يعبرون عن أحاسيسهم القومية بأساليب لم تصقلها الديباجة العربية ، وكان الشعراء أيضاً يحاولون نفس هذه المحاولات .. وكان الحكم العثمانى ما يزال .. أى كانت اللغة التركية هى التى ترسم خطوط الثقافة العامة .. فكان النشء السورى يتلقى دروسه بلغة جنكيزخان .. وكان القارئ العربى يوسّع نطاق ثقافته من الكتب التركية .. ويغذى نهمة السياسى من الصحافة التركية .. وكان الطلاب يتجهون إلى إستانبول لإتمام دراساتهم فى جامعاتها .. وقليلون هم الذين يتجهون إلى جامعات الغرب ..

وظل الأمر كذلك إلى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) حيث جلا الأتراك عن البلاد العربية ، وأسست فى سورية حكومة عربية برياسة الملك فيصل ابن الحسين ..

وكان على الحكومة أن تعنى أول ما تعنى « بتعريب » كل شىء فى الدولة ولا سيما بعد أن أعلنت أن « اللغة العربية » هى اللغة الرسمية للبلاد .. فكانت محاولات جدّ صعبة ، ولا سيما عند طبقة الموظفين الذين عاشوا شطراً من حياتهم بصرفون شئون الدولة ومصالح الناس فى الإدارة وفى القضاء باللغة التركية .. وانبرى كبار الأدباء ورجال الفكر ممن أشرب قلبهم حب العربية — وهم

قلة - إلى مزاوله مهمة تعريب الكتب المدرسية المقررة بعد أن أضحت لغة التعليم في جميع المدارس هي اللغة العربية . .

ولعب اثنان دورهما الخطير في هذه الناحية - ساطع الحصري وكان وزيراً للمعارف في حكومة فيصل - فبذل مجهوداً كبيراً مع رجال التربية والتعليم لوضع برامج تربوية سليمة وتزويد الطلاب بأوفر كمية من الكتب باللغة العربية . .

ومحمد كرد علي الذي عمل على تأسيس « المجمع العلمي العربي »^(١) فكان أعظم دعامة لنشر اللغة العربية في تلك الفترة حيث قام كالحارس الأمين لتقويم الألسنة وتصحيح أغلاط الكتاب وإمداد الدواوين بالاصطلاحات ..

بذل هذان الرجلان - كل واحد في نطاق عمله - مجهوداً كبيراً مهد للغة العربية أن تسير سيرها الطبيعي في جو عربي حر تستعيد به مكانتها الأولى .

٦

كان تأسيس « المجمع العلمي العربي » ظاهرة حية في تاريخ الفكر العربي في سورية .

وكان اسم محمد كرد علي كصحنى ومؤلف وباحث قد تعدت شهرته بلاد الشام إلى جميع الأقطار العربية وإلى دوائر المستشرقين في الغرب ، فأخذ على عاتقه أن يجعل من هذا المجمع بيئة علمية مهمتها صون اللغة العربية و« نشر آدابها وإحياء مخطوطاتها وتعريب ما ينقصها من كتب العلوم والصناعات والفنون

(١) كان المجمع العلمي العربي يعرف لأول مرة بالشعبة الأولى للترجمة والتأليف التي أسست على أثر تأليف الحكومة العربية في أواخر خريف سنة ١٩١٨ ، ثم جعلت هذه الشعبة « ديوان المعارف » وعين الأستاذ محمد كرد علي رئيساً لها في ١٢ شباط ١٩١٩ موكولاً إليها النظر في أمور المعارف والتأليف وتأسيس « دار الآثار » والعناية بالمكتبات ولا سيما « دار الكتب الظاهرية » . . . ثم انقلب هذا الديوان بأعضائه الثمانية ورئيسه إلى « مجمع على » في ٨ حزيران سنة ١٩١٩ ، وأخذ على نفسه النظر في إصلاح اللغة ، ووضع ألفاظ للمستحدثات العصرية ، وتنقيح الكتب ، وإحياء المهم مما خلف الأسلاف ، والتنشيط على التأليف والتعريب .

عن اللغات الأوروبية وتأليف ما تحتاج إليه من الكتب المختلفة الموضوعات على نمط جديد» (١) .

وتألف المجمع من ثمانية أعضاء بينهم الأساتذة سعيد الكرمي ، وأنيس سلوم ، وعبد القادر المغربي ، وعيسى إسكندر المعلوف ، والشيخ طاهر الجزائري ، وقد انتخبوا بالإجماع الأستاذ كرد علي لرياسة المجمع ، وظل رئيساً له حتى آخر يوم من أيام حياته . .

ولم يمض على تأسيس المجمع سنة حتى كان قد انتخب أعضاءه المرسلين من الشرق ، ومن الغرب ، وجلهم من فضلاء الباحثين وأكابر المستشرقين ، فكانوا يوافون مجلة المجمع ببحوثهم ودراساتهم ، وكلها ترمى إلى بعث تراثنا القديم وتطوير اللغة ، ونشر الذخائر الثمينة من مخطوطاتنا ، مما له ، ولا يزال ، أكبر الأثر في نهضتنا الأدبية . .

وكان للمحاضرات التي يلقيها الأعضاء في قاعة المجمع أثرها غير المنكور في تلقيح عقول الناشئة وتزويدها بثمار المعرفة ، وتحبيب لغة الأجداد إليها . ولا سيما بعد أن أصبحت المدرسة تلعب دورها في تنشئة الطلاب على حب العربية ، وعلى التزود من معينها ، وصقل نفوسهم على ممارسة الكتابة والخطابة . .

* * *

لقد كانت العجمة في تلك الفترة طاغية على لسان الكثيرين ، ولا سيما في دواوين الحكومة ، وكان لابد من الرجوع إلى « المجمع العلمي العربي » ليمدّهم بالاصطلاحات العربية الصحيحة — بكلمات وأساليب إدارية عربية جديدة تخلف تلك الأخرى القديمة الأعجمية في مادتها وأسلوبها . . وحقق المجمع رغبتهم ، ونظر في كلمات وتعابير كثيرة وردت إليه من دوائر المعارف والأوقاف والشرطة والمجلس البلدي والصحة والمصرف الزراعي فأبقى بعضها على حاله لصحته وعروبه ، وبدّل بعضها كل التبديل ، وعدّل الآخر تعديلاً قليلاً أو كثيراً (٢) . وهكذا ، قد كان للمجمع العلمي العربي في أول تكوّنه . وهو ثمرة

(١) « مجلة المجمع » العدد ١ ص ٦ .

(٢) « مجلة المجمع » - السنة ١ عدد ٢ ص ٤٢ .

الحكومة العربية ، أثره الكبير في بعث النشاط الفكري ، وفي تقويم اعوجاج الألسنة ، وتصحيح لغة الكتاب ، إلى إشاعة العربية في مختلف الأوساط والحفاظ على قدسيته من كل طارئ دخيل ^(١) .

٧

ثمة ظاهرة لا تقل أهمية عن تأسيس المجمع العلمي، أريد بها « الجامعة السورية » . فقد بدأت عملها بداية متواضعة ينقصها الكثير من المعدات التي يفتقر إليها تكوين الجامعات .

ففي الخامس عشر من شهر حزيران سنة ١٩٢٣ أسست « الجامعة السورية » مؤلفة من « المجمع العربي » ومن مدرستي الطب والحقوق لتكوين جامعة عربية للشام بالمعنى الجامعي الذي يفهمه العلماء . .

وبدأت عملها . . وبدأت تتعثر في سيرها . . وكان التدريس في الكليتين باللغة العربية . . وكان لا بد للأساتذة ، وثقافة أكثرهم تركية لتخرجهم في جامعة إستانبول — كان لا بد لهم من اللجوء إلى تعريب محاضراتهم ، ولقوا الكثير من العناء ^(٢) ، ولا سيما أساتذة كلية الطب حين كانوا يلجأون إلى تعريب المصطلحات العلمية . . ورأوا في المصطلحات القديمة التي استعملها أطباء العرب — من

(١) أشار الأستاذ محمد كرد علي في كتابه « خطط الشام » إلى هذه الظاهرة بقوله :

وبعد ذلك يرجى ألا يضيق كثيراً نطاق اللغة العربية في هذه الديار ، على ما يبذله المجمع العلمي العربي منذ سنة ١٣٣٧ هـ من العناية بنشرها وتهذيب ألفاظ الكتاب وتراكيبهم ، وإرشاد المؤلفين والمترجمين فيما يعوزهم والأخذ بأيديهم ، وتحبيب المطالعة إلى الجمهور ، وتعليمه في محاضرات ودروس عامة ، وعرض آثار مدنية الأسلاف على أنظاره لبعث عقلية من رقدتها .

(« خطط الشام » ج ٤ ص ٨٦)

(٢) ويصف الأستاذ كرد علي ثقافة أساتذة الكليتين في تلك الفترة بقوله :

ما زالت اللغة العامية شائعة في مدرستي الطب والحقوق ، ولا شأن للفصحى فيها إلا قليلاً . . لأن معظم المدرسين من الطبقة التي تخرجت في مدارس الترك ، متوسطة في معلوماتها ، لتكون في جملة الموظفين في الحكومة العثمانية ولم تكن بالمطالعة والبحث ، ولا بالتأليف والترجمة ، وفترت عن المطالعة منذ خرجت تحمل شهادتها . . وهذه الطبقة لا تقم للعربية وزناً . . ولا تكتب جملة مسبوكة . . ولا تاد تلفظ كلمة صحيحة .

(« خطط الشام » ج ٤ ص ٨٥)

الرازى إلى ابن سينا إلى غيرهم - رأوا فيها مادة خصبة أعانتهم على تعريب المصطلحات الطبية ، وكانوا يحرصون أن يوفقوا بينها وبين أدق مصطلحات الطب الحديث . وخطوا في هذا الميدان خطوات موفقة ، وكانت « كلية الطب » في الجامعة السورية ، وما تزال ، أول كلية في الشرق العربي تدرس الطب بلغة عربية فصيحة . . وصدر للأساتذة عشرات الكتب الضخمة في شتى فروع الطب ، وهى تؤلف مكتبة طبية واسعة ، وكلها مراجع وثيقة للطلاب ، إلى إغناء العربية بالبحوث العلمية . . وهكذا ، فإن الصعوبات التى لاقتها كلية الطب في البدء ، قد ذلت بجهود الأساتذة وصبرهم الطويل على التعريب . . وما نقوله عن كلية الطب نقوله عن كلية الحقوق التى أغنت العربية أيضاً بمجموعة ضخمة من الكتب ، وكان عناؤهم وجهدهم أقل من عناء وجهود زملائهم الأطباء (١) . .

ولاعيننا أن نقول إن اللغة العربية التى وسعت كتاب الله ، وهى لغة مرنة ، لاتضيق بلغة الحضارة والعلم . . وقد مرّت لغتنا بتلك التجربة القاسية - تجربة التعريب - فنقلت عن الهند وعن الفرس وعن الإغريق فلسفتهم وأدبهم وصقلتها

(١) إن كلية الطب في الجامعة السورية خلفت كلية قصر العيني بمصر والكلية الأمريكية في بيروت في وضع المصطلحات العربية ، وفى تأليف الكتب الطبية والطبيعية بلغتنا الضادية . تأسست كلية الطب في دمشق سنة ١٩١٩ بأمر من الملك فيصل الأول ، وقامت على أنقاض كلية الطب التركية ، واختير لها أساتذة من الأطباء العرب ، بعضهم يتقنون العربية ، وبعضهم لا يتقنونها ، ولكنهم جميعاً تعاهدوا على الاصطلاح بمهمة التدريس بالعربية ، وعلى جعل لغتنا تتسع للعلوم الطبية كما اتسعت للعلوم الحقوقية في كلية الحقوق ، وراحوا يتدارسون المصطلحات التى جاءت في كتب الطب القديمة وفى الكتب المصرية والتركية ، وكتب الكلية الأمريكية وغيرها .

وعكف كل أستاذ في علمه على نخل تلك المصطلحات ، وعلى وضع مصطلح جديد لكل لفظ علمي أعجمي لم يذكر القدماء له مصطلحاً عربياً ، وألف الأساتذة شبه مجمع لغوي ينظر فيما يعرضه كل أستاذ من ألفاظ العلم الذى يدرسه ، وهكذا استطاع أساتذة هذه الكلية أن يؤلفوا كتاباً جليلاً في فروع الطب المختلفة ، وفى الكيمياء والفيزياء « الطبيعة » والمواليد ، وأن يجعلوا في آخر كل كتاب مسرداً لمصطلحاته بالعربية والفرنسية .

بأسلوب عربي مبين لم تعتوره العجمة ، ولا ظهر فيه الخلل ولا الاضطراب ..

* * *

وأقبل الشباب ينهلون من معين هاتين الكليتين .. وأخذت العربية تزدهر في هذه البيئة الجامعية . . وكان لابد لاستكمال عناصر الجامعة بفروعها المختلفة من إنشاء كلية للآداب ، وأخرى للعلوم ، وكلية هندسة ، وكلية تربية — معهد المعلمين العالي — وتم تأسيس هذه الكليات عام ١٩٤٦ ، وبذلك تكونت «الجامعة السورية» تكويناً واسعاً .. وأصبحت بنية علمية ازدهرت العربية في ربوعها ازدهاراً حسناً .

وقد يسأل القارئ عن العوامل التي أخرجت تأسيس هذه الكليات خلال هذه الفترة الطويلة من ١٩٢٣ إلى ١٩٤٦ . ومن حقه أن يسأل . . فقد كان الفرنسيون يحولون دون إنشاء هذه الكليات . . وحاولوا أكثر من مرة أن يغلقوا كلية الحقوق التي اعتبروها بيئة خطيرة ضد النفوذ الفرنسي ، وكانوا يحسبون أكبر حساب لثورة الشباب الجامعيين وتكتلهم . . وكانوا يلقون منهم العناء وهم في المدارس الثانوية ، لذلك حاولوا بقوة دون تأسيس كليات الجامعة ، وكانوا يأملون من البعث التي يرسلونها إلى جامعاتهم في فرنسا أن يعودوا «مفرنسين» — وقد خمد شعورهم الوطني — فخاب ظنهم ، ورجع أكثرهم مزدوين بثقافات علمية وهم أكثر وطنية وأشدّ حماساً .

وحين تمّ الجلاء أخذ العهد الوطني على عاتقه أن ينشئ هذه الكليات : الآداب ، والعلوم ، والهندسة ، والتربية ، وهي تقوم اليوم بدور خطير في إنشاء جيل عربي واع ، قد استكمل عدته من العلم والمعرفة ، وأخذ يعمل لوطنه ولعروبه ، وينهض بالعبء الفكري بقوة واعتزاز^(١) .

(١) في التقويم الذي أصدرته جامعة دمشق ذكرت أن نشأة الجامعة بدأت في العهد العثماني سنة ١٩٠٣ كمعهد للطب لا يزيد عدد طلابه على أربعين طالباً من سورية والأناضول ، ثم غدت خلال هذه الفترة الطويلة ، جامعة تضم اثنتي عشرة كلية للعلوم والفنون والآداب والشريعة ومعهداً للخدمة الاجتماعية يربو عدد طلابها على ثمانية وعشرين ألف طالب وطالبة . هذا عدا جامعة حلب التي تأسست سنة ١٩٦٠ مؤلفة من كليات الهندسة والحقوق والزراعة واللغات .

إننى فى إلماعى إلى هذه الظواهر أؤرخ فترة من فترات ازدهار اللغة العربية منذ جلاء الأتراك الذين فرضوا لغتهم — إلى يومنا هذا ، حيث أصبح للعربية شأنها ، وأصبح لها مقامها سواء فى لغة الدواوين . . أو فى المدارس . . أو فى مختلف البيئات الثقافية مما مهد لها أن تستعيد رونقها القديم ، وقد تنوعت الدراسات الأدبية ، فنشرت مخطوطات ، وترجمت روائع ، وألفت كتب تتناول مشاكل العلم ، ومشاكل المجتمع ، وما يتصل بالتطورات العلمية والمذاهب الاجتماعية ، وإن من ينظر إلى الجهد الذى بذله أساتذة «الجامعة السورية» ولا سيما الذين أتموا دراساتهم فى جامعات الغرب ، لا يسعه — وقد طوعوا العربية لأن تكون لغة علم مبسطة — لا يسعه إلا أن يشيد بمجهودهم الفذ ، فقد كتبوا كتبهم بكثير من الدقة والإسهاب ، وبنزعات حرة مطلقة ، وبأساليب غاية فى السهولة والوضوح . ولم يهمل «المجمع العلمى العربى» واجبه فنشر طائفة من الكتب الكلاسيكية — تلك الذخائر الثمينة من أدبنا القديم وتراثنا الفكرى النفيس — ولا يمر عام دون أن يتحف العربية بأكثر من كتاب واحد . . وعنايته موجهة إلى نشر مخطوطات أغلبها فى الشعر ، وفى الأدب ، والتاريخ ، والمنطق .

وهناك كثير من المفكرين يغذون حركة النشر بمؤلفاتهم المترجمة والموضوعة فى شتى ميادين المعرفة . . والجانب الأدبى أغلب من بقية الجوانب ، ولا سيما الجوانب العلمية ، ذلك أننا أمة لا تزال فى بداية الطريق ، ولأن الأدب ألصق بالحياة من سائر فروع العلم ، وهو الأداة التى تعبر عن نوازعنا وترسم خطط سيرنا ، وتشيرنا للنضال فى كفاحنا القومى وثوراتنا التحريرية .

ثمّة ظاهرة ذات مساس فى تطوير اللغة وصقلها ، وفى تبسيط الأسلوب الذى يسيغه الجمهور . أريد بها — بعد المدرسة — الصحافة . . فقد عرف السوريون ، قبيل جلاء الأتراك ، عدة صحف عربية محدودة

النطاق . . لا تكاد تلتمع حتى تخبو وتنطفئ . . وبدهى ألا تؤدى الغاية من تنوير الجمهور وثقيفه .

ثم كان الحكم العربي فصدرت عدة جرائد ، ثم دخل الفرنسيون فحدوا من حرية الصحافة . .

ولا بأس هنا ، قبل أن نتحدث عن الصحافة وأثرها في ثقافة الجمهور وفي مرونة اللغة ، أن نرجع قليلاً إلى التاريخ نتحدث عن النضال السياسى والنضال الثورى منذ جلاء الأتراك سنة ١٩١٨ إلى جلاء الفرنسيين سنة ١٩٤٦ فإن لهذا أثره فى الوعى القومى ، وفى يقظة الشعب وكفاحه . . وفى الأدب — أريد أدب المقالة الصحفية ، والشعر القومى .

لقد أشرنا آنفاً إلى أن حكومة عربية تألفت برياسة الملك فيصل . . ولا بأس أن نحدد تاريخ هذه الأحداث فنقول إن المؤتمر السورى الذى انعقد فى دمشق والذى ضمّ رجالات البلاد من سورية ولبنان والأردن وفلسطين قد أعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية فى السابع من شهر آذار (مارس) سنة ١٩١٩ . . وفى الثامن من الشهر المذكور نودى بالأمر فيصل ملكاً على سورية . . . ولكن هذه المملكة الفتية لم تدم طويلاً . . وثارت ثائرة الفرنسيين . . وبدأت مناوراتهم تنطلق من لبنان . . وبعثوا برسلكهم . . ثم أخذوا يوجهون الإنذار تلو الإنذار ، وكانت فرنسا وهى من أقوى دول الغرب آنئذ وقد خرجت من الحرب ظافرة — كانت تعتبر سورية ولبنان مناطق نفوذ لها . . وكبر عليها أن تستقل سورية . . وأن يقوم فيها حكم عربى . . فما كان منها إلا أن هجم الجيش الفرنسى على هذه المملكة لتقويضها . . ونشبت معركة ضارية فى ميسلون فى الرابع والعشرين من شهر تموز (يولية) سنة ١٩١٩ بين القوات الفرنسية وفصائل من قوات الجيش العربى المسلّح بقيادة يوسف العظمة وزير الحربية لم تدم غير يوم واحد كانت الغلبة فيه للفرنسيين ، واستشهد القائد البطل فى تلك المعركة . . وفى اليوم الثانى — أى فى يوم ٢٥ تموز (يولية) سنة ١٩١٩ — دخلت قوات الاحتلال الفرنسية دمشق عاصمة سورية . . واضطر الملك فيصل أن يغادر دمشق إلى فلسطين . . ومنها إلى بريطانيا . . .

وهكذا ، قد انهار العهد الاستقلالى الأول ، وبدأ عهد الانتداب الفرنسى الذى عانت منه البلاد مرارة الاحتلال .

وكان من جراء ذلك أن قامت الثورات فى جميع أنحاء البلاد . . .
 ثار الشيخ صالح العلى فى جبال العلويين فدامت ثورته من شهر أيار (مايو) سنة ١٩١٩ حتى شهر حزيران (يونية) سنة ١٩٢١ .
 وثار إبراهيم هنانو فى جبال الأربعين فاستمرت ثورته سنة كاملة بدأت من ٢٠ تموز (يولية) سنة ١٩٢٠ حتى ٣١ تموز (يولية) سنة ١٩٢١ . (١) .
 ثم بدأت ثورة سلطان باشا الأطرش الأولى فى جبل الدروز فى تموز (يولية) سنة ١٩٢٢ فدامت ستة أشهر .

وكانت البلاد فى غليان شديد ، والنفوس ثائرة . . . والهياج من تصرفات الفرنسيين بالغ أشده . . . ولاسيما نفوس الكتّاب والشعراء ورجال السياسة . . .
 وضاق الفرنسيون بهذه الثورات تنبثق من هنا وهناك . . . وكانت حملاتهم العسكرية تنتقل من بقعة إلى بقعة ، ومن سهل إلى جبل . . . وتكبد الفرنسيون من جراء هذه الثورات الكثير من الضحايا . . . وفى تقرير خطير للجبرال ساراي بعثه إلى « الكى دورسه » يقول فيه — إنه فى عام ١٩٢٢ نشبت فى سورية وحدها خمس وثلاثون ثورة دفن فيها خمسة آلاف جندى فرنسى . . .

وعمد الفرنسيون إلى تقطيع أوصال البلاد ، وأقاموا عدة دويلات فى سورية ، فجعلوا من حلب دولة ، ومن دمشق دولة ، ومن جبال العلويين دولة ، ومن جبل الدروز دولة ، ومن لواء الإسكندرونة « دوقية » فرنسية . . .
 وأقيمت المحاكم العسكرية تحكم على كل من اتهم بوطنيته أو بتحريض الناس على الانتداب . . . فحكمت على الكثيرين بالسجن . . . وبالنفى . . . وبالإعدام . . .

(١) إبراهيم هنانو « ١٨٦٩ - ١٩٣٥ » من مواليد كفر تخاريم التابعة لضاء حارم ، تبعد عن حلب بالسيارة قرابة الثمانين كيلو متراً . تخرج فى مدرسة الحقوق والإدارة فى إستانبول ، ومارس بعض الوظائف . وحين احتل الفرنسيون سورية ثار عليهم وكبدهم خسائر فادحة فى الأرواح ، وظلّ يكافح إلى أن تغلبت عليه القوات الفرنسية فلبأ إلى عمان فالقدس حيث كانت فلسطين تحت الانتداب البريطانى فسلموه إلى الفرنسيين الذين قدموه للمحاكم الأجنبية فى حلب . . . ووقف الشعب قلقاً وخاف الفرنسيون نتائج الحكم على زعيم وطنى ثائر فبرأته المحكمة . . . وظلّ بعد خروجه من السجن من أبرز رجالات « الكتلة الوطنية » يقود الجماهير إلى الكفاح ، برغم مرضه ، وما زال حتى آخر يوم من حياته . . .

وظنوا أن سياسة العنف هذه ستخضع السوريين وتوطّد أركان حكمهم ..
وخاب ظنهم .

ونشبت الثورة الكبرى — ثورة سلطان باشا الأطرش الثانية التي قام بها في أواخر شهر تموز (يولية) من عام ١٩٢٥ ، ثم سرت إلى حماة ودمشق وقرى الغوطة ووادي التيم وإلى أطراف حمص بما فيها القلمون .. وإلى شمالي لبنان وبعلبك .. ودامت أكثر من سنتين .. ولما لم يستطيعوا إخضاعها بقواتهم لجأوا إلى تحقيق بعض الأمنيات التي يطالب بها الشعب .. أعلنوا وحدة البلدان التي أقاموا منها دويلات هزيلة . . ولوّحوا بأسطورة الحكم الذاتي ، وبإجراء انتخابات حرة لوضع الدستور .. ثم إلى عقد معاهدة ، إلى غير ذلك من محاولاتهم الكاذبة التي ترمي إلى دوام سيطرتهم . . وتثبيت نفوذهم . . ولكن نضال الشعب الذي قادته « الكتلة الوطنية » حركاته — وكانت الكتلة الوطنية في سورية بمثابة « الوفد المصري » في مصر — أقول إن رجالات « الكتلة الوطنية » قد أحبطوا كل مؤامراتهم .. وما زال الشعب في نضاله ، وما زال في كفاحه ، إلى أن تم الجلاء في الساعة التاسعة من صباح ١٧ نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٦ في عهد شكري القوتلي الذي خاطب الشعب في ذلك اليوم بخطاب تاريخي استعرض فيه الأدوار التي مرّت بها البلاد السورية ومما قاله :

« هذا اليوم تشرق فيه شمس الحرية ساطعة على وطنكم ، فلا يخفق فيه إلا عبائكم ، ولا تعلو فيه إلا رايتكم .. هذا يوم الحق تدوّى فيه كلمته ، ويوم الاستقلال تتجلّى عزته . . يوم يرى الباطل فيه كيف تدول دولته ، وكيف تضمحل جولته . .

هذا يوم النصر العظيم . . والفتح المبين » .

ثم توجه بالتحية والتمجيد إلى أرواح الشهداء الأبرار ، الخالدين الأطهار ، « الذين غرسوا شجرة الاستقلال بيدهم ، وسقوها بكريم دمهم ، فغدت في هذا اليوم المبارك وارفة الظلال ، أصلها ثابت وفرعها في السماء .. أولئك الذين ماتوا ليحيا وطنهم ، قضوا لتبقى أممتهم ، هم أصحاب الفضل الأول ، وما يوم الاستقلال هذا إلا عيد الفداء ، ومهرجان الشهداء . . فسلام عليهم في عليين ، وتمجيد

لذكرهم في الخالدين » .

* * *

ونتساءل الآن ، بعد هذه اللحظة السريعة عن عهد الكفاح الدامي الذي استمر ربع قرن كاملا - نتساءل ماذا كان موقف الأدباء والشعراء ورجال الصحافة من هذه الأحداث ؟

أريد أن أسجل حقيقة بارزة . . وهي أن هذه الثورات التي نشبت قد أهاجت النفوس وأثارت قرائح الشعراء . . وهزت ضمائر الكتاب والصحفيين . .

* * *

فالشعراء قد عبروا عن أحاسيسهم وأحاسيس قومهم بقصائد تختلف في مضمونها وطريقة تعبيرها . . . منهم من لجأ إلى الرمز خشية بطش الغاصبين ، ومنهم من ألع وأبان عن قصده بوضوح ولكنه لم يستطع نشر شعره في الصحف الخاضعة لسيف الرقابة المصمت فتناقلته الألسن ووعته الصدور . .

فشفيق جبري في مقطوعته الشعرية « حنين العندليب » عمد إلى الرمز في تصوير حرمان السوريين من البوح بما في صدورهم :

| | |
|--------------------------|------------------------|
| دع العندليب على غصنه | يردّد على الغصن أحزانه |
| فلم أر في لحنه كلفة | تهجن إن ناح ألحانه |
| لئن دوّن الناس أشعارهم | لقد جعل الروض ديوانه |
| وإن قيّد الوزن أفكارهم | لقد أطلق الشدو أوزانه |
| كتمت الشجون عن العندليب | فراح يبتّك أشجاناه |
| وأخفيت عنه دموع الجفون | وقد بلّـل الدمع أجفانه |
| فهل شطّ عن وكره جاره | فأصبح يندب جيرانه |
| أم الباز أودى بخالّانه | فودّع بالنوح خالّانه |
| أم الريح هبّت بأفئانه | فزلزلت الريح أفئانه |
| فيا لك من ممعن في الحنين | ألم يشهد الناس إمعانه |
| أتبكي العنادل أوطانها | ولا يندب المرء أوطانه |

وحين ناجى الحرية في قصيدة ثانية - ناجاها بأسلوب رمزي . . فخطب

الدهر بدلاً من مخاطبة الفرنسيين مباشرة .. فكانت أبياتها غمزاً ولزاً وتقريراً :

هاج نسيم الريح لى أمرها بالله يا ريح ابعثي ذكرها
تجهز الدهر لإقلاقها ما حمدت فى ليلة دهرها

ومنها :

عشقها والله أدرى بنا ما مس صدرى فى الهوى صدرها
ظلل أكناف الحمى طيفها هنيهة ثم ابتغى هجرها

يشير إلى عهد الملك فيصل ، ثم يقول :

لا تخفضن يا دهر من قدرها كل كريم رافع قدرها
دحرتها والنفس فى إثرها خارجة ما احتملت دحرها
كم حائر طاحت به ضالة ثم اهتدى لما رأى بدرها

ومنها :

ومستبد راعه خطبها يجهد فى تهتيكه سترها
لئن طوى استبداده ليلها فما طوى عن مقلتي فجرها
حصرت يا دهر نفوس الورى فهل أطاقت مهجة حصرها
نجوت من ظلم ومن ظالم يا دهر إن يسرت لى أمرها

ثم يختمها بقوله :

إن تخرجوا الآساد فى غابها هيهات ما تكفيكم شرها

وخير الدين الزركلى يندب وطنه الذى آل أمره إلى قراصنة الاستعمار ،
فلا يعمد إلى الرمز بل يبين عن قصده بوضوح . . وقد كتب أكثر من قصيدة
وطنية ناثرة . . فن إحدى أغنياته الحزينة :

متى ترى تيسم لى ، يا زمان ألا حنان ؟
أسلمتنى لا أنس لى لا أمان للحدثان !
أبكى ربوعاً لا تطيق الهوان رهن امتهان

| | | |
|----------------------------|------|--------|
| أبكى دياراً خلقت للجمال | أبهى | مثال |
| أبكى تراث العز والعزّ غال | صعب | المنال |
| أبكى نفوساً قعدت للرجال | عن | النضال |
| أبكى جلال الملك كيف استحال | إلى | خيال |

ومنها :

| | |
|-----------------------------|------------|
| ضاعت بلادى . يا زمان الصغار | والاندثار |
| الناس يبنون وما فى الديار | غير الدمار |
| أما ترى الغرب تعلّى وطار | فوق البحار |
| وأمتى - هاوية فى انحدار | بشس القرار |

ثم يقول :

| | |
|----------------------------|----------------|
| يا زمن الشؤم ، سقيت الشآم | كأس الحمام |
| القبلتان اشتكتا والمقام | مما نسام |
| إلى متى نبقى أسارى انقسام | ونستضمام |
| مصر تناجيك . . ودار السلام | ملّ المقام . . |

وتتوالى صيحات الشعراء منذ تقوّض عرش فيصل إلى أيام الثورة الكبرى :
 إلى يوم الجلاء - صيحات انبعثت من أفئدة الشعراء وفى طليعتهم محمد البزم ،
 وخير الدين الزركلى ، وخليل مردم ، وشفيق جبرى ، ومحمد الفراتى ، وبدوى
 الجبل ، وعمر أبو ريشة ، وعمر يحيى وغيرهم . ويقول بدر الدين الحامد أحد
 شعراء حماة من قصيدة له فى يوم الجلاء ذاكرًا الماضى الأسود الذى مرّت
 به البه د :

| | |
|--------------------------------|------------------------------|
| هذا التراب دم بالدمع ممتزج | تهبّ منه على الأجدال أنسام |
| ست وعشرون مرت كلما فرغت | جام من اليأس صرفاً أترعت جام |
| لولا اليقين ولولا الله ما صبرت | على النوائب فى أحداثها الشام |
| يوم الجلاء هو الدنيا وزهرتها | لنا ابتهاج وللباغين إرغام |
| يا راقداً فى روابى ميسلون أفق | جلت فرنسا فما فى الدار هضام |

لقد ثأرنا وألقينا السواد وإن
لو فيصل عاد حيًّا بيننا فيرى
مرت على الليث أيام وأعوام
أن العلوج هنا في الشام ما داموا

* * *

«غورو» بجىء «صلاح الدين» منتقمًا
هذى الديار قبور الفاتحين فلا
مهلا فديناك أقدار وأيام
يغررك ما فتكوا فيها وما ضاموا
ثم يقول :

فيا فرنسا ارجعى بالحزى صاغرة ذكراك فى صفحة التاريخ آثام

وهكذا ، فإن الأحداث قد هزّت شعراء الشام فكتبوا قصائد تصف الشعور
العارم الذى يختلج فى ضمير الشعب ، كما وصفوا النقمة الصارخة على رسل
الانتداب ، ولا سيما حين نشبت الثورة التى لم يقتصر وصف لهيها المندلع على
شعراء سورية بل تعداه إلى شعراء الأقطار العربية . . فرأينا أمير الشعراء أحمد
شوقى يخص الثورة ، ويخصّ دمشق وبنى معروف وعلى رأسهم سلطان باشا
الأطرش بأكثر من قصيدة واحدة . . فى قصيدته - سلام من صبا بردى أرق :
يقول :

وقفتم بين موت أو حياة
وللأوطان فى دم كل حر
ومن يسقى ويشرب بالمنايا
ولا يبنى الممالك كالضحايا
ولا يذكى الحقوق ولا يحق
وفى الأسرى فدى لهم وعثى
وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق

وهذا يدل على أن التجاوب العربى حقيقة ساطعة وإن أنكرها المتشككون
الذين تدغدغهم وتخدّهم أكاذيب المستعمرين .

ورأينا شعراء المهجر ينظمون قصائد أو قذائف من جمر ، وقد وصف
الشاعر القروى بطولة سلطان الأطرش الذى نفخ فى بوق الثورة الكبرى - وصف
بطولته فى أكثر من قصيدة . . ولا سيما قصيدته التى يقول فى مطلعها :

خففت لنجدة العاني سريعا
 وحولك من بنى معروف جمع
 غضوباً لو رآك الليث ريعا
 بهم وبدونهم تفنى الجموعا
 والتي يقول فيها :

ولما صرت من مهج الأعادي
 وثبت إلى سنام « التنك » وثباً
 وكهربت البطاح بحد غضب
 كأن به إلى الإفرنك جوعا
 بحيث تذيقها السم النجيعا
 عجبياً علّم النسر الوقوعا
 بهرت به العدى فهووا ركوعا
 وسيفك مثل ضيفك لن يجوعا

* * *

فيا لك غارة لو لم تدعها
 ويالك « أطرشا » لما دعينا
 أعاديننا لكذبنا المديعا
 لشار كنت أسمعنا جميعا
 ومن قصائده :

فرنسة ليس في حوران لحم
 وهل لاقيت في حوران إلا
 طرقت ضياعها غدرًا فشعنا
 وكدت لأهلها بالسيف طوراً
 فكنت لثيمة حرباً وسلماً
 يسر بنيك يا أم الضباع
 مأسد خلتمها جهلا مراعي
 ضياع الأمن في تلك الضياع
 وطوراً بالسعاية والخذاع
 كلؤمك في الغرائز والطباع

ونقف عند هذا الحد من الإلماع ، وكل ما أردناه الإشارة العابرة إلى أثر
 الثورة الكبرى في نفوس الكتاب والشعراء ورجال الصحافة . . وتأثر الأدب بهذه
 التيارات التي أثارتهم للتعبير عن خوالج نفوسهم وخوالج قومهم .

* * *

وكانت الصحافة أداة صادقة للتعبير عن هيجان النفوس ورسم هذه الخلجات
 التي تجول في ضمير الأمة ، بل لعبت أكبر دور في تقويض سلطان الأجنبي ،
 فكانت بحق صوت الوطن المدوّى ولسانه الذرب المعبر . . وكانت المقالات
 الافتتاحية برغم سيف الرقابة المسلط ، شواظاً من نار ، كانت لا ترسم سياسة
 الوطن الذي ينشد حريته وسيادته فحسب بل كانت بإلهابها النفوس وبأسلوبها

النارى تقضّ مضاجع المحتلين متحملة فى سبيل مبدئها الكثير من الأهوال . .
 وكثيراً ما لقي الصحفيون العنف والإرهاب . . والنفى والاضطهاد . . وكثيراً
 ما حوربوا فى أرزاقهم ومعاشهم ، وشرّدوا عن أسرهم ووطنهم ، فلم يشتم كل
 ذلك عن أداء حق الوطن ، فصمدوا للأعاصير ، وقارعوا الأحداث ، وكافحوا
 بإباء وصبر وشمم . .

وكان لهذه الأحداث أثرها فى لغتهم وفى أسلوبهم . . وكان ذلك مدعاة
 لتطور لغة الصحافة التى كانت أداة اتصال مباشر بالجمهور . . ولعبت دورها
 الخطير فى ثقافته . . .

ونريد أن نقرر حقيقة وهى أن صحافة سورية كانت متجاوبة مع صحافة
 مصر . . أى كان للكفاح القومى فى مصر وسورية أثره فى لغة الصحافة التى
 أخذت تعبر عن المشاعر الوطنية والأحاسيس الملهمة الثائرة ، كما كان للخصومات
 التى ثارت بين الأحزاب أو - وهذا أدق - بين صحف الحاكمين وصحف
 المناضلين - كان لهذا أثره فى لغة الصحافة التى ارتقت عما كانت عليه فى
 عهد الأتراك . . فمرت وتطورت وأصبحت تعبر تعبيراً صادقاً عن شعور القوم
 ونزعاتهم التحررية . . وقد دخل ميدانها أدباء وشعراء وأساتذة جامعيون فكانت
 منبراً عالياً يتلاقى على منصته قادة الفكر وزعماء الحركة الوطنية .

* * *

هذه العوامل مجتمعة . . إلى التطور الذى دبّ فى اكل مرافق الحياة . . وإلى
 هذه البعثات التعليمية التى نهلت من علم الغرب - كل ذلك خلق فى سورية
 وعياً تقدمياً واسعاً . . وكان من البدهى أن يسير الأدب فى طريقه المتكامل . .
 وأن يكثر محصولنا من الأدباء والشعراء . . وأن يتجهوا اتجاهات مختلفة فى التعبير
 عن « ذاتهم » وعن « مجتمعهم » ، وعما يعانیه ووطنهم من أحداث .

* * *

هذا . وحديثى عن الصحافة كعامل كبير من عوامل تطور الحركة
 الفكرية يجرى إلى الحديث عن الصحافة الأدبية التى يرجع تاريخها فى سورية
 إلى نصف قرن تقريباً . . وقد رافقت البعث السياسى بكافة مراحله . . ولا أغالى

إذا قلت إن الصحافة الأدبية كانت من العوامل التي مهّدت للبعث القومي ، إذ لم يكن في الماضي القريب ثمة فرق بين الأدب والصحافة . . بل كانت الصحافة بيد الأدباء الذين يجبرون المقالات السياسية والاجتماعية والدراسات الأدبية . . وظلّ الحال هكذا ، إلى سنوات قريبة حيث أصبح الصحفي يعنى بالشئون التي تفرضها حوادث الساعة بينما يعنى الأديب بشئون الفكر — بالدراسات الأدبية والتاريخية دون الاهتمام بالمشاكل السياسية إلا ما كان متعلقاً بالنواحي القومية . . أى أن الصحافة قد انفصلت عن الأدب ، إلى حد ما . .

فتاريخ الصحافة الأدبية يبدأ في سورية بصدر مجلة « المقتبس » سنة ١٩٠٦ لمحمد كرد علي . . فهي أول مجلة صدرت في دمشق لتعنى بحركات الفكر . . ثم تحولت إلى جريدة سياسية . . وظهرت في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الكبرى عدة مجلات لم تعيش طويلاً . . ولكنها كانت سجلاً للتيارات الفكرية التي ترسم هواجس الأدباء والشعراء في تلك الفترة . .

ثم صدرت مجلة « المجمع العلمي العربي » ^(١) ، وقد جعلها الأستاذ محمد كرد علي ، كما ألمعت ، سجلاً صادقاً لمباحث الأكاديميين في اللغة وما يمتّ بصلة إلى ترقية اللغة العربية . . وما تزال تصدر ، وهي وفية لأداء هذه الرسالة .

وصدرت أيام الانتداب الفرنسي مجلة « الرابطة الأدبية » وكانت ذات نزعة حرة ، جعلت الأدب وسيلتها لرسم الخوارج القومية ، وهي لسان حال جمعية « الرابطة الأدبية » التي ضمت الأدباء والشعراء ليتباحثوا في شئون الأدب بعد غفوته الطويلة ، دعا إلى تأسيسها الأستاذ خليل مردم الذي رأى أن الأدب العربي في حاجة إلى نهضة توقظه من سباته ، وتبعث فيه روح النشاط . وقد ضاق الفرنسيون بالجمعية وبالمجلة معاً ، فلم يكد يصدر العدد التاسع من المجلة ، أى قبيل أن تم سنّتها الأولى ، حتى أصدروا أمراً بإغلاقها ، وانطفأت بإغلاق هذه المجلة شعلة أدبية كانت ترمي إلى البعث القومي عن طريق الأدب .

لقد كانت الصحافة الأدبية كالصحافة السياسية خاضعة للمراقبة في عهد الفرنسيين ، وكانت معرضة للتعطيل دائماً .

(١) أصبح اسمها الآن « مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق » .

وفي سنة ١٩٢٣ صدرت مجلة « الميزان » وهي مجلة أسبوعية أنشأها أحمد شاكر الكرمي ، وكانت صحيفة تعنى بالنقد والأدب ، التفت حول محرريها طائفة من الشباب المجددين الذين أخذوا على عاتقهم مجارة التيارات الفكرية الحديثة ، وتحطيم أصنام الأدب .. وقد ساروا على نفس النهج الذي سار عليه طه حسين والعقاد والمازني ، ولكنها لم تعش طويلاً ، فإن القدر لم يرأف بصاحبها الذي مات مصدوراً وهو في شرح شبابه فخرست الحياة الأدبية بموته ركناً من أعظم أركانها .. لست أريد أن أسرد أسماء الصحف الأدبية التي ظهرت في سورية ، بل أردت الإلماع إلى بدء نهضتها الفكرية .. فكانت الصحافة الأدبية من العوامل التي مهدت للمواهب الأدبية أن تلتهم . . .

وقد ظهرت خلال هذه الفترات صحف أدبية كثيرة .. منها المحافظة ، ومنها المستجيبة لنزعات التطور . وفي الفترة التي حمى فيها الصراع بين المجددين والقدماء في مصر صدرت مجلة « الحديث » تحمل رسالة التجديد^(١) ، فقبل صدورها من الطبقات الرجعية بكثير من الوجوم ، كما قبلت من الشباب المتوثب بكثير من الترحاب واعتبروها بداية مرحلة جديدة في مجارة التيارات الفكرية التي تبناها زعماء التجديد .

وأصدر الأستاذ خليل مردم ونفر من أصحابه مجلة « الثقافة » وكانت مرآة صادقة للثقافة العربية الحية ، تحرص على جمال الأدب القديم حرصها على روعة الأدب الحديث . . ولكنها لم تعش غير سنة واحدة . . ثم صدرت عدة صحف ومجلات أدبية كانت من العوامل القوية لدعم الحياة الفكرية في شتى ظواهرها ، يلتقي على صفحاتها الأدباء والشعراء ليعبروا عن شعورهم وشعور أمتهم ومجتمعهم . . وأمنيات وطنهم في النضال والكفاح . .

فالمدرسة والصحافة والمجمع العلمي العربي والجامعة السورية بمختلف كلياتها - إن كل ما صدر عن هذه البيئات الفكرية وما تفاعل في أجوائها هو

(١) أصدرت مجلة « الحديث » سنة ١٩٢٧ وظلت مستمرة في أداء رسالتها حتى عام ١٩٥٩ فصدر منها « ٣٢ » مجلداً ضمت أبحاثاً ودراسات لأكابر أدباء العالم العربي ، وتعتبر من المراجع الوثيقة للتيارات الفكرية المعاصرة خلال هذه الفترة ، وقد توقفت عن الصدور بعد أن ألغت الدولة امتيازات الصحف وتولت هي شؤون النشر .

الذى مهد للحياة الأدبية أن تسير سيرها الوئيد . . وأن تنمو وتزدهر مع الأيام .
وقد تطور الأدب مع تطور الحياة الفكرية ، وكان للأحداث السياسية
أثرها في هذا التطور . . .

* * *

ونرجع مرة ثانية إلى الماضي القريب نستشف من ظلاله سير الأدب ، بعد
أن أرخنا حياة الفكر خلال هذه الفترة الطويلة التي مرت بين سنة ١٨٥٠
وسنة ١٩٥٠ . .

كان الأدب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعيداً ، إلى حد ما ،
عن التيارات السياسية . كان يعيش في نطاق ضيق . . بعض قصائد ورسائل
يكتبها الأدباء والشعراء في أغراض محدودة . . وهى لون من أدب المحاكاة والتقليد
إلا من تحرر أدبه من قيود مدرسة أدب الانحطاط . . وكتب هواجسه
بالانطلاق ، وهؤلاء جدّ قلائل . .

فإذا خطونا إلى بداية إعلان الدستور رأينا الأدباء والشعراء يتحررون
بعض التحرر من قيود السجع ، ويعبرون عن فرحتهم بالدستور كعامل من
عوامل انطلاقهم من كابوس الاستبداد الذى يعيشون في كهوفه المظلمة وسراييه
العفنة الخائقة ، إلى جوّ تعبّق نسائته بفجر الحرية الباسم . وشعرهم ، كما قلنا ،
أمنيات ودعوات بطول عمر السلطان الذى منح الأمة هذه المنحة السنّية لتنهض
وتسير في طريق العزة والكرامة .

وكان رجال هذه الفترة يختلفون في مناهجهم ، كل واحد حسب نشأته
وثقافته . . وكانوا جميعهم ينشدون الإصلاح بشتى منازعه . . والإصلاح في
نظرهم أن نتبع سنن الأقدمين . . وبعضهم كان يرى الإصلاح في مجازاة
أوربا في سيرها ونظمها ومناهجها . . أى كان رجال تلك الفترة — والأدباء
منهم على الأخص — يتأرجحون بين الماضي والحاضر . . وكان للماضى سحره
في أديهم وفي تفكيرهم .

* * *

ثم تأتى الحرب العالمية الكبرى . . وإذا الشعراء — أريد أكثرهم — يعتمدون

شعر المدح والملق . . وإذا شعرهم أماديح في الطاغية التركي جمال باشا الذى صلب أحرار العرب . . .

وهذه وصمة في تاريخ الأدب ، تدلنا على أن شعراء تلك الفترة لا يجيدون إلا شعر المدح الذى تأثروا به خلال حياتهم الأدبية . . .

فالمبالغة في وصف الممدوح ، فاقت بتعابيرها ، أماديح المتنبي في سيف الدولة . . وشتان بين الممدوحين .. فهذا يمدح سيداً عربياً .. وأولئك يمدحون سفاكاً طورانياً يطيح بزعماء العرب . يقول شاعر من قصيدة طويلة يمدح بها جمال باشا :

| | |
|-----------------------------|--|
| لقد عزّ جيش كنت فيه رئيسه | وعزّت جموع كنت فيهن رائدا |
| فلم أر مثل اليوم أرفع همة | وأعظم آثاراً وأكثر حاشدا |
| وأظهر أخلاقاً ، وأصفى سريرة | وأنجب مولوداً ، وأكرم والدا |
| وقفت على عليك فيض قريحتي | ونفسي وفكري والقوافي الشواردا ^(١) |

وليت هذا الشاعر وقف قريحته ونفسه وفكره وقوافيه الشوارد على مدح بنى قومه ، أو رثاء شهداء العرب . . لا على التغنى بعلیاء سفاح العرب !

* * *

وكثيرون من الشعراء نهجوا هذا النهج من الأماديح الكاذبة . . وقليلون هم الذين قالوا شعراً ظل حبيس صدورهم . . أو عبثت به يد الضياع خشية أن ينم على نوازعهم القومية فيقودهم إلى الموت ، وقد قبعوا في بيوتهم يراقبون المآسى بقلوب جريحة . .

إذن ، كان الأدب حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، يدور في آفاق ضيقة . . أدب أماديح وأمنيات . . أدب تورية ومباسطات . . أدب جناس

(١) القصيدة لبدر الدين النعماني وكان «عثماني الهوى» تولى تحرير جريدة «الشرق» التي أمر بإصدارها جمال باشا في دمشق خلال الحرب لتدافع عن سياسته الهوجاء ، وقد أشرك في تحريرها الأمير شكيب أرسلان ومحمد كرد علي وعبد القادر المغربي واعتبروا عملهم لوئاً من «التقية» خشية بطش السفاح .

ومطابقة . . ليس عليه هذه المسحة المثالية والنزعة التحريرية . . وهو أبعد ما يكون عن أدب الحياة التي تحياها الأمة بشتى نوازعها . .
فما هو شأنه عقب الحرب ؟

يصف خليل مردم أدب تلك الفترة بقوله :

« أدبنا اليوم أشبه بمريض ألحّت عليه العلل والأمراض حتى أمضته . .
أما علاجه فهو لا يعدو أحد قسمين لا يجوز التفريق بينهما وإن اختلفا . .
تعهد جسمه الناحل الضاوى بالتقوية . . والثانى : نفي الأضرار التي علقت
ببدنه . . وكان منها بؤرة جراثيم خارت لها عزائم . . فعلى من يتصدى لمعالجته
أن يكون بانياً وهادماً . . وطبيباً وجزاراً . . ونعنى هدم ما تدعى من الفاسد ،
وبناء الصالح مع حيطة المتين منه » . .

هذا الأدب المريض الذى ألحّت عليه العلل كان يتطلع إلى طبيبه الحاذق . .
وكان « المجمع العلمى العربى » يضم الكثير من الأطباء . . ولكنهم كانوا
يحاولون إنقاذ علته بطب ابن سينا لا بطب باستور مثلاً . . أى كانت مهمته
مقتصرة على صون اللغة وإنقاذها من الميوعة والعجمة . . وقد أدى واجبه فى هذا
المضمار ولم يستطع أن يخطو أى خطوة فى تطوير الأدب . . وتطلع الشباب إلى
مصر وأدبائها . . وإلى المهجر وشعرائه . . وإذا هم إزاء ألوان حية ، وأصدقاء
متنافرة تجمع بين النزعات القديمة والنزعات الحديثة . . بين الأدب الوجدانى . .
والأدب الكلاسيكى . . وأثيرت مشكلة أطلق عليها مشكلة « الأدب القديم »
و « الأدب الحديث » أثارها الأدباء المصريون بقوة وعنف — هذه المشكلة التى
استمرت فترة طويلة زادت على العشرين سنة إلى أن انتهت عند هذه الناحية التى
اعتبرها أنصار القديم — سواء فى ميادين الأدب أو فى ميادين الفكر — الأساس
لصون دعائم التراث وهو عدم التحول عن الماضى . . حسبهم من الأدب تقليد
ما أنتجه الأدباء والشعراء فى العصرين الأموى والعباسى . . فهم مثلهم الأعلى فى
الأدب . . بينا أنصار الأدب الحديث قد اتجهوا اتجاهاً يختلف كل الاختلاف
عن مذاهب خصومهم . . فقيمة الأدب عندهم فى الإبداع لا فى التقليد . . وفى
المعنى قبل المبنى . . وفى أن يقترب أدبنا من الآداب الحية لا أن يظل فى
عزله . .

كان مصطفى صادق الرافعي على رأس أنصار الأدب القديم . . وكان طه حسين على رأس أنصار الأدب الحديث . . وقد وقعت بينهما خصومات أدبية عنيفة . . ومع اختلافهما في المنهج كانا يتشددان في الحرص على سلامة اللغة (١) . .

وقد كان لهذه الخصومات التي دامت طويلاً أثرها في أدباء سورية . . منهم من انحاز إلى الرافعي وقال بالمذهب القديم . . ومنهم من تابع طه حسين وسار على نهجه . . وهم الكثير . . وكان لنهجه المدرسي في الأدب أثره لا في عقول الشباب فحسب بل حتى في نفوس وعقول الأساتذة الجامعيين . . ومنهم من اعتصم في برج منعزل يرقب هذه المعارك بهدوء وحذر ، غير منساق وراء تيارات الخصومة ، يكون ثقافته الأدبية من أدبنا القديم ، ومن ثقافة الغرب وأدبه . .



أخذ الأدب خلال هذه الفترات التي مرت بين الحربين العالميتين ينمو ويتطور . . وقد اتجه اتجاهًا قوميًا يعبر عن أحاسيس الوطن وشعور الأمة ووجدانها . . ويتغنى بماضى العرب وزهو حضارتهم . . وكان للترجمة — أريد ترجمة روائع الأدب العالمي — أثرها في التفكير . . كما كان للأدباء الشباب الذين اغترفوا من جامعات الغرب ودرسوا أدب الغرب أثرهم في تلقيح أدبنا ونموه . .

وككل حركة جديدة لابد لها من أن تأخذ طريقها للسير إلى الأمام ومجاراة

(١) كان الأستاذ الرافعي يزعم أن المذهب الجديد في الأدب ليس في حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي ، وقوة في اللغة والأدب الأجنبي . . وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد إنما هم قوم أضاعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم وأخذوا بنصيب موفور من لغة الإفرنج وآدابهم . . وقد رد طه حسين عليه بقوله : إن الأستاذ الرافعي أخطأ فهم ما يكتب أنصار الجديد . . فبعض أنصار الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لأبأس به . . وإن قوتهم في اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها . . فالأدب الجديد ليس قائماً على جهل أو ضعف أو تعصب وإنما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله — قائم على الفهم قبل كل شيء . . إن أنصار المذهب الجديد يريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة . يريدون أن يفهموا الناس ، يعيشون مع الجيل الذي هم فيه دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

المذاهب الأدبية الجديدة - أخذت الحركة الأدبية في سورية لونها الجديد ،
وهي تختلف كل الاختلاف عن الاتجاهات السابقة . . شعرنا أننا إزاء جيل
جديد من الشباب يفهم الأدب بمقاييسه الصحيحة . . لم يعد همّ الشاعر المحاكاة
بل همه أن يصوّر خلجات نفسه وهجسات قومه . . أن يصدق في التعبير ، وأن
يعطينا شعراً يمتاز بصفاء الديباجة وموسيقية اللفظ ووحدة القصيدة ، يضاف
إلى ذلك جمال الصورة وعمق الفكرة . .

شعراء يصورون عواطفهم ، ويصورون الأحداث التي تنتاب وطنهم .
وهذه الفئة تأثرت إلى حد كبير بالآداب الغربية . . وبالحياة الأوروبية . .
وبهذه المقاييس الأدبية التي رسمها زعماء التجديد في مصر . .

* * *

وبادرة ثانية نستطيع أن نشير إليها بإعجاب وهي « القصة » . . وقد حاولها
أدباء الشباب بجرأة ولباقة . . كتبوا أقاصيص تصور المحيط والبيئة ، ورسوموا
أخلاق الناس وطباعهم . . وما يقاسيه المجتمع من بؤس وشقاء . . فصدرت
طائفة من الأقاصيص والروايات تمتاز ببعدها عن المبالغات والتحويل . . وترسم
النماذج البشرية والصور الإنسانية التي تطفو على وجه الحياة بنزعة فنية صحيحة
وشعور حي .

* * *

لقد كان معروف الأرنؤوط أول من حاول كتابة الرواية التاريخية الطويلة
فكتب رواية « سيد قريش » و « عمر بن الخطاب » و « طارق بن زياد »
و « فاطمة البتول » وتبعه فؤاد الشايب برواية « تاريخ جرح » ثم الدكتور شكيب
الجابري بروايات « نهم » و « قدر يلهو » و « قوس قزح » أما القصة القصيرة
فعالجها الدكتور عبد السلام العجيلي ووداد السكاكيني . . ومظفر سلطان ،
وألفة أدلبي ، ومطاع الصفدي ، وغيرهم من الشباب الذين تأثروا بالقصص
الغربي فأخذوا يصورون بيئاتهم ومجتمعهم بأسلوب قصصي شائق . .

وبالرغم من ذلك فما يزال الفن القصصي عندنا في بدايته . . ولما تصدر بعد
روايات طويلة تصور مجتمعا وتكون مادة يستطيع المؤرخ الأدبي أن يجعلها

موضوع دراسة ونقد . . وكل ما نستطيع قوله أن النزعة القصصية ، وقد خطت في مصر خطواتها الكبرى — قد لامست ضمائر الكتاب الشباب فأخذوا يحاولونها بحذق محاولة طيبة ولكنها ما تزال في بداية الطريق ..

* * *

نخلص من هذا الاستطراد الطويل إلى أن الأدب في سورية كان في النصف الأول من القرن التاسع عشر محدود النطاق . . يعيش في الآفاق الضيقة : مقالات وقصائد في المناسبات الطارئة .. وقد لا يمت إلى المجتمع بأية صلة إلا من استطاع أن يتحرر وينطلق . . وهؤلاء قليلون منهم الكواكبي وأديب إسحق ، وفرانسيس مراش وجبرائيل دلال ورفيق العظم .

ثم جاءت مدرسة كرد على الفكرية التي نشأ في ظلالها أدباء وشعراء في طليعتهم محمد البزم وخير الدين الزركلي وخليل مردم وشفيق جبري ومعروف الأرنؤوط وجميل صليبا وكامل عياد . . وكان أدبهم المنظوم والمنثور يتميز بجزالة الأسلوب وقوة المعنى ، وقد اتجه ، حتى في البحوث الفكرية ، اتجاهاً تفرق بين سطوره النزعات القومية ، إلى اتصاله بأدبنا القديم وبحضارة العرب في أزهى عصورها .

وفي ظلال هذه الفئة نشأ شعراء توالى تفاعلهم مع مجتمعاتهم وترديدتهم هذه الأهازيج التي ينبض بها عهد النضال — اتخذ أكثرهم الرومانسية مادة للتعبير عن منازعاتهم الذاتية ، في طليعتهم عمر أبو ريشة وعمر يحيى وبدر الدين الحامد وأنور العطار ونديم محمد وزكى المحاسنى ورضا صافي ورفيق فاخوري وسليمان العيسى وشارل الحورى . .

ونذكر من الأدباء منير العجلاني وأحمد الطرابلسي وصلاح المنجد وعلى الطنطاوي وسامى الدهان ومحمد روجى فيصل وغيرهم وغيرهم .

ثم كانت الفترة التي بدأت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى يومنا هذا ، فعرف الأدب السوري انطلاقات جديدة في معالجة حياتنا الفكرية وتفهم ألوان الأدب على اختلاف مذاهبه ، في طليعتهم عبد الله عبد الدائم وشاكر مصطفى وعمر النصّ وسامى الدروني ونزار قباني . وغيرهم وغيرهم . .

وفي إلماعى إلى بعض الأسماء أردت أن أرمز رمزاً ، إذ لا مجال لسرد أسماء جميع

الأدباء الذين يتكوّن من إنتاجهم « الأدب السوري » خلال هذه الفترة الطويلة .
وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم المراحل التي مرّت بها الحياة الأدبية خلال
المائة سنة المنصرمة إلى ثلاث مراحل :

- ١ - الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى (١٨٥٠ - ١٩١٤) .
- ٢ - الفترة التي مرّت بين الحربين العالميتين (١٩١٩ - ١٩٣٩) .
- ٣ - الفترة التي نعيش في ظلّها منذ سنة ١٩٤٠ إلى يومنا هذا . .

وقد سار الأدب في الفترة الأولى في طور محدود من التأمّلات الذاتية
والصّيحات القومية . . وإذ كان السجع هو المسيطر على طبيعة الأدباء آنئذ
فقد تمشت الركافة في أدبهم . . وكأنه قد شدّ إلى أدب عصر الانحطاط
بأمراس متينة إلا من استطاع أن يفك تلك الأقمطة ويثور على قيود السجع
والمحسنات البديعية ، ونستطيع أن نقول إن الأدب في تلك الفترة كان يتمخض
عن ولادة عسيرة إذ كان يتسم بطابع السجع المتكلف الذي يحاكي أسلوب
المقامات .

كانت الآراء التي تدعو للثورة والتحرر والانطلاق وبذر بذور الحرية
ومكافحة السلطان الجائر - كانت هذه الآراء تجيش بالصدور فيعبر عنها
الأدباء بلغة قاموسية ، وكانوا يعانون الأمرين لإلباس تلك المعاني صوراً قشبية
غير بعيدة عن ذوق القارئ وفهمه . .

أما في الفترة الثانية فقد تطورت الحياة الأدبية تطوراً ملموساً . . قطع الأدباء
صلتهم بفن السجع ومحسنات البديع . . وكان لتطور الدراسات الأدبية وكثرة
الاتصال بالغرب وبمدارسه وترجمة روائع كبار الأدباء . . والرجوع بالأساليب
إلى جزالتها المشرقة . . ثم هذه البواعث القومية التي أثارت الأمة العربية فاستيقظت
بعد غفوتها الطويلة . . وما رافق نضال الوطن السوري من ثورات دامية أثارت
الكتاب والشعراء للتعبير عن نوازعهم والتفاعل مع الأحداث وتصويرها - كان
لجميع هذه العوامل أثرها في تطور فكرة الأدب فتعددت منازعه وتطورت
أساليبه فلم يعد مقالة وقصيدة فحسب بل دخل الكثير من آفاق الفكر وأغوار

النفس ومجاهل العلم وشتى ميادين الحياة . . وكان أداة صادقة للتعبير عن المنازع والأحاسيس والأفكار . .

أما الفترة الأخيرة التي جاءت بعد الحرب العالمية الثانية والتي يعيش في ظلها صفوة من الشباب درسوا الأدب بمفاهيمه الصحيحة — فإن أدباء هذه الفترة قد تحرروا أو كادوا من المحاكاة والتقليد وأطلقوا لأنفسهم الحرية للتعبير عن كل خالجة من خوالج الحياة والمجتمع .

ولا أريد التوسع في هذه الناحية ، فحسبي أن أقول إن مفهوم الأدب عند أدباء هذه الفترة يختلف كل الاختلاف عن مفهومه عند أدباء الفترتين الأوليين . . إن جيلاً جديداً قد ولد في عهد نستطيع أن نطلق عليه بدء عهد ازدهار الأدب العربي .

نشأ أفراداه بعد أن قرعوا كثيراً ، وامتلات نفوسهم بالصور الحية من الأدب العالمي . . تفاعلوا مع مجتمعاتهم وعبروا التعبير الصادق عن تجارب أمتهن ومواطنيهم ولاسيما في كارثة فلسطين . . وثورة الجزائر . . ونضال بورسعيد إثر العدوان (الإنكلو - فرنسي - الإسرائيلي) على مصر . . إلى تعبيرهم عن تجارب ذاتهم في شتى ألوانها . . ورأينا في آثار بعضهم صوراً مشرقة من القيم الفنية والقيم الجمالية ، وقد ثار بعضهم على قيود الأدب الكلاسيكي منطلقين أبعد ما يكونون عن الموضوعات التجريدية والوجدانيات الحاملة . هدفهم أن يصوروا الروح الجديدة التي تتمثل فيها اليقظة والعمل والكفاح - كفاح أمتهن ونضالها المرير .

قلت إن أدباء هذه الفترة وقد تجاوبوا مع مجتمعاتهم والمجتمع العربي بشتى أقطاره . ثاروا أو ثار أكثرهم على قيود الأدب الكلاسيكي وآثروا الانطلاق . . ففي الشعر مثلاً آمنوا بنظرية الشعر الحر غير المقيد . . وهو في نظرهم أصعب ألوان الفن ، لأنه « لا يعتمد كالشعر القديم على الإيقاع والتناسب وتوازن أجزاء البيت والألعايب البلاغية . . إنه كصور - بيكاسو - تأخذ جمالها من انعدام النسب واضطراب الخطوط وتداخل الظلال وموت المسافات في بعضها . . » .

وهذا الاتجاه الذي ألزم نزار القباني نفسه به في الدفاع عن نظرية الشعر

الحر يمثل رأى شعراء الشباب أصدق تصوير . . وهو رأى قد لا يقره عليه الكثيرون . . ولكنه لون يعالجه أكثر من شاعر . . ويقول به أكثر من أديب في سورية بل في أكثر الأقطار العربية . .

وليس معنى هذا أن شعراء الشباب ثاروا كلهم على الأوزان التقليدية . . وعلى الأساليب القديمة ، ولكن شعرهم بمضمونه وبتعبيره يختلف عن شعر من سبقهم من الأدباء .

والظاهرة الجديدة في الشعر السوري الجديد أنك تلمس في شعر بعض الشعراء « نزعة إنسانية عميقة تستقي تارة من الوجدانات الرومانتيكية وأخرى من المبادئ السياسية ، وثالثة من النكبات القومية ، ولكنها تلتقي دوماً عند منهل واحد هو الشعور بكرامة الإنسان » .

وأقف عند هذا الحد لأقول في ختام هذا البحث إن تطورنا الفكري الذى لامس حياتنا في شتى مظاهرها قد انعكست أضواؤه على أذواق الشعراء ووجدان الكتاب فكانت نهضة أدبية مباركة . . وإذا طائفة من الأدباء والشعراء يرجعون إلى ذاتهم . . إلى طبيعة بلادهم . . إلى نضال الشعب وكفاحه . . إلى ما يحسه الإنسان من مشاعر إنسانية . . يشاركون مشاركة قوية في بناء أسس الحياة الأدبية بما ينشرونه من دراسات . . وما يلقونه من محاضرات . . وما يؤلفون من كتب . . وما يترجمون من روائع أدب الغرب . . وقد حرصوا جميعهم أن يكون حاضرننا موصول الآماد بماضينا الذهبي ، وأن يخلقوا من هذه الصلة بتاريخ العقلية العربية مستقبلاً زاهراً يعيد ما كان للعرب في تاريخهم الطويل من الدور الخطير الذى لعبوه في تاريخ العقل الإنسانى . .

ولا علينا أن نقول إن أدبنا المعاصر وقد أصبح له كيانه المتميز ، ما زال يستمد قوته من هذه الينابيع :

١ - من الأدب العربى القديم .

٢ - من أدب الأمم الحية .

٣ - من الذات السورية .

٤ - من طبيعة الأرض .

٥ - من كفاح الشعب ونضاله في سبيل سيادته وسيادة العرب وحريتهم .

* * *

هذا ، وأكتفى في هذه المقدمة ، بهذه الخطوط العامة عن مجرى حياتنا الأدبية خلال هذه الفترة الطويلة .. وقد ترجمت للأدباء والشعراء ترجمة لا أقول إنها وافية . . فهي « تعريف » بملامح الأدباء و « إلماع » إلى آثارهم أكثر منها دراسة شاملة . . إذ الغاية من هذا الكتاب إعطاء صورة مجملة عن سيرة أدبائنا ، ولو ذهبت أجعل من كل أديب وكل شاعر مادة للدرس لبلغت صفحات هذا الكتاب الألف . وما لهذا كتبت هذه السلسلة . . ومن جهة ثانية فإن أكثر أدبائنا الأحياء لم ينشروا آثارهم .. وما نشره من كتب ودواوين لا يعطى الصورة الصادقة عما فاضت به قرائحهم وخطته يراعتهم . . ومع ذلك فقد حرصت أن ألم إلمامة واسعة بإنتاجهم الأدبي ، وأن أعطي نماذج من منظومهم ومنثورهم . . واضطرت أن أهمل الإشارة إلى البعض . . وإلى بعض أدباء الشباب . . وعذري أنهم ما زالوا في أول تفتحهم وانطلاقهم . . وأن لإنتاجهم الموزع في الصحف والمجلات لما ينتظمه كتاب .. وما نشره من بواكير إنتاجهم لا يعطى الصورة الصادقة لأدب نرجو أن يتكامل . .

وإني لأرجو أن أعود إلى هؤلاء وإلى من أهملت الإشارة إلى ذكرهم من الكهول والشيوخ في الجزء الثاني من هذا الكتاب . والله الموفق . .

رزق الله حسنون

١٨٨٠ - ١٨٢٥

تميز القرن التاسع عشر في شرقنا العربي بظهور فطاحل من رجالات الفكر ساهموا مساهمة فعالة في التمهيد لهذه النهضة التي يقطف ثمارها أبناء الجيل الحاضر.. أظهرهم : جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، بطرس البستاني ، رفاعة الطهطاوى ، أحمد فارس الشدياق ، الشيخ ناصيف اليازجى ، عبد الله نديم ، أديب إسحق ، وغيرهم من رجالات الفكر في البلاد العربية . .

من هؤلاء الأعلام رزق الله حسنون الصحفي الأديب الشاعر الذى مرت حياته بألوان مختلفة من الصراع .

فقد نشأ في حلب ، وهو من أصل أرمنى ، ولم يكد يتم دراسته الابتدائية حتى سافر إلى لبنان حيث انتسب إلى « دير بزمار » في جهات كسروان فدرس العلوم اللاهوتية واللغات الإفرنسية والعربية ، والعلوم الرياضية ، وكان بحكم نشأته يعرف الأرمنية والتركية .

وبرهن في فترة الدراسة على تفوق ملحوظ . . . وتعلق منذ صغره بنظم الشعر . . . ويحدثنا معاصروه أنه نظم بعض الأبيات وهو في الثالثة عشرة من عمره . .

* * *

بعد أن أتم دراسته الثانوية في لبنان عاد إلى حلب ليعمل مترجماً في القنصلية النمساوية . . . وبعد بضع سنوات سافر إلى باريس ولندن ف قضى في ربوعهما فترة غير قليلة كان يتردد خلالها على المتاحف والجامعات ودور الكتب ويعبّ ، ما شاء له شبابه . من حياة الليل في ملاهيها ومسارحها . . ولم يترك مظهراً من مظاهر المدنية الحديثة في أوروبا إلا اطلع عليه . . .

وحين أنهى تطوافه في أوروبا عرّج إلى مصر حيث مكث فيها فترة استنسخ خلالها الكثير من المخطوطات . .

ومن مصر إلى الآستانة حيث تعرف على الكثيرين من رجالات الشرق والغرب . .

وبينما هو في إستانبول نشبت حرب القرم بين الروم والدولة العثمانية ورأى أن يصدر جريدة عربية في قلب عاصمة الدولة ، فأصدر جريدة « مرآة الأحوال » ويقول المؤرخون إنها أول جريدة عربية صدرت في الآستانة .
وأخذ رزق الله حسون يدبج المقالات السياسية عن هذه الحرب وعواملها وخفاياها وما يكمن وراءها من أسرار . . .

فلمع اسمه بعد إصدار هذه الجريدة ، وتوثقت صلاته مع مختلف الهيئات السياسية ، ومع رجالات الدولة بصورة خاصة .
وحين نشبت حوادث سنة ١٨٦٠ في سورية انتدبت الدولة وزير خارجيتها السياسي الكبير فؤاد باشا لإخماد الفتنة وإصلاح ذات البين والحيلولة دون تدخل الدول الأجنبية . . .

فكان رزق الله حسون من الأشخاص الذين اصطحبهم معه ليقوم بتعريب الأوامر والبلاغات .

وفي دمشق اتصل بالأمير عبد القادر الجزائري ومدحه بعدة قصائد كان لها وقعها عند الأمير الشجاع الذي قارع الاستعمار في بلاده مدة طويلة . .
وحين رجع فؤاد باشا إلى الآستانة ليتقلد منصب الصدارة العظمى سنة ١٨٦١ — أى رئاسة الوزراء — رجع معه رزق الله حسون . .

وقد اعتمده كسكرتير خاص لتحرير مراسلاته الأجنبية وكتابة المذكرات السياسية . .
وحين سافر إلى لندن لتمثيل الدولة العثمانية في افتتاح معرضها الكبير صحبه معه أيضاً وقد أولاه الكثير من ثقته . .

وبعد عودتهما من لندن أسند إليه نظارة جمارك التبغ فلم يلبث فيها طويلاً . .
واتهم بمدّ يده إلى وارداتها واستيلائه على مبالغ ضخمة فكفت يده وزجّ في السجن .

وأرسل من السجن عدة قصائد استعطاف إلى فؤاد باشا عبر فيها عن آلامه وبراءته وندد بأعدائه الذين وشوا به هذه الوشاية السافلة للحط من كرامته . .

وبما قاله في إحدى قصائده :

أعبدك الله أن تميل إلى . . . مقال واش يسعى على دخل
وكيف تأخذني بإغراء ذي . . . فقد يكشر بالعداوة لي
أشبه خلقاً بالذئب مفترساً . . . طار اسمه في الأذى مع المثل
لولا البنون وما أحاذره . . . ضيماً يلم بهم على عجل
ما كنت أضرع أن تحولني . . . عن مقعد الذل ليس عن زلي

ولكن قصائده ورسائله لم تجده نفعاً فلجأ إلى وسيلة أخرى للخلاص من
نكبته - إلى ما فعله الشاعر ابن زيدون ، حين زج في أعماق السجن .
لقد فر . . . وأخذ طريقه إلى روسيا . . .

* * *

وفي روسيا .. - في بلاد القياصرة - أطلق لسانه ينقد الحكومة العثمانية
نقداً مرّاً .

ويحدثنا المستشرق الروسي العظيم كراتشوفسكى حديثاً طريفاً عن رزق الله
حسنون في كتابه « مع المخطوطات العربية » فيقول :

« . . . اليوم أحضر بيتشكوف مخطوطاً عجيباً ، وإني لشديد الرغبة في
أن أفهم بعمق موضوع علاقات العرب مع الشعوب المغلوبة في البلاد التي استولوا
عليها . وأريد أن أفهم الروابط بين المسلمين والمسيحيين ، وأن أستوضح مسألة
انتشار اللغة العربية في سوريا ، ونظرت في فهرس المكتبة فوجدت إشارة إلى
إنجيل غير معروف مكتوب باللغة العربية ، وسألت بيتشكوف أن يحضره فأحضر
بدلاً من ذلك ورقة واحدة كبيرة مجوّفة تملأ الورقة كلها ، وفي تجويف حروف
هاتين الكلمتين حروف كثيرة وسطور كثيرة ، وهاتان الكلمتان هما "ألكسندر
نيقولا يفيتش" . فاعتراى بادئ الأمر جمود العجب والدهشة ، وحين أمعنت
النظر إلى هذه السطور رأيت أنها من حروف عربية صغيرة ، وفي هذه السطور
في تلك الكلمتين كتب كل الإنجيل بلغة عربية . وسألت نفسي : "وأيّة علاقة
بهذا لألكسندر نيقولا يفيتش بالذات ؟ " . ولكن عندما عرفت بعد ذلك من
تقرير المكتبة أن هذا المخطوط جاء إلى المكتبة سنة ١٨٦٨ من رزق الله حسنون

فهمت كل شيء . وبسرعة تجمعت في ذهني خطوط هذا الرجل العجيب الذي كان خطاطاً وسياسياً وشاعراً ومغامراً ، وقد كان هذا الرجل قوميّاً عربياً فخاف على حياته وهرب من تركيا إلى روسيا عبر بلاد القفقاس . وما كان ذلك ، على ما يبدو ، بدون مساعدة من دبلوماسي روسي في القسطنطينية هو الجنرال بوغوسلافسكي الذي كان من قبل الزعيم الأواري شامل عندما نفوه إلى مدينة كالوغا . وكان حسون قد قضى عدة أعوام في بطرسبورغ وحاول أثناءها في بساطة أو سذاجة أن يحصل على مساعدة القيصر ألكسندر الثاني في تأسيس دولة عربية مستقلة ، وفي سبيل ذلك ، على ما يبدو أهدى هذا المخطوط الذي هو عبارة عن طرفة فنية خطية .

وعندما دبّ إليه اليأس والقنوط في محاولته تلك ، رحل حسون إلى إنجلترا وهناك استخدم الهجاء اللاذع وكلماته الملتهية في الكفاح ضدّ السلطان التركي والحزب الموالي لتركيا من العرب » .

وقال : « وقد كان حسون محبّاً للأدب وعالماً به ، وقد زينت الكتب التي كتبها بخطه الجميل خزائن المخطوطات المختلفة وتجدّها ببيروت وحلب ولندن ، وقد لقي حسون في بلاد الروس كثيراً من كرم الضيافة مما هزّ شاعريته فنظم في مدحهم بضع قصائد كانت في الواقع شعراً ساذجاً إلا أنها صادرة من قلبه ، وكذلك قام حسون بترجمة أصيلة جداً لبعض أشعار الحكمة التي نظمها كربلوف الشاعر الروسي ونقلها من الروسية إلى العربية » (١) .

* * *

بعد أن مكث فترة طويلة في روسيا شدّ الرحال إلى إنكلترا واتخذ لندن مقاماً له حيث استأنف إصدار جريدته « مرآة الأحوال » وجعلها منبراً حرّاً للتنديد بسياسة الحكومة العثمانية . . .

* * *

وإذ كانت بينه وبين الشيخ أحمد فارس الشدياق خصومات أدبية عنيفة فقد أصدر إلى جانب جريدته نشرة أدبية بعنوان « رجوم وغساق إلى فارس

الشدياق » . . لم يصدر منها غير عددين كل عدد فى ١٤ صفحة وكان ذلك سنة ١٨٦٨ . . .

ثم أوقفها كما أوقف جريدته ، فأصدر عام ١٨٧٦ مجلة نصف شهرية عنوانها « حل المسألتين الشرقية والغربية » .
والغريب أنه بحث هذه القضايا السياسية الشائكة بلغة الشعر .

* * *

حين فشل رزق الله حسون فى عالم السياسة وملتوياتها لجأ إلى حياة الفكر —
أى إلى عالم الأدب وأفقه الواسع الرحاب . . .

عنى بالمخطوطات التى تحتويها مكتبة لندن فنسخ أكثر من عشرين مخطوطة أهمها ديوان الأخطل وديوان ذى الرمة ونقائض جرير والفرزدق وصبح الأعشى والمتنم لابن درستويه والأناجيل المقدسة ترجمة أبى الغيث الدبسى وديوان حاتم الطائى الذى تولى طبعه ، عدا الكثير من المخطوطات نقلها من مكتبات روسيا وفرنسا وإنكلترا وألمانيا وهولندا . .

وهكذا ، فقد اتخذ إنكلترا موطناً ثانياً ففضى فى ظلال ربوعها بقية حياته . . يكتب ويؤلف ويعلم . . وقد تتلمذ عليه كثيرون . . ومن المستشرقين الذين تتلمذوا عليه وأفادوا من علمه وأدبه « إدور هنرى بالمر » الذى عرف فى دوائر الاستشراق باسم الشيخ عبد الله والذى حذق اللهجات العربية ونظم الشعر العربى وقام برحلة إلى صحراء سيناء فلقى حتفه على يد بعض الأعراب الذين ارتابوا فى نياته وشكوا فى عوامل رحلته فقتلوه . . كما آزر بدجر Budger على وضعه معجمه العربى الإنكليزى وكتب له مقدمة بالعربية .

هذا الصحفي الأديب الشاعر الذى عاش أخريات أيامه فى لندن بعد أن حرم من العودة إلى وطنه حلب — رأى أن الاشتغال بالأدب هو خير ما يشغل به نفسه . أى تغلب على فراق الأهل ونأى الوطن بنشر المخطوطات وتحقيق الدواوين وكتب الأمثال ونظم الشعر . . فقد نظم بعض هواجسه بشعر كان لنا منه ديوانان . .

أحدهما : « أشعر الشعر » . .

والثانى : « النفثات » . .

ففى ديوانه « أشعر الشعر » رجع إلى بعض قصص التوراة ينظمها ويختار ما له صلة باللوعة والكمد . . وبالخزن والوجيب والألم . . أى بالحياة التى عاشها . . ولم يجد ما يعبر عن هواجسه غير شعر أيوب . . فاختار اثنين وأربعين فصلاً من سفر أيوب نظمها شعراً . . كما اختار فصلاً من نشيد موسى فى الخروج وآخر من نشيده فى التثنية ، وثمانية فصول من نشيد الإنشاد لسليمان ، واثنى عشر فصلاً من الجامعة . . وخمسة من مرثى أرميا . .

ولا شك أن الأدباء يقدرّون الجهد الذى يلاقيه الشاعر فى نقل تلك القصص إلى الشعر . . وهو جهد مضمّن . . ولكن ثقة رزق الله حسون بنفسه والآلام التى تحملها دفعته أن يركب هذا المركب الحشن لينفّس عن صدره بعض هواجسه وآلامه المكبوتة . .

وقد أشار فى مقدمة الديوان إلى صعوبة هذه المحاولة التى أقدم عليها فقال : « أجمع فضلاء المغرب الذين استمازوا بالبلاغة بالحق ، على أن أيوب وهوميروس وشكسبير أشعر الخلق . .

واصطفقت آراء الأكثرين على تفضيل أيوب إجادة وله سبق . . فلما اتخذت سفر أيوب أيام النكبة الممتدة - سميّاً ، نظمته قريضاً ، ولم أر له فى آثار السالفين نظيراً ، سمّيته "أشعر الشعر" اتباعاً لفضلاء المغرب رأياً ومقالاً مأثوراً . .

ونلاحظ أن الشاعر قد التزم فى مقدمته السجع - لغة الأدباء فى ذلك العصر ، ويبدو الجهد الذى عاناه فى نظم هذه الفصول من أسفار أيوب بالشعر . .

* * *

وقد خانتة القافية فى أحد الفصول فنظمه على طريقة الشعر المرسل ، ومن رأيه « أن الشعر نظم موزون ، ولا تشترط القافية إلا لتحسينه . . فقد كان الشعر شعراً قبل أن تعرف القافية ، كما هو عند سائر الأمم ، ولم يسمع للعرب سبعة أبيات على قافية واحدة قبل امرئ القيس لأنه أول من أحكم قوافيها » .

ليس في شعر الديوان هذه الطلاوة التي نجدها في شعرنا المعاصر مثلاً . .
ولا تلك القوة والجزالة التي نجدها في الشعر القديم . . ومع هذا فلا نستطيع
أن ننكر عليه جهده في نقل قصص ديني مستوحى من التوراة إلى لغة الشعر . .
ولا سيما وقد كانت اللغة العربية في بدء تحررها من أقمطة عصور
الانحطاط .

* * *

وقبل صدور ديوانه هذا « أشعر الشعر » الذي أتم نظمته في قرية « وندسور »
إحدى قرى لندن سنة ١٨٦٧ كان قد طبع ديوانه « النفثات » في لندن سنة
١٨٦٩ . . وهو في قسمين أولهما قصص كرييلوف شاعر الصقالية التي وضعها
على طريقة بيدبا الفيلسوف الهندي في كليلة ودمنة ولافونتين شاعر الإفرنسيين
وقد عربها نظماً في ٤١ قصة جاءت في ٦٩ صفحة . .

وقد يكون رزق الله حسن أول أديب عربي التفت إلى خصائص الأدب
الروسي فنقل بعض أقاصيصه . .

وفي القسم الثاني من ديوانه قصائد موجهة إلى الشيخ فارس الشدياق وهي
هجو مقذع من الوخر المؤلم . .

وقد أثارت هذه القصيدة إمام المهجو الشيخ فارس فلم يمالك حين قرأها
إلا أن قال : « كان حسّون لصاً وله سرقات ، فأصبح صلاً وله نفثات » .
ومن ترجمته لشعر كرييلوف نعلم أن الأدب الرمزي الذي اعتمده بعض
أدباء الروس في نقد أساليب الحكم القيصري قد صادف هوى من نفسه فنقل
تلك القصص ليشير إلى فساد الحكم في العهد العثماني .

فالقصائد المعربة تتناول هذه الصور التي تصور لنا فساد الحكم على ألسنة
الحيوانات . . وتشير إلى صلف الحكام وقسوتهم — إلى الظلم والعدل ، إلى القسوة
والرحمة . . إلى غير ذلك من هذه الخطوط التي ترينا تحكّم الأقوياء في
الضعفاء ، وحكّم الأغبياء بدلاً من حكم الأذكياء . . في حكايات عن النسر
والعنكبوت ، عن البلبل والحمار ، عن الذبابة والنحلة ، عن الفأرة والجرذ ، عن
الذئب والغنم . . عن المرأة والقرد ، وغير ذلك من عشرات القصص . .

وتؤلف هذه القصائد أكثر من نصف الديوان .

وخصص الباقي بالمناسبات ، من تهان إلى حنين ، إلى وصف شجونه وآلامه ، إلى مدح الأمير عبد القادر الجزائري لوقوفه ذلك الموقف النبيل من حماية نصارى دمشق في فتنة ١٨٦٠ .

وديوانه هذا الذى طبع في لندن قبل مائة سنة يؤرخ طوراً من أطوار حياة هذا الصحفي الأديب الشاعر الذى عاش في منتصف القرن التاسع عشر ، فكانت حياته مليئة بالتيارات السياسية والأدبية معاً . وهى ترمز إلى طبيعة الحياة وألوان الحكم ومذاهب الشعراء والأدباء وطرق تفكيرهم وصدى نزعاتهم وهواجسهم والفارق بين أدبنا وأدبهم في تلك الفترة . .

وبعد فنقف عند هذا الحد ، إذ لا مجال للإسهاب عن رزق الله حسن أكثر من هذا . . وإن كان مجال الحديث عنه واسعاً جداً . . وهكذا ، فقد مرت حياته بألوان مختلفة من الصراع . . وقضى أيامه الأخيرة بين المحابر والأقلام والكتب يؤلف ويكتب ويحقق وينظم الشعر ويترجم عن الروسية والإنكليزية والإفرنسية . وظل في وندسور — تلك القرية الهادئة — إلى أن فاضت روحه إلى بارئها سنة ١٨٨٠ .

ويقول معاصروه :

إنه « وهو في غربته ، كان يردد دائماً هذين البيتين اللذين يدلان على حرقته وألمه من النهاية المحزنة التى انتهت بها حياته وهو بعيد عن أهله ووطنه » :
قد قضى الله أن أموت غريباً فى بلاد أساق كرهاً إليها
وبقلبي مخدرات معان نزلت آية الحجاب عليها^(١)

(١) إن جميع الذين أرخوا لرزق الله حسن عزوا له هذين البيتين اللذين كان ينشدهما في غربته وهما ليسا من شعره ، فقد أورد المراوى في سلك الدرر وهو يترجم للشيخ عمر بن حسين اللبكي المتوفى سنة ١١٩٨ هـ تشظيره لهما بقوله :

| | |
|-------------------------|-----------------------------|
| قدر لى أن أكون غريباً | بين قوم أغدو مضاعاً لديها |
| ورمتنى الأقدار بعد دمشق | فى بلاد أساق كرهاً إليها |
| وبقلبي مخدرات معان | حين تبدو : تختال عجباً وتها |
| صرت إن رمت كشفها فأراها | نزلت آية الحجاب عليها |

وهذا يؤكد أن البيتين لشاعر قديم غير معروف ، فإن وفاة حسن سنة ١٢٩٨ هـ ووفاته اللبكي سنة ١١٩٨ هـ أى بينهما مائة عام .

ومن شعره :

قرد ونظارة

مترجمة عن شاعر الصقالبه كريلوف

قرد على الزمان أعياه الكبير
وساءه من وهنه ضعف البصر
بَلَغَهُ فيمَا مضى من النفر
دواء هذا الداء فيهم مشتهر
بآلة الزجاج تحديق النظر
فابتاع نظارات بلّور أغر
مجبّراً أحسنها للمختبر
في رأسه يضعها كما ائتمر
ثم على ذنبه إذا اسبكر
وكان هذا دأبه وما ظفر
بما تمنّى نفعه ولا شعر
حتى اعتراه اليأس من فرط الخور
ألقي بها يقول موفور الكدر
أحمق من صدق أقوال البشر
مدحهم كذب نفاق وهذر
صدقهم بذأ فكنت المغتر
ضربها ضرباً شديداً بالحجر
بدّدها على الثرى شذر منذر
وقد فشا هذا الخطاء وانتشر
في الناس من أفعالهم على غرر
فكل شيء نافع له خطر

عند الذى يجهله لمحتقر
لا قدر الله جهول إن قدر
فى فرصة يكافئ الخير بشر

مرآة وقرد

| | |
|---------------------|---------------------|
| حكى لنا الراون عن | قرد ودبّ فى سمر |
| فى صفحة المرآة قر | د مذ تراءى وانهر |
| وأعجبته نفسه | وهيئة فيها اشهر |
| دبّ على الدب يداً | هزّ به ثم انتهر |
| وقال ما أشناً ذا | المسوخ من بين الصور |
| لو حلّ بعض قبحه | بى فاض قلبى وانفطر |
| أقبح به ذا سحنة | شوءاء سوداء الوبر |
| ونوعه جميعه | أبشع خلق فى النظر |
| أجابه الدب على | تعبيره بما ذكر |
| أيا أخى القرد التفت | وارجع لمراك البصر |
| تجد على نفسك ما | أنكرت منى فالحذر |
| الخلق لا يرون ما | فى ذاتهم من العور |
| مسألة مبحوثة | بالأمس عنها ذو عبر |
| إن الرشى يأكلها | بكر ويحكى عن عمر |

ذبابة ونحلة

| | | | |
|---------------------------|--------|---------|----------|
| يوم اجتلاه الربيع واعتبقت | نُواره | بالرياض | باهرها |
| والبان ترقصه الصبا مرحاً | والطير | كاسية | منابرُها |

والنحل حول العسوب جائلة
 ذبابة قعدت على فن
 قالت النحلة : ما معيشتكم
 مرّ الدقائق تجهدين ولو
 ولو تحملتُ قدر يومك لا
 أليس بنى عيرة وأحسبني
 وشغلى البحث والتطلب عن
 لا بدّ ألقى الذباب قاعدة
 فى بلدنى هذه أدور على
 لا فخر والسوزراء كلهم
 أقبل الجيد والخبين وفى
 كأننى شامة الحدود وكم
 وللضيافات والولائم إن
 مطاعى آتيتها الخرف
 ولقمتى ما اشتيتها لقمى
 أرشف الخمر من زجاجتها
 هلاّ وإيتاى تذهبين ترى
 ردّت جواباً : بلى ، وبلغنا
 بئس الهوام الذباب بعضها فى
 إذا أتيتن دارة رفعت
 يهز إخراجكن مِروحة
 فتطردن عن البيوت وفى
 فاستضحكت تلكن الذبابة من
 قالت : فما لنا وذمهم
 الطرد لا تعباً الذباب به
 آيتها النحلة افهمى كلمى

كالفرس غائرة أساورها
 تعجب من نحلة تجاورها
 أولها متعب وآخرها
 إياك كنت لما أصابرها
 أشك فى هلكة أحاذرها
 فى جنة طافح بشائرها
 دار بها موسم أبادرها
 على أسرتها أسامرها
 القصور يعرفنى أكابرها
 والغانيات ، وقد أعاشرها
 المباح من لثمة أكابرها
 جمشت تفاحها أعاقرها
 أسعى فخلنى مشى جماهرها
 الصبنى مشمها وفاخرها
 قبالتى لا عنى ولا كُرها
 والقوم من فضلتى تباشرها
 معيشة بالهنا أخامرها
 أخباركن الرواة خابرها
 الأرض بادی الملا وحاضرها
 لا للسلام يداً معاشرها
 للوقت كبارها أصاغرها
 وجوهكن انطوت معابرها
 كلام نخلتنا تقامرها
 أو بغضة تتقى نهابرها
 تعود فى كربة تظافرها
 بالغمز عن يشار ظاهرها

فرنسيس المارش

١٨٣٥ - ١٨٧٤

أديب عالم ، وشاعر رومانتيكي ذو نزعات فلسفية . . .

درس الطب وتعلق بالأدب فتأرجحت حياته بين الطب والأدب ، وقضى أيام شبابه وكهولته بين حلب وباريس . . . فكانت أيام البؤس والشقاء أكثر من سويغات السعادة والهناء ، صدمته المصائب منذ نعومة أظفاره فأصيب وهو في الرابعة من عمره بداء الحصبة حتى كادت تودى بحياته . . . إلا أنه شفى منها وبقى في آثارها من جسمه وبصره ما نغص عليه عيشه وأوهن قواه مدى العمر . . . تعلق بالأدب فقراً كثيراً . . . واستهواه الشعر فحاول النظم وهو صغير . . . ثم ملك قياده وهو شاب . . .

وكان إلى حبه الأدب ، ذا ميل إلى دراسة العلوم . . . وإلى دراسة كتب الطب بصورة خاصة . . .

وقد تتلمذ في حلب على طبيب إنكليزي مدة أربع سنوات مكنته من ممارسة الصناعة ولكنه شعر أنه لم يبلغ منها مراده . . . فدفعته نزعته العلمية أن يسافر إلى باريس لدراسة الطب في كليتها . . .

لم يكد يترك حلب ويركب البحر حتى أخذ يسجل خواطره عن هذه الرحلة . . . وحين وصل باريس ورأى معاهدها ومتاحفها وحدائقها واستمتع بمباهجها بهرته أضواؤها ومظاهرها حضارتها فثارت نفسه ونظم عقيب وصوله موشحاً طويلاً عبر عن أحاسيسه . ومما جاء في مطلع هذا الموشح :

| | |
|--------------------------|-------------------------|
| لئن قد جئت باريس العلا | ورأت عيناي ما قد سمعت |
| شمت ما لا نظرت عيني ولا | سمعت أذني ولا روي وع |
| آه ما هذى المباني والملا | هل بروج أم نجوم طلعت |
| كل حي أم جماد قد سما | وبثوب المجد والكبر كسى |
| مشهد يسطو على العقل بها | فيه من آى بها الدهر نسى |

ووصف في عدة قصائد غابة بولونيا ، وساحة الكونكوردي والحفلات الراقصة
والسمهرات الخاصة والكثير من المظاهر الحية . . . ثم انصرف إلى الدرس . . .
ولكن دروس الطب أتعبته . . . وتناولته الأمراض فهدّت جسمه ، وأصيب
بعد دراسته سنتين ، بفقد بصره . . . فتوقف عن الدرس . . . وزاد في مصابه
أن بلغه ، وهو في الغربة النائية ، فقد والديه . . . فاسودّت الدنيا في وجهه
وأضواه اليأس والألم ، فرثاهما بقصائد تعبر عن لوعته وعظم مصابه . . . فن قصيدة
يقول :

فأنا أبكيكما يا والديّ بدموع ما بكأها أحد
إن في موتكما القاسي لدى مات حقاً سندی والعصدي
حتى باريس أصبحت عنده كابية مظلمة :

لم أجد والله في هذي البلاد غير داء لي وللغير دوا
ذقت فيها كل كاسات النكاد وكما غيري من البشر ارتوى
يا فؤادي قد جرى فيك الردى فعلى هذا الردى مت أو عش
وعاد إلى وطنه فلزم بيته . . . وكان لهذه الأرزاء المتوالية أثرها في نفسه
الحزينة المكتئبة التي غلب عليها التشاؤم . . .

وكان في عزلته يأنس بأدب أبي العلاء وفلسفة شوبنهاور . . . وقد أملى
خواطره نثراً وشعراً فترك أكثر من كتاب واحد في أغراض مختلفة . . .

* * *

عرف فرنسيس المارش بين مواطنيه بنزعته الحرة وكرهه لكل عتيق ولكل
ما يتنافى ونزعة التجدد . . . وذهب بعض المفكرين إلى أنه أول من نادى في
الشرق بمذهب داروين . . . كما كان ذا نزعة ديمقراطية .. يريد مثلاً ألا يقتصر
البرلمان على ذوى النفوذ والأغنياء وأصحاب الجاه من الإقطاعيين ، بل دعا إلى أن
يتمثل الشعب بكافة طبقاته في الندوة النيابية . . . فن كلماته قوله :

« لماذا يوجد حق لأصوات الأغنياء قرنّ في قاعات السياسة ولا يوجد
الحق لأصوات بقية الشعب الذين هم الجانب الأكبر والأهم والذين بواسطتهم
تقوم سطوة الممالك وقوات الملوك وعليهم يتوقف مدار السياسات » .

إنه يريد لصوت الشعب أن يرتفع عالياً في الندوات السياسية . . . فأعظم المقومات لصحة السياسة وإقامة الحق عنده هي :

« مجرى شرائعها متساوية على كل أبنائها بدون أدنى امتياز بين الأشخاص أو تفريق بين الأحوال . . . فلا يجب الأخذ بيد الكبير ودفع الصغير . . . والالتفات إلى الغنى والإعراض عن الفقير . . . ولا مؤازرة القوى ، ومداراة الضعيف . . . بل يجب معاملة الجميع على حد سواء كيلا يقع خلل في نظام الحق ، لأن كل فئة من الناس لها منزلة في طريق السياسة تستدعي النظر إليها ، فكما أن العظماء والأغنياء هم القوة الواصلة ، كذلك الصغار والفقراء هم الآلة الموصلة . . . فلولاً يد الصغير لم يطل ساعد الكبير ، ولولا تعب ذوى الفاقة لم تسهل متاجر أرباب الغنى ، ولم تحرس أموالهم ولم تقم قصورهم العالية وسرادقهم المشيدة » .

وهو ذو نزعة اشتراكية حرة . . . ينصر العامل على أرباب العمل . . . أو - وهذا الأصح - يريد أن يأخذ العدل مجراه . . . وأن تكون الحقوق متساوية كل بقدر جهده من العمل . . .

هذا ، وبالرغم من ميوله الأدبية فقد كانت النزعة العلمية في أدبه أغلب . . . فثقافة العقل عنده لا تكون إلا بترويضه على العلوم . . . وإلى هذا أشار في بعض مباحثه :

« لا يتم تثقيف العقل إلا بالتروض في العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والأدبية . . . على أنه لأمر محقق كون العلم يخلق في الإنسان قلباً نقيماً وروحاً مستقيمة ويجعله ظاهراً بكل الصفات الصافية ، وناظراً عن كل ما يشين الجوهر الإنساني ، ولا يترك له سبيلاً إلى التفكير بالأمور الدنيئة والميول المنحرفة الأمر الذى منه يشتق كل أفعال الشر . . . وعليه تبنى كل دعائم التوحش . . . »

إن مثل هذه الآراء الشائعة اليوم لم تكن مطروقة بالأمس . . . وكان لتأثره بمفكرى الغرب أثره في نفسه وفي أدبه ، ويعتبر باتجاهه هذا في طليعة أدباء عصره الذين تناولوا - في العصر المظلم - مباحث الديمقراطية والحرية وحتى النزعات الاشتراكية .

يقول قسطاكي الحمصي : « إذا نظرت فيما ألفه في هذه المدة الوجيزة ، أى منذ عودته من باريس إلى وفاته ، وهى مدة لا تتجاوز ست سنوات ، أيقنت أن هذا الرجل الكفيف أوقى من حدة الذهن وسرعة الخاطر وغزارة المادة وجودة القريحة والألمعية ، ما كان فيه نسيج وحده . إلا أنه كان قليل الثبث فيما يكتب فبدرت من قلمه أغلاط في اللغة ، وألفاظ عامية استدريج إليها » .

« فهو كاتب مبادئ وتفكير ، ذو خيال مبدع ، عبارته رفيقة ، سهلة ، ركيكة أحياناً ، ليس لها نصاعة أديب إسحق ولا هديره ، ولا جزالة الشدياق وظرفه وتهكمه . غزير الأفكار ، خطابي اللهجة في كل من شعره ونثره . ولعله أسبق كتاب العصر للمطالبة بإنشاء دنيا جديدة يسودها السلام ، ويرف عليها الوثام في كتابه " غابة الحق " » .

نظم كثيراً إلا أنه قليل العناية بأوزانه ، قليل التدقيق بألفاظه ، ولعل هذا أثر من حبه للحرية ودعوته للتحرر من القيود . . . وهو شاعر حساس ، لا بأوزانه وألفاظه ، بل بخياله وحسه الدافق ، فالصورة عنده تسابق الألفاظ . . . واضح الصور ، واسع الوصف ، يكثر عنده الحواشي والكلمات الغريبة ، عنده ميل بارز للسجع والاستعارات والتشبيه ، نظم المؤشحات كما فعل الأندلسيون^(١) . واعتبره الأستاذ مارون عبود شيخ نقاد لبنان - اعتبره زعيماً من زعماء الأدب ، فكتب عنه يقول^(٢) :

« كان فرنسيس المراثي ، على قصر عمره ، زعيماً أدبياً ترك دويماً ، وإن لم يكن في الدنيا ، كما أراد أبو الطيب ، فقد بلغ الفرات زئيره والنيل ، وكيف لا يسوغ لى أن أستعير له وصف المتنبي لأسده وهو الذى اجتراً على نشد الحرية يوم كانت الأفواه مكموعة ، والخزامة في الأنوف والشفاه » .

ثم يقول :

« فرنسيس المراثي حلبي ، وعن حلب الشهباء أخذ لبنان لغة الضاد ، وأعطاه ما عرفه في القرن السابع عشر من لغات أجنبية .

(١) يوسف أسعد داغر ، مصادر الدراسات الأدبية ج ١ ، ص ٦٩٣ .

(٢) رواد النهضة الحديثة ص ١٢١ .

كان الشدياق في ذلك الزمان ، يملئ من وراء بحرنا، يجلوها خرائد ، وكان اليازجى والبستاني والأسير والأحذب يؤلفون ويصنفون ، أما هذا الشاب فكان يتطاول إلى إنعاش الأدب ، ويحاول بثّ دم جديد في الجسم المترهل ، كان هو بلبل الشمال الصдах ، أدركته حرفة الأدب . فازور لتجارة أبيه وأخيه الواسعة ، ووقف فكره وقلبه على النظم والنثر وفقاً خالصاً لوجه الأدب والفكر ، فكان كاهن الحرية الأعظم في هيكلها الذي بناه لها رفيع العماد في برية الشهباء كما سترى في "غابة الحق" .

إن مخيلة المراه ككأس أبي نواس ، فأتى اتجهت في شعره ونثره تجدها منتصبة أمامك كالمنارة أمام السفن الضاربة في عرض البحار . قال أكثر شعره في أغراض جديدة ، وعبارته سهلة ، وأحياناً ركيكة ، غزير الأفكار ، وكثيراً ما يعجز عن تأديتها بعبارة صحيحة ، متشعب المواضع ، تغلب اللهجة الخطابية على ما يكتب شعراً ونثراً ، واضح الصور ، واسع الوصف ، تشابهه واستعاراته وصوره مؤثرة ، ولكنها تفيض عذوبة وحناناً ، يغلب عليه التشاؤم في غزله ، وفي أشدّ مواطن الفرح تجد على وجهه جهومة ابتسامة حزينة إلا أنها صادقة » .

* * *

ومن تصانيفه :

- ١ - « غابة الحق » كتب أكثر فصوله في باريس ، وقد تضمن الكثير من الآراء الفلسفية والاجتماعية ، وفيه دعوة إلى الحرية ، ودعوة صارخة إلى السلام . . وهو أقرب إلى أن يكون قصة من القصص . . . طبع في بيروت عام ١٨٨١ .
- ٢ - « مشهد الأحوال » أملاه في حلب ، وقد تضمن الكثير من النزعات الحرة ، فسلك فيه مسلكاً فلسفياً اجتماعياً ، وعالج أحوال الكون من جماد ونبات وحيوان وإنسان ، وجرى فيه مجرى المقامات . . وقد طبع في بيروت أيضاً سنة ١٨٨٣ .

٣ - « رحلة إلى باريس » ، وصف للرحلة التي قام بها سنة ١٨٦٦ والطريق التي قطعها بين حلب والإسكندرونة .

٤ - « شهادة الطبيعة في وجود الله والشرعة » .

٥ - « المرأة الصفية في المبادئ الطبيعية » : يبحث بحث العالم في الحجارة والأجسام البسيطة والمركبة والأنسجة . . .

٦ - « الكنوز الفنية في الرموز الميمونية » وهذه قصيدة رائعة في خمسمائة بيت ضمنها ، كما يقول جرجى زيدان ، خيالات شعرية رمزية كما يفعل أدباء الإفرنج . وقد جاراهم في شعره ونثره بالالتفات إلى المعنى دون اللفظ ، فجاء أسلوبه ضعيفاً .. والميمونية نسبة إلى بطلها ميمون بن مفتقر ، سرد فيها بعض حوادث وقعت في عهده . . .

٧ - ديوان « مرآة الحسناء » وقد طبع في بيروت سنة ١٨٨٣ .

٨ - « تعزية المكروب ، وراحة المتعوب » : خطبته حول تاريخ الدول المنقرضة ، تبدو عليها نزعة فلسفية تشاؤمية . .

٩ - « دليل الحرية الإنسانية » .

١٠ - « در الصدف في غرائب الصدف » رواية اجتماعية .

وهذه مقطوعات من شعره :

الاعتزاز بقومه العرب

| | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| هتام تزون يا إفرنج بالعرب | مهلاً فلا خير بابن قد زرى بأب |
| إن كان بالعلم جئتم تفخرون فمن | معالم العرب كل العلم والأدب |
| تذكروا ما غنمتم يوم ندوتكم | في أرض أندلس من تلکم الكتب |

الشعراء المداحون

| | |
|---|----------------------------|
| لا أمدحن سوى لبیب فاضل | أو صاحب حامی الذمار مؤاس |
| مالی وللألقاب ، فهي بأهلها | جاءت كأجراس على أفراس |
| کیم دولة ، أو رفعة ، أو عزّة ^(١) | شریت بمال ، أو برشفة کاس |
| کلمات تعظیم علی مستحق | لم یسو فلساً فی غلاء الناس |

(١) هذه الألقاب كانت تباع وتشترى في العهد العثماني فيصيح الإمعة والجاهل والوضع صاحب رفعة « رفعلو » وعزة « عزتلو » وسعادة « سعادتلو » ويمنح عليها رتبة « البكوية » !

الشعر

الشعر ليس يحلّه شيء سوى لفظ جميل فيه معنى مطرب

باريس

من لا يرى باريس في دنياه لم يدرك ما الجنة في أخراه
 ذي جنة ليس لها أشباه ما صاح في جوارها : ويلاه
 سوى عديم الذوق والفقير !

في وصفه لإحدى الحسنات

وقوام كأنه صنم الأسرار يوحى بعشقه للسرائر
 هيكل الحسن واللطافة لم يحرق عليه سوى بخور الضمائر

جبرائيل الدلال

١٨٣٦ - ١٨٩٢

شاعر سياسى حرّ ، مرّت حياته بسلسلة من التيارات ، فعلا مقامه ، وسطح نجمه . . ولم يكد يجرّد قلمه لشجب سلطان المستبدّين ، وكشف الستار عن الأوهام والخرافات التي يتخذها بعض المشعوذين سلاحاً في التمويه على عقول السذج حتى قامت الدنيا عليه ، فكان مصيره السجن فالموت . . .

ولد في الثالث من شهر نيسان سنة ١٨٣٦ من أبوين كريمين . . كان أبوه عبد الله الدلال من وجوه حلب ورجالاتها المشهورين . وكان بيته من أعرق بيوتات حلب . وكان إلى هذا ملقّي رجالات الفكر والأدب ، ففي صالونه الأدبي كان يجتمع غير واحد من الأدباء يتدارسون دواوين الشعراء ويقرأون المقامات وينظمون شعر المناسبات ويعرضون لشئون الدولة بالهمس والتلميح والإشارات . وقد غنى الأب بتربية ابنه منذ الصغر . . ولكنه لم يبلغ الحادية عشرة من عمره حتى فقد أباه . . فكفّلته عمته وأرسلته إلى مدرسة « عين طورا » في لبنان . . ثم عاد إلى حلب وعكف على دراسة اللغتين الإفرنسية والإيطالية - وهما اللغتان اللتان دخلتا البيوت المسيحية في تلك الفترة قبل غيرهما من اللغات - وكانت الإفرنسية أكثر تغلغلاً ونفوذاً . .

وما مرّت سنوات على دراسته لهاتين اللغتين حتى أصبح من المتمكنين بهما . وحذق إلى جانبيهما اللغة التركية - لغة الدولة آنئذ - إلى جانب العربية التي تمكن منها - وهي لغة آبائه وأجداده - وأصبح فيها من الأعلام . ومنذ تفتح ذهنه إلى المعرفة بدأ يتقف نفسه الثقافة العالية فانكب على علوم ذلك العصر يعبّ من رحيقها ، وساعده على ذلك فرط ذكائه وقوة حافظته وشدة ميله إلى العلوم .

كان يحفظ ، وهو في سن الشباب ، ديوان المتنبي وأكثر شعر صفي الدين الحلّي ومقامات الحريري ، وكثيراً من مقدمة ابن خلدون والمعلقات السبع وطائفة

من أشعار العرب ، وقسماً كبيراً من القرآن الكريم ، وبذلك تكونت عنده ملكة قوية ليكتب وينظم ، فكتب كثيراً ، ونظم في مختلف موضوعات الشعر . .
وكان لمعرفته اللغات الأجنبية أثرها في تكوينه الثقافى .

واسمته كتبت فولتير فقرأها كلها . . وكان عنده الأديب المفضل الذى أثر تأثيراً كبيراً في اتجاهه الفكرى ونزعاته الحرة . .
وكان يحلم بالسفر إلى أوروبا . .

ولكن أننى له ذلك وضيق ذات يده يحول دون تحقيق بغيته . .

وكانت إستانبول آنئذ مهوى أفئدة الكثيرين ، وكان يتحرق شوقاً لزيارتها فشاعت الظروف أن يتوفى عمه بلا عقب ، وأن يترك ثروة كبيرة ، فسافر إليها واستولى على حصته من التركة . .

وهناك ، في مدينة السلاطين ، بقى خمسة أشهر ينعم بفيض جمالها ويغوص في بحر لذاتها ويتأمل سحر سمائها ومفاتيح بوسفورها . . ويتعرف إلى مغانيها وآثارها وجوامعها وقصورها . . ويختلط برجالاتها . . واستطاع في هذه الفترة القصيرة أن يعرض شيئاً من بضاعته وهى ذكاؤه وعلمه وشتى فروع ثقافته فظفر بإعجاب الكثيرين ممن اتصل بهم من رجالات الفكر والدولة معاً .

وكان ينتقل بين حلب وإستانبول بعد أن تزوج فتاة يقول الذين عاصروه إنها كانت من أجمل فتيات سورية . .

وشد الرحال بعد زواجه إلى أوروبا - زار فرنسا وإيطاليا وإسبانيا . .

وفى الفردوس المفقود تجلّت له عظمة العرب . . فما كاد يطوف أبهاء قصر الحمراء في غرناطة ويرى بدائع الفن في جامع قرطبة حتى وقف مشدوه الفكر إزاء تلك الآثار العظيمة التى تركها العرب كأثر خالد من آثار عبقريتهم في الفن والعمارة . . وفى المدينة والحضارة .

ومن رسالة له إلى أحد أصدقائه يقول :

« . . وبت وكأنى أشاهد من الأمراء والوزراء خيال المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وأشبيلية وابن الحجاج وابن سراج وابن المظفر - ومن العلماء والشعراء ابن خلوف ، وابن زيدون ، وابن خاقان ، وإبراهيم بن سهل . . وكنت أرى

آثارهم واضحة لا فقط من الأسماء الباقية على كثير من الأماكن والأبنية العربية الشائخة ، بل أيضاً من هيئة الجئس والسحنات الدالة على الأصل العربي وأخص العيون والحواجب .

ومن إسبانيا سافر إلى البرتغال . . .

وبعد رحلة طويلة في أكثر مدن أوربا أخذ طريقه للعودة إلى الوطن . . وما كاد يصل إلى مرسيليا حتى أصيبت زوجته الحسنة بمرض عضال فقضت نجها هناك . .

ولما أراد أن يرثها عصاه الكلام ولم يستطع أن يعبر عن لوعته إلا بهذه المقطوعة الخزينة :

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| لى حالة يكتمها تجلدى | إظهارها يصدع قلب الجلمد |
| قد شرّد الغم جناني بالأسى | وقيّد الهم لساني ويـدى |
| فباطن تبكى له أحبتي | وظاهر تضحك منه حسدى |
| وما جرى نبي الكرى وفي الورى | بعد الذرى عدت أرى فى الوبد |
| من محنتى وفكرتى ولوعتى | تجلدى ، تسهدى ، تنهدى |
| وهمتى تأبى الحمل فترى الـ | جدد مقيمى والقضاء مقعدى |
| على شبابى والبلاذ والغنى | واحسرتى ، واحزنى ، واكمدى |

ولم يتابع سفره إلى الوطن . . فعاد إلى باريس ومنها إلى الجزائر . . ثم إلى بلجيكا . . ثم عاد إلى باريس فتعاقد معه وزير المعارف الفرنسية لتحرير جريدة « الصدى العربية » فقبل العمل ليلهو به عن مصابه الفادح . . وأرادوه أن يكتب فيها ما يريدون نشره . . فلم يطل عمله فيها . . وضاق ، وهو الأديب الحر ، بهذا العمل : فترك الجريدة وعاد إلى باريس . . وكان على اتصال بمختلف الهيئات والرجال . . وكان فى طليعة من اصطفاهم وتوثقت صلته بهم الوزير التونسي الشهير خير الدين باشا ، وقد رأى الوزير عند جبرائيل الدلائل الأملية والعلم والذكاء فاتخذة نديماً له وجعله أمين سره وكلفه ترجمة الكثير من الرسائل والمذكرات السياسية التى كانت تتضمن أمانى التونسيين الوطنية . . وكان يصحبه معه أنتى ذهب . . وأى مكان قصد . . حتى إلى المصايف . .

وكان الدّلال يترجم بين سفراء الحكومات العربية الذين يقصدون باريس كوزراء مراكش وتونس وزنجبار وبين وزراء فرنسا . .

وحين انتدب خير الدين باشا سنة ١٨٧٩ لمنصب الصدارة العظمى في الدولة العثمانية كتب إلى جبرائيل الدّلال ، يستدعيه إلى الآستانة ليكون سكرتيره الخاص .

وعرف في الأوساط الدبلوماسية كرجل يتميز بالكثير من المواهب . . وتوثقت صلته بسفراء الدول الأجنبية الذين عرفوا مكانته وفضله . .

وحين استقال الوزير خير الدين باشا ، قرر أن يعود إلى وطنه ، ولكنه تلقى وهو في إستانبول رسالة من رئيس جامعة فيينا يطلب إليه أن يدرّس العربية في كلية الآداب ، فقبل المهمة ، وكان ذلك سنة ١٨٨٢ . وسافر إلى عاصمة النمسا وتولى التدريس مدة سنتين . .

وقد ألّف لتلاميذه رسالة في الهمزة وأحكامها . . ورسالة ثانية في قواعد اللغة العربية تقرّب منها على الطالبين من الإفرنج . . وقد نهج في رسالته هذه نهجاً جديداً في تعليم الأجانب اللغة العربية . . .

ولم يقتصر عمله على التدريس فكان يرسل من فيينا الجرائد العربية الكبرى فيكتب أدق الملاحظات السياسية والاجتماعية عن أحوال الغرب ، فكتب إلى « الجوائب » و « الجنان » و « الأهرام » و « مرآة الأحوال » .

بعد طواف سبعة عشر عاماً في أوروبا وآسيا وأفريقيا عاد إلى وطنه ليدرّس الإفرنسية في المدرسة السلطانية . وكأنما كانت العيون تترصده فما كاد يعود إلى أرض الوطن حتى أخذ الوشاة يثيرون موضوع قصيدته « العرش والهيكل » وهي قصيدة ثورية عرض فيها إلى تصوير حقائق الحياة بشتى مظاهرها ، وأطلق لنفسه العنان وهو في باريس للتعبير عن آرائه الحرة في جور السلطان وشعوذة بعض الكهنوت . . فكان مفكراً حراً لا يتقيد بنزعة ، وكان لهذه القصيدة الثورية ، وهي في مائة واثنين وخمسين بيتاً ، صداها البعيد في مختلف الأوساط ، وكانت وسيلة بيد حاسديه لتحطيمه والقضاء عليه . .

فقد بدأت الوشايات تنهال عليه من كل جانب . . من جواسيس

عبد الحميد ، ومن رجال الكهنوت . . هؤلاء يتهمونه بالهرطقة والتجديف . .
وأولئك بغمزه من قناة السلطان المستبد . .
فقد تعاونت عليه سلطتان جائرتان :

سلطة الكهنوت التي فضح الكثير من أفعالها وخزعاتها ، وسلطان الجور
في العهد الحميدى . . فوشى به حاسدوه . . وكانت النتيجة أن عزل من منصبه ،
وزجّ في السجن .

وظل في سجنه يقاسى الآلام المريعة مدة سنتين . . وما زال حتى لفظ
أنفاسه في صباح الرابع والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢ عن
سنة وخسين عاماً .

وقد نقله أهله من السجن . . إلى المنزل . . ثم إلى المقبرة ، فدفن في موكب
صامت بين الدموع والحسرات . .

وهكذا ، فقد كانت قصيدته « العرش والهيكل » هي التي أودت به إلى
هذه النهاية المؤلمة . .

وذهب البعض إلى أنه ترجمها عن فولتير . . وهذا غير صحيح ، والواقع
أنه تأثر بآراء فولتير بعد أن تشبع بمبادئه وقرأ أدبه . والقصيدة تدور حول ثلاث
نقاط رئيسية :

١ - « مقاومة سلطان الكهنوت »

٢ - « مقاومة استبداد الملوك »

٣ - « الدعوة إلى الحكم الجمهورى » . . .

ومتى ؟ . . . في الفترة التي حكم فيها السلطان عبد الحميد البلاد حكماً
أوتوقراطياً كان التلويح بكلمة من كلمات الحرية كافياً لأن يكون نصيب
صاحبها الموت . .

العرش والهيكـل

مواعظ وحكم :

عسرت لك الأيام في تجريبها
ومضت أويقات الهنا وتلاعبت
فإلام تعرض ناسياً ذكر البلى
واللمة الشمطاء تنذر بالفنا
ولّى الشباب وأخلقت أثوابه
وتجشمت هول الزمان وجوهنا
والشمس تسطع في أوان شروقها
وحياتنا بشروورها وغرورها
فكأنها لجح تخوض عبابها
فإذا دعتك دواعي اللهواتند
ربّ النهى من صمّ عن تصويتها
تصفو الحياة مع الشبيبة برهة
ومع المشيب تمضنا أكدارها
ركدت وقد كمن البلاء وشره
من دأبها عطل الكريم وسلبه
عجباً لها إن كان أول أمرها
لا تتقّ الأحداث سطوة مالك
فالعرش أفصح مخبر بخطوبها
وبسلبها حال الخليفة أوجبت
جبتُ البلاد فما نعمت بشرقها
فبكل قطر شاع لفظ كروورها
بخلت بجبر كسيرها وأبت فكاً

وسرت بك الأوهام إذ تجرى بها
أيدى سبا ببعيدها وقريبها
وعلام تغريك الحياة بطيبتها
وتشيب صفو صفائنا بمشيبها
واحسرتى لنضيرها وقشيبها
وعن النضارة بدلت بشحوبها
والإصفرار يكون عند مغيبها
كسفت فكان شروقها كغروبها
وسوابق تجرى على يعبوبها
بعداً لسامع صوتها ومجيها
وأخو الحجي من ضلّ عن تصويتها
ويروق كأس العمر عن مشروبها
واخشيتى من مرّ طعم رسوبها
برحيقها ورسا بصافى كوبها
جمحت فما تنفك عن أسلوبها
هذا النكال فما ترى بعقيبتها
وبصمتها حكم لمن يدرى بها
والنعش أصلح منبر لخطيبها
حصر الفصيح بها وعى طبيها
وبغربها وشالها وجزوبها
وبكل مصر ذاع فرط كروبها
ك أسيرها ، ضنت برد سيلها

متعاقل بعيونها وقلوبها
 في صدر عالمها وذمن أديبها
 كلا ولا الآسى أسى مضروبها
 أو يعدم الموجود من تغيبها
 يبدو لغدر ضل عن محجوبها
 عجباً من جمود حبيبها
 وتساعد الأجسام في تركيبها
 ضاعت على العقلاء نفحة طيبها
 وأولو النهى علموا حقائق صوبها
 وغدوا بصافي درها وحليبها
 بلغوا من الدنيا أقل نصيبها

وأولو النهى تبكى لحالة جاهل
 إن الطبيعة أودعت مكتومها
 لا يحزن الراسى شقا مطعونها
 هل يوجد المعدم من تحضيرها
 أبداً لعمرى كل ذاك تحايل
 لكنها تأتى بما يتوهم الرأى
 فباعد الأجرام في تحليلها
 ضاعت على الجهلاء غايتها وقد
 خفيت عن الحمقى غوامض أمرها
 وعدوا بخافى سرها وجلائها
 لكن أكثرهم لسوء الحظ قد

* * *

وصف رجال الدين :

فالمال جل القصد من مطلوبها
 للناس كفارات غفر ذنوبها
 باعت ذخائرها وعود صليبها
 حصلت لما أفكت على مرغوبها
 ومزية علوية تسطو بها
 رسل الكرام بمنعها أو سيبها
 ث خلافة الأفعال في تنويعها
 وقذى الأنام رأت ونزر عيوبها
 بلباس حملان وظاهر ثوبها
 تسعى لتنفث سمها بلبوبها

كل الأنام وإن تباين حالها
 فلكسبه أحبار روما وزعت
 ولأجله القسّان في بيعاتها
 وبطارك ومطارن إذ مخرقت
 ثم ادعت زوراً بخافى قدرة
 زعمت تسلسل سلطة أذنت لها
 ما بالها عجزت عن الأبيات حية
 عميت عن الخشب الذى بعيونها
 فهي الذئاب وإن تردت حيلة
 بسوادها تنساب فهي أساود

تعاليم المسيحية :

بثلاثة يقضى النهى بوجوبها
 ٤ كلها بفسيحها ورحيبتها

وتقول إن الله قامت ذاته
 من ضاقت الأكوان عن أن تحوي

ولدت حَقًّا كابنها وربيبها
وفر من غصص الحميم وصوبها
وكمال عزته وسامى نوبها
بصلاتها أبدأ وفعل عجبها
فى خبزه تبلى بمضغ رغبها
وتنزهت أوصافه عن ريبها
ولقد تعالى قدره عن ذيبها

قد جاءنا متجسداً من ابنه
والناس قد قتلوه ظلماً ثم قام
وبذاته وجميعه وصفاته
يعنوها متنازلاً عن عرشه
وبأن مالى الكون يحضر صاغراً
حاشا وجل جلاله عن مثل ذا
فلقد تسامى شأنه عن شيبها

* * *

التوراة :

زعمت وجود الحق فى تهذيبها
والرشد يهديننا إلى تكذيبها
يأبى قبول السهل من تصعيبها
ومناقضات القول فى ترتيبها
ووجود محض النصح فى تأديبها
تنبى عن الآتى برجم غيوبها
قد تشمئز النفس من تقليبها
وكذبها الإخوان فى تأديبها
وقدرة التكهين فى تقريبها
غللمان مجزرة لدى مربوبها
مع شحمها وعظامها وكعوبها
وإياب خيرات إلى أيوبها
من نسل يوسفها ومن يعقوبها
بارى الخليفة دون كل شعوبها
بالأرض تنعم فى امتلاك خصيبها
قسراً لتعمل بالأجر وطوبها
لهبت ولم تحرق بحر شوبها

جاءت بأسفار غدت تهذى بها
والعقل دلّ على صريح ضلالها
وصواب ذى العقل السليم بطبعه
ينبى سخييف النص عن تزويرها
وإذا افترضنا الصدق فى أخبارها
أو أن كل خرافة بحديثها
فترى الرموز بها أتت بخشونة
كالفتك بالمغلوب دون ترأف
وغلاظة الأفكار فيما أوردت
فكأن كهنتها بهيكل ربها
حيث الذبائح والصعائد دهنها
نسيت جميل الصبر بعد مصائب
ووجود خلق لا تعد لكثرتها
وقد اصطفاها أمة محبوبة
وأنالها بالوعد أحسن بقعة
فاستعبدتها أهل مصر بجورها
ودعا لموسى الله من عليقة

المهين وشده عزم رغبها
 ر وأرغمت أبطالم بضيبها
 نكبت بها وعلا ضجيج نحيبها
 رائيل يوم خروجها وغروبها
 رب كاللصوص بما لها وذوبها
 عدد وبطش شجاعها وغضوبها
 أضدادها قهر بأمر رقوبها
 نالت بها فوزاً على مشجوبها
 عد سيرها في وخذها وخيبها
 نسبت له ومضى زمان شعوبها
 ربة وتنجو من أذى مغلوبها
 ن وأصبح الأعوان حظ طلبها
 يبدو ليحلى الشك عن مذوبها
 وبنيرها في الليل في تطنيبها
 والمن قوتا فيه سد سغوبها
 صافي المياه طغت بفيض سكوبها
 ه الشريعة وهو في شخوبها
 جار فهو ملين لصليبها
 حل الدمار بسورها وصقوبها
 فتقوضت دكاً لـول صخوبها
 قد خامرت راحاب في ترحيبها
 ي بصلاته عن سيرها وغيوبها
 شجعت وخاب السعي مع تدريبها

واختاره لخلاص أمته من الأسر
 بسيوف إعجاز أراعت أهل مص
 فسطا على صحرائها بخوارق
 ذكروا بأن الله أوصى أمة اس
 أن تستعير متاع جيران وته
 ومن العجيب بأنها مع كثرها
 ومساعدات الله في إبلائه
 وحوادث وكوارث ونوازل
 أودى بها هرباً وساعده يسا
 وختام ذا النصر المجيد لأمة
 شق البحار أمامها لتجوزها
 وقد اهتمدت في التيه حيث عن الأما
 بعمود نار كان فوق خيامها
 فيدلها بالسير إما قوضت
 ودعاء موسى أمطر السلوى لها
 وعصاه قد أجرت لها من صخرة
 نزل الإله على الجبال له وأعطا
 مكتوبة بأصابع الخلاق في الأح
 وكذلك إرميا بفضل عجيبة
 نفخوا بأبواق وطافوا حولها
 ومع الجواسيس الألى نزلوا بها
 وكذا ابن نون توقفت شمس الضح
 ليمتم الفتك الذريع بفيئة

* * *

عود إلى القيسين :

ترجو نوال النصر من ترغيبها
 تبغى اجتلاب النفع من تجنيبها

وعلى أضاحيك كذا استندت وقد
 وأنت تكابر باختراع زخارف

وعدت بجنات النعيم لطائع
 حيث الشياطين التي تغوى الورى
 لما رأت شمس التمدن أشرقت
 بمحاورات الشهم فولتير التي اذ
 فيها قد افتضحت وبان سقامها
 إذ عن صراط الحق ذاع مسيرها
 وأراعها منه تهدم عرشها
 هرعت لتدرك فائتاً فترده
 قنطت وقد أبدى الهدى بهتانها
 جزعت بحزن لا بتذال حجابها
 عبراتها تجرى لعابر وقتها
 جمعت بروما جمعها وتقاطرت
 وتصيح يا أهل الكنيسة بادروا
 يا دار ندوتنا لفحص الدين هل
 أيام نسلب مال من كفروا
 فالدين مفتقر لحل مشاكل
 لنرى مبادئ رأينا منبهة
 تشرى بمن جهلوا حمياً وهمها
 وبكل ذا ترجو ثبات دعائم
 تسدى الثناء لكل قدم دأبه
 فتحوم كالغربان تشد فائتاً
 إن اختفاء النور مهما حاولت
 والله عالم سرنا لا يرتضى
 كل البلايا والشورأنت بذى الدن

وتوعدت بالنار فى ترهيبها
 تسطو على الهلكى ببعاز بوبها
 وضلالها يبغى دوام قلوبها
 لدفعت مياه الحق من أنبوبها
 وبدا خفى جراحها وندوبها
 وإلى احتشاد المال فرط لغوبها
 وتزعزع الأركان بعد رتوبها
 هيهات قد ولت زمان رحوبها
 كقنوط نفس من فراق حبيبها
 وتهتك الأستار عن مكذوبها
 مع لطم أوجهها وشق جيوبها
 تدعو الثام أولى الدها بضغيبها
 لقيام دعوة ربكم مصلوبها
 من عودة يرجى رجوع مريبها
 ونحرق جسم عاصينا بحر لهيبها
 وخلاص قائمة له من قوبها
 فى الأرض فاسد قولها كصيبها
 ويدب فى الحمقى ردى ديبها
 مادت بها ودنا أوان ذوبها
 تأييدها والقرع فى ظنوبها
 منها وقد ملء الفضل بنعيمها
 رتق الفتيق وأين سد ثقبها
 فيما افترت ويسر فى تخيبها
 يا وها التاريخ فى تخريبها

الانتقال إلى السياسة :

وكذا الملوك فليس ينكر ما جرى
أو جور من فتح الممالك عنوة
فبنصره خذل العلوم وأخربت
أودى بأسباب المعيشة بطشها
نزل البلاء على الفلاحة والبوا
وتفشعت سحب النجاح وإن سقت
ذبح العباد على الوهاد بظلمه
فذوت جراثيم الفلاح لعسفه
فلم الخضوع لذى البغاء ومالها
أم كيف نحمل جورها ونقاد رغ
وبما نرى فضلت على كل الورى
بالاحظ أم بالسمع أم بالذوق أم بالله
هل أنها إلا أناس مثانا
فالجيش من أولادنا لقتالها
حازت نفائس ما يرى فوق الله
الخز والديباج أضحى لبسها
فتنافست فيما حوت من سابق
لولا اختلاس الكل من أتعابنا
ولكنك تنظر كيف دون مساعد
إذ فى الوغى يبدو نبو ضرابها
لكنها بالمكر سادت مذ غدت
وغدا على كل الوجوه وجومها
ولها أذل من العباد رقابها
خطفتم سموم الظلم صوت خطابها
إذ تلك ربح زعزع نكباؤها

فينا من استبدادها ووثوبها
وبغى على سكانها وغريبها
تلك البلاد جيوشه بحروبها
وعلى التجارة سدّ أصل دروبها
رفأحلت بغراسها وجوبها
تلك السباخ المزن من شؤبوبها
وسقى المهاد دماءها عن صوبها
وبدا لما سقيت جفاف رطيبها
عجباً تتيه بتاجها وقضيبها
حماً مرتضين بغمرها كنجبها
وسمت على تحريرها وليبها
س أم بالشتم فضل حسيبها
وبنا ومنا العزم فى تغليبها
والبدخ من أموالنا لمعيبها
رى وتفاخرت بمتاها وأتوبها
وغدت كرام الخيل من مركوبها
وتمتعت بنجبها وجنيبها
لغدت تموت بجوعها وبلوبها
تسطو وأى مهابة لرهيبها
وبيان فى الهيجاء جنب ضريبها
كل الملا تغنو لبطش مهيبة
يبدو فعاد بشوشها كقطوبها
إرجاف واشيها وخوف رقيبها
لما اشتكت من عصفها وخطوبها
ألوت بهم عن رشدهم بنكوبها

الصهباء يسكر مرّة كعذيبها
 أم هل ترى قد حان وقت هبوبها
 طالت لسعد الوحش في تأديبها
 عن سر أنياب لهول نبيها
 ساد الدمار وعمّ من تخريبها
 جارت على أعناقكم بلتوبها
 قوم تراعى خيره كنسبها
 فيعود صوت قصيرها كأريبها
 بالأمن يرعى شاتها مع ذيبها

غدت الورى صرعى كأن عذابها
 عجباً فهل غفلت لخبث مهبها
 يا غافلين تنبهوا من رقدة
 فيها قد افترستكمو مذ كشرت
 هيا انهضوا، وبطردوا اجتهدوا فقد
 إلى لا أبا لكم، اخلعوا الأنيار إذ
 وليحكم الجمهور من عقلائه
 ولتستوى كل الحقوق تعادلا
 حتى ترى كل الورى فوق الثرى

عبد الله مرّاش

١٨٣٩ - ١٨٩٩

أديب حلبي عاش الشطر الأكبر من حياته في الغرب يعمل في الشؤون التجارية ، إلاّ أن التجارة وما في عالمها الزاخر من مغريات الربح لم تصرفه عن حياة الفكر ، فقد كانت النزعة الأدبية في نفسه أغلب .

كان ، وهو في باريس ولندن ، على اتصال وثيق بما ينشره أعلام الفكر من الأوربيين ، يقرأ كتبهم بتفهم ووعي ، وكان على اتصال أكثر بما ينشره المستشرقون من مخطوطات عربية ، وقد نسخ بدوره الكثير من المخطوطات التي تضمها مكتبات الغرب .

ومن باريس ، ومن مقرّ عمله في مرسليليا كان يبعث برسائله ومقالاته إلى صحف القاهرة وبيروت ، وإلى جريدة « الجوائب » في إستانبول ، منها ما يوشحها بتوقيعه ، ومنها بالحرف الأول من اسمه فينم أسلوبه عن شخصيته . . . لم تكن لعبد الله شهرة أخيه فرنسيس ، ولا شهرة أخته مريانا ، وإن كان يبرزهما في فن الترسل . فلأسلوبه الرصين هذه الجزالة التي تفصح عن أدقّ المعاني بأبلغ الكلمات . . .

ولا أسترسل في الحديث عن هذه الناحية وعن أطوار حياته ، فحسبي أن أترك الكلام للشيخ إبراهيم اليازجي ، إمام البلغاء في عصره ، فقد كان عبد الله على اتصال وثيق به . وبمجلتيه « الضياء » و « البيان » اللتين ازدانتا بالكثير من مقالاته ، ولا سيما ماله علاقة بالتربية ، فقد نشر سلسلة مقالات تؤلف كتاباً تربو صفحاته على المائة صفحة ، ومن يرجع إليها يرّ أنه ، إلى اطلاعه على أحدث نظريات علماء التربية في الغرب ، كان يرجع إلى ما تركه العرب من آراء سديدة في السلوك والأخلاق فيراها أجدر بالاتباع .

قال اليازجي يصف بعض ملامحه ومراحل من سيرته :

« عبد الله بن فتح الله مرّاش وشقيق المرحوم فرنسيس مرّاش الشاعر

الكاتب المشهور من أسرة عريقة في الفضل والوجاهة ، معروفة بالعلم والأدب ، ولد في حلب في ١٤ أيار (مايو) سنة ١٨٣٩ ، ونشأ بها وتأدب على والده وغيره فتلقى في حداثته مبادئ علوم العربية والخط والحساب ، ثم دخل في أعمال التجارة فتخرج في فنونها ، ولما بدت نجاته فيها انتدبته جماعة من جلة تجار حلب لعقد شركة تجارية ينشئ لها محلاً في منشستر من بلاد الإنكليز . فسافر إليها في سنة ١٨٦١ واشتهر بما كان عليه من الأمانة والدراية ، فكان له مقام محمود بين معامليه .

ثم انتقل سنة ١٨٧٠ إلى باريس فلبث بها إلى سنة ١٨٨٢ ، وبعد ذلك فارقه إلى مرسيلا وألقى بها عصاه ولم يزل مقيماً بها إلى أن توفاه الله في ١٧ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٩٩ .

كان عبد الله مراش على حظ من الدنيا بلغ به مبلغ الرضا وهو الغنى كله ، فلم يكن بعد ذلك يحرص على حشد الدينار ، ولا يعانى الكسب ، ولكنه انصرف إلى المطالعة ، والتوسع في العلم ، وهو ما لم ينقطع عنه قط مع اشتغاله بالتجارة أيضاً ، فإنه كان كثير الاختلاف إلى مكاتب لندن وباريز يتصفح ما فيها من الأسفار قديمها وحديثها ، ولا سيما الخطية منها ، فأدرك حظاً وافراً من لغة العرب وتواريخهم وآدابهم ، ونسخ عنها عدة كتب عزيزة ورسائل أخرى كلها من غرر آثار الأقدمين ونوادير تأليفهم — نسخها بخطه مع العناية والتوفيق في مقابلتها وتصحيحها — وكان مليح الخط ، نقي الرقعة ، كثير التأني كأكثر خطاطي حلب .

ثم يتحدث عن أسلوبه فيقول :

وكان رحمه الله من أكابر أهل الإنشاء ، حسن الترسيل ، سهل العبارة ، واضح الأسلوب ، بصيراً باختيار الألفاظ والتراكيب ، حسن النقد ، حريصاً على البلاغة ووضوح المعاني ، آخذاً بالنصيب الأوفر من قوالب فصحاء العرب ، وألفاظ الخاصة من أهل الأدب .

وكان مع ذلك متقناً اللغة الإنكليزية والفرنسية والاطليانية ، يكتب فيهن جميعاً ، وكان له باع طويل في التاريخ والفلسفة وعلم الأخلاق والأديان

والشرائع المختلفة : مشاركاً في كثير من علوم المعاصرين ، كالطبيعيات والهيئة وسائر الفنون الرياضية .

وكان بصيراً بالسياسة ، مطلعاً على أسرارها ودقائقها ، وله في كل ذلك مقالات ورسائل شتى ، منها ما نشر في بعض الجرائد العربية في لندرة وباريز وجرائد ومجلات القطر المصري .

وأما صفاته الشخصية فقد كان ربعة القوام ، معتدل الجسم ، أبيض اللون ، طلق الحيا ، فصيح اللسان ، مهذب المنطق ، واسع الرواية ، لطيف المحاضرة ، وقد أتيح لنا لقاءه ، عند مرورنا في مرسيليا في أواخر سنة ١٨٩٥ ، وهو في نحو السابعة والخمسين من عمره ، وقد وخطه الشيب وأنضجته السن والتجربة ، فألفينا فيه رجلاً جليل القدر ، كامل الصفات ، قد جمع بين رزانة الإنكليز ورقة الفرنسيين ، وأريحية العرب .

وكان على أعظم جانب من الزهد ، وخفض الجناح . بعيداً عن الزهو والخيلاء ، منزهاً عن الدعوى والكبر ، حتى إنه ، مع سعة فضله ورسوخ قدمه في العلم والإنشاء وإجماع المطالعين على استحسان كلامه — كان يتفادى من ذكر اسمه في أكثر ما كتبه وما طبع له ، ويشترط ذلك على كل من يروم نشر شيء من آثاره ، وهذا لا جرم من عنوان تمام فضله وتناهيه في الكمالات الإنسانية^(١) . . .

نماذج من نثره :

التربية ورجال الأمة

قوام كل أمة برجالها ، ولا رجال إلاً بالتربية ، لأنها هي التي تعين الطبيعة على إنماء بدن الولد في صحة ، وإرهاق ذهنه في سداد ، وتقويم سيرته في رشاد ، وتكسبه من صفات الرجولية ما يؤهله لأن يكون رجلاً حقاً إذا شب .

والمراد بالرجل هنا ذاك الذي عناه أحد الفلاسفة بقوله : إنه لأيسر عليك

أن تلقى فى شوارع آتينا « إلهًا » من أن تلقى فيها رجالاً ، والذى عناه فيلسوف آخر وقد رُوى فى رابعة النهار ويبيده مصباح وهو يتطوّف فى شوارع تلك المدينة الغاصة بالناس تطوّف من يطلب شيئاً لا يكاد يرى ، فسُئل عما يطلب فقال : أطلب رجالاً .

هذا هو المعنى المراد بالرجال هنا ، وقليل ما هم . وأما الرجال بالمعنى المتعارف فكثيرون ، ولله در القائل وإن بالغ :

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلّهم والله يعلم أنى لم أقل فندا
إنى لأغلق عيني ثم أفتحها على كثير ، ولكن ما أرى أحداً

وكل من يتصفح كتب التاريخ القديم والحديث يجد أنه قلما انحطّت أمة عن منزلتها إلاّ لأنها عدمت رجالها ، وأنها ما عدمت رجالها إلاّ لأنها لم تُعن حق العناية بتربيتهم صغاراً ، فلم يكن لها منهم كباراً سوى أشخاص لا شىء فيهم من الرجولية سوى الاسم .

تربية الصغار كسياسة الكبار.

اعلم أن تربية الصغار كسياسة الكبار قائمة على ركنين مهمين :

أحدهما : السلطان بالإضافة إلى المربى . . .

وثانيهما : الطاعة بالإضافة إلى الولد . . .

إلاّ أن السلطان ينبغى أن يكون مقترناً بالرفق فى حزم أى منزهاً عن العنف فى غير موضعه ، وعن الرخصة والتسامح فى غير موضعهما .

كما أن الطاعة ينبغى أن تكون ناشئة عن ثقة الولد بمربيه ، وعن الاحترام والهيبة اللذين تبعثه عليهما المحبة له لا الخوف من عقابه .

فإن أهمل من التربية واحدة من تلك الطرق أو عدم منها أحد هذين الركنين فسدت وفاتت الخلة المقصودة منها .

المعلم

إن القدماء والمحدثين من أهل البلاد التي توفّر حظّها من المدنية كانوا ، ولا يزالون ، يقدرّون المعلم ، أى المربّي أو المؤدّب ، حقّ قدره ، ويبجلونه وينزلونه فوق منزلة الطبيب ، بل فوق منزلة الحاكم ، لأن الطبيب إن داوى أسقام البدن وشفأها ، وهيهات ... فلا يقدر أن يداوى أسقام النفس ويشفيها ، بل هذا من ولاية المعلم . ولأن الحاكم إنما يعاقب الجاني إذا جنّ ، ولكن ليس من ولايته أن يجعله خيراً عزوفاً عن اقتراف الجرائم بل هذا منوط بالمعلم .

والحاكم يقيم الحدّ على الشرير إذا أذنب ، وقد يقصيه ، أو يعتقله ليؤدبه ويريح الناس من شره حيناً ما ، فثله في ذلك مثل الجراح الذى يقطع من أعضاء الجسم ما كان مريضاً ليسلم سائرهما ، إلاّ أن المعلم يحاول استئصال الشر من جرثومته ، وكثيراً ما ينجح فيما يحاوله .

لا جرم أن ما كان من ولايته أن يتعهد نفس الولد فضلاً عن جسمه ، ويهتم بلعبه ودرسه بل فرحه وترحه ، لجدّير بأن يكون عالى المنزلة ، ولذا كان اليونان يدعون سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس وغيرهم من الفلاسفة معلمين وآباء ، ولا بدع لأن المعلم في الحقيقة أب ثان للولد . وإن شئت دعوته أباه الروحاني كما أن الوالد أبوه الجسماني ، ولما لم يكن أحد في الدنيا أولى من الأبوين بأن يجلهما الولد ويحترمهما ، وكان المعلم نائباً عنهما في تربيته إن غابا ، وشريكاً لهما فيها إذا حضرا ، كان بحكم الضرورة مستحقاً شيئاً من التبجيل عينه .

* * *

إن المعلم أبّ ثان للولد ، ولذا قال الإسكندر يوماً: إنه وإن كان ابن فيلبس المكديني جسمًا فهو ابن أرسطوطاليس نفسًا ، لأنه إن كان فيلبس سبباً لحياته فأرسطوطاليس هو الذى علمه كيف يعيش مكرمًا . وما أحسن ما قال الشاعر:

أقدّم أستاذي على فضل والدي وإن كان لي من والدي الفخر والشرف
فذاك مربّي الروح والروح جوهر وذاك مربّي الجسم والجسم من صدف

الدكتور لويس صابونجي

١٨٤٣ - ١٩٢٨

سوري من أبناء الجزيرة^(١) ، ومن بليدة « ديريك »^(٢) الواقعة في محافظة الحسكة ، وتُسمّى « ديريك » اليوم بـ « المالكية » بعد أن تمّ تخطيط الحدود سنة ١٩٢٨ بين سورية وتركيا ، وولادته في « ديريك » التابعة لولاية ديار بكر في العهد العثماني كانت من باب الصدفة أيام خرج إليها والده فراراً من وباء « الهواء الأصفر » الذي فشا وقتئذ بديار بكر ، وقد أشار إلى ذلك في أبيات من قصيدة له :

خُلِقْتُ بأرضٍ قد تجلّت ببهجة سقاها إلهي من فرات ودجلة

(١) عرف الجغرافيون العرب « الجزيرة » بأنها البقاع الواقعة بين نهري الفرات والدجلة . والممتدة من منابع هذين النهرين في أرمينيا ، حتى جنوبي الموصل ، وقسمها بعضهم إلى ثلاث مقاطعات هي : ديار بكر - ديار مضر - ديار ربيعة ، نسبة إلى ثلاث قبائل عربية كبيرة ، أو إلى ثلاث مجموعات من قبائل عرفت بهذه الأسماء . وكانت قد تغلغلّت شمالاً . قبل الفتح العربي ، فبلغت الجزيرة في زمن الدولة الساسانية ، إحدى الدول الفارسية ، وقد امتد حكمها من ٢٢٦ إلى ٦٢٨ م . واستمرت هذه القبائل في التوسع والامتداد نحو الشمال بعد الفتح ، وجعل بعض هؤلاء المؤلفين الجزيرة مقاطعتين : ديار مضر وديار ربيعة ، وقال غيرهم إنها ديار بكر وديار مضر ، كما اختلفوا أحياناً في قواعدها .

وزيادة في الإيضاح نذكر أن مقاطعة ديار بكر كانت تقع شمال الجزيرة ، في حوض الدجلة وكانت قاعدتها آمد - ديار بكر اليوم - ومن أهم مدنها ميفارقين وأرزن .

وتقع ديار مضر غرب الجزيرة ، في حوض الفرات الأوسط ، ورافده البليخ . وقاعدتها مدينة الرقة ومن أهم حواضرها الرها - هي اليوم أورفا - وحران وبالس - وتقوم مكانها اليوم مسكنة .

أما ديار ربيعة فإلى الشرق والجنوب ، وهي أكثر الأقسام الثلاثة اتساعاً ، وأعظمها مدناً ، لأن فيها ماردین . ورأس العين ، ونصيبين وجزيرة ابن عمر ، وكانت تضم منطقة الخابور ، ومنطقة الدجلة الأوسط حتى تكريت . والسهول الواقعة بين الخابور والدجلة ، وكان يتبعها أيضاً البلاد الواقعة على الضفة اليسرى للدجلة ، وعليه تكون « الجزيرة السورية » القسم الأكبر من ديار ربيعة « الجزيرة السورية بين الماضي والحاضر لإسكندر داود ص ٢٧ » .

(٢) ضمت هذه البقعة إلى سورية سنة ١٩٢٨ بعد تخطيط الحدود النهائي بينها وبين تركيا ، وجعلت قضاءً كان مركزه في « عين ديوار » ثم نقل إلى « ديريك » وسمي بعد ذلك قضاء الدجلة وأطلقوا عليه مؤخراً اسم « المالكية » وتتألف المنطقة من قسمين متتلقيين : البقعة الجبلية في الجبال ، والسهول المعروفة بمنطقة تل كوجك في الجنوب .

بلاد ثواها « آدم » بعد جنة إليها انتمى الأبطال في كل حقبة
ولدت بها فوراً على غير موعد غداة أأتاها والدي لنزهة
بشهر فشا فيها الوباء مؤلفاً وشاع انتشاراً في بلاد الجزيرة^(١)

* * *

لم يكد يبلغ الثانية عشرة من عمره حتى انتقل به أهله إلى سورية يتعلّم
مبادئ القراءة والكتابة ، ومنها إلى « دير الشرفة » في لبنان ، يدرس العربية
والسريانية والإيطالية .

وكان منذ صغره شعلة ذكاء ، قوى الحافظة ، يلتهم ما يعرض عليه التهاماً ،
وما كادت تظاير بوادر نبوغه حتى أرسل إلى روما حيث أدخل مدرسة « مجمع
انتشار الإيمان » فبرز على أقرانه خلال فترات قصيرة ، وما كاد يحظى بلقب
— دكتور في الفلسفة — حتى عاد إلى الشرق مزهواً بما ظفر به . . .

وإذ أخذ مبادئ الفلسفة المسيحية من منابعها رغب بطريرك السريان
الأنطاكي أغناطيوس أنطون سميجرى أن يضمّه إلى سلك الكهنوت للإفادة من
مواهبه : فامتنع أولاً إلاّ أنه رضخ أخيراً نزولاً عند رغبة الكثيرين من آله
وذويه فسيم رئيساً لطائفة السريان في بيروت .

ومجتمع بيروت ، حيث يضمّ صفوة من الأعلام ، هو غير مجتمع الجزيرة ،
وهذا الذي حفزه إلى القبول ليعيش حياة قريبة من الحياة التي قضّاها في
روما . . .

وأول عمل قام به بعد أن تعرّف على مجتمع بيروت ورجالها وما يحتاجه أبناء
طائفته — أن أسس مدرسة صار لها شأن عظيم حتى قصدها طلبة العلم من كل أرجاء
المدينة ، وصارت تبارى غيرها من المدارس العالية ، وكان من جملة تلامذتها أنجال
متصرف بيروت كامل باشا الذي صار بعد ذلك صدرّاً أعظم ، كما أنشأ سنة ١٨٦٣
مطبعة لنشر الكتب في اللغات العربية والسريانية والتركية^(٢) .

وإلى جانب عمله الكهنوتي والمدرسي اقتحم الميدان الصحفي فأصدر في

الحادى عشر من آيار « مايو » سنة ١٨٧٠ مجلة « النحلة » ولكنها لم تعمّر طويلاً « لأنه تجاوز الحدود التي كان فرضها على نفسه وتحرّش بمسائل سياسية ومناظرات دينية ساقّت راشد باشا والى سورية إلى إلغاء « النحلة » . إلا أن هذه الصدمة لم تفتّ من عزيمته فأصدر مجلة ثانية سمّاها « النجاح » وقدّر أن تستمرّ ولكنه واجه الفشل ولم يكتب لها النجاح لأنه تعرّض للسياسة وللطائفية مما اضطر الحكومة إلى إقفالها .

وهنا داخل قلبه اليأس من الإصلاح فقرّر الهجرة رآن يقوم برحلة حول العالم فركب البحر في شهر آب « أغسطس » سنة ١٨٧١ وظلّ يتنقل من قارة إلى قارة حتى استكمل دورة الأرض في سنتين وسبعة أشهر .

وكان بحق أول سوري بل أول شرقي يقوم بهذه المغامرة

وقد أشار إلى ذلك في إحدى قصائده بقوله :

وقد طفت حول الأرض شرقاً ومغرباً رصيتى سرى قبلى يذيع برحلتى
وما طاف قبلى من بنى سام طائف ولا جال منهم بالبيطة جولتى

وقد أنتجت هذه الرحلة كتاباً طريفاً سمّاه « الرحلة النحلية » ذكر فيها أهم الشؤون العالمية والتاريخية المنوطة بالبلاد التي زارها مع سكانها ولغاتها وصناعاتها وزراعتها وحيوانها وأديان أهاليها وعاداتهم وأخلاقيهم .

* * *

بعد هذه الرحلة الطويلة ، وبعد أن رأى العالم بشتى ألوانه وأجناسه ، ومختلف عاداته وثقافته — عاد إلى بيروت متعباً ، ولكنه كان أكثر نشاطاً وأوسع معرفة

رفى بيروت ، عاوده الحنين إلى الصحافة ، وهى الميدان الميسر لنشر آرائه وما اختزنه في ذاكرته من مشاهد وآراء فأصدر « النحلة الفتية » ، وما كاد ينشر على صفحاتها بعض آرائه الحرة حتى اصطدم بموضوع طائفي حساس كاد يودى به ، وكان من جرائه أن هرب من بيروت إلى ليشربول حيث

نشر رسالة سمّاها « موسى الخلافة » ضمنها الكثير من الوخزات بالرّد على خصوصه (١).

* * *

ومن ليشربول سافر إلى أمريكا — إلى نيويورك وفيلادلفيا فكث فيها بضعة شهور اطّلع خلالها على الكثير من المظاهر العلمية . . . ثم عاد إلى لندن ليعمل في الصحافة من جديد ، فأصدر سنة ١٨٧٧ مجلته « النحلة » باللغتين العربية والإنكليزية .

وربما كان أول صحفي عربي اجترأ على هذه المحاولة ، أي التحرير بغير لغته . . .

وبدأ نجمه يسطع ولا سيما بعد أن نشر سلسلة مقالات في محاربة الاستبداد في الدولة العثمانية . . .

وانضمّ إلى رزق الله حسّون في تحرير « مرآة الأحوال » . . .

واستطاع عن طريق الصحافة والخطب التي كان يلقيها في المنتديات العامة أن يحظى بمقابلة فيكتوريا ملكة بريطانيا . . .

وفتحت له هذه المقابلة الاتصال بأكثر من ملك وأمير — شرقيين وغربيين . . . فقد اختاره سلطان زنجبار أن يكون وكيله ومعهده .

ووثق صداقته مع ناصر الدين شاه . . .

وقابل قداسة البابا مرتين .

واختاره ولي عهد إنكلترا الذي صار فيما بعد ملكاً باسم إدوار السابع — أستاذاً للغات الشرقية في دار الفنون التي أنشأها الأمير في لندن باسم

The imperial institute وتناول الطعام على مائدته مرتين . . .

وكان على اتصال مع الميكادو وإمبراطور اليابان ، ومع ملك حيدر آباد .

* * *

(١) لقد اتفق في غضون إصدار مجلته الثانية ظهور مسألة تاريخية تتعلق بأصل إيمان الطائفة المارونية واستنصر النفس بولس اللقائين بعكس ماترثية الطائفة المذكورة ، ونشر مقالات خارجة عن هذا الموضوع فثارت عليه من جراء ذلك فتنة من الرعاع كاد يذهب فيها قتيلا .

بعد أن ذاع صيته في عواصم الغرب ، وفي أمريكا : يَمَسُّ الآستانة سنة ١٨٩٠ وسرعان ما احتضنه السلطان عبد الحميد فعينه في « المعية الشاهانية » وأنعم عليه بدار فسيحة في أحسن بقعة من ضواحي الآستانة بكل ما فيها من الرياش^(١) وجعل له خمسين ليرة عثمانية راتباً شهرياً ، وأصدر إليه إرادته السنية بالمشول بين يديه مرتين في الأسبوع ، واختاره أستاذاً لأنجاله في فن التاريخ العام ، و مترجماً لجلالته من اللغات العربية والإنكليزية والإفريقية والإيطالية — إلى التركية ، ثم عينه عضواً في المجلس الكبير لنظارة المعارف ، ولبث على هذه الحال حتى أعلن الدستور العثماني فاعتزل المأموريات ملازماً بيته ، ومنقطعاً إلى التأليف والمطالعة^(٢) .

* * *

وفي ميدان التأليف أنتج فيضاً زاخراً من الكتب والرسائل في شتى ميادين المعرفة ، بلغته وبغير لغته . . .

وكان لمعرفته اللغات أثره في تبحره واطلاعه الواسع . . .

ويذكر الذين عرفوه أنه تعلق ، منذ فجر شبابه ، بدراسة عشر لغات أحكم أصول سبع منها وهي العربية والسريانية والتركية والإيطالية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية . . .

وفيما يلي إلماع إلى ما تركه من تأليف ومترجمات :

١ — نقل اثني عشر كتاباً من أشعار فرجيل الشاعر اللاتيني إلى اللغة الإيطالية .

٢ — فلسفة ما بعد الطبيعة .

٣ — تهذيب الأخلاق .

٤ — المرأة السنوية في القواعد العثمانية — مترجم عن التركية للوزيرين فؤاد

باشا وجودت باشا .

(١) القصر عرف باسم « فقير النحل » وهو قائم في جزيرة الأمراء على شكل هندسي جميل ، وقد نقش في صدر البيت صورة « عين » مع هذه العبارة « عين الله تعالى على محبيه الصادقين » وحفر فوق المدخل والأعمدة سبعة أبيات جاء في آخرها :

اجعل بلطفك يا إله سعادتي يوى بها بالعز يتلو ليلتي

(٢) نفس المصدر ص ٧٤ .

- ٥ - جمال الكائنات : وصف الجمال في الحيوان والنبات والجماد .
- ٦ - الرحلة النحلية ، وقد طبع قسمًا منها في القسطنطينية وزينه بالرسوم .
- ٧ - قاموس إنكليزي عربي .
- ٨ - تنزيه الأبصار في رحلة سلطان زنجبار .
- ٩ - شاول وداود - رواية تمثيلية مترجمة عن الإفرنسية .
- ١٠ - كتاب « حر عثمانى » وضعه باللغتين التركية والإنكليزية بعد إعلان الدستور العثماني .
- ١١ - مرآة لإرميا الثاني الشجية على خراب أورشليم السريانية .
- ١٢ - السكان في النجوم والأقمار : يحوى نحو ألف وخمسمائة صفحة مزينة بالرسوم الكثيرة ، وقد قسمه مؤلفه إلى ثلاثة أقسام : الأول وفيه ذكر العلماء والشعراء والفلاسفة وأصحاب الأديان العظام الذين علدوا من أعصار قديمة إلى القرن العشرين وجود خلائق ناطقة على سطح النجوم والكواكب ،^[٧] وأورد في القسم الثاني أحوال الشمس وسياراتها وسكانها العلوية ، وأتى في الثالث على وصف النجمة الأرضية .
- أما كتبه غير المطبوعة فوى :
- ١ - قاموس الألفاظ المصطلح عليها في العلوم الفلسفية وسائر العلوم والفنون : مترجم عن اللاتينية إلى العربية .
- ٢ - تاريخ فتنة حلب سنة ١٨٥٠ .
- ٣ - تاريخ فتنة لبنان وسورية في سنة ١٨٦٠ .
- ٤ - تاريخ الثورة العرابية في الديار المصرية سنة ١٨٨٢ .
- ٥ - الحق القانوني .
- ٦ - تاريخ بطارقة السريان .
- ٧ - مشاهير الرجال ، يشتمل على سير العلماء من اليونان والروم والعبرانيين والسريان والكلمدان في اللغة اللاتينية .
- ٨ - الأحوال المنطقية - بحث في الفلسفة العصرية والقديمة .

- ٩ - مرآة الأعيان في تسلسل الأديان .
 ١٠ - مجموع مقالات سياسية كتبها بالتركية ويبلغ عددها ٢٠٠ مقالة .
 ١١ - مجموع قصائد لاتينية نظمها في صباه .
 ١٢ - قصائد ونشائد في اللغة الإيطالية .
 ١٣ - مجموعة قصائد ومقالات سياسية في اللغة الإنكليزية .
 ١٤ - مواعظ في اللغات العربية والإنكليزية والفرنسية والإيطالية .
 ١٥ - أفكارى : جمع فيه كل ما جرى له من الحوادث مدة حياته في مجلدات شتى . . .

١٦ - مختصر تاريخ جميع الأديان « وضعه بالإنكليزية مبتدئاً من الديانة الطبيعية فالآثورية فالمرثائية فالبرهمية فالبوذية فالوثنية فالمصرية فاليهودية فالمسيحية فالمحمدية فالبروتستانتية فالشكر فالرولر فالجمبر وهلم جرا . وقد طبعه في لندن ، ثم ترجمه إلى التركية والإيطالية ولم يطبع .

* * *

ومن مآثوراته لوحة زيتية كبيرة طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة : وهي تمثل تسلسل جميع الأديان من عهد آدم إلى يومنا هذا ، وفيها ٦٦٠ شخصاً ، من جعلتها رسوم جميع الذين أنشأوا ديناً أو مذهباً مع طريقة عبادتهم ورموز عقائدهم وطقوسهم .

ثمة ديوان شعر كبير في ٥٨٦ صفحة سماه « شعر النحلة في خلال الرحلة » . وشعره شعر فيلسوف روحاني امتلأ فؤاده بالوعظ والتوجيه الإنساني ونثر العبر ، ليس فيه طلاوة الشعر وموسيقاه وقوة سبكه وإن اصطنع بالهواجس التي كانت تخطر بباله وتصوّر بعض ظواهر مجتمعه .

ورأينا في شعره اليوم يختلف عن آراء معاصريه الذين كانوا يرون فيه الطلاوة وتحاشى الكلام المهجور والألفاظ اللغوية البعيدة عن إدراك الجميع ، فقد « سلك فيه أسلوباً جديداً لا يعهد في أساليب شعراء العرب ، ونهج منهجاً حديثاً يندر فيه ذكر البيداء والنوق والرحال والرومال والخيام وما جرى مجراها مما يدور عليه محور كثير من أشعار أهل الوبر ، واعتاض عن ذلك بالسكك الحديدية

والقطار والباخرة والكهرباء وما أشبه ذلك من اختراعات العصر عند الحضرة^(١) ،
وقد أشار إلى ذلك في هذه الأبيات :

لأسفار أهل البعيد رحلٌ وهودجٌ ونوقٌ عليه العربُ تغزو وتسرح
ونحن قد اعتضنا عن الكل في السرى بفلكٍ كحوت البحر تجرى وتسبح
وفي البر سرنا في قطارٍ يجره بخارٌ يحاكيه العقاب المجنح

والواقع ، أن الدكتور صابونجي لم يكن أديباً ذا أسلوب مشرق ولا شاعراً
فحلاً ملك ناصية القوافي بل كان عالماً واسع المعرفة يعبر عن آرائه شعراً زئيراً
بلغة سهلة بعيدة عن التقعر . وكثيراً ما عبر عن نفسه بقوله إنه « كاتب شعبي
وليس بمنشئ لغوى » . ولو أراد أن يكون من أنداد اليازجي ، أى أن يحصر
مواهبه باللغة والأدب ، لبزّ الكثيرين وفاق أقرانه من أساطين البلاغة ، ولكن
هذه المواهب توزعت على شتى أنماط الفكر ، فكان « دائرة معارف »
واسعة ، يحيط بكل شيء علمياً وصناعة وفناً وشعراً ووعظاً ، وتأليفه المتباينة
الأهداف ترمز إلى ذلك .

إن قصة هذا الإنسان هي قصة العصامين الموهوبين .

من قرية في أقصى الجزيرة إلى أعظم عواصم الدنيا يعيش مع الملوك والأمراء
يؤاكلهم ويشاربهم ، يحدثهم ويراسلهم ، ينال رفدهم وأرسمتهم ، فإن دلّ
هذا على شيء فعلى النبوغ السورى الذى لا تكاد تفتتح أمامه مغاليق الدنيا حتى
يتبوأعلى المراكز ويترك أجمل أثر في تاريخ الفكر البشرى .

مختارات من شعره :

إلى الله

إلى الله تنحو النفس بعد انفصالها وتُجزى بخير أو بشرٍ فعالها
 وإن قيل : بعد القبر ليس قيامةٌ فقلنا : على الزنديق كان وبالها
 وإن قيل : ليس النفس تدرى معادها فقلنا : ستدرى حين يأتي ارتحالها
 إلى الله عود النفس بعد جهادها متى حلّ من قيد الحياة عقالُها

وحاججه ذات يوم فيلسوف من أتباع فلسفة اسبينوزا اليهودى المنكر لوجود
 الله ، فما كان منه بعد الجدل الطويل إلا أن نفّس عن صدره بهذه
 الأبيات :

يسبّح مَنْ في البر والبحر والعلّا إلهاً تجلّى بالخلاق للملا
 كيّانٌ بلا بدءٍ وحدٌ وحيز به البدء منذ البدء كان ممثلاً
 إله على عرش بلا حدٍّ مركز يسوس وحيداً لا شريك له ولا
 رآه بعين العقل كلٌّ موحدٍ وغاب عن الزنديق بالكنه واعتلى

ونظم هذه الأبيات لتُنقش على قبره :

قضى العمر في الأسفار طالب حكمة بروم فنوناً لا تحدُّ وتحصرُ
 ومَنْ كانت الدنيا النفسِحة كلّها تضيقُ لديه في الحياة وتصغرُ
 كفته بسعيد الموت أضيق حجرةٍ كما اكتفيا بالمثل كسرى وقبصر

الشيخ إبراهيم الحوراني

١٨٤٤ - ١٩١٦

شاعر أديب ، جمع بين العلم واللاهوت ، وبين التدريس والصحافة ، وكانت مهنة التعليم ورسالة الوعظ في نفسه أغلب . .

حلبى المولد ، حمصى المحتد .

» . . كان يسمّى نفسه حلبياً لمولده في حلب ويقول : مولدى في حارة (الزبال) من محلة الصليبية «^(١) .

بعد مولده بسنة عاد والداه به وبأخيه الأكبر إلى حمص فقصى فيها طفولته وفتوته يتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، فما كاد يبلغ سنة ١٨٦٠ السادسة عشرة من عمره حتى نزع والداه بالأسرة إلى دمشق حيث أقام فيها حتى سنة ١٨٧٠ . وقد درس الفقى خلال هذه السنوات العشر في مدرسة الأمريكان في « عبيّته » ، وتعلمذ على الدكتورين ميخائيل مشاقفة ويوسف دمّر : أخذ عن الأول الرياضيات واللغة والفسيولوجيا والمنطق ، وعن الثانى : الطبيعيات والكيمياء . وإذ كان من الأوائل بين أقرانه ، وقد تزوّد بثقافة مكنته أن يرقى إلى مرتبة المدرسين - دعتة « الكلية الأمريكية » في بيروت ليدرّس علوم البلاغة والرياضيات والمنطق فقبل المهمة ، وظل طوال حياته في حرم الجامعة يدرس ويكتب وينظم في الشؤون التى تتصل بثقافة عصره . .

كان ينظر إليه كما ينظر إلى الشيخ إبراهيم اليازجى الذى لم يكد يترك تدريس اللغة والأدب في المدرسة البطريركية سنة ١٨٩٤ حتى كلف بتدريس هاتين المادتين ، فأنس به تلاميذ اليازجى وعرفوا فضله . وتابع التدريس في « الكلية الأمريكية » ، إلى اضطلاعاه بتحرير مجلة « النشرة الأسبوعية » التى ملأها بمقالاته وشعره وترجماته . .

لقد عاش الحوراني فترات الانتقال بين عصرين : النصف الثانى من

(١) « أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر » لقسطاكي الحمصى ص ٤٥ .

القرن التاسع عشر ، ومنتصف العقد الثاني من القرن العشرين ، وبالرغم من مظاهر الحياة في القرن العشرين ظلّ مشدوداً إلى القرن التاسع عشر ، أقرب إلى المحافظين المتزمتين منه إلى المجددين المنطلقين . .

يبدو ذلك واضحاً في شعره وأدبه ونمط تفكيره . .

ففي الشعر وأغراضه ومناحيه « لم يبتكر جديداً . ولم يجترح في نظام الشعر خارقاً ، وإنما سلك الأغراض التي قصد إليها الشعراء في عهده ، وفيها ما هو صدقٌ للقديم ، وما هو وليد العصر . .

آثر المحجاز وأكثر من التشبيه والاستعارة .

وبرع في فنون البديع على اختلافها ، فحلت بها شعره ، وزين ألفاظه . وأكثر ما نصادفه في شعره من ضروب البيان : التشبيه والاستعارة ، ومن فنون البديع الطباق والتورية والجناس ومراعاة النظير .

فن جيد تشبيهه قوله يصف طول أرقه (١) :

قد طال ليلي لما قاسيت من أرقٍ فرمت صبحي فلاقاني بكل شقا
كأنني من فراشٍ فرّ من غسقٍ إلى سني لهب المصباح فاحترقا
ومن روائع تشبيهه المقلوب قوله متغزلاً :

من فرعها خلّق الدجى وقد انجلى من فرقها وجيئها الفجران
لو أن رقّة خصرها في قلبها ما ذبتُ وجداً من لظى الهجران

شعر لا تسيغه أذواقنا ولا يعبر عن حس صادق وشعور مرهف . وكان لابدّ له وهو أستاذ بلاغة إلا أن يعطى تلاميذه نماذج على الطباق والتورية والجناس ومراعاة النظير .

وقد طرق جميع ألوان الشعر من مديح إلى رثاء إلى غزل إلى المعانيات والإخوانيات ، فكان في جميع ما نظمه ألصق بالنهج الذي تغلب فيه الصنعة على الطبع .

ففي مجال المدح مثلاً : « يستهلّ مدائحه بالغزل التقليدي ، فيحنّ إلى ديار الأحباب ، ويشكو ألم البعاد ، ويعاتب على الصدد والهجران ، ثم يشيد

بمحاسن المحبوبة ويغالى في وصف الحرقه ، ولا يلبث أن ينتقل إلى الممدوح ،
 يطرئ مزاياه ويعان فضله ، فإذا استنفد جعبته ختم قصيدته بالدعاء الحار ،
 وبالتاريخ الشعري ، وربما جعلها عروساً زانتها جواهر الأفكار ، وحلتها عقود
 البيان ، فإذا هي ترفل في حلة زاهية من نسيج البلاغة وزركشة البديع « (١) .
 هذا ، وهو معتز بما نظمه من قصائد ومقطوعات ، ويبرر هذا الاعتزاز
 بورائته الشعر عن أجداده الغساسنة فحلّاه بعلم العصر ، وهذا الذي جعل القوافي
 تخضع لتريحته خضوع العبيد ! !

ورثت الشعر عن بلغاء قومي بني غسان أرباب البنود
 وحليت القريض بعلم عصر خلا من مثله دهر الجودود
 فجاءتني القوافي خاضعات لأمر قريحتي مثل العبيد

هذا الاعتزاز بشعره والاعتداد بذاته وبقدرته على النظم حفزه أن يطرق كل
 باب ، وقد ترجم شعراً بعض مقطوعات من شعر شكسبير وملن وغيرهما من شعراء
 الإنكليز ، وجال جولة واسعة في الأدب الشعبي فنظم الزجل والموااليا (٢) . وحين

(١) نفس المصدر ص ١٤٩ .

(٢) يقول قسطاكي الحمصي إنه قد نظم موالا سباعواياً كان يتغنى به وهو في الحادية عشرة من

عمره :

يا ساكن البان صبرى من بعداك بان
 يبكى دماً كلما غنى حمام البان
 شرك كتمته ولكن من دموى بان

والدمع فضاخ أرباب الهوى في الصبا
 يا روح عطفاً على العاني أسير الصبا
 مولاي شكواى أطف من نسيم الصبا

وإن كان بهز عطفك يا غصن البان

ومن موشح له قوله :

يللى بلحظك بابل الأسحار وبصحن خدك كوكب الأنوار
 شرك مصون بمهجة المفتون ما بتدركه الأبواب والأفكار

* * *

شرك مصون بمهجة المفتون لولا دموى والعيون عيون
 يا ظلي عينك سيفها مسنون

طرق باب الزجل برّر وجهة نظره بمقال عنوانه « لمحة في الشعر الفصيح والعامي منه » قال : « بعض الناس يطربون بالفصيح دون غيره ، وبعضهم يطربون بالعامي دون الفصيح ، وبعضهم يطرب ببليغ الشعرين ، وهو صاحب الذوق التام » ^(١) .

هذا الشاعر الأديب لم يقصر جهده على اللغة والأدب ، بل خاض في علوم زمنه . وكان لنزعته الدينية ، وهو من علماء اللاهوت . الأثر المباشر في تكوينه الفكري واتجاهه الأدبي ، فحين تناول العلماء والأدباء ، وعلى رأسهم الدكتور شبلي شميل ، نظرية « داروين » في النشوء والارتقاء كان في طليعة المتصدين لنقضها بكتابه « الحق اليقين في الرد على بطل داروين » و « مناهج الحكماء في نفي النشوء والارتقاء » .

وحين سخر الدكتور شميل من المؤمنين بالحياة الأخرى بقوله :

زعموا أنني سأبعث حيًّا بعد طول المقام في الأرماس
وأجوز الجنان أرتع فيها بين حور وولدة أكياس
أى شيء أصاب عقلك يا مس كين حتى رميت بالوسواس
أجابه الخوراني بقوله :

قال ابن فلسفة : أئى قرد كذاك أرى أباك
قلت : الصحيح مقدم فلقد صدقت ببعض ذاك
قال : اعتزل قولاً بلا معنى يفيد وسدّ فاك

| | | |
|---|----------------------------|----------------------------|
| = | قطع أكباد الغزلان | وجندك آساد الفرسان |
| | واستعبد مىّ وغيلان | وليل وعاشقها المجنون |
| | ولخطك صاب أسود الغاب | برشق حراب وشقّ كبود |
| | وهز العطف رماح الحتف | وسل الطرف سيوف هندود |
| | وراح الراج بنير قداح | وبلبل صاح بلحن العود |
| | ومال البان وسرى بان | وكان الكان بكاف ونون |
| | سر الهوى مدفوق | مع دمعة العاشق |
| | يا فتنة المخلوق | يا آية الخالق |
| | قلب الفتى مسروق | من لخطك السارق |
| | سحر العيون بيسر في الأرواح | ويظهر الأخفى من الأسرار .. |

أفحمت قبلك كل من علموا ولست كمن سواك
فأجبت : إنك صافق خلفتهم طرّاً وراك
ودليل صدقك حمرة كالنار في أعلى قباك
لو لم تكن أفحمتهم بالعلم ما صفعوا قفاك

لقد عاش الشيخ إبراهيم الخوراني حياته بين المحابر والأقلام ، وفي قاعات
الدرس وعلى منابر الوعظ ، يحاضر ويعظ ، يؤلف ويترجم ، فترك خمسة وعشرين
مؤلفاً بين كتاب ورسالة أحصاها الدكتور كمال اليازجي الذي اعتمدنا عليه
في الكثير مما جاء عن سيرته — فيما يلي :

المؤلفات المطبوعة :

- ١ — جلاء الدياجي في المعميات والألغاز والأحاجي — بيروت ١٨٨٢ .
- ٢ — الآيات البينات في عجائب الأرض والسموات — بيروت ١٨٨٣ .
- ٣ — مناهج الحكماء في نفي النشوء والارتقاء — بيروت ١٨٨٤ .
- ٤ — الحق اليقين في الردّ على بطل داروين — بيروت ١٨٨٦ .
- ٥ — القلائد المدرية في الحياة المسيحية — بيروت ١٨٩٦ .
- ٦ — بيروت — ١٩٣٦ .
- ٧ — الضوء المشرق في علم المنطق — ١٩١٤ .
- ٨ — غرائب الحياة في صغار المخلوقات — بيروت ١٩٢١ .

المؤلفات المخطوطة :

- ١ — الكوكب المنير في علم التفسير .
- ٢ — العرس البديعة في علم الطبيعة .
- ٣ — الإعراب في نهج الأعراب .
- ٤ — شمس البرهان في علم الميزان .
- ٥ — الشهب الشواقب .
- ٦ — ديوان شعر كبير في دفتين كبيرين .
- ٧ — مجموعة من الشعر الزجلي .
- ٨ — مقامتان باللغة العامية .

الكتب المترجمة :

حكم الإنصاف في رجال التلغراف — بيروت ١٨٩٥ .

تاريخ الإصلاح .

عدد الصفحات ٨٩٩ — بيروت ١٩١٣ .

أعظم ما في العالم .

وقد ذكر بين آثاره المترجمة الكتب التالية ولعلها لم تنشر ، أو نشرت

فصولاً ولم تجمع :

سكان وادي النيل .

الطريق السلطانية .

التاريخ الكبير .

سيرة القديس أوغسطينوس .

بين المحبة وأشياء أخرى في العالم .

المواعظ الميلادية .

ومن شعره :

من غزلياته :

فحيا الله مغناها

إلى جنّات محياها

بذكرها بذكرها

أثمت : استغفر الله

من الأشواق ستواها

بنور العرش حلاها

بقلب الصب مرماها

سُليمي فاح رباها

فسر بي أيها الحادي

ورنم أيها الشادي

وقل للعاذل الأعبي

لأهل الحب أرواح

وللغادات أعناق

وللألحاظ أسهام

ومن حنينه إلى مسقط رأسه ، فقد لمح وهو في ربوة دمشق بارقاً يضيء من

جهة حمص فقال :

سلام على مغني الصبابة والصبّ

رشفنا بها ما راق من مسكر الحبّ

شموس الضحى ليلاً عليه من الغرب

قباب سماءٍ لا تغيم ولا تغبي

أقول إذا ما لاح من حمصَ بارقٌ

سلامٌ على أيامنا في مشاهد

سلامٌ على «مرج الطواحين» كم بدتْ

وغابت عن الأبصار في خيّم حكتْ

وذكرها في شتى المناسبات :

ما حمصُ إلاّ جنّة
وزلاله خمر بلا

وله يلوم العاذل مؤثراً الموت في الحب على الحياة خليّاً :

يا عاذل العاشق الوهّان في غزل
لمعشرِ الحب أرواحُ وأفئدة
فلا تلمني فنّ أهوى بها تلقى
حسبي إذا مُتُ فيها قوهم ، وأنا
ووصف خداع الدنيا بقوله :

دياك مثلُ عشيقة طبعَتْ على
شوهاءُ أظهرتِ الحلى وإنما
والناس من سكر الصبابة لم تفق
هاموا بظاهر حسنّها فمؤخر

وقال في الإيمان بالله والتوفر على عمل الخير :

المراء يرجو اليوم ما في غدٍ
فوتّه في البر من سعده
لا نفع للإنسان من كونه

وقال في هيكَل أوثان :

ولم يزل كلُّ قلبٍ عابداً صنماً
فبعضهم ربُّه الديباج يعبدّه
والأرض « هيكَل أوثان » لكل فتى
كل الرذائل والأوثان آلهة
إن الرذيلة حبلى بالشرور على

ومن شعره في المرأة :

استراح الله لما خلق الـ
ثم لما خلق المرأة لم
مرء في الجنة في بر وراح
يستريح منها ، ولا المرء استراح

مريانا المراثش

١٨٤٨ - ١٩١٩

حين أذكر مريانا المراثش أذكر تلك الفترة الغامضة من الحياة الأدبية التي عرفتها حلب والتي كانت تضم صفوفه من الأعلام في طليعتهم رزق الله حسون ، وجبرائيل الدلال ، وعبد الرحمن الكواكبي ، والشيخ كامل الغزي ، وعبد المسيح الأنطاكي ، وقسطاكي الحمصي ، وغيرهم من الأدباء والشعراء . فقد كانت هوية الأدب تجمع بينهم وتؤلف بين قلوبهم برباط من الود وثيق .. فلا يكاد أحدهم ينظم قصيدة ، أو يكتب مقالة أو ينشئ مقامة حتى يبحث عن صديق أديب تتجاوب نفسه معه .

وكثيراً ما كانوا يلتقون في منازل بعضهم يتناشدون الشعر وينثرون النكات ، ويتحدثون هذه الأحاديث التي تمس المعدة والمجتمع .. فإذا تجاوزت هذه الأحاديث إلى أنباء السياسة كانت تعليقاتهم مهموسة وفي جو الخوف والذعر ، إذ لم يكن العهد الحميدى الذى نشأوا في ظلاله يسمح لهم أن يتحدثوا هذه الأحاديث بروح منطلقة .

في تلك الفترة نشأت مريانا المراثش .

وكان بيت أبيها من البيوتات العريقة التي لها مشاركة بحياة الفكر والأدب . وكان لأخويها فرنسيس وعبد الله ، والأول شاعر طبيب والثاني تاجر أديب ، أثرهما غير المنكور في توجيهها نحو حياة الفكر ..

فبعد أن أتمت دراستها الابتدائية في مدرسة مار يوسف — وكانت قد دخلت المدرسة المارونية في الخامسة من عمرها — انتقلت إلى المدرسة الإنجليزىة في بيروت التي أنشأها الدكتوران أدى وورتيات ، فدرست فيها مبادئ اللغة العربية والحساب وبعض العلوم ، وفي الخامسة عشرة من عمرها أخذ أبوها يعلمها الصرف والنحو والعروض ، ثم تلمذت على أخويها اللذين أشربا قلبها حب الأدب ، فحفظت في بدء نشأتها الأدبية الكثير من شعر سلطان العاشقين عمر بن الفارض .

الفارض والبيوت الحلبية :

وكان شعره الوجدى قد غزا البيوت الحلبية فما من بيت إلا وقد حفظ بعض أفراده أكثر قصائد هذا الشاعر المتصوف .

ولا أعلل الأسباب بل أروى أطياناً من واقع تاريخنا القريب . . ففى بيتنا كانت عمى تحفظ ديوان ابن الفارض كله مع أنها أمية لا تقرأ ولا تكتب . وحين سألتها كيف أتبع لها حفظ هذه القصائد التى تربو أبياتها على الثلاثة آلاف بيت قالت :

كان أبوك يحفظ شعر ابن الفارض فى سويغات فراغه ، وكنت أنصت إليه باهتمام وأنا ملمومة على نفسى فى زاوية البيت فلا يكاد يتم حفظها حتى أكون قد حفظتها معه . وحين أعيد ترتيبها على مسمع من أذن جدك كان يبارك طفولتنا دون أن يثيره العجب ! . .

الشعراء العذريون :

ومريانا المراس كغيرها من السيدات الحلبيات ممن حفظن الكثير من شعر ابن الفارض ، وكان للشعراء العذريين أثرهم فى نفسها . . وكما أحبت شعرا ابن الفارض وإمام الغزلين عمر بن أبى ربيعة تعلقت بشعر لامارتين ودى موسيه .

كانت ترى فى تعبير أولئك الشعراء عن وجدهم وحبهم وشعورهم وأحاسيسهم إثارة لوجدها وحبها وشعورها وأحاسيسها . . وهى فتاة فى رونق الصبا . كانت تمر أيام صباها بهذا الجو من الشعر والموسيقى والجمال .

ملاحمتها وسحر جاذبيتها :

وعرف أدباء تلك الفترة وهم يترددون على بيت أبيها ، ما ينبض به قلب مريانا من حب للأدب ، وميل إلى قول الشعر إلى ولع بالموسيقى ، فأحبوا فيها هذه الخصائص .

وكانت ملاحظتها وسحر جاذبيتها بدأت تجذبهم .

وليس كالأديب إنسان يعشق الجمال ويحترق في سنا أضوائه . .

فإذا اقترن الجمال بالجاذبية ، وكان من جملة عناصره الأدب والشعر والموسيقى والذكاء والانطلاق — كان ذلك مدعاة لأن ترقص النفوس على مباهجه وأضوائه .

صالونها الأدبي :

نعم ، في بيت مريانا المرائش كان يجتمع أدباء تلك الفترة ، وربما كان بيتها أول صالون أدبي عرف في الشرق العربي ، فكانت تعقد الاجتماعات وتطول السهرات ، وتثور المناقشات ، وتكثر المواجيد والمطارحات .

ففي زاوية من زوايا بيتها كانت تنزل ربة الإلهام على قريحة اللغوى الشاعر قسطاكي الحمصي فيكتب إلى خاله الشاعر جبرائيل دلال المقيم في باريس قصيدة يبث فيها عواطفه ويبلغه شوقه ، ويحدثه عن معابثات إخوانه ويشير إلى « المآكل الحلبية » التي تتفنن مريانا في صنعها لهم .

وتشير هذه المقطوعة الشعرية قريحة الدلال فيجيبه بقصيدة طويلة يشكره فيها على عواطفه ، ويصف شوقه إلى حلب ، ويتنكر لأولئك الذين أكل الحسد قلوبهم فلم يعرفوا فضله ، ويقايس بين مآكل حلب الدسمة ومآكل باريس الشهية — أى شتى مآكلها المادية والمعنوية — ثم يمدح صفات مريانا ويشيد بنبوغها ، والقصيدة طويلة أجزئ منها قوله :

وإذا لم يكن هنا غير أن الـ حرّ فيها يعيش دون منازع
فهو يكتفى حظاً لقلبي وإن ساـ لت على غربتي غروب المدامع

ويقول :

لا ولا أشتهى سواكم ولا أرـ غب فيها من بعد تلك الوقائع
غير قرب الفريدة اللطف ذات الـ صون والحسن والذكا والبدايع
ربة الفضل والفضائل « مرياـ نا » التي ذكرها يسرّ المسامع
والتي زانها الكمال إذا زاـ ن سواها الحلّى وسدل البراقع

هذه المطارحات الأدبية كانت تدور في ظلال السهرات الماتعة التي تعقد في بيت مريانا المراه . ونحن نعلم أن صالونات الأدب التي ترعاها السيدات المترفات والأديبات الموهوبات تصبح ملتقى كبار الرجال من أدباء وشعراء وساسة ومفكرين . ولن أتحدث عن صالونات الأدب في الغرب فحسبي الإلماع إلى الصالونات الأدبية في شرقنا العربي — من صالون الأميرة فاطمة إسماعيل الذي كان يضم أعلام مصر من محمد عبده إلى قاسم أمين إلى سعد زغلول إلى غيرهم من الأفاضل ، إلى صالون هدى شعراوى زعيمة الحركة النسائية في الشرق العربي ، إلى صالون أديبة العرب الآنسة مكي حيث كان يجتمع في صالونها كل يوم ثلاثاء أكابر أدباء العرب وشعرائهم والصفوة المختارة من القضاة والساسة والصحفيين . .

ولا على أن أقول إن مريانا المراه كانت أول أديبة عربية فتحت بيتها لاستقبال الأدباء ، مع أن العصر الذي عاشت في ظلالة كان عصر تزمت وتقاليد .

أول أديبة كتبت في الصحف :

كما أنها أول أديبة سورية كتبت في الصحف كما روى الفيكونت دي طرازي صاحب كتاب « تاريخ الصحافة العربية » في عام ١٨٧٠ نشرت عدة مقالات في مجلة « الجنان » ، وفي جريدة « لسان الحال » وفي غيرهما من صحف ومجلات بيروت ، فمن مقالاتها مقال عنوانه « جنون القلم » شكت فيه حال انحطاط الكتاب وحرصت على تحسين الإنشاء ، وترقية الموضوعات والتفنن فيها . وقد أفادت أيما إفادة من اختلاطها بأدباء عصرها فنهجت نهجهم وسارت على غرارهم ، كما احتذت أساليب الشعراء أيضاً فنظمت قصائد ومقطوعات من الشعر الوجدى ، مدحت ورثت ، وصفت وتغزلت ، ولم يكن بيتها ملتقى الأدباء والشعراء فحسب بل كان يؤمه رجال الحكم ورجال السلك السياسى ، فدحت والى حلب آنئذ جميل باشا — ذلك الرجل العمرانى الذى كان أول من أسس المدارس المدنية في حلب من ابتدائية وإعدادية — وكانت محرومة من المدارس المدنية وليس فيها سوى الكتاتيب والمدارس الدينية الإسلامية وبعض الإرساليات

الأجنبية — بل إنه أول من وسع الجواد وافتتح الشوارع — مدحت هذا الرجل كما مدحت غيره من رجال السلك السياسي ، وكانت لزمنها من الشاعرات المشهورات . فإذا ذكرت عائشة التيمورية في مصر ، ووردة البازجي ووردة الترك في لبنان ، ذكرت مريانا المراس في سورية .

بنت فكر :

وقد جمعت مريانا قصائدها ومقطوعاتها الشعرية في ديوان بعنوان « بنت فكر » وهو يضم قصائد المدح وقصائد الوجد والحكم والرثاء ، وشعرها الوجدى ينم عن إحساس عميق وشعور متقد . وقصائدها الحكمية تدل على أنها عاشت تجارب الحياة بعقل كبير وفؤاد بصير . . فن منظوماتها الحكيمه قولها :

| | |
|----------------------------|------------------------------|
| شرف الفتى عقل له يسمو على | كل الورى فينال غايات المنى |
| وكذاك حسن الخلق فخر مسود | متسربل بالعطف نعم المقتنى |
| والمرء إن شهدت له أفعاله | بالفضل والآداب يكتسب الثنا |
| ما كل من طلب الكرامة نالها | من رام صيد الظبي حل به العنا |
| ذو المال يذهب ذكره مع ماله | لكن ذكر الفاضلين بلا فنا |

ورثاؤها لأخيها فرنسيس المراس وهو الشاعر الأديب والعالم الطبيب الذى كان أسبق من شبلى شميل وسلامة موسى وإسماعيل مظهر فى الدعوة إلى مذهب النشوء والارتقاء — أقول إن رثاءها لأخيها قطعة جمر من كبد محروقة . وكأنها الخنساء تثرى أخاها صخرًا . . فقد اسودت الدنيا فى عينها وعبرت أصدق تعبير عن حالتها النفسية ، تقول فى رثائه :

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| مالى أرى أعين الأزهار قد ذبلت | ومال غصن صباها من ذرى الشجر |
| مالى أرى الروض مكموداً وفى كرب | والماء فى أنفة ، والجو فى كدر |

والقصيدة طويلة ، فبعد أن تعدد مآثره وتندب فضائله تقول :

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| هذا الذى جابت الأقطار شهرته | قد صار مطّرحاً فى أضيق الحفر |
| خنساء صخر بكنه حينما نظرت | إليه ملقئ بلا سمع ولا بصر |
| أقلام أهل النهى ترثيه وأسنى | هل عاد من عودة يا مفرد البشر |

مذ غاب شخصك هذا اليوم عن نظري جادت عيوني بدمع سأل كالطر
 فيا لدهر خؤون لا ذمام له قد راى سهماً أصاب الفضل بالقدر
 فحزن يعقوب لا يكفى لندبك يا ندباً تفرد بالأجيال والعصر
 ويلاه من حزن قلب نال غايته مذ واصل القلب فى غم مدى الدهر
 فى بلجة الحزن نفسى ضاق مسكنها من ذا يسلى فؤادى ؟ قل مصطبرى

وأكتفى بهذا المقدار من شعرها وهو يعطينا صورة صادقة عن أديها - أدب عصرها الذى كانت تعيش أخيلته فى هذه الأجواء !

مريانا ومي :

عاشت مريانا المراس حياتها فى جو من النغم والألم ، عاشت مع الأدباء والشعراء ورجال الفن ، وقرأت ما كتبه أدباء الإفرنسيين وأدباء العرب فتكون عندها ثقافة تجمع بين القديم والحديث . وكانت تأنس إلى هذه الأجواء التى تغمرها أنغام الموسيقى ونفحات الأدب . يقول قسطاكي الحمصى أحد معاصريها :

« كانت مريانا مليحة القد ، رقيقة الشمائل ، عذبة المنطق ، فكهة الأخلاق :

طيبة العشرة ، تميل إلى المزاح ، حسنة الجملة ، عصبية المزاج ، وكان منزلها مثابة الفضلاء ، وملتقى الظرفاء والنبهاء ، وكان لنا عندها منزلة ترتد عنها أعين الحساد كليله ، فسقياً لأيام الشباب . ومجالس الآداب والأحباب ، ومساجلاتنا بالمحفوظ والبديه من الأشعار ، ورقصنا على العود والمزمار ، وصوت بلبل ذلك العصر المدعو بالحجار (يريد باسيل حجار أحد مطربي حلب المشهورين بجمال صوته وحفظه الأدوار القديمة والتواشيح الأندلسية) » .

نعم ، كانت تأنس إلى هذه الأجواء التى تغمرها أنغام الموسيقى ونفحات الأدب ، وكانت حياتها شبيهة بحياة مى مع فارق الزمن فى ملابسات حياة العصر . . فتحت صالونها للرجال المرموقين ، كما قلت ، فكانوا يجدون عندها هذه النفحات التى تذهب عنهم سأم الحياة وضجر العمل ، كما فعلت مى تماماً . ومن المقارقات الغريبة أن يتمكن الداء العصبى من الاثنتين فى أخريات

حياتيهما ، وكانت كلتاهما عصبية المزاج ، وقد يرجع هذا إلى فرط حساسيتهما .
ولئن كان الكبت الجنسي هو الذى أورث ميئاً هذا الداء ، فما كانت مريانا
كمي ، ولا سيما وقد ركبها الداء العصبى وهى متزوجة ولها أولاد .

أكان فرط الحساسية عند مريانا أكثر منه عند مى ؟

لا علم . . وهذا موضوع أدخل فى علم الطب منه فى عالم الأدب .
ولست طبيباً لأبحث هذه الناحية الفسيولوجية ، وكل ما أريد أن أقوله إنها كانت
أديبة عصرها فى تلك الفترة من الزمن حيث الجهالة طاغية . كانت نجمة من
نجوم الأدب المشعة فى سماء ذلك الليل البهيم .

الشيخ طاهر الجزائري

١٨٥٠ - ١٩٢٠

بجائته ، من أكابر العلماء باللغة والأدب .

ولد في دمشق سنة ١٢٦٨ هـ ، وهو ابن الشيخ محمد صالح السمعوني الجزائري من فقهاء المالكية ، وتولى الفتيا بمذهبه في دمشق بعد هجرته من الجزائر .

تلمذ الشيخ طاهر على الشيخين عبد الرحمن البوشناق وعبد الغني الميداني وقد أخذ عن الأخير « أفضل الأخلاق وأصح المبادئ العلمية » ، لم يمارس التافهات ولا شغل قلبه بالبدع والضلالات ، فكان درسه عليه درساً حقيقياً يراد منه الرجوع بالشرعية إلى أصولها والأخذ من آدابها بلباها ، ومحاربة الخرافات التي استمرأتها طبقات المتأخرين .

تولى التعليم لأول نشأته في المدرسة الظاهرية الابتدائية ، ثم عين مفتشاً عاما للمدارس الابتدائية التي أنشئت في عهد مدحت باشا حين كان والياً على سورية سنة ١٢٩٥ هـ .

أنشأ بمعاونة بضعة من أصدقائه دار الكتب الظاهرية فجمع فيها ما تفرق من المخطوطات . ولقى ممن يستحلون أكل الأوقاف مقاومة وأى مقاومة .

كان مغرمًا باقتناء المخطوطات وهو ابن سبع سنين يبتاع منها الدشوت والأوراق المبعثرة وغيرها من الأسفار والصحف ، ويقرأها ويحتفظ بها حتى جمع منها خزانة حافلة بالنوادر .

في سنة ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م - هاجر إلى القاهرة فراراً من ظلم العهد الحميدى وقد ظل في مصر لم يبارحها غير مرتين حين أدى فريضة الحج وحين حضر مؤتمر المستشرقين في باريس .

وفي ١٣٣٨ هـ - ١٩١٩ م عاد إلى دمشق فانتخب عضواً عاملاً في الجمع العلمي العربي ومديراً لدار الكتب الظاهرية .

يعتبره محمد كرد على من أئمة الإصلاح في دمشق ويلقبه بشيخ المصلحين ويقول :

« ندر جداً أن جاء في المتأخرين من علماء المسلمين ، أى في عصور الانحطاط العلمى ، رجل وعى صدره من العلم ما وعاه صدر الشيخ طاهر الجزائري ، فكان متضلعا من علوم الشريعة وتاريخ الملل والنحل وما يتشعب عنها ، منقطع النظر في تاريخ العرب وتراجم رجالهم وسلاسل أعمالهم ومناقبهم ومناقشاتهم ومناظراتهم ، فهو في ذلك الحجة الثبت ، ساعده على ذلك قوة حافظته التي لا تكاد تنسى ما تمر به مهما طال العهد ، قرأ جميع الكتب العربية التي طبعت في الشرق والغرب أو ترجمت من اللغات الأوروبية . أما المخطوطات التي طالعها فتقرب من المطبوعات إن لم تكن أكثر ، وقل أن يدانيه أحد في معرفة المظان ، ولذلك كان يسهل عليه التأليف في أى موضوع أراد ، وقد يؤلف الكتاب الممتع في بضعة أسابيع .

وكان إماماً في علوم الأدب كلها ، يحسن من اللغات العربية والتركية والفارسية ويعرف مبادئ الإفرنسية والسريانية والحشية والزواوية » (١) .

وقد وصفه أحمد زكى باشا - شيخ العروبة - بقوله :

« أستاذ الشام على الإطلاق ، فهو يضم بين طمره العلم اللحم والخلق الأشم » (٢) .

* * *

كتب الشيخ طاهر الجزائري ما يقرب من عشرين مصنفاً منها ما ألفه في صباه للمدارس الابتدائية ، ومنها ما ألفه لأغراض علمية خاصة ، ومن كتبه : « الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية » و « قصص الأنبياء » ورسالة في النحو وأخرى في البديع وثالثة في البيان ورابعة في العروض وكتاب « تسهيل الحجاز إلى فن المعنى والألغاز » وشرح رسائل ابن نباتة و « إرشاد الألباء إلى طريق تعليم ألف باء » وكتاب « توجيه النظر إلى علم الأثر » وكتاب « التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن » وهو مقدمة تفسيره الكبير الذى لم يطبع ويدخل في بضعة

(١) محمد كرد على في مجلة المجمع العلمى العربى سنة ١ ج ١ ص ١٨ - ١٩ .

(٢) « تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر » لمحمد سعيد البانى ص ١٠٠ .

مجلدات ، ومقدمة معجم اللغة الذى ألفه ولم يطبع وهو تام ، ومن كتبه « التقريب إلى أصول التعريب » ومختصر أدب الكاتب لابن قتيبة ، والإمام بسيرة النبي ، ومقاصد الشرع ، وغير ذلك من الكتب والرسائل والمقالات والتعليقات — هذا عدا مذكراته البالغة عشرات من المجلدات ، فيها وصف الكتب والرسائل المطبوعة والمخطوطة التى طالعها وبعضها محفوظ جدير بالطبع ^(١) .

* * *

من هذا العرض الموجز لسيرته نعلم اتجاه هذا الرجل الذى كان ، إلى ثقافته الدينية ، وتبحره بالعلوم الغربية ، واهتمامه بكنوز الأجداد ونفائس المخطوطات — كان من القائلين بمجاراة التيارات العصرية والأخذ بالمدنية الأوروبية . فقد وقف يحارب الجحود بجرأة ويناهض العلماء المتزمتين بأسلوب العقل المستمد من جوهر الدين . وكأنى به قد اختط لنفسه ذات الخطة التى اتبعها جمال الدين ومحمد عبده : وهذا الذى دعا علامة الشام الأستاذ كرد على ، وهو من تلاميذه الأوفياء المخلصين ، أن يلقبه بشيخ المصلحين ، فقد استطاع هذا المصلح أن يخلق مدرسة فى دمشق تقول برأيه وتسير وفق نهجه ، وهى مدرسة ضمت الكثير من الأعلام التى مهدت لنهضة دمشق الفكرية والعلمية — تلك النهضة التى يتمتع بشعراتها أبناء هذا الجيل . وأريد من مدرسته أثره فى تلامذته « إذ قل أن يوجد من أدياء هذا العصر وعلمائه فى بلاد الشام من لم يستفد من علم الأستاذ وتجاربه إن لم يكن مباشرة فبالواسطة ، وتلامذته الذين انتفعوا به فى شبابه فقط يعدون بالمثلث وأكثرهم اليوم ^(٢) يشغلون مقامات سامية فى دور العلم والحكومة والإدارة ومنهم المؤلفون والصحفيون والمتأدبون والناهبون ^(٣) .

(١) كرد على المصدر السابق ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) كتبت هذه الكلمة سنة وفاته (١٩٢٠) .

(٣) كرد على المصدر السابق ص ١٩ .

الشيخ كامل الغزى

١٨٥٢ - ١٩٣٣

أديب شاعر واسع المعرفة ، وهو فى ثقافته الأدبية وثقافته اللغوية من طراز الأستاذ المغربى ، يغوص على القديم فيستخرج من نصوصه اللآلىء والكنوز فيجملوها بلغة سهلة واضحة يسيغها أبناء العصر . . .

نشر الكثير من المقالات اللغوية والتحقيقات الأدبية فى مجلة « المجمع العلمى العربى » ولا سيما ما يتعلق بالفولكلور الحلبى .

أرّخ لحلب بكتابه « نهر الذهب فى تاريخ حلب » فعرض إلى أيامها الخوالى وما تعاقب على أرضها من أمم ، وتحدث عن آثارها وخططها وأعمالها ، وترجم لرجالاتها ، وبسط الكثير من حوادثها والأحداث التى مرتّ بها ، وهو فى أربعة أجزاء طبع منه ثلاثة وظلّ الرابع غير مطبوع . . .

وميزة تاريخه أنه يغربل الحوادث فلا يثبتها كما جاءت فى كتب من تقدمه من المؤرخين بل يعلّق عليها بما توحى إليه ثقافته وثبت تحرياته . . . ومع تصديّه للتاريخ فنزعة الأديب عنده أغلب من نزعة المؤرخ .

وصفه قسطنطى الحمصى ، وهو من خلّص أصدقائه بقوله :

« أحد معاصرينا الألباء وأصحابنا الشعراء . . . وهو فرد من الأفراد الجامعين بين الأدب والظرف ، وبين خفة الروح وعذوبة المنطق واللاطف . بصير بمذاهب الكلام . حلّو المعاشرة . ظريف المحاضرة . ذكى المشاعر ، سريع الخاطر ، يميل إلى المزاح ، جوابه على رأس لسانه . ونظمه على رأس القلم ببيانه »^(١) .

وأذكر ، أننى حين كلفته كتابة ما يعرف من مفارقات عن رفيقه وصفيّه عبد الرحمن الكواكبي لنشرها فى « الحديث » لم يتردّد ، وبعد يومين جاءنى بكراس ضمّت أشياء يجهلها الكثيرون عن هذا الرائد العربى ، وكانت المعلومات

(١) « أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر » ص ١١٥ .

التي سردها مرجع الكثيرين ممن كتب عن الكواكبي (١) .

* * *

من كتبه علما تاريخ حلب : « الروضة الغناء في حقوق النساء » نهج فيه نهج المجتهدين في صون حقوق المرأة في فترة كانت المرأة المسلمة تعيش فيها في ظلمات الكهوف ، وكتاب « جلاء الظلمة في حقوق أهل الذمة » ، وترجم عن التركية كتاب « إتحاف الأخلاف في أحكام الأوقاف » ، وله ديوان شعر كبير لم يطبع ، أكثره في المناسبات والإخوانيات .

وشعره سهل غير معتد ، فن شعره قصيدة أو أرجوزة في مائة وعشرين بيتاً نظمتها وهو في السبعين من عمره ، بعد أن منّ الله عليه بولده الوحيد « فيصل » وهي نصائح أب يودّع الحياة إلى فلذة كبده ، في فجر الحياة ... وقد ضمنها الكثير من الآداب الإسلامية مع مراعاة خصائص عصره وتقاليده .

قال بعد التحمدة :

أبني أنت وديعة الله الذي هو بالودائع خير من يتكفل
أبصرت نجمك في الديار وإنني لأخال شمسي عن قريب تأفل
فإلى الإله وكلت أمرك إنه نعم الوكيل لنا ونعم الموثل
أولاك مولاك السعادة والرضا وحبك سعيًا بالنجاح بكلل
ووقاك من غدر الزمان ومكره وعليك فيما ترتجى يتفضل

* * *

أبني ثق بالله واعلم أنه هو وحده ما شاء فينا يفعل
الجلأ إلى ظلّ الديانة واطّرح ما قال فيها ملحد ومضلل
أمسك عن الأبحاث في قدّر وفي ما قال فيه مجبر ومعطّل

* * *

وجاءت القصيدة مع شرحها في مائتي صفحة ، لأنه كان يقف عند كل مقطع من مقاطع القصيدة فيشرح ما أراد أن يزود به ابنه من النصائح الغالية والآداب الإسلامية ، وقد سمي رسالته هذه « القول الصريح في الأدب الصحيح »

فصبّ فيها جماع خبرته في الحياة ووشاها بفيض من ثقافته الأدبية والدينية ،
فإذا وقف عند بيت :

امسك عن الأبحاث في قدَرٍ وفي ما قال فيه مجبر ومعطل

شرح عقيدة « القدر » شرحاً وافياً ، فيقول تحت عنوان « ترك البحث بالقدر » :

« جميع فرق الباحثين في القدر يطلق عليها كلمة ” القدرية ” فهي كلمة
مشتركة بين أربع طوائف :

اثنتان منها : غلاة هالكون ، إحداهما الطائفة التي نفت القدرة والإرادة عنه
تعالى . وجعلت أفعال العباد كلها حركات النفس والروح . وثانيتهما الطائفة
الجزرية التي برأت العبد من المؤاخذة في المعاصي لأنه مجبور عليها ، وإنه
سبحانه واجب عليه أن لا يؤاخذ عليها . وأن مؤاخذته عليها تعدّ منه ظلماً
وخرقاً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

أما الطائفتان الأخريان فهما من الطوائف الناجية ، إحداهما الطائفة الأشعرية
المنسوبة إلى أبي الحسن الأشعري المعتدل في عقيدته بين الجزرية والقدرية . أي
الذين ينسبون القدرة للعبد على خلق أفعال نفسه حيث قال إن الخير والشر مقدوران
للعبد غير أن للعبد كسباً أي جزءاً اختيارياً يجعل له مندوحة عن اقتحام الشر
ويحدو به إلى اختيار الخير ، وهذه العقيدة هي التي عليها أهل السنة والجماعة . . .

وثانيتهما : أي الطائفة الثانية الناجية هي الطائفة السلفية القائلة بأن الخير
والشر جميعهما مقدوران من الله تعالى ، كما أرشدهم إليه صاحب الرسالة
صلى الله عليه وسلم وأن الخلق خلقه تعالى والأمر أمره ، له أن يشيب العاصي
ويعاقب الطائع وبالعكس لا يجب عليه أحد الأمرين ، ولا يعد ذلك منه ظلماً
ولا رعونة لأنه هو الموجد للثنتين ، والبارئ والمصور للطائع والعاصي يحق له أن
يتصرف فيما خلق وبرا وصور كيف شاء وأراد ، كما يحق للمالك أن يتصرف
في ملكه .

هذه هي طريقة السلف الصالح واعتقادهم في القضاء والقدر . لا يزيدون
على ذلك ولا ينقصون ، غير مكترئين بتطبيق اعتقادهم هذا على علم الميزان ،

ولا ناظرين إلى التعارض والتناقض الذى تؤدى إليهما أبحاث أهل هذا الفن .

ثم يلتفت إلى ولده فيخطبه :

فرّن نفسك ، يا بنى ، على الرضا بهذا الاعتقاد ، وانقشه فى لوح مخيلتك ، وثبته فى سجل حافظتك ، حتى يصبح إلماً وعادة وطبعاً ، واحذر كل الحذر أن يكون اعتقادك هذا ناسخاً ، أو معارضاً لاعتقادك الآخر وهو ارتباط الأسباب بالمسببات . وأن القدرة الإلهية جعلت لكل شئ سبباً . لا تجعل اعتقادك أن الخير والشر مقدوران معارضاً لأعمالك ، وداعياً لإهمالك السعى والاهتمام بشئونك ومقاصدك ، بل اجتهد أن تطبق أعمالك على الظاهر المحسوس ، وهو أن المقاصد التى هى جلب النفع ودفع الضرر لا تحصل غالباً إلا بالسعى والعمل . ولا عبرة لنفع يحصل وضرر يدفع بلا سعى وبلا عمل ، فإن هذا من باب المصادفة والاتفاق ..

وبعد أن شرح موضوع القضاء والقدر شرحاً وافياً ، عاد ينصح ابنه بعدم الاستسلام إلى التواكل فقال :

اترك البحث بالقدر ، كما تركه السلف الصالح ، فإننا لم يبلغنا عن أحد من الخلفاء الراشدين والصحابة المكرمين الذين ثابوا العروش وأذلوا الجبابرة وقهروا القياصرة والأكاسرة ، أنهم بحثوا فى مسائل القضاء والقدر . بل أخذوها على محك قضاياء علم الميزان الذى لم يكن معروفاً فى أيام سيادتهم ، بل الذى قرأناه فى بعض أخبار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه دخل على جماعة من الصحابة فسمعهم يتحدثون بشئ عن القضاء فزجرهم وأمر بجلد بعضهم .

وقال :

« البحث فى القدر هو الذى فتح على المسلمين أبواب الزندقة والإلحاد قديماً وحديثاً ، وكان من أعظم أسباب ما حدث فى العالم الإسلامى من الفتور والجمود وخمود نار الهمم .

إن تطبيق الأعمال على الاعتقاد بالخبر قد أوقع بالمسلمين ضرراً عظيماً لأنه اضطر السواد الأعظم منهم إلى الاستسلام والتوانى وترك العمل ، والقناعة باليسير وأرسخ فى غرائزهم عقيدة التواكل المغلوط الفاسد ، فأخلدوا إلى الهدوء والسكون ،

وفقرت هممهم ، وبردت عزائمهم، فوقعوا في أمراض الضعف والمسكنة حتى أصبحوا لقمة سائغة للأمم الأجنبية التي نفضت عنها غبار الأوهام ، ولم تعر البحث في القضاء والقدر التفاتاً بل نبذته وراء ظهورها ، ورأت أن المقاصد لا تتسنى إلا بالعمل والسعي فقامت تجدد وتجتهد وراء الرق والفنون وقبضت بيديها الحديديتين على أعناق المسلمين وغيرهم من أمم الشرق التي بقيت مطروحة في زوايا الحمول : مكتوفة الأيدي عن السعي والعمل ، مقيدة بسلاسل اعتقادها المغلوط في القضاء والقدر .

* * *

وهكذا ، فما من مقطع من مقاطع هذه الأرجوزة الكبيرة إلا ذيله بهذه الاستطرادات حتى جاءت الرسالة متضمنة الكثير من الآراء والاتجاهات التي تفصح عن ثقافته ورأيه الحر في شتى ظواهر الحياة . وتلمح أيضاً إلى نزعة التحرر وهزئه بروح الجمود التي كانت طابع عصره وطابع الكثيرين من أصحاب العمام المتزمتين . وكثيراً ما أخذوا عليه هذا الانطلاق في البحث فاعتبروه مارقاً واتَّهمه البعض بالزندقة !

والرسالة مخطوطة . ولعل ابنه — وقد أكمل دراسته الجامعية وأخذ مكانه في أسرة التعليم — لعله يطبعها مع مجموعة من بحوثه التي لم تطبع . وفي طليعتها :

١ — الجزء الرابع من تاريخ حلب .

٢ — ديوان شعره . ويضم الكثير من ظواهر الحياة في العهد العثماني . وفي الفترة التي أعقبت هذا العهد .

وقد عرف بين زملائه المعممين بخفة الروح وطلاقة اللسان وحسن المحاضرة ، وكان إلى هذا . حلو المفاكهة لطيف المناذرة يغشى المجالس فيفيد الشباب والشيوخ من عذب حديثه وفيض نكاته وغزير أدبه وحكاياته .

ميخائيل الصقال

١٨٥٢ - ١٩٣٨

ولد في مالطة ، وترعرع في كنف أبيه أنطون الصقال الذي عاش فترة في تلك الجزيرة يصحح الكتب العربية في مطبعتها ، ويدرس في إحدى مدارسها ، وتعلمه بريطانيا في ترجمة بلاغاتها ومنشوراتها .

إلا أن إقامته في مالطة لم تطل ، فعاد بابنه إلى حلب ، يعيش مع أُنْداده من هواة الأدب ، يكتب القصص وينظم الشعر ويرسل المقالات إلى الجرائد والمجلات .

وقد نشأ ابنه على غراره ، فعلمه العربية والتركية : وجهه إلى قراءة كتب الأدب .

وما كاد يشبّ حتى أخذ ينظم الشعر وهو في السادسة عشرة من عمره
كان شعره تعبيراً عن هواجس شاب مغرم بالجمال : وقد تثيره المناسبات فيُطلب إليه أن يصف هذه أو تلك فلا يتردد

لقد جعل نظم الشعر ملهاته المحببة

وكان للأدب ، ولا يزال ، أثره في المجتمعات الحلبية . والمسيحية منها بصورة خاصة ، ولا سيما حين تشعّ ليالي الطرب . وتدور الكأس . وتعتقد حلقات الرقص

فما من مناسبة عائلية إلاّ وله قصيدة أو مقطوعة

ففي أحد المجتمعات أشعلت صبية حسناء لعبة في يدها ، كعنفود من نور ، وجعلت تدبرها ، فاقترح عليه وصفها فقال :

وخود مذ بدتُ تسعى أرزنى غُصين البان يشرق منه نور
فقلتُ لها : ألسن الشمس ؟ قالت : ألم ترها على كفى تدور

وظلّ وثيق الاتصال بالحياة الفكرية يعبّ من الأدب القديم ما يقوم به

لسانه ، ومن الأدب الحديث ما يصقل ذوقه . . .

* * *

ومن عالم الشعر إلى عالم الصحافة . . .

فلم يكده يعي « ذاته » ، ويضيق به « مجتمعه » ، حتى سافر إلى مصر التي اجتذبت إلى ربوعها كل ذى موهبة من السوريين وغير السوريين الذين ضاقوا بالجو العثماني الخانق . . .

وفي مصر ، دخل الميدان الصحفي ، فأصدر سنة ١٨٩٧ مجلة « الأجيال » المصورة التي يعتبرها مؤرخو الصحافة أول مجلة مصورة ظهرت في العربية ! ولم تطل إقامته في مصر . فعاد إلى حلب بعد أن أفاد الكثير من جو القاهرة وتياراتها الفكرية التي تتسم بروح الحرية .

وكانت باكورة أعماله الأدبية . بعد عودته ، كتاب « لطائف السمر في سكان الزهرة والقمر » نحا فيه . كما يقول الحمصي ، منحى الروايات التخيلية ، وضمّنه كثيراً من الفوائد الأدبية والعادات القومية « (١) .

وقد أحدث الكتاب ضجة كبرى في الوسط الكهنوتي واعتبر الأب لويس شيخو ما جاء فيه تمويهاً وتلفيقاً فقال : « إنه على شكل رواية فلسفية ادعى كاتبها مدعيّات تبعد عن التصديق . وهي تمويه وتلفيق » (٢) .

ومن الغريب أن تخفى أهداف الرواية وعناصرها على رجل يعنى بتاريخ الأدب كالأب شيخو .

وهي ، بمضمونها ، لا تخرج عن روح الدين وقداسته ، اللهم إلا إذا اعتبر الحديث عن خطايا الإنسان ، في الأرض أو في السماء ، هو من خصائص رجال الكهنوت ، ولا حق لغير زمريتهم أن يعرض لها . . .

وأنا أوقن أو قرأها اليوم أحد تلامذة الأب شيخو لما ثار على الكاتب ثورة أستاذه عليه .

أتكون عقلية ابن نهاية القرن التاسع عشر هي غير عقلية ابن منتصف القرن العشرين ؟

(١) أدباء حلب ص ١١٢ .

(٢) آداب شيخو ج ٢ .

وللقارئ أن يمر مروراً سريعاً على ملخصها الذى أثبتناه فى الهامش (١).

(١) «.. تلخص الرواية التى أعطاها اسم (الغاية.. فى البداية والنهاية) بالفقرات الآتية :
الفصل الأول ترجمته وأخلاقه ومساوئه ، وفى الفصل الثانى ترجمة والده ، وفى الثالث : رؤياه
لوالده . وهنا تبدأ فصول الرواية» :

«.. لما كان اليوم السادس عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٠١ "بعد ١٦ سنة من وفاة والده"
جلست بعد طعام الظهر وأنا فى الدار وحدى أفكر فى الكون والخليقة حتى حرت فى أمرى ، وأخيراً
نعمت وغفوت ناهيت والذى مقبل على وهو فى بهاء ونور لا يستطيع بشر وصفهما ، فخررت لذقنى أستر
بصرى براحتى .. فدنا منى ولمسنى بيده ورفعنى ثم أمرنى أن أجلس ، وقد لاح لى كبير الجثة ضخماً ،
عريض الأكتاف فى حجم عشرة رجال ، أما حسنه فلا تجشنى وصفه ..

« فرميت نفسى بين يديه أقبلهما فضمنى إلى صدره وقبلنى ثلاثاً مع أنى لا أذكر أنه قبلنى قبل ذلك
مرة واحدة ، ثم أجلسنى إلى جانبه وقال :
ألا تذكر وعدى إياك ..

فقلت له : أتذكر ولكن لماذا تركتنى نحو ستة عشر حولاً ؟

فأجاب : اعلم يا نجل أنه لما فاضت نفسى حملتها مركبة برقية ، فرت بها مرور البرق تقصد
السما الثالثة حتى وصلت مدينة القضاة ، وهى أعظم مدينة فى الزهرة ، فتذكرت أنى وصلت إلى مدينة هى
مسقط رأسى .

وهناك دخلت نفسى فى جسم أرق من جسمى الأرضى ولكنه دون أجساد سكان الزهرة ، فتيقنت أنى
معاقب ، لا يحق لى ، ولا يسمح بأن ألبس الجسد الذى يلبسه البار ..

ثم أدخلنى بعض القضاة المدينة فوجدت أقاربى وخلافى يباصرونى ، وهم فى خجل واستحياء من
جسمى الذى هو جسم الأثيم المغضوب عليه .

وبعد دقائق أجلسنى القاضى فى مجلس القضاة الأصغر فإذا هو قصر على الأركان ، فسيح الجوانب
فى روضة غناء ، بها من الثمار الشبيهة ما لم ير مثله آدم فى فردوسه ، وكانت المياه المختلفة الألوان تتدفق
ولها خرير يروق السامعين .

وأبهرت ثلاثة من القضاة مكتوب فوق رأس أوسطهم الحق ، وعن اليمين العدل ، وعن اليسار الحكمة .
وأعلن الرجل رأساً عن توبته عن ذنوبه ، ولكن لوحاً ظهر مكتوباً عليه : إن التوبة غير كافية ،
وقد حكم بالإقامة فى "مدينة التكفير فى القمر عشرين سنة" ، ولما وصل غرفته فى تلك المدينة رأى أمامه
كل آثامه مجسمة وكل من أثم معهم يعنفه .

وبعد عشر سنوات ، نقل إلى عليه فى روضة ، وبعد خمس سنوات من الإقامة بها بشروه بالعفو
فركب "مركبة الأبرار" بحسد الطهارة . وخرج السكان يستقبلونه بالرياحين ، وفى مقدمتهم رئيس المحكمة
العمومية التى كان فيها قاضياً قبل إنزاله على الأرض ، وأبلغوه أنه أعيد إلى منصبه .

ودخل المدينة فى زينة لا يمكن أن توصف والأطيار من حول عرش الله تحوم حوله وتهنئه بالعفو .
"يبالغ فى هذه الصفحات باصطلياح كلمات اللغة حول الموضوع فكل الأصوات مذكورة" والغلمان
يركضون "وجميع أنواع الدواب والطيور والحشرات".

= ويقول : ” . إني كنت أدهش من هذا الكلام الذي أشكل على معظمه فأهم بسؤال والدي عنه فيقول لي في الحال تمهل ، فأعلمك كل ما تريد أن تسألني عنه“ .

وأخيراً قال الوالد : وبعد هذا تذكرت وعذك فالتفت الإذن من قاضي القضاة . . وها أنت جالس في حضرتي .

فقلت له : أيجوز أن أسألك هل نحن في الأرض أم في الزهرة ؟

قال : لسنا في إحدهما ، وإنما نحن بينهما ، لأنه لا يسمح لي بأن أعود إلى الأرض - سبحن العاصين - ، ولا يؤذن لي في الدخول إلى ”الزهرة“ - مقام الأبرار والصالحين -
وبدأ الحديث والمقارنة :

بوصف المريخ والزهرة مقابل الأرض ، وذكر المدن والطرق هناك ، والدور والنظافة والعبادة والمعابد والصلاة والأعياد والصيام والحج وقضاة الزهرة ونزولهم إلى الأرض ، وفي بعض الرؤساء بالأرض وخطيئات سكان الزهرة .

ثم تحدث الأب في الأحكام الحقوقية وفي العقاب والقتل العدواني والقتل الديني والقتل الحربي والقتل السياسي والمدني والعقاب بالأرض .

ثم تحدث في الحماية والحاكم والوصاية بالأرض والحروب والمذابح والسجون والمنافي ، ثم جاء حديث الطلق والولادة وتربية الطفولة والتربية وواجبات الوالدين بالأرض ، وفي مدارس وعلوم سكان الزهرة ، وفي المطابع وعلماء الأرض وحالة الإنسان الأولى ، وفي الشعر والشعراء . .

ثم تحدث الأب في بنات الهوى والغواني ، وفي المنتديات والتلهي بالزهرة وعلى الأرض ، وفي الأطباء وواجباتهم ، وفي السكر والعفاف ، والاختلاط والمعاشرة بالأرض ، وفي الرقص والأزياء والنسائج والتمويه والطلاء والخضاب واختيار الزوجة ، وفي الخطبة والحب والغيرة والمهر والجهاز والملابس والحلي والهدايا وفي الاقتران ، ثم جاء دور طبقات العباد والزراعة والآلات والمخترعات عند سكان الزهرة وحرف سكان الأرض ، والبيع والشراء والتجارة والربا وطمع سكان الأرض والحسد ، وتحدث بعد ذلك في الرجل والمرأة والأصدقاء ، وفي الأعمار والموت بالزهرة والأحزان .

وأخيراً تحدث في وجود الله تعالى ، وفي الأديان وتوحيدها ، وفي النجسية والوثنية ، وفي التقمص والتشاؤم والمتعصبين والمشعوذين وفي الكافر والمكابر ، وفي النجس وفي التوجع والطلق . .

وختم الرواية بكلام في الأرض وقدمها وكيف خلق الله تعالى الخلق ؟ ولماذا ؟ وفي قولهم خير للإنسان أن لا يخلق ، وفي موقف الله من دعاء الناس ، ومن فقرهم وغناهم . .

ثم تنتهى بكشف السر . . بقول المؤلف :

قلت لوالدي كم سنة كان عمرك لما نزلت إلى الأرض ؟

فقال : كان مائتين وخمسين سنة .

وقلت : كم عاماً عمرك حين تزوجت في الزهرة ؟

قال : ستون . .

» . . . وأول الخواطر التي يخرج بها المطالع لهذه الرواية ، وقد شرح علمه في ثلاثمائة صفحة — أن شيئاً من ”المعرى“ فيها ، وأن ”رسالة الغفران“ يمكن أن تكون الأم المباشرة لها لولا . . .

وإذا كانت زيارة الدار الآخرة ، والتحدث إليها من الأخيلة الشائقة بعد المعرى ودانتى وملتون . . . أو كان تصور المجتمعات المثالية من جمهورية أفلاطون إلى مدن ”بوتوبيا“ و”إيكارية“ . . . فإن الصقال جمع الفكرتين معاً ولكن دون عمق كبير ، أو خيال وثاب أو إحاطة واسعة ، ولئن وجد معاصرو الصقال ، في حلمه ، وفي المجتمع الذي أوجده في الزهرة كثيراً من التمرد ومن الخيال ، بل من الإلحاد فإنه في الواقع كان لا يجاوز الأرض نفسها وتراب الأرض إلا أشباراً معدودة . . .

فالصفحات الأولى من الكتاب ، وهي تمثل أبرز الأخيلة فيه ، لا تتجاوز أن تكون كتابة جديدة . وأن تكون منسقة مهذبة ، للأخيلة المادية الدارجة عن العالم الآخر . . . أما الصفحات التالية فتصوير واقعي للمجتمع السورى كما يراه وكما يتمنى أن يكون واحد من المتنورين . . . وهو نقد اجتماعى مباشر وغير مباشر ، يعتمد في الدرجة الأولى على المقارنة ما بين مجتمع الزهرة ومجتمع الأرض مقارنة دائمة ، فإذا أهملها المؤلف فليقفز بفكرته الإصلاحية إلى صورة

= قلت : بكم زوجة قترنت ؟

قال : بواحدة هي ابنة عمى . . .

ثم تحدث عن أولاده وزواجهم وقال : إن أحد أنجلى ، وهو الأكبر . له ابنتان في الأرض ، وهما الفتاتان اللتان أحبهما في وقت واحد ، وأردت الاقتران بإحدهما . وأنت لا تعلم أيتهما تختار . . . وبعد ذلك تركتهما واقترنت ببنت عمك الأصغر المقيم الآن بالزهرة . . . وقد زعمت على حسن ودادك أنك مسيء لها ولكنه لا يسمح لأسرتنا في الزهرة أن يبنى الرجل على ابنة شقيقه ، فهذه هي التي خفيت عليك وأما شقيقك الأصغر فله بنت في الأرض وهي التي أحبتها بعد تزوجك . . .

ورأى مؤلف القصة بعد ذلك بناته الثلاث في الزهرة وشقيقته الصغرى ، وقبل أن يودع أباه بشره الأب أنه سيكون قاضياً في مدينة القضاة . . . وأوصاه بأن يتوب توبة كاملة لينجو من عذاب الاحتضار وأن يثبت كل ما سمعه منه في كتاب يطبعه لثم فائدته . ثم ضمنى إلى صدره وغاب كأن غمامة وارتد . فانتبهت والليل مظلم أقول :

اللهم زدنى إيماناً وتداركنى برحمتك . . . ثم أخذت أتأمل وأقول في نفسى أكل هذا منام ؟ إن في الأمر عجباً . . .

اجتماعية مثلى ، تعكس بحسنها كل المساوئ القائمة . . .
 إن أكثر ما يقرب الصقال من تقليد المعرى الولى اللغوى المبثوث فى عشرات
 الصفحات ؛ إنك لتمرّ أحياناً فى بعضها بأسطر وأسطر من حوشى اللفظ وغريبه . . .
 أو من أبحاث اللغة وفقهها . . . ومن الشعر . . . شعر المؤلف لا شعر قديم
 الشعراء العرب على طريقة أبى العلاء . . . وابن القارح عنده هو والده الذى
 يتحدث ويفسر ولكن . . . وهو قاعد دون طواف أو زيارة ونقلة ! . . .» (١) .

* * *

وقد عرف الصقال بين أقرانه كشاعر أكثر منه كاتب قصص ، وله ديوان شعر
 كبير لم يطبع منه غير الجزء الأول (٢) على أن النزعة القصصية عنده أغلب ، وقد ترك
 لنا رسالة شعرية سمّاها « العبر » ، وهى تزيد على خمسمائة بيت ، تشير إلى حوادث
 مرّت بحلب سنة ١٩٠٩ ، أخذ فيها — كما قال — مأخذ الشعر القصصى وقد أعرب
 بها عن « أحوال الكون وتقلباته وشئون الشرق وعباداته ، وأمور الدنيا وأدوار الحياة ،
 وضمنها حكماً ونصائح وفوائد وعظات ، ثم دبجها برواية غرامية تهذيبية » .

وهى فى عشرين فصلاً تحدث فيها عن الإخاء والمساواة والسياسة والسياسى
 والكون والخلق والأجرام السماوية وجمالها وانتظامها والشرق وعظمة ماضيه
 ورجالاته والحروب والويلات والكوارث التى نجمت عن اختلاف العقائد .

وتتوالى فصول هذه الرواية . وتتوالى تأملات الشاعر فى الكثير من الحياة ،
 ويبدو حكيماً ينثر العبر ويرسل العظات فيتحدث عن الموت ونسياننا أهواله
 وعن سيادة الغرب وتخلف الشرق . وعن طيش الشباب وغرورهم وتهتكهم
 والعواقب الوخيمة التى ينتهون إليها .

وبعد هذه الفصول الطويلة يعرض قصة « يوسف وسعدى » — قصة حب
 عنيف يحول الأهل بين بطليها .

ولا بدّ هنا من وقفة لعرض نماذج من شعر هذه الرواية :

يؤوى فتاة فتهواه فيعلمها وفى زمان الصبا تقوى العلاقات

(١) القصة فى سورية لشاكر مصطفى ص ١٧٣ .

(٢) طبع فى المطبعة المارونية فى حلب ١٩١١ .

هما بيتان فى وجد لسرهما وللرقيبة والواشى رقابات
 فاغناظ والد سعدى منهما وله على قرينته « هند » استشاطات !
 نحن الذين خلت من كل شائنة أفعالنا فلنا تعنو المقامات
 فكيف نرضى الهوى وهو الهوان لنا وكيف ترضى به منا الحصانات
 إنا نحب ولا نهوى فلا أحد يدرى ولو بقيت منا الحشاشات
 فباتت الخود ترعى النجم نادبة . . . تقول يا أم ما هذى المراساة
 وبات يوسف يورى زند فكرته وبين أضلعه منها شرارات
 يقول سعداى يا سعداى منتحبا متى تعود لنا تلك المناغة . . .

وتتزوج سعدى بمن لا تحبه - من رجل مفرط بالشح إلى درجة الجنون :
 زفت إليه على كره وقد ظلمت يا أيها الناس ما هذى القساوات
 يا أم ! عرسى قبيح الشكل يكرهه قلبى الكئيب ولى منه كظاظات
 وتثور ثائرة يوسف حين يعلم بالخبر . ويمرض وتنتابه الحمى ،
 ويهذى ولا تردد شفتاه إلا ذكر سعدى :
 فحمّ يوسف من تزويج غادته وبات يهذى وللحمى إراءات

* * *

يا ليت شعرى أيا تبنى الشفاء وقد حار الطبيب وأعينه العيادات
 أقول سعدى وسعدى ليس يسعلنى يا سعد هل تنجلى عنى النحاسات
 كم عاهدتنى ، وكم آلت وكم وعدت هل المواعيد يا سعدى هباءات
 وتصله رسالة من سعدى وقد آلمها أن ينتهى هذه النهاية الحزنة :

وبعد ذا أرسلت سعدى تقول له صبرا فقد كذبت عنى الإشاعات
 أنت الحبيب الذى تحلو الحياة به فلا تزخرنى عنك الإعاقات
 إنى ليعذب لى منك الحديث كما تحلو وتعذب للطفل المناغة
 لقد أكّدت له أنها لا تزال على حبها وفائزها ، وينتشى ، وتزايه الحمى
 ويحدّ ويسعى وينجح :

فطاب نفساً وزال الغمّ عنه وقد كانت على قلبه منه سحابات
 حتى إذا اجتمعا لذّ العتاب وقد زانت عفافهما تلك الحفارات

وتزول الغشاوة عن عيني أبي سعدى ويجمع بيوسف ويعجب بذكائه وبحلو حديثه وعذب شخصيته . ويندم على ما بدر منه ، ويتحدث عن شح صهره برغم فرط غناه . وأيامه الأخيرة قبل الموت :

قال الأسيف أبو سعدى لزوجته منا الحماقات كانت والسفاهات
من مثل يوسف في هذى البلاد وما تلك العطافات منه والظرافات ! . .
جالسته فرأيت الناس في رجل فهو الذى اجتمعت فيه الشهامات
يا لهف قلبي على سعدى ويا أسنى إنى لتنقص أيامى الأسافات
وتزف سعدى ليوسف بعد موت زوجها ، وتنعم بحياة رخية . ويرزقان
بطفل وتبتهج العائلة ، ولكن هذه السعادة لا تدوم ، فسرعان ما تخدم شعلتها
وتدوى نضارتها فيموت بكرهما ، ثم يموت يوسف وتلحقه سعدى .
هذى حياتك يا إنسان ، محزنة فليس تخلص من أوصابها ذات !

* * *

على أن أهم ما في هذه القصة آراء وتأملات وفلسفة . وهى تعبير عن حياة عصره ومجتمعه . . . ويمكننا أن نعتبر الصقال رائداً من رواد الشعر القصصى في بداية النهضة الأدبية وإن لم يرتفع بشعره إلى المستوى الفنى ، وقد نفي خير الدين الزركلى الشاعرية عنه ، فقال في أعلامه : « نظمه كثير وليس بشاعر » (١) .

* * *

وإلى نزعاته الأدبية . وقرضه الشعر في المناسبات الاجتماعية . انصرف في أخريات أيامه إلى تدوين تاريخ حلب .
يقول قسطنطين الحمصى :

« وله كتاب تأريخ كبير كسره على قسمين : دعا الأول "طرائف النديم" في تأريخ حلب القديم وهو ما عُرِف عنها قبل التاريخ المسيحى . وسمى الثانى "لطائف الحديث" في تأريخ حلب الحديث وهو من ابتداء التاريخ المسيحى إلى اليوم . وهذا الثانى قارب التام . وهو يشتغل به اليوم بما اعتاده حياته كلها من

الجد والهمة ، ونرجو له التوفيق بطبعه في القريب العاجل» (١) .
ومن المؤسف أن أقول إن الكتاب لم يطبع مع الكثير مما خلّفه من نثر وشعر .

* * *

كان الصقال ، حتى في أيام شيخوخته ، جم النشاط ، عذب النكتة ،
حلو الحديث ، يركض وراء « الطابع » البريدى ، قديمه أو حديثه ، ليكمل
مجموعته التي تعتبر عند هواة الطوابع ، من أندر المجموعات .

وقد حضرت بعض دروسه ، في بدء حياتي المدرسية ، فكان يوصي تلامذته
بتلاوة « كليله ودمنة » ولا شيء إلا ما تركه ابن المقفع الذي كان يؤثره ويؤثر
أسلوبه على الكثيرين من الأدباء القدامى .

من شعره يخاطب اليهود :

| | |
|-------------------------------|----------------------------------|
| يا أمة عبدت دينارها فلها | في حب صُفرتة تحلو المرباة |
| ما كان دينكم حقاً وقد ظهرت | على وجوهكم منه أمارات |
| لو كان دينكم حقاً لما اشتهرت | منه الخدائع فيكم والخساسات |
| هذى نفوسكم من دينكم صغرت | فكيف تعجبكم تلك الصغارات (٢) |
| إنا لنعجب من قوم أذيتهم | بدينهم ولهم فيه مغالاة |
| إنا ندين بدين الأنبياء فلا | تصيبنا أبداً منه كراهات |
| وقال ذلك أنتم أمة غلظت | طبعاً لذلك نبت عنها الزكانات (٣) |
| لم يأت في دينكم علم ولا أدب | فما الفصاحات منكم والذلاقات |
| لم يأت في دينكم علم ولا أدب | فلا تهذبكم فيه الحضارات |
| لنا الهدى التقى في ديننا فلذا | في كل أمر لنا منه استقامات |
| إذا خلونا تنسكننا وخلوتكم | تبدو القبائح فيها والدعارات |

(١) أدباء حلب ص ١١٢ .

(٢) الصغارات : الهوان والرضا بالذل .

(٣) الزكانة : اسم من زكن الشيء إذا فطن إليه وفهمه وتفهمه وظنه .

عبد الرحمن الكواكبي

١٨٥٤ - ١٩٠٢

زعيم مصلح ، اتخذ أدبه وسيلة لإضرام ثورة فكرية في العالم العربي .

ولد في حلب في ٣ شوال سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م .

أخذ العلم عن أبيه الشيخ أحمد بهائي بن مسعود الكواكبي . ثم تتلمذ على الأستاذ خورشيد أفندي من مشاهير أدياء الترك فتعلم عليه التركية والفارسية .

بعد أن حذق اللغات عكف يطالع بنفسه المجلات والكتب الاجتماعية والعلمية فكان له حظ وافر من فنون السياسة والعمران والاجتماع .

عنى في صباه بحفظ الشعر القديم ، وقد سجل في دفتره الكثير من القصائد المختارة في الغزل والنسيب والمدح والمجاء والرثاء ، ويحتفظ أولاده بمجموعة كبيرة من هذه المختارات .

نظم الشعر في بدء حياته ثم تركه .

كان ربعة إلى الطول أقرب ، قوى البنية ، صحيح الجسم ، عصبي المزاج ، عريض الصدر ، أسود شعر الرأس والذقن ، متأنقاً في لباسه ، جسوراً غير هيباب فيما يعتزمه ، يحسن السباحة والصيد والفروسية .

زاول الصحافة وهو شاب ، فقد عين سنة ١٢٩٢ محرراً لجريدة « فرات » الرسمية وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية ، ثم تركها وعين في عدة وظائف حكومية في المعارف والقضاء وما زال ينتقل من وظيفة إلى أخرى حتى عين رئيساً للبلدية .

لم تنطق نفسه قيود الوظيفة فتركها وأصدر جريدة باسم « الشهباء » وهي أول جريدة سياسية صدرت في حلب ، فلم يكد يفصح عن ميوله الإصلاحية حتى أوقفها الحكومة ، وبعد فترة أصدر جريدة ثانية باسم « الاعتدال » لم يطل عمرها أيضاً وكان نصيبها نصيب زميلتها . .

كان في صراع دائم مع ولاية الأتراك لميوله العربية ونزعاته الإصلاحية ونهجه

في مقارعة طغيانهم وطغيان العهد الحميدى كله . . فاتهم عدة اتهامات وزجّ في السجن ، وبعد محاكمته ظهر للمحكمة نبل مقصده فبرأته .

لم يطق الإقامة في ذلك الجو البغيض الذى يقوم على الدسائس والظلم فقرّر الهجرة إلى مصر ، موطن الأحرار . . . وهناك ، ظهر فضله وشاع ذكره ولاسيما بعد أن أخذ يكتب مقالات في جريدة « المؤيد » واتصل بحمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وغيرهما من زعماء الإصلاح ، وكانوا كلهم يهدفون إلى بذر بذور الإصلاح والنهوض بالشرق الإسلامى نهضة تخلصه من عبودية الجهل والظلم وسيطرة الأجنبي ، وكان الكواكبي . إلى مشاركتهم بهذه الاتجاهات ، يهدف إلى أن يكون الخليفة عربياً وأن تتخلص الخلافة من سيطرة الأتراك العثمانيين .

قام برحلات واسعة إلى سواحل إفريقيا الشمالية والجنوبية ، ومنها دخل الحبشة وسلطنة هرر الإسلامية والصومال . . ثم إلى سواحل آسيا الجنوبية . . ومن سواحل المحيط الهندى دخل بلاد شبه جزيرة العرب فاجتمع إلى أمراء وشيوخ القبائل ودرس أحوال البلاد الاقتصادية . . وانتهى من هناك إلى كراتشى . . ثم إلى بومباى . . ومنها إلى جاوة وسواحل الصين . . ثم عاد إلى مسقط فسواحل بلاد العرب الشرقية فالبحر الأحمر فمصر . . وكان يدوّن خواطره عن كل ما يراه ويشاهده ومن يقابلهم من الملوك والأمراء وجميع من يأنس فيهم الميل لتحقيق فكرته .

بعد عودته من رحلته هذه حامت الظنون حوله . وكان جواسيس السلطان عبد الحميد منتشرين في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامى . وفى ليلة الخميس المصادف ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ - ١٤ من حزيران (يونية) سنة ١٩٠٢ كان في مقهى سبلندبار يتناول القهوة مع خالص أصدقائه . وإذا هو يشعر بمغص ألم . فنقل إلى بيته . ولم يتتصف الليل حتى كان قد فارق الحياة . يقول الصحفي الكبير الأستاذ إبراهيم سليم النجار :

« جلست والفقيد والسيد رشيد رضا والأستاذ محمد كرد على ليلة الوفاة في حلقتنا المعتادة فتحدثنا إلى نحو الساعة التاسعة ليلاً حيث نهضنا فقصدت منزلى وذهب الأستاذ كرد على والكواكبي معاً ، ولشد ما كانت دهشتي وحزني في

صباح اليوم الثانى لنبدأ تليفونى ينعى لى فيه الأستاذ كرد على شيخنا الكبير بنوبة
قلبية ضعيفة شعر بها فى نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . ثم عاودته
بعد ساعة ، رحمه الله ، لتقضى عليه ، ولا بدع ولا عجب فقد أضعفت النوازل
قلبه فجعل الإسلام فى فؤاده ، والأمة العربية فى رأسه ، والشرق على منكبيه .
ويقال إن يداً أثيمة قد دست له السم فى القهوة . ودفن فى القاهرة فرثاه
الكتاب والشعراء ، وكتب على قبره هذان البيتان لحافظ إبراهيم :

هنا رجل الدنيا ، هنا مهبط التقى هنا خير مظلوم ، هنا خير كاتب
قفوا واقروا أم الكتاب وسلموا عليه ، فهذا القبر قبر الكواكبي

* * *

عرفنا من السطور التى خططنها عن حياته ونشأته ما كان عليه المحيط
الذى درج فى ظلاله ، كانت البلاد العربية ترسف فى أغلال العبودية والجهل ،
وقد حرز فى نفوس غير واحد من أحرار الفكر أن تكون أوطانهم فريسة لهذه
الظلمات .. فهبوا يعملون على تحريرها من العبوديات ، وفكّ أغلالها وأصفادها ،
لم يرهبوا فى سبيل ذلك طغيان ملك أو استبداد حاكم ، معرضين أنفسهم للسجون
والمنافى ، فكان جهادهم مقروناً بالمصاعب . . وفى طليعة هؤلاء المفكرين
السوريين الرحالة العربى السيد عبد الرحمن الكواكبي الذى اتخذ من أدبه سوطاً
يهرز النائمين وينهال به ضرباً على الظالمين .

لقد كان الغرب فى يقظة علمية عارمة . . بينا كان الشرق لا يزال يغطّ فى
نوم عميق . وقد ألم الكواكبي أن يكون وطنه فى هذه الحالة ، وأن يكون قومه
العرب - وهم من العزة والرفعة والماضى المشرق - آله أن يكونوا محكومين ، ليس
لهم كيانه ، قد انحطت شخصيتهم أو كادت . . فلا يبدعون كما كان يبدع
أسلافهم . . فصرخ صرخاته المدوية بأبناء قومه أن يفيقوا وأن يجمعوا شتات
شملهم ، وأن يعملوا متحدين على التحرر والنهوض ، إذ لا يجوز للأمة العربية
أن تظل محكومة فى عصر انبثقت فيه الحريات وشعت أضواؤها على العالم .

* * *

أدب السيد الكواكبي من هذا اللون الذى يجمع بين النزعة الصحفية وأسلوب

الخطابة معاً في إطار من الروح القومية . ويكاد يكون أول أديب سورى لم يشغل أدبه في تلك الفترة بالقشور ، أى لم يسخر قلمه لمدح الملوك وتعلق الحكام ، كما أن مزاجه لم يطاوعه أن يجارى الكثير من الأدباء الذين قصرُوا أدبهم على الاهتمام بالصناعة اللفظية والشعوزات البيانية ، بل اتخذ أدبه أداةً للتعبير عن شعور الشعب . . وكانت كلماته ومقالاته صرخات مدوية مثيرة كثيراً ما هزت الوسنانين من بنى قومه ، وأقلقَت الحكام الطغاة الذين كانوا يلجأون إلى أدنا الوسائل لمحاربة فكرة الحرية التي دافع عنها بكل حرارة واندفاع (١) .

* * *

للسيد الكواكبي غير كتابيه المعروفين (٢) عدة كتب فقدت مع الظروف التي لا بست حادثة وفاته ، وأظهرها كتاب « صحائف قريش » و « العظمة لله » وقد حدثني ابنه الدكتور أسعد أن الكتاب الأول كان معداً للطبع ، وأن الثانى

(١) وقد وصف العقاد أسلوبه بقوله :

« .. وقد اتسم أسلوبه بسمه الأسلوب الذى تكتب به التواريخ والرحلات ، وسلست عبارته في نسق مرسل واضح يقرر الواقع ويتبع الملاحظة ويتبسط في ما يراه بالفكر كما يتبسط في وصف ما يراه بالعيان . ولا يخفى أن هؤلاء الكتاب ، كما قدمنا ، قد تخصصوا لتسجيل المشاهدات الاجتماعية والتاريخية ولم يتخصصوا لمباحث اللغة والبيان ، فليس من الغريب أن تتسرب إلى أقلامهم أخطاء الألسنة في زمانهم ، وأن يتردد في عباراتهم بعض السهو الذى يتحرز منه اللغويون وكتاب الأدب ، في مدرسة ابن المقفع والبيديع والجاحظ وعبد الحميد . وشأن الكواكبي في ذلك قريب من شأن ابن خلدون وابن جبير ، بل من شأن الغزالي وابن مسكويه وسائر أصحاب الأقلام التي لم تنفرغ للأدب واللغة وشغلها دقة التعبير عن دقة الإعراب . نقرأ له - مثلاً - في تعريف الاستبداد : « إن الناظر في أحوال الأمم يرى أن الأمراء يعيشون متلاصقين متراكين . . أما العشائر والأمم الحرة فيعيشون متفرقين . »

أو نقرأ مثل قوله : « الأزواج الحمقاء » . . و « لا يخرج قط » ، و « قوانين لكافة الشئون » .. و « حياة النائم المزعوج بالأحلام » و « على هذا النسق يوضع كتاب للمنهايات » « وإن هؤلاء الأئمة الأقدمين لا يقدرُوا أن يطلعوا على ما لا يقدر المتأخرون أن يطلعوا عليه » . . ولا يتحقق في الإنسان إلا في فن واحد فقط يتولع فيه فيتقنه . . . إلى أشباه هذه المآخذ التي كانت تشيع في صحافة عصره ولم يكدها يسلم منها كتاب الأدب والبيان ، وقد يعتبر الكواكبي من أقل زملائه ونظرائه تعرضاً لهذه المآخذ والهفوات . كتاب الرحالة كاف : عبد الرحمن الكواكبي للعقاد ص ٥٥ .

(٢) طبائع الاستبداد وأم القرى .

أنجزه في مصر وذكره محمد كرد علي في كتاب « المذكرات » . ويرجح أنهما صودرا مع أوراقه عقب وفاته . وثمة كتاب ثالث هو كتاب « الرحلة إلى زنجبار والحبشة وأواسط جزيرة العرب والهند » ، وقد عرف أنه كان يدون خواطره على أوراق مبعثرة ، ولو أن هذه الخواطر جمعت في كتاب لكان لنا اليوم أثمن كتاب عن تلك البلاد في تلك الظروف بقلم رحالة عربي معروف .

ويتضمن كتاب « طبائع الاستبداد » فصولا في مقاومة الروح الاستبدادية في نفوس الحكام ، وصف فيها الداء والدواء ، وفي كتاب « أم القرى » بحث الخلل والضعف اللذين عمّا كافة المسلمين ، في أسلوب مزج فيه الخيال بالواقع ، وهو رسم لرحلة من حلب إلى الإسكندرونة إلى بيروت فدمشق فالقدس ثم إلى الإسكندرية فصر فالسويس . ومنها إلى الحديدة فصنعاء فعمان فالكويت فالبصرة فحائل فالمدينة فمكة ، وقد جعل الكلام على لسان أئمة هذه الأقطار للنهوض بالعالم الإسلامي من غفوته وإرجاع الخلافة إلى العرب توطئة لخلق الإمبراطورية العربية الكبرى .

الاشتراكية الإسلامية

وكان للكواكبي رأى صريح في الاشتراكية ، واعتبره الدكتور أحمد السمان مدير جامعة دمشق أحد رواد الفكر الاشتراكي في المشرق العربي^(١) ، إذ وصف أسباب الاكتناز وعوامل الادخار ، وتكلم عن الطبقات وأثر الزكاة في تحقيق الاشتراكية وقيود حق الملاك ، وتحديد الملكية الزراعية . وصلة الرأسمالية بالاستعمار .

الزكاة والاشتراكية :

بحث الكواكبي في كتابه أم القرى مشكلة الغنى والفقر في المجتمع ، والتمس حلها الاشتراكية الإسلامية ، أو ما يدعوه « بالاشتراك العمومي المنظم » وقال :

« لو عاش المسلمون مسلمين حقيقة لأنمو الفقر وعاشوا عيشة الاشتراك العموى المنتظم التى يتمنى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الإفرنجى . وهم لم يهتدوا بعد لطريقة نيلها مع أنه تسعى وراء ذلك منهم جمعيات وعصبيات مكوّنة من ملايين باسم "كومون وفينان ونهلهست وسوسيالست" كلها تطلب التساوى أو التقارب فى الحقوق والحالة المعاشية ذلك التساوى والتقارب المقررين فى الإسلامية ديناً . بوسيلة أنواع الزكاة والكفارات . ولكن تعطيل إيتاء الزكاة وإيفاء الكفارات سبب بعض الفتور . كما سبب إهمال الزكاة فقد الثمرات العظيمة من معرفة ميزانية ثروته سنوياً فيوفى نفقاته على نسبة ثروته ودخله » .

وعرض فى كتابه « طبائع الاستبداد » لمشكلة الطبقات الاجتماعية فى الفصل المتعلق « بالاستبداد بالمال » فوصف التفاوت الاجتماعى بين الفئات الممتازة وبين الجمهور ، وحلّل أسباب الاكتناز ، ووجه إليه حملة شديدة ، وطالب بإلغاء الفروق الكبيرة بين الفئات ، ثم تكلم عن الادخار وأطلق عليه اسم « التمول » وعدد أسبابه .

ملكية الأرض فى الإسلام :

وبعد أن تكلم عن الزكاة وأنها سبيل للاشتراكية فى المعنى الذى سبق أن ذكره فى « أم القرى » أضاف أنه « لا يخفى على المدقق أن جزءاً من أربعين من رؤوس الأموال "الزكاة" يلحق فقراء الأمة بأغنيائها ويمنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد المضرة بأخلاق الأفراد . وكذلك تركت الإسلامية معظم الأراضى الزراعية ملكاً لعامة الأمة يستنتبها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط ، وليس عليهم إلاّ العشر أو الخراج الذى لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال » .

مشروعية قيود حق الملك :

ثم بحث فى التمول المشروع فقال :

« إن التمول فى الحاجات السالفة الذكر محمود بثلاثة شروط :

الأول : أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال . أى بإحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعاوضة أو فى مقابل عمل أو فى مقابل ضمان .

الشرط الثانى : أن لا يكون فى التمول تضيق على حاجات الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها ممرحاً لكافة مخلوقاته وهى أهمهم ترضعهم لبن جهازاتها فجاء المستبدون الأولون ووضعوا أصولاً لحماية من أبنائها ، فهذه أيرلندة مثلاً قد حماها ألف مستبد مالى من الإنكليز ليتمتعوا بثلى أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تراب أيرلندة ، وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالاً وستفوقها مآلاً .

وبعد أن طالب بتحديد الملكية الزراعية أسوة بالصين وبولونيا ذكر :

الشرط الثالث وهو : أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة ، لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة فى الإنسان ، فإنه « ليطغى أن رآه استغنى » .

الرأسمالية والاستعمار :

ويرى « أن الشرائع السماوية كلها . وكذلك الحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية ، حرمت الربا بقصد حفظ التساوى والتقارب بين الناس فى القوة المالية » ورغم فوائد الإقراض التى لا ينكرها فإنه يقول :

« إن هذه الثروات يكتنزها الأفراد تمكّن الاستبداد الداخلى فتجعل الناس صنفين : عبيداً وأسياداً ، وتقوى الاستبداد الخارجى فتسهل التعدى على حرية واستقلال الأمم الضعيفة مآلاً وعدة ، وإن تحصيل الثروة فى عهد الحكومة العادلة عسير جداً ، وقد لا يتأتى إلا عن طريق المرباة مع الأمم المنحطة أو التجارة الكبيرة التى فيها نوع احتكار أو الاستعمار فى البلاد البعيدة مع المخاطرات .

وإليك بعض نفثاته :

وطنى

أيها الوطن المحبوب
 أنت العزيز على النفوس ، المقدس فى القلوب
 إليك تحن الأشباح : وعليك تئن الأرواح
 أيها الوطن الباكى
 عليك تبكى العيون ، وفبك يحلو المنون
 إلى متى يعيث فى أرضك اللثام الطغام ، يظلمون بنيك ، ويدلون ذوبك .
 يطاردون أنجالك الأنجاب ، ويمسكون على المساكين الطرق والأبواب
 يخربون العمران ، ويقفرون الديار
 أيها الوطن العزيز
 هل ضاقت رحابك عن أولادك . . أم ضاقت أحضانك عن أفلاكك ،
 كلا . . إنما فقدت الأبوة ، وفقدت الحماة ، وفقدت الأحرار
 أيها الوطن الملهب فؤاده
 أما رويت من سقى الدموع والدماء — دموع بناتك الثاكلات . . ودماء
 أبنائك الأبرار . . لا دموع النادمين . . ولا دموع الظالمين
 ألا فاشرب هنيئاً ولا تأسف على البله الحاملين ، ولا تحزن فها هم كرائم
 ولا كرام . . لسن هن كرائم باكيات متحمسات .. وليسوا هم أعزة شهداء ..
 إنما هم ، غفر الله لهم ، من علمت
 قلّ فيهم الحر الغيور
 قلّ فيهم من يقول أنا لا أخاف الظالمين ^(١) .

(١) هذه القطعة غير منشورة فى كتابه « طبائع الاستبداد » وقد حدثنى ابنه الدكتور أسعد أنه ، بعد طبعه الكتاب ، أضاف عليه الكثير من الفصول ، وكان يعتزم إعادة طبعه بعد أن يضم إليه الفصول التى تؤلف ثلث الكتاب ولكن المنية عاجلته ، فلم تتحقق الأمنية .

الاستبداد

الاستبداد داء

أشد وطأة من الوباء

أكثر هولاً من الحريق

أعظم تخريباً من السيل

أذل للنفوس من السؤال

داء إذا نزل بقوم سمعت لرواحهم هاتف السماء ينادى القضاء القضاء ،
والأرض تناجى ربها كشف البلاء . .

* * *

لو كان الاستبداد رجلاً وأراد أن يحتسب وينتسب لقال :

أنا الشر ، وأبى الظلم ، وأمى الإساءة ، وأخى الغدر ، وأختى المسكنة ،
وعمى الضر ، وخالى الذل ، وابنى الفقر ، وبنى البطالة ، وعشيرتى الجهالة ،
ووطنى الخراب .

* * *

الاستبداد يقلب الحقائق فى الأذهان حتى إنه قد مكن بعض القياصرة
والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييداً لاستبدادهم ، وقد وضع الناس
الحكومات لأجل خدمتهم ، والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة
للعراة ، وقبل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أن طالب الحق
فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكى المتظلم مفسد ، والنبه المدقق ملحد ،
والخامل المسكين هو الصالح الأمين ، وقد اتبع الاستبداد فى تسميته النصيح
فضولاً ، والغيرة عداوة ، والشهامة عتوّاً ، والحمية جنوناً ، والإنسانية حماقة ،
والرحمة مرضاً كما جاوره على اعتبار أن النفاق سياسة ، والتحليل كياسة ،
والدناءة لطف ، والنذالة دماثة .

داء التقليد

يا قوم

هداكم الله . . ما هذا الشقاء المديد والناس في نعيم مقيم وعز كريم . .
أفلا تنظرون ؟

وما هذا التأخر وقد سبقتم الأقوام ألوف المراحل أفلا تتبعون ؟
وما هذا الانخفاض والناس في أوج الرفعة . . أفلا تغارون ؟

* * *

يا قوم

وقاكم الله من الشر . . أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة ،
مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل . وبداء الحرص على كل عتيق . .
فلماذا تقلدون أجدادكم في الخرافات والأمور السافلات ولا تقلدوهم في محامدهم .
أين الدين ؟ أين التربية ؟ أين الإحساس ؟ أين الغيرة ؟ أين الجسارة ؟
أين الثبات ؟ أين الرابطة ؟ أين المناعة ؟ أين الشهامة ؟ أين النخوة ؟ أين الفضيلة ؟
أين المواساة ؟

هل تسمعون . . أم أنتم نائمون ؟

صيحة مدوية

يا قوم

جعلكم الله من المهتدين . . كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعاً لله وأنتم
تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الإخوان ، وأجدادكم
ينامون الآن في قبورهم مستوين أعزاء وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء .
البهاائم تود أن تنتصب قامتها وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيديكم
قوائم . .

النبات يطلب العلو وأنتم تطلبون الانخفاض .

لفظتكم الأرض لتكونوا على ظهرها وأنتم حريصون على أن تنغرسوا في جوفها
فإن كانت هذه بغيتكم فاصبروا قليلاً لتناموا طويلاً .

* * *

يا قوم : ينازعني والله الشعور هل موقفي هذا في جمع حي فأحييه بالسلام ،
أم أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة .

يا هؤلاء ! لستم بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين ، بل أنتم بين بين في
برزخ يسمى السبت ، ويصح تشبيهه بالنوم .

يا رباه : إني أرى أشباح أناس يشبهون ذوى الحياة وهم في الحقيقة موتى
لا يشعرون ، بل هم موتى لأنهم لا يشعرون .

* * *

رعاك الله يا شرق ! ماذا أصابك فأخلّ نظامك . والدهر ذاك الدهر ،
ما غير وضعك ولا بدل شرعه فيك .

رعاك الله يا شرق : ماذا عراك وسكن منك الحراك ، ألم تزل أرضك واسعة
خصبة ومعادنك وافية غنية ، وحيوانك رابياً متناسلاً ، وعمرانك قائماً متواصلاً ،
وبنوك على ما ربيتهم — أقرب للخير من الشر ، أليس عندهم الحلم المسمى عند
غيرهم ضعفاً في القلب ، وعندهم الحياء المسمى بالحيانة ، وعندهم الكرم المسمى
بالإتلاف ، وعندهم القناعة المسماة بالعجز ، وعندهم العفة المسماة بالبلاهة ،
وعندهم المحاملة المسماة بالذل ؟ نعم ، ما هم بالسالمين من الظلم ولكن فيما بينهم ،
ولا من الخداع ولكن لا يفتخرون به ، ولا من الإضرار ولكن مع الخوف
من الله . .

أديب إسحق

١٨٨٥ - ١٨٥٦

صحفي ، أديب ، شاعر ، خطيب .

ولد في دمشق في ٢١ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٥٦ وتعلم في إحدى مدارسها ، وانتقل إلى بيروت كاتباً في ديوان المكس « الكمرك » ثم اعتزل العمل ، وتولى الإنشاء في جريدة « ثمرات الفنون » فجريدة « التقدم » البيروتية .. وسافر إلى الإسكندرية فساعد سليمان النقاش في تمثيل بعض الروايات العربية ، وانتقل إلى القاهرة فأصدر جريدة أسبوعية أسماها « مصر » سنة ١٨٧٧ ، وعاد إلى الإسكندرية فأصدر مشتركاً مع سليم النقاش جريدة يومية سماها « التجارة » وأقفلت الجريدتان فرحل إلى باريس سنة ١٨٨٠ فأصدر جريدة عربية سماها « مصر القاهرة » وأصيب بعلّة الصدر فعاد إلى بيروت فمصر وعين ناظراً لديوان « الترجمة والإنشاء » بديوان المعارف في القاهرة ، ثم كاتباً ثانياً لمجلس النواب ، ولم يلبث أن قفل راجعاً إلى بيروت ، بعد نشوب الثورة العربية ، فتوفي في قرية الحدث ببلبنان (١) .

كانت حياة أديب إسحق على قصرها مليئة بالأحداث الأدبية الفذة . قال الشعر وهو في العاشرة ، وتعلم التركية والإفريقية وحذقهما ولما يبلغ العقد الثاني من عمره ، وكان من الخطباء البارزين بل من أشهر خطباء عصره ، حتى إن الزعيم الخالد سعد زغلول قد ذكره في جملة من تأثر بهم خطابياً (٢) .

يقول جرجي زيدان عن مقدرته الخطابية « اشتهر رحمه الله في الخطابة والإنشاء ، فإذا خطب تدفق السيل ، يهتز المنبر وتقاد إليه الكلمات آخذة بعضها برقاب بعض » ، ويقول عن إنشائه : « إذا كتب سحر الألباب بحسن البيان مع السلامة والبلاغة ، وكان قدوة المنشئين وعمدة الكتاب » (٣) .

(١) « الأعلام » للزركلي ج ١ ص ٩٢ .

(٢) مارون عبود في مجلة « الكتاب » سنة ٣ ج ٢ ص ٢٨٠ .

(٣) « مشاهير الشرق » ج ٢ ص ٧٩ .

وقد تتلمذ أديب إسحق على جمال الدين الأفغانى — لزرم حلقتة وأخذ عنه دروساً فى الفلسفة الأدبية والعقلية والمنطق ، وتكونت شخصيته الأدبية بعد رحلته إلى فرنسا حيث اتصل بأدبائها واطلع على أسلوب صحفها وسمع لأفذاذ الخطباء من نوابها فكان لهذا أثره فى نضوجه الفكرى وفى حياته الأدبية التى جعلت منه صحفياً بارزاً وخطيباً مفوهاً .. وفتحت له صحف باريس أعمدها فدافع عن الشرق بجرارة ، ولفقت مقالاته أنظار الساسة والكتاب الإفرنسيين فأعجبوا بمقدرته . وروى عن فيكتور هوجو أنه قال بعد أن اجتمع به : « هذا نابغة الشرق » ولم يمكث طويلاً فى باريس فقد ألح عليه المرض فعاد إلى مصر يتابع رسالته ولكنه لم يعيش طويلاً فقد مات وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، ومع ذلك فقد استطاع فى هذه الفترة القصيرة أن يملأ حياته بالكثير من الأعمال الأدبية فألف وترجم . . فن آثاره « نزهة الأحداق فى مصارع العشاق » و « تراجم مصر فى هذا العصر » وروايات ترجمها عن الإفرنسية منها « أندروماك » و « شارلمان » و « الباريسية الحسنة » وقد جمعت مقالاته ومنظوماته فى كتاب سمي « الدرر » .

وكان أديب إسحق ، فى كتاباته ، ثورى الروح ، يدافع عن الحرية ، ويهيب بالشرق أن ينهض وأن يتطور . . وهو فى طليعة الأدباء الذين عملوا على رفع مستوى الإنشاء الصحفى ، بأسلوب قوامه السجع ، إذ كان « يعتمد على تنسيق التعبير وترجييعه وتدبيجه ، ويحلى عباراته بضروب الجناس والطباق والاستعارة ، ويراعى الموسيقى فى تراكيبه » (١) .

وقد وصف مارون عبود أسلوبه بقوله :

« يرسل عباراته فتتأزر أزيز السهم وقد فارق الوتر ، جمل كأنها مقطوعة على نمط واحد ، لا هى بالطويلة ولا هى بالقصيرة ، يشد بعضها بعضاً فتؤلف مقالته كتيبة جامحة ، إذا راعيتها منفردة لا تحس لها مفعولاً عظيماً ، ولكنها تؤلف كلاً تخرج منه النفس وقد ملأها هذا الكلام اندفاعاً واستبسلاً » (٢) .

(١) « تاريخ الأدب العربى » لحنا الفاخورى ص ١٠٣٨ .

(٢) مجلة « الكتاب » السنة ٣ الجزء ٢ ص ٢٧١ - ٢٧٣ .

ومن نثره :

دولة العرب

آمن أديب إسحق إيماناً قوياً بأن لا جامعة تجمع بين أبناء الوطن الواحد غير اللغة وغير القومية ، فدعا إلى وحدة عربية شاملة . . ومتى ؟ .. قبل ثمانين سنة تقريباً ، فمن كلماته في مقال عنوانه « دولة العرب » قوله :

« ما ضر زعماء هذه الأمة لو سارت بينهم الرسائل . بتعيين الوسائل ، ثم حشدوا إلى مكان يتذكرون فيه ويتحاورون . ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد ، كأنها من فم واحد .

قد جاءت الراجفة تتبعها الرادفة . وهبت الحاصبة تلها العاصفة ، فذرت حقوقنا فصارت هباء منثوراً ، وأملت بنا القارعة ووقعت الواقعة . فصرنا كأن لم نغن بالأمس ولم نكن شيئاً مذكوراً ، فهلم نشهد الضلالة ونطلب المنشود . لا تقوم بأمر ذلك فئة دون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن في الوطن إخوان . تجمعنا جامعة اللسان . فكلنا وإن تعدد الأفراد إنسان .

أحسبون أن ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يخافون أن يذهب ذلك الاجتهاد سدى ، أم لا يعلمون أن مثل ذلك الاجتماع منزهاً عن المقاصد الدينية : منحصر في العصبية الجنسية والوطنية . مؤلفاً من أكثر النحل العربية — يزلزل الدنيا اضطراباً . ويستميل الدول جذباً وإرهاباً . فتعود للعرب الضلالة التي ينشدون . والحقوق التي يطلبون . ولا خوف على زعمائهم ولا يحزنون » .

حبه لمصر

« . . ومصر — ولا حياء في الحب — بلد تركت فيه زهرة أيام الشباب ، وخلفت باكورة غرس الآداب . وهزرت غصن الأمانى رطيباً . وليست ثوب الآمال قشياً ، فما عدلت بي عن حبها النكبة . ولا أنستني عهداً الغربا . ولست أول محب زاده البعد وجداً . ولم ينكث على الصداقة عهداً . فحذار أهل مصر إن العدو لكم بالمرصاد ، وإنكم لمحفوظون بالعيون والأرصاد » .

دفاعه عن السوريين المتمصرين حين هاجهم كاتب أجنبي اسمه شارم غبريل :

« أتقول ، وأنت أكذب القائلين ، إن السوريين أرباب كذب ونفاق ، ودناءة أخلاق ، لا مروءة لهم ولا حياء ، ولاهمة ولاخلاق ؟ ! كذبت ورب المروءة ، وما هي أول فرية منك ، فقد رميت من قبل نزالة اليونان في مصر بهذا القول : فجاءك النذر من الصديق جوسيو : ”رد ما كذبت أو تكون من الخاسرين“ فأبيت . فدعاك للنزال ، يحسب أن في عروقتك دم الرجال ، فتسترت بأذيال فواجر الغدر : فعلم أن مثلك لا يعامل معاملة الشرفاء . فصفعك كما يصفع الأذئال . .

وتذكر بعض مخدراتنا بالسوء ابتهاراً . وتورد في ذلك حكاية حال من سفر بحر وصحبة فتى . وتزلف والد . . فهلا ذكرت يا ابن الطاهرة . مكارم الكرائم حين دببت ، وحيث شببت . وحيث تأدبت ، فلا تخرجنا فتخرجنا من الذود إلى الإقدام . ومن الجواب إلى الخطاب . إنا نعرف منكم ما لا تنكرون ، ونعلم ما لا تجهلون .

ثم طبعت هذا القول الهراء يا سقيم الطبع . فأين تركت ماء الحياء ، ومن أين جلبت لوجهك جلد خنزير ؟

عفواً سادتي ، عما ترون بي من سورة الغضب ، ولكن هو الوطن والعرض والقوم . ومن ذا الذي لا يغضب لقومه أن ينالهم لسان مبتذل ساقط لثيم . . قد عرفت هذا الرجل الذي جاءكم ضعيفاً نزيلاً وأكرمتموه فجعل أعراضكم مناديل .

ويا مسيو غبريال شرم هذه أولى رسائلي إليك تنوب عن يد يقصرها بعد المسافة عنك . فطب نفساً . إنك التمتت الشهرة بين قومك بما افترت على السوريين والمصريين من قبلهم . وإنني لأجعل لك بين قومي ذكراً ، يجدهه المستقبحون عصراً فعصراً » .

ومن شعره :

الحق للقوة

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر
والحق للقوة لا يعطاه إلا من ظفر

المرأة

حسب المرأة قوم آفة من يداينها من الناس هلك
ورآها غيرهم أمنية ملك النعمة فيها من ملك
فتمنى معشر لو نبذت وظلام الليل مشد الخلك
وتمنى غيرهم لو جعلت في جبين الليث أو قلب الفلك
وصواب القول لا يجهله حاكم في مسلك الحق سلك
إنما المرأة مرآة بها كل ما تنظره منك ولك
فهى شيطان إذا أفسدتها وإذا أصلحتها فهى ملك

نظم حرّ

ومما قاله في سجنه من قصيدة بعث بها إلى محمد سلطان باشا وقد عارض فيها أبا فراس الحمداني :

أمولاي هذا نظم حر ، وتلوه
أتوه بنكر وهو للعرف مرتج
أبعد ذو فضل ، ويدنى منافق
ويكرم جاسوس عن الصدق حائد
كلام سجين أوثقت به المآثر
وجازوه بالخذلان وهو مناصر
ويسجن واف ، حين يطلق غادر
ويظلم همّام على الحق سائر
معائب قوم عند قوم مفاخر
بذا قضت الأيام ما بين أهلها

سليم عنحورى

١٨٥٦ - ١٩٣٣

من رواد النهضة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .
شاعر ، ناثر ، صحفي . . .

عالج شئون الوطن بمقالات نشرها فى صحف مصر وسورية . . واهتم بشئون
الطباعة . . وكان أحد أدباء دمشق المستجيبين لتطورات العصر .

أصدر فى مصر سنة ١٨٧٨ مجلة « مرآة الشرق » وهى مجلة أسبوعية . .
ثم أنشأ مجلة « مرآة الأخلاق » وهى نصف شهرية . .

كما أصدر مجلة « الشتاء » فى رحلته الثانية إلى مصر . . وكانت تحتجب
فى الصيف وتظهر فى الشتاء . . .

وإذ كان من رواد النهضة . . ومن يكتبون فى الصحف ، فقد نى خلال
الحرب إلى الأناضول مع مَنْ نى من الأسر الشامية . .

وظلّ فى منفاه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .. ونظم هناك ثلاثة دواوين
من الشعر . .

من مؤلفاته المطبوعة :

١- كنز الناظم أو مصباح الهائم ، وهو معجم تطلب فيه المعنى فتجد
الألفاظ ، ضمته المفردات والأشعار .

٢ - سحر هاروت - ديوان شعر -

٣ - بدائع ماروت أو شهر فى بيروت .

٤ - آية العصر - ديوان شعر -

٥ - حديقة السوسن .

٦ - رواية الانتقام العادل والجن .

ويوضح لنا مذهبه الشعرى بقوله :

« علم الله أننى لست بالشاعر المتكسب ، ولا بالمادح المستوهد ، بل أنا

شاعر فطرى أوجدته الطبيعة : بغير صنّعة أستاذ ولا فضل مدرسة - نظاماً مكرّراً مطبوعاً . فى عالم الخيال تيّاهاً . وفى أودية الفكر هياماً ولوعاً . . أسرح مذ كنت يافعاً فى حدائق التصور هنيهة : فأنسج القصيدة عفو الساعة وفيض القريحة . . لا مقتدياً بإفرنجى . . ولا مهتدياً بتركى ، لأن بيانى لا يشاكل بيانه « (١) .
ويقول يوسف داغر :

« نحا فى نظمه الشعر العصرى منحى خليل الخورى صاحب "حديقة الأخبار" وفرنسيس المراس . فكان هو ثالثهما فى وصف مخترعات العصر والنظم . وكان رائد تجديد فيما نظمه من مواضع » (٢) .

ونقرأ شعره فإذا هو شعر طابعه التكلف - طابع الشعر فى القرن التاسع عشر : حيث يخضع للمحسنات البديعية . . .
فديوانه « سحر هاروت » وقد نظمه أيام الشباب : - وهو مقطوعات وقصائد فى الغزل والنسيب - ملء بالمحسنات البديعية . .

يقول مثلاً وقد نظمت فى التشبيه والتورية :

بدت بعصاة سوداء تحكى ظلاماً قد علا صبحاً منورٌ
فأصبح عاذل كلفاً معنىً فقلت له اتند : هذا مقدّرٌ
ويقول فى الحقيقة والحجاز :

ياحسنها ظبية كافور وجنتها قد حلّه مسك خاليسها بتنزيل
حققت فيها مجازاً مرسلًا فجلا كناية حسن استعاراتى وتمثيل
ويقول فى الاقتباس :

أتى وهو يثنى عطفه متلفتاً فلم أدر هل غصن أزانى أم رشا
غدا ثغره الدرّى للحسن آية « وذلك فضل الله يؤتيه من يشا »

وهكذا فن وصف لكحل العيون .. إلى العذار . إلى الأقداح والأحداق .. إلى ما شئت من ألوان الطبيعة والجمال . . فشعر فى الجناس التام . . وشعر

(١) ديوان « آية العصر » ص ٥ .

(٢) « مصادر الدراسات الأدبية » ج ٢ ص ٦١٣ .

في الجناس المركب . . . وشعر في الطباق مع التورية . . . وشعر في الاستعارة والتشبيه كقوله :

حللت في غرف من تحت جنبها الأنهار تجري على صوت النواير
يطاف فيها بأكواب وآنية من فضة شبهوها بالقوارير
كأن ياقوت ما نسق بأكؤسنا ذوب من النار في جام من النور
في سندس خضر أورفرف وضعت فيه الأرائك للولدان والخور
قرأت إذ ذاك أحكام الهوى سوراً فإن رويت يقول الناس « عنحور »
ويجري أكثر شعره على هذا النسق . . .

ومن قصائده الشهيرة التي كان ينشدها المطربون في الفرق التمثيلية بين فصول الروايات وخلال فترات الاستراحة قصيدة « لص الحب » :

عاينت أجناداً تسو ق جماعة نحو السجون
فسألتهم ماذا جنوا قالوا : « لصوص يسرقون »
سلبوا دراهم غادة حسناء ساحرة العيون
فأجبت ما دام للصوص ص لأجل مال يسجنون
هياً اسجنوا هذى الفتا ة مليكة الحسن المصون
سلبت نهائى ومهجتي حتى الرقاد من الجفون
ألصوص مال تمسكو ن ولص روح تتركون ؟
فتحيروا وتشاوروا سرراً وهم يتهمسون
وإذا زعيمهم يصي ح كفى أنتم في جنون
من ذا الذى جهلا يرى أن الملائك يُحبسون

وحين ضمن شعره مسميات بعض الاختراعات كالبخار والميكروسكوب والفاطرة وغيرها قالوا إنه « شاعر عصرى » فمن ذلك قوله :

قد ذبت من وجدى فإن أحببت يا خلستى تصافحنى فصافح ثوبى
هيات تقدر أن ترانى مقلة ولو أنها نظرت « بمكروسكوب »
ويقول في البخار :

يا من يحيرها استماع تكلمى وخفاء شخصى إذ أتيت الدارا
وتظن أنى ساحر مستخدم تخذ التكهّن سيمة وشعارا

لا تعجبي مما ترين حبيبتى فالعلم يكشف هاته الأسرار
بجراحة الحب الشديد تمددت أجزاء جسمي فاستحال بخارا

* * *

نعم ، حين وصفه معاصروه بأنه « شاعر عصرى » . . وحين نرى التكلف
بادياً في شعره . . والسجع في نثره . . نرى أنه يمثل واقع عصره تمام التمثيل . .
وهو أدب موثوق الصلة بأدب عصر الانحطاط . . ولا نستطيع أن نعتبر هذا
« الكلام الموزون المقفى » شعراً . . خذ مثلاً وصفه لشوارع مصر :

تلك الشوارع عرّضت أمتاراً ستاً بست تدهش النظارا
يجرى الهواء بها رخاء مطلقاً يحمو السقام ويذهب الأكدارا
ويصف طرقها بقوله :

قسمتُ فقسم أوسط خصّوا به الـ معجماء ثم عواجلا وقطارا
وعلى جناحيه يسير بنو الورى قسمان قد رصفوهما أحجارا
رصفاً بإحكام يريح ذوى الضنى لا يخبثى فيه الضرير عثارا
خلصت من الأوحال والأرجاس لا يطأ المشاة بخطوهم أقذارا

وقد يفيد هذا الشعر من يبحث مراحل أعمال التنظيم في بلدية القاهرة . .
أما أنه شعر . . فلا . .

ولا يهمننا هذا الأمر فنحن نورخ لون الشعر في تلك الفترة من ذلك العصر .
وهذا لون من ألوانه !

* * *

ومن الغريب أن يسلكه مارون عبود بين الشعراء المطبوعين ويعتبره رائد تجديد
فيقول :

« الشاعر مطبوع ، حسن الديباجة ، حاول أن يحوّل الشعر عن مجراه ، فقاله
في مواضيع علمية وأخلاقية وأدبية ، وفلسفية اجتماعية ، حتى تناول ما وراء القبر
أيضاً ، فكان رائد تجديد فيما نظمه من مواضيع » ^(١) !

الشيخ بشير الغزى

١٨٥٧ - ١٩٢١ م

علم من أعلام اللغة والأدب.

ليست ثقافته الأدبية واللغوية دون ثقافة الشنقيطى أو المرصفى أوغيرهما من أعلام اللغة الذين استفاضت شعورتهم فى القرن التاسع عشر . . .

وعى صدره أسرار العربية فكان حجة يرجع إليه فى علومها ، فإذا أخذ فى تفسير آية من آيات الكتاب الحكيم ، أو قصيدة لشاعر جاهلى أو غيره من فحول شعراء العربية رأيته بحراً زاخراً فى الشرح والاستطراد والتفسير .

يصفه أخوه الشيخ كامل الغزى صاحب « نهر الذهب فى تاريخ حلب » بقوله :
عُرف منذ صغره بالذكاء وسرعة البديهة ، وقد حفظ ألفية ابن مالك ، وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، فى عشرين يوماً ، كما حفظ فى بدء نشأته جملةً وافرة فى أشعار العرب ونبدأ كثيرة من مختارات الأدب . . .

وكان محصوله من العلوم : التفسير والحديث . وعامى الفرائض والعروض والمنطق وأدب البحث والمناظرة ومصطلح الحديث ، وهى العلوم التى كانت تدرس فى المدارس الدينية ، وقد ألمَّ إلماماً واسعاً بالعلوم الحديثة ، فدرس الفلسفة والطبيعات وعلم الهيئة والفلak . . .

وبعد أن أكمل ثقافته الدينية والأدبية ، انصرف انصرافاً كلياً إلى اللغة وكتب الأدب ، ووصل به تعمقه إلى حفظ أكثر من كتاب واحد - حفظ أكثر النصوص ، فكان يُدلى من حفظه كتاب « الأغاني » وشرح ديوان الحماسة وأمالى القالى ، وكامل المبرّد ، ومختارات الشعراء الثلاثة : الطائى والبحترى والمتنبى وشعر أبى العلاء فى سقط الزند والازدهيات . . .

وكان المعرى من الشعراء المفضلين عنده . ولنرط حبه له آمن بمذهبه فلم يتزوج ، وكلما عرض عليه أخوه وأصدقائه فكرة الزواج ، كان ينشد قوله :

وما الدهر أهل أن يؤمن عنده حياة . . وأن يشاق فيه إلى النسل
ثم يتبع هذا البيت بأبيات كثيرة في هذا المعنى من اللزوميات .

وقد انقطع إلى المدرس فظلّ حتى الخمسين من عمره مجاوراً في المدرسة
الرضائية لا يشغل نفسه إلا بطلب العلم والتبحر في فنونه . فلما ذاع فضله
واشتهر ، توجهت الأنظار إليه للإفادة من فضله وعلمه فانتخب نائباً عن
حلب في مجلس المبعوثين - مجلس النواب - . وشغل عدة وظائف في القضاء
المدنى والشرعى إلى أن عين في أخريات أيامه قاضى قضاة حلب .

وبالرغم من تبحر الأستاذ الغزى في علوم العربية وأسرارها لم يصنّف كتاباً
في الأدب أو اللغة يُرجع إليه . لأنه كان يعتقد . كأكثر علماء عصره . أن
العلم مكنوز في خزائن الكتب . وما على العلماء إلا الكشف عن هذه الكنوز
بالبحث والدرس والصبر . فالعلم في رأيه . إنما هو « فهم ما تركه السابقون » . . .

ومع ذلك ، فقد وضع كتاباً في اللغة ضمنه ما في « مختار الصحاح » من
الكلمات اللغوية ، وجعله على أسلوب حكاية سائح يذكر في حكايته الكلمة
ويعطف عليها مرادفها تفسيراً لها . ورسالة في التجديد . وتفسيراً صغيراً مختصراً
يمكن طبعه على حاشية المصحف .

وقد نظم الشمسية في علم المنطق وهى في مائتى بيت وزيّف . وهى قوية
السبك لا يظفر فيها أثر التكلف الذى يظهر عادة في منظومات المتون العلمية .

ونشر كتاب « أحكام القرآن » للإمام أبى بكر أحمد بن على الرازى المعروف
بالخصاص ، وقد طبع في الآستانة وصحح القسم الأكبر منه بنفسه .

ورائعته الشهيرة أرجوزة « حقائق الرند » .

فقد ترجم عن التركية قصيدة المرحوم ضيا باشا الفيلسوف التركى الشهير
الموسومة بـ « ترجيح بند » ، وقد أجاد في ترجمتها وأبدع حتى جاءت كأنها عربية
الأصل . وقد لا تقل في سبكها عن مقصورة ابن دريد . وحين ذاعت منع
تداولها في عهد السلطان عبد الحميد لأنها تضمنت البيتين الآتين :

ظلم القوى للضعيف جار في الأرض والهواء والبحار

كأنه لم يكفنا الأهوال حتى تولى حكمنا الجهال
وصفه قسطاكي الحمصى بقوله :

« طود علم ووقار : وقطب أهل العلم في هذه الأقطار ، كان متبحراً
في علمي اللغة والأدب ، يحفظ ويروى من نوادرهما ما يورث العجب ، وكان
إماماً في علوم الفقه والحديث والمنطق . فصيح العبارة بليغها : رخم الصوت ،
يرتل القرآن ترتيلاً ترتفع له حجب الأسماع » (١) .

* * *

وبهذه المناسبة ، أذكر وأنا صغير لما أتجاوز الرابعة من عمري ، كنت أوم
الجامع الكبير في السحر . وفي أيام رمضان المبارك ، لا لأؤدى فريضة صلاة
الصبح فحسب . بل لأنعم بجمال ترتيله لسور القرآن . وكان يأتّم به أكثر من
عشرة آلاف مصلّ ما من واحد منهم إلاّ وقد أخذ برخامة صوته وحسن أدائه
في خشوع وتبتل أشبه بذهول الصوفيين .

وكما كان من أफقه الأدباء في فلسفة اللغة العربية كان إماماً بقراءات القرآن
الأربع عشرة . . .

وقد أتيج لي ، وأنا في بدء حياتي الأدبية ، أن أحضر مجالسه مع أبي فقيه
حلب (٢) ومن أخلص أصدقائه ، فإذا بي إزاء جهيد من كبار علماء الأدب واللغة ،
يعبق مجلسه بالفصاحة والبلاغة ، ولا سيما حين يستشهد بشعر أبي العلاء ، ولودون
تلاميذه بعض دروسه في الأدب والنقد لترك مجموعة زاخرة من آراء قيمة في تفسير
أدبنا القديم .

(١) أدباء حلب ص ٥ .

(٢) على الكيال العالم ، خلف الغزى في قضاء حلب ثم تولى إفتاءها وظل يشغل المركزين قرابة
الثلاثين سنة ، وإلى تبحره في الفقه الحنفي كان واسع الإحاطة بعلوم العربية ، وله شعر كأكثر
شعر الفقهاء ، ومن كتبه غير المطبوعة : « إرشاد السائل إلى صحيح المسائل » وهو مجموعة نقول من فروع
وأصول جمعها من أساطين الفقهاء ورتبها على أبواب ومقدمة وخاتمة مع شرح دقيق لها ، ولما اطلع عليه
الأستاذ محمد أبو زهرة أوحى بطبعه وندب نفسه ليكتب مقدمة ضافية له تبين قيمته العلمية والمنهجية .

بعض مقاطع من « حدائق الرند »

الترجمة عن التركية

ذا معمل الصُّنْع العجيب مكتب
 نقوشه عن علم غيب تُعرب
 وفلك طاحونه المصائب
 والناس فيها مثل حب ذائب
 ملتقماً أفراخه كالغفريّة (١)
 وهو كوكب الطير واهى الأرويه (٢)
 ومنْ يُحقق يجد الأشياء
 مناماً أو خيالاً أو هباء
 وكل شيء للتناهي ينقلب
 فانظر فصول العام كيف تنقلب
 والمرء عن كسب اليقين عازب (٣)
 والاعتقاد عن حجاه غائب
 يا ربّ : ما هذا العناء واللدد (٤)
 وحاجة المرء بكسرة تسدّ
 لا عاصم من قدر السماء
 بل كل شيء هدف القضاء
 والأصل أن يظهر مقدور الأزل
 والخِطء والصواب في الناس عِلل
 وكل تأثير من الرحمن

(١) الغفريّة : الغفريت .

(٢) الأرويه : الرباط الذي يربط به الشيء .

(٣) العازب : البعيد .

(٤) اللدد : الخصاص . والكسرة : اللقمة .

لا حكم للأفلاك والأذهان
سبحان من قد حيرَ العقولا بصنعه ، وأعجز الفحولا

* * *

ومنها :

قد عزّ في الدنيا الخسيس الجاهل
وعاش في الذل الحسيب العاقل
ورب ذى جهل لدولة ملك
ورب ذى عقل للقمة هلك
قد قبل الناس اللّثيم المفسدا
ونابذوا الشهم الفصيح المرشدا
كم فاضل لجاهل مسخر
وكم أديب عنده محقر
العارفون رزقهم في هبط
والظالمون عيشهم في غبط

سبحان من قد حيرَ العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

* * *

يا رب ما بال اللبيب في الزمن
معذب بعقله وممتحن
يا رب إنك ابتليت العارفا
بقدر ما أوليته معارفا
من كل وجه مبصر عناء
وفوق عقله يرى الأشياء
هل يمكن التحقيق والإيقان^(١)
العقل بالظن له اتزان
وكيف بالعلم والاستيعاب

(١) الإيقان : التيقن .

لعاجز ناء عن الصواب
 كأنه لم تكفنا الأهوال
 حتى تولى حكمنا الجهال
 ولست أدري هل نظام العالم
 يقضى لذي جهل بعز دائم
 ولم يزل من سالف الأزمان
 يستعبد الأحمق ذا العرفان
 وفي بقاع العزّ يرقّ الجاهل
 وفي حضيض الذلّ يُلقي الفاضل
 بالخط قد صار الجهول نائلا
 آماله - والشهم أضحى عائلا

مسيحان من قد حير العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

قسطاكى الحمصى

١٨٥٨ - ١٩٤١

أديب ، شاعر ، معنى بالدراسات اللغوية .

ولد فى حلب سنة ١٨٥٨ . وعاش مع آله وذويه فى وسط تجارى ، وهم من أعرق البيوتات الحلبية فى الواجهة والغنى ، أصحاب مصرف كبير وتجارات واسعة .

وبالرغم من هذا الوسط المالى والحياة المترفة التى عاش فى ظلها فقد تعلق بدراسة الأدب منذ صغره ، نظم الشعر وهو تلميذ فى المدرسة . وتعلم الإفرنسية والإيطالية ، وأتم دراسته الثانوية فى مدرسة الآباء « رهبان مار فرنسيس » ، ثم أكبّ على المطالعة فحذق النحو والصرف والعروض واللغة الإفرنسية والإيطالية .

فى سنة ١٨٧٥ سافر إلى فرنسا ومكث فيها قرابة سنة وتلمذ على أستاذ إفرنسى لقنه دروس الفلسفة ، وبعد أن عاد إلى وطنه تكررت رحلاته إلى فرنسا أكثر من مرة ، سافر إليها سنة ١٨٧٨ لزيارة معرضها . ثم سنة ١٨٩٢ حين جاءه نعى أخيه ثم فى سنة ١٩١٣ لتجديد عهده بقصورها ومتاحفها . بملاعها ومعاهدا ، بجناتها وملاهيها ، وقد كان لهذه الرحلات أثرها فى نفسه وتفكيره وفى تمكنه من اللغة الإفرنسية فحذقها وأصبح يجيدها كالعربية سواء بسواء . وإذ نشأ وهو ذو ميل لقرض الشعر وتدبيج المقالات فما كاد يتخطى العقد الرابع من عمره حتى عرف بين أقرانه وببيئته كأديب وشاعر ، واجتذبت به بحوث اللغة فغاص فى خضمها ، وكان وثيق الصلة بالشيخ إبراهيم اليازجى ، وجرت بينهما مراسلات تفيض بالحب والتقدير . ثم نصب نفسه بعد وفاة اليازجى مدافعاً عن كل من يتهجم على أدبه ولغته .

* * *

كان السفر بعض هواياته ، ففى خلال رحلاته إلى الغرب سافر سنة ١٨٩٨

إلى إستانبول وسنة ١٩٠٥ إلى القاهرة . . وكان يغتنم فرصة سفره إلى عواصم الشرق والغرب ليزيد من ثقافته الأدبية ويتعرف إلى أكابر رجالات الفكر والأدب ، وبالرغم من أعماله المصرفية كان الأدب شغله الشاغل ، يكتب وينظم ويدوّن ، واستطاع خلال هذه الفترات أن يؤلف كتابه « منهل الورد » في جزأين وهو أول كتاب ظهر في النقد الأدبي في بدء النهضة الفكرية .

* * *

في سنة ١٩١٩ انتخبه المجمع العلمي العربي بدمشق عضواً عاملاً ، وقد كتب في مجلة المجمع الكثير من المباحث والفصول في الأدب واللغة .

* * *

كان قسطاكي الحمصي غنياً بماله وغنياً بأدبه ، ولكنه كان يعتز بثروته الثانية أكثر من اعتزازه بالأولى ، لاعتقاده أن الأولى معرضة للزوال ، أما الثانية فهي خالدة مع الأجيال . عاش حياته كلها في جهاد ونضال - جهاد العالم الحريص على قديم اللغة وثمين تراثها وجمال بهاها ، ونضال الباحث في سبيل تطويرها ومجاراتها حياة العصر بجميع أغراضها وتباين مراميها .

وقد كان عربي القلب ، عربي التفكير ، وبذلك كان من أوفى رجالات اللغة المعاصرين الذين جمعوا بين القديم والحديث ، وإن كان من نهجه إلى القديم أقرب . .

كان ينظم الشعر في كل مناسبة ، بل كان الشعر وسيلته للإفصاح عن نزواته السياسية ونزعاته الاجتماعية والكثير من أغراض الحياة الطارئة ، فما من حدث وطني إلا وسجله بمنظومة من منظوماته التي تصور طابع الأدب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ^(١) .

وهو صحيح الأسلوب في نثره وشعره ، والقارئ يلمس في مدوناته قوة السبك أكثر من روح الشاعرية ، ويرجع هذا إلى تمسكه بقوالب اللغة تمسكاً قد لا يلائم جو الشعر المنطلق ، يضاف إلى ذلك إقحامه الشعر في الموضوعات ذات

الصلة الوثيقة بالمناسبات السياسية والاجتماعية . ومن جهة ثانية ترجمته الكثير من الشعر الإفرنجي إلى الشعر العربي ، وهو دقيق فيما يترجمه شعراً ونثراً ، حريص أن تكون الترجمة بصيغها البيانية كالأصل .

* * *

وكان شديد الاعتزاز بالعربية وبالعرب ، وكثيراً ما أخذ على بعض اللبنانيين تفاخرهم بالفينيقية ، مع أن العروبة أقرب إليهم ، وهم منها وإليها ، ففي نقده لكتاب الجبارة للأستاذ ليب الرياشي يقول :

« ولا نجد بدءاً من البوح بما أنكرناه على المؤلف من صعوده بقومه إلى الفينيقيين وهم أمة هلكت ودرست آثارها وعلومها ولغتها على حين أنه يتكلم بلغة عربية فاشية في بلاده منذ أُلوف من السنين وهي أفصح لغات البشر وأوسعها ألفاظاً وأفصحها للأوضاع العصرية صدرّاً ، ولها ماض مجيد قد امتد إلى ما أنسى من ذكر الفينيقيين . وقد أنارت معارفها وعلومها أكثر جهات الأرض وصديقنا نفسه من عشاق هذه اللغة ، وعلى حين أن مدينته بيروت هي مدينة المدارس والمطابع العربية بل مدينة العلوم العربية والعلماء والشعراء والخطباء فما باله ينصرف عن الانتساب إلى هذا الأصل العربي الرفيع المجيد ويحاول الالتصاق بقوم لم يبق على وجه البسيطة من آثارهم سوى الاسم — نقول هذا له ولن يرى رأيه من أصحابنا في ذلك البلد العزيز ، أو نحن أقرب نسباً إلى قس بن ساعدة وقوم الأخطل أم إلى الفينيقيين . . ألا ترضون بالغسانيين نسباً ؟ » (١) .

أظهر كتبه « منهل الورد » وكان في جزأين فضم عليه جزءاً ثالثاً تضمن عدة بحوث أهمها بحثه الواسع عن دانتى وأبي العلاء وتأثر شاعر الطليان بشاعر العرب . وكتاب « أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر » و « مختارات من شعره » ورسالة تعقب فيها أخطاء الأب أنستاس الكرملي بعث بها إلى مجلة « الحجمع اللغوى في مصر » ومجموعة رسائله ومقالاته ومحاضراته في موضوعات تمت بصلة وثقى إلى الأدب واللغة والتاريخ وهي غير مطبوعة وتؤلف سفيراً ضخماً .

ومن نفثاته الشعرية :

البدوية :

من قصيدة له يعرض فيها ببعض الشعويين ، فى صيف سنة ١٩٢٠ قام نفر فى بيروت ولبنان يدعون الناس إلى الطلب من حكومتهم أن تجعل اللغة الإفرنسية رسمية فى سائر محاكمها ودوائرها ولكن أبى كرام القوم أن ينزلوا عند رأى هؤلاء الخوارج وقد ألهم هذا الحديث المنكر موضوع هذه القصيدة فقال :

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| بالله يا نسمات الرند والبان | من نجد جئت أم من روض غسان |
| فإن فيكن ريحاً من ملابسها | فطيب ليلى بأنفاس وأردان |
| وهل لثمتن من ليلى مباسمها | إنى عليها غيور أى غيران |
| إنى أغار عليها من صواحبيها | والحاسدات ومن إنس ومن جان |
| فإن ليلى فتاة لا مثيل لها | صيغت من الحسن شكلاماله ثان |
| إلى البدواة منسوب منابتها | وإن نمت فهل فخر كعدنان |

إلى أن يقول — والبدوية التى يصفها هى اللغة العربية :

| | |
|-----------------------------|---------------------------|
| حروفها لمعان لا تطاولها | فى حسنها بنت يونان ورومان |
| ألفاظها درر تركيبها سور | آياتها غرر فى كل قرآن |
| غزيرة الفضل لم يجمد محاسنها | إلا جهول بإيجاز وتبيان |
| لها الفصاحة تعزى أينما وجدت | شهودها مثل قس أو كسحبان |
| وفى البلاغة هل خود تضارعها | وأصلها صاعد يسمو لقحطان |
| والشعر محتدها من ذا ينازعها | فيه ؟ وكم تيمت من ند حسان |

إلى أن يقول :

| | |
|------------------------------|--------------------------|
| وهل أمية صالت واستقام لها | ملك وطرف لليلى غير يقظان |
| وهل سما عرش هارون الرشيد على | ملك بناه على عدل وعمران |
| والأرض فى ظلمة للجهل حالكة | وملكه مشرق من نور عرفان |
| إلا وأعلام ليلى غير خافية | فى كل مأثرة تعلو ببرهان |

وهل خليفته المأمون ردّ لنا
إلا بالفاظ ليلى غير ملتمس
علم الأوائل من أقوام يونان
في حسن تعريبها ألفاظ أعوان

وبعد أن ألع إلى ما قام به العرب في الأندلس وبعد أن وصف أثرهم في
الحضارة وكيف أن اللغة لم تستعص على شتى فنون المعرفة قال :

ما ضرّها أنها والحسن عابدها
يا أهل لبنان ماذا العهد كان بكم
أنكرتمو اليوم ناصيفاً وأسرته^(١)
أما سمعتم أبا إسحق^(٢) ينشدكم
لها حواسد من أهل وجيران
يا أهل لبنان قد أصممت آذاني
نبشتم قبر شدياق^(٣) وبستاني^(٤)
يا بعض لبنان قد مزقت أكفاني
ثم يختم القصيدة بقوله :

نم يا أخا الود لا تغضب لما أثموا
وذلك البعض جزء البعض من نفر
ليلاك آمنة ما دام من رهنوا
فليس لبنان ذا ، بل بعض لبنان
فما لحزنك فينا غير غضبان
عهودهم عندنا من خير أعوان

(١) الشيخ ناصيف اليازجي .

(٢) أحمد فارس الشدياق .

(٣) المعلم بطرس البستاني .

(٤) الشيخ إبراهيم اليازجي .

رفيق العظم

١٨٦٥ - ١٩٢٥

لمع في دمشق ، في أواخر القرن التاسع عشر ومع تبشير فجر النهضة الفكرية - اسم غير واحد من المفكرين الذين أرادوا للأمة العربية أن تسير منطلقة مع التيارات الفكرية الحديثة . .

وكان رفيق العظم المؤرخ ، الكاتب ، الشاعر كمحمد كرد علي في طليعة هؤلاء المفكرين . .

« ولد في دمشق . . وفيها نشأ . . فأخذ العلم عن بعض شيوخ زمانه ومن ملازمة العلماء والأدباء وبعض المتصوفة ، ودأب على المطالعة فقال إلى العلم والجد . . ربطته والشيخ طاهر الجزائري والشيخ سليم البخاري والشيخ توفيق الأيوبي وشائج متينة من الود الخالص » (١) .

« وقد نشأ مقبلاً على كتب التاريخ والأدب . . ورحل إلى مصر في حدود سنة ١٣١٠ هـ فسكنها واشترك في كثير من الأعمال والجمعيات الإصلاحية والسياسية والعلمية ، ونشر أبحاثاً قيمة في كبريات الصحف والمجلات » (٢) - في الأهرام ، والمقطم ، والمؤيد ، واللواء . . وفي المقتطف ، والهلal ، والمنار . . وكانت مصر ، في تلك الفترة ، ملتقى كبار رجالات الفكر الأحرار الذين وفدوا إليها هرباً من الجور الحميدي ، وكانت مقالاته دعوة صارخة إلى الإصلاح ومطالبة السلطان التركي باللامركزية الواسعة للوطن العربي . .

ومن مصر سافر إلى الآستانة . . ثم رجع إلى دمشق . . ولكنه لم يلبث فيها طويلاً . . فعاد إلى مصر عام ١٨٩٤ ورأى في جوّها الحر جميع الوسائل التي تمهد له أن يحيا حياة فكرية هادئة . .

* * *

وكانت مباحث التاريخ قد اجتذبت به إلى رحابها الواسعة . . فكتب كتابه

(١) « مصادر الدراسة الأدبية الحديثة » لداغر ج ٢ ص ٦٠٥ .

(٢) « الأعلام » للزركلي ص ٣٢٤ .

« أشهر مشاهير الإسلام » وقد أراد من كتابه هذا لا أن يسرد الوقائع سرداً جافاً كما جاءت في كتب من تقدمه من المؤرخين بل أن يحلل الوقائع والأحداث ، وأن يرسم للجيل الجديد سيرة أبطالنا الذين دوخوا العالم بفتوحاتهم العظيمة . . وقد أشار إلى هذا في مقدمة كتابه بقوله :

« ولعمري إن رجال الأمم العظام خلقون بمثل هذه العناية ، جديرون بإعظام الشأن . . وتخليد ذكرهم على صفحات الزمان . . ولما كان الإسلام قد أنجب كثيراً من أمثال هؤلاء الرجال الذين ورد ذكرهم مشتتاً في بطون التاريخ ، متفرقاً في ثنايا الكتب والسير ، فقد نهضت بي عزيمة النفس واستغزني الولع برجال الإسلام إلى أن أستقصى أخبارهم ، وأتبع آثارهم ، وأفرد لمشاهيرهم في الحرب والسياسة تاريخاً خاصاً آتى به على أخبارهم وفتوحاتهم وسياساتهم وأخلاقهم وكل ما يتعلق بتاريخ حياة كل فرد منهم على أسلوب مبتكر بديع الترتيب ، يسهل على المتناول ، جامع للأوصاف التي تمثل حقيقة المترجم تمثيلاً لا يدع حاجة في النفس إلى المزيد ، ولا يحوج المطالع إلى الإمعان في جمع مزيج الأفكار إلى مقر الذاكرة من دماغه ، والعقل من فؤاده ، للوقوف على أغراضها ، والتفريق بين جواهرها وأعراضها . .

هذا وقد أخذت على نفسي أن أطلق لها في كل مجال عنان القول ، وأرى بسهام الفكر إلى كل غرض يبدو للنظر ، عساني أن ألمّ بشيء من الأدواء الاجتماعية التي طرأت على المسلمين ، وأستطيع من إسداء النصيح ما أخدم به في هذا العصر قوى الذين ما إخالهم يردون نصيحة الناصحين سيما إذا كانت مؤيدة بسيرة الصحابة ، معضدة بالتاريخ ، مستندة إلى الدين » .

ويقول : « فما هانيبال بطل قرطاجنة الشهير الذي ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناغة بنيانهم . . من موسى بن نصير ومولاه طارق اللذين جاءا من أقصى العربية إلى أقصى المغرب فدوخا ممالك هانيبال القديمة في أفريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليل مضيق سبته إلى القارة الأوروبية ففتحا مملكة الأندلس وقضيا على دولة الغوط بالدمار . . بل أين هو من عبد الرحمن الغافقي الذي اقتحم ما وراء البرنية بجيشه القليل في أحشاء المملكة الإفريقية حتى بلغ بواتيه

وبورغونتيه على مسافة ألف ميل من جبل طارق فذعرت منه سكان الممالك الأوروبية واستجاشت لقتاله وصدته الجنود الفرنسية والكوكسون والغوط والجرمان حتى تمكنوا من إرجاع جيشه وأوقفوا تياره الذى كاد يكتسح الممالك الأوروبية .. وأين نابليون الذى طبقت شهرته التاريخية الآفاق وعده الأوروبيون من أشهر القواد فى العالم لحروب طويلة أصلاهم نارها - من قتيبة بن مسلم فاتح السند وتركستان . . ومن عبد الملك بن مروان الذى جابت جيوشه شطوط المحيطين مرفوعة أعلام الظفر ، واثقة من نصر الله « (١) .

لقد كتب تاريخه للغة . . ويرسم للجبل الحديد سيرة أبطالنا العظام الذين ضربوا أروع الأمثال فى تاريخ البطولات . . وعالج الحوادث بأسلوب واضح غير معقد ، وبروح منهجية . . فنهج - كما يقول - نهج مؤرخى الإفرنج الذين « اجتنبوا فى تراجم رجالهم استعمال التخيلات الشعرية وإيراد الاستعارات والمجاز فى الوصف ، وحرص الألقاب الكثيرة رصاً تضييع معه صفات المترجم الفطرية وتغمض على الناقد أوصافه الحقيقية ، ليكون فى بساطة الترجمة وقصرها على إيراد الحقائق فى منشأ المترجم وما أثره فى حال ظهوره وإبان نشأته تصوير لسيرة المترجم يمثل للمطالع فى قالب الوجود حتى كأنه هو يراه » (٢) .

بهذه الروح كتب كتابه « أشهر مشاهير الإسلام » ومع أنه كتب أكثر من كتاب واحد فيظل كتابه هذا فى طليعة مؤلفاته من حيث قيمته الفكرية . . وقد تعددت مباحثه الإسلامية . . وهى مباحث خلت من طابع الجمود ، سمة رجال عصره . . تعكس أضواء مشرقة من هذه النزعات التى ترينا مسيرة الإسلام لروح التطور . . وربما كان لحضوره مجالس الإمام الشيخ محمد عبده أثرها فى تفكيره . .

ومن كتبه التى تناولت شئون الإسلام الاجتماعية :

- ١ - تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية فى الإسلام .
- ٢ - رسالة فى بيان كيفية انتشار الأديان وكون الدين الإسلامى

(١) « أشهر مشاهير الإسلام » ٣ - ٤ من المقدمة .

(٢) « أشهر مشاهير الإسلام » ص ٦ من المقدمة .

قام بالدعوة لا بالسيف .

٣ - الجامعة الإسلامية في أوروبا .

٤ - تاريخ السياسة الإسلامية .

٥ - البيان في التمدن وأسباب العمران .

وظل يكتب ويدون حتى أخريات أيامه ، وقد عرف المجمع العلمي العربي فضله فانتخبه عضواً بين أعضائه البارزين .

وحين شعر بدنو أجله أهدي مكتبته إلى المجمع العلمي وهي تضم ذخائر نفيسة من الكتب وبعض المخطوطات . .

وكان ينظم الشعر . . وله ديوان مخطوط ، وأدبه ذو نهج إصلاحى . . يتسم بطابع القومية والدين . . وكان يدعو إلى نهوض العرب وأن تستعيد الأمم الإسلامية أمجادها القديمة يوم استطاعت أن تفرض سيادتها وتبسط حضارتها على الدنيا .

* * *

هذا ، وحين كان الدكتور طه حسين ينشر سنة ١٩٢٣ مقالاته الأدبية في جريدة « السياسة » والتي انتظمها فيما بعد كتابه « حديث الأربعاء » عن العصر الثاني للهجرة وشعرائه الماجنين والذي انتهى في بعض مقالاته إلى أن العصر كان عصر شك وبجون ، أخذ الأستاذ العظم على الدكتور طه أن يعتبر أباً نواس ومن في طبقة أو على شاكلته من الشعراء مثلاً " صادقاً للعصر الذي عاشوا فيه . . وأن الرشيد والمأمون ذهباً من الشك والاستمتاع بالذائد في ذلك العصر مذهب أبي نواس وأضرابه من شعراء المحجون . .

وقد يكون من الفائدة أن نشير إلى ما جرى بين الأستاذين الجليلين من جدل حول موضوع تاريخي يمتد إلى الحياة الأدبية في تلك الفترة بصلة وثقى . . فقد كتب الأستاذ العظم يقول :

إن الحقائق التاريخية ، ولا سيما تاريخ الإسلام ، تشبه الدر الملقى بين أشواك ، يحتاج مريد استخراجها من تلك الأشواك ، إلى أناة وروية ونظر في وجوه السلامة من أذى الشوك ، وأنه لا يريد أن يذهب بعيداً في مذاهب الشك التي ذهب إليها الدكتور طه ، فالحقيقة التي ينبغي أن يقال إن التنازع السياسي

بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الأخبار بين شوائب في التاريخ الإسلامي ليست هي منه في شيء ، وإنما هي من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك ، أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية والدينية ، وانتهى إلى ما يسميه الدكتور طه حسين عصر الشك والحجون ، ويتخذة دليلاً على حكمه على أهل العصر ، إنما هو تلفيق قصصى يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون . وإما سد نهجات العامة إلى أمثال تلك القصص الخزنية والروايات الملفقة .

على أنه لو صح شيء منه ، لما كان لنا أن نتخذة دليلاً على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر ، لأنه مجنون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول إلى النيل من سواه باسم الحجون . . وانتهى إلى القول : « بأن الجاهرة بالحجون والاستمتاع باللذات ، ثم رواية الحديث ، نقيضان لا يجتمعان ، وهذا ما يؤيد رأينا في أن أكثر ما نقل عن أبي نواس وأضرابه من شعراء الحجون ، إنما هو روايات قصصية بعيدة عن الصحة ، وأنه لا يصح أن تتخذ دليلاً على حالة الأمة الروحية والخلقية في ذلك العصر » .

وقد ردّ عليه طه حسين بمقال أوضح فيه طريقته الجديدة في فهم التاريخ وما قاله :

« لا يزال العالم الجليل رفيق بك العظم ، وكثير من العلماء المعروفين في الشرق ، يسبغون على التاريخ الإسلامي صفة من الجلال والتقديس الديني ، أو الذى يشبه الديني ، تحول بين العقل وبين النظر فيه ، نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح . . فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب ، وجلال خطرهم ، وتقديس مكانتهم ، وهم يضيفون إليهم كل خير ، وينزهونهم عن كل شر ، وهم يصفونهم بجلال الأعمال ، ويرفعونهم عن صفائرها ، وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث ، ومقياساً من مقاييس النقد ، فإذا أضفت إلى الرشيد شيئاً فليس هذا الشيء صحيحاً إلا إذا كان في نفسه خليقاً بالرشيد ، يليق به وبمكانته ، وليست هذه المكانة هي مكانته في نفسها ، وإنما هي المكانة التي خلعها عليه القدم ، وبعد العهد ، وجلال الخلافة ، وكرامة

الدين ، وسطوة الأمة العربية .

فأما النقد التاريخي من حيث هو نقد تاريخي ، فأما النظر إلى الناس من حيث هم ناس ، ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم ، والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات ، وما اكتنفها من الظروف والأحوال ، فذلك شيء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه . . »

وانتهى بعد استطرادات طويلة إلى تأكيد رأيه بأن العصر الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون ، وبعد أن ضرب الكثير من الأمثلة قال : « إن الأستاذ العظيم اتخذ لنفسه قاعدة تقديس القدماء .. أما أنا فلا أقدّس القدماء . . وإنما أنظر إليهم كما أنظر إليك وإلى نفسي ، وأعلم أنهم مثلك ومثلي يحدّون ويمزحون ، يحسنون ويسيتّون » .

وختمت المناقشة عند هذا الحد ، ونحن نحيل القارئ إلى الجزء الثاني من كتاب « حديث الأربعة » حيث يجد النص الكامل لهذين الباحثين القيمين .

جمال الدين القاسمي

١٨٦٦ - ١٩١٤

حين هممت بالكتابة عن جمال الدين القاسمي ، وهو أحد كبار رجال الدين الذين تفاعلوا مع الحياة الاجتماعية في عصرهم ، وخرجوا على الكثير من التقاليد والبدع ، وقفت حائراً ، لأن المراجع عنه جد ضئيلة ، بل تكاد تكون معدومة ، ورأيت أن أتصل بابنه الأستاذ ظافر القاسمي ، وهو محام لامع وأديب أريب ، ففضل مشكوراً وأمدني بالكثير من المعلومات عن هذا العالم المجدد الذي كان لا يختلف في نهجه الإصلاحى عن نهج الشيخ محمد عبده .

وكما قلت في غير موضع من هذا الكتاب ، إن الأدب كان الأداة المعبرة عن الكثير من الآراء والاتجاهات والمذاهب التي جهر بها غير واحد من المفكرين ورجال الإصلاح ، وحتى لو لم يكونوا أدباء أو صناعتهم الأدب بمفهومه الدقيق . وكان القاسمي كالكواكبي ومحمد عبده ، في معالجتهم الكثير من قضايا الفكر التي كان العالم الإسلامى يتخبط فيها خلال القرن المنصرم ، وما زال يتخبط بكثير منها في هذا القرن ، وهو أحد حملة مشاعل النهضة في الشام ومن رجال الإصلاح الدينى والفكرى والاجتماعى . . .

ولد جمال الدين في سنة ١٢٨٣ هـ وتلقى مبادئ العلوم العربية والشرعية على والده الشيخ محمد سعيد القاسمي الفقيه الأديب ، وانتسب إلى مكتب المدرسة الظاهرية ، ثم أخذ في متابعة حلقات دروس مشايخ العصر كالشيخ سليم العطار والشيخ بكرى العطار والشيخ محمد الحانئ وغيرهم . . .

وقد خالف سنة المشايخ في عصره فدرس الجغرافيا على صديقه الشهيد عبد الوهاب الإنكليزى ، كما درس الهندسة على الأستاذ صادق النقشبندى . . . وصحبه طائفة من الشباب أمثال رفيق العظم ومحمد كرد على وشكيب أرسلان وشكرى العسلى ، فانتفعوا بروحه وأفكاره . كما كان لصحبتهم له تأثيرها في حياته ، إذ نهفته إلى كثير من حاجات الأمة إلى الإصلاح المدنى والدينى .

أنفق الرجل حياته بين الدراسة والتدريس والتأليف ، ولم يكن له أى عمل آخر ، وإنما كان يعيش من رواتبه التى يتقاضاها من الإمامة والخطابة والتدريس . كان التنظيم أساساً فى حياته ، ولهذا استطاع أن يكون ضخماً الإنتاج بالرغم من عمره القصير . فقد توفى فى عام ١٣٣٢ هـ ولما يبلغ الخمسين .

عاش القاسمى ، فى فترة الاضطهاد والطغيان التى سبقت إعلان الدستور عام ١٩٠٨ . وكان يرى أن السياسة جزء من الدين ، ولهذا شارك فى جميع الحركات التى ترمى إلى تحرير العالم الإسلامى والعربى من الظلم والعسف ، وقد تعرض من جراء ذلك إلى كثير من صنوف التعذيب والحرمان .

وكانت صحيحة الإصلاح التى انبعثت من ضميره تلاقى ، فى تلك الفترة ، معارضة شديدة من الحكام والمتزمتين — وهى فترة انتشرت خلالها البدع والأوهام والخرافات وابتعد الناس عن حقيقة الدين لحلوا المجتمع من المصلحين . . . كما انتشر الرياء والملق والخداع ، وكثر التباغض والتحاسد ، وأضحى سبيل الانتقام من الخصم الطعن فى دينه وسياسته .

فى هذا الجو الخلقى الموبوء عاش القاسمى يعمل على إصلاحه ما وسعه الإصلاح . . وقد لقي من معاصريه الشيوخ المتزمتين الكثير من النقد المر والهجوم العنيف . . ولكنه لم يعبأ به وسار فى طريقه .

وحين رأى أن البدع قد تفشت ، وأن الخرافات قد استولت على عقول المسلمين ، وأن الجمود كاد يقضى على الحياة الفكرية ، وأن الشريعة المطهرة لا تسمح بمثل هذه الحياة المتأخرة ، عالج كثيراً من هذه المواضيع بطريقة خاصة ، ألحمت السنة المنافسين والجامدين على السواء ، فقد أدرك أن أقواله سوف لا يكون لها من القيمة ما لأقوال الأئمة الأقدمين ، فكان يرتب الأفكار التى يجب معالجتها ، وينقل عن أمثال الغزالي وابن تيمية وابن حزم وابن الجوزى وابن القيم والشافعى وأبى إحنيفة وأحمد ومالك وأمثالهم الأقوال الصحيحة التى تؤيد فكرته ، ولهذا ظهر قسم من مؤلفاته وليس فيه إلا المقدمة وبعض الأقوال القليلة النادرة ، ولم يكن ذلك عن عجز عن الكتابة . .

ولمّا كان مقصوداً لنشر الفكرة الإصلاحية التى يسعى إليها وليحمل

الخصوم على قبولها والقناعة بها من أقوال أئمة لا يستطيعون أن يردوا عليها ، لأنهم يعتبرونها جزءاً من الشريعة أو الشريعة بذاتها . .

وقد أخطأ فريق من النقاد حين زعموا أن الرجل لم يكن له رأى شخصى ، وأنه إنما كان يعتمد فى تأليفه على نقل آراء غيره — أخطأوا من ناحيتين :

١ — لأن النقل بحد ذاته رأى ، وقديماً قيل « اختيار المرء قطعة من عقله » . فما كانت الآثار والآراء والأقوال التى ينقلها ، إلا آراء ، ولو ارتأى أن يكتبها بنفسه ، لكتب مثلها أو خيراً منها ، ولكنه أثر أن يكتبها بقلم غيره للسبب الذى أشرت إليه .

٢ — لأن بعض تأليفه التى وضعها فى أخريات أيامه ، لم يكن فيها النقل إلا عرضاً ولتأييد فكرته بقول غيره . .

وقد كان ذلك فى الوقت الذى لم يعد فيه يبالى بالخصوم ، وأصبح اسمه علماً ضخماً فى العالم الإسلامى ، وكتبه تدرس وآثاره تتبع ، ولعل أوضح مثال على ذلك الكتاب الذى سماه « تاريخ الجهمية والمعتزلة » وأشار إليه المرحوم أحمد أمين على أنه أحد مصادر « كتاب فجر الإسلام » . .

وأما أسلوبه فى الكتابة فيمكن الحكم عليه من جملة مصادر :

١ — مقدمات كتبه التى وضعها بقلمه ، وقد نهج فيها على طريقة الأقدمين ، فهى على جملتها مسجعة ، وإن كان تغلب فى سجعها الطبع .

٢ — ترسله فى كتبه ، والواضح فيه أنه قد تأثر بطريقة ابن خلدون من الاعتماد على الحجج العقلية إلى جانب النقل .

٣ — رسائله إلى إخوانه فى العالم الإسلامى كالشيخ محمد عبده وغيره من أقطاب نهضة الفكر .

هذا وقد ترك هذا المصلح الدينى كثيراً من الكتب والرسائل بلغت قرابة المئة ، منها ما قد طبع فى دمشق والقاهرة ومنها ما لا يزال مخطوطاً . . .

فن تأليفه :

١ — إصلاح المساجد من البدع والعوائد .

٢ — تاريخ الجهمية والمعتزلة .

- ٣ - جواب الشيخ السناني في مسألة العقل والنقل .
 - ٤ - حياة البخارى .
 - ٥ - دلائل التوحيد .
 - ٦ - شذرة من السيرة المحمدية .
 - ٧ - قواعد التحديث عن فن مصطلح الحديث .
 - ٨ - مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن .
 - ٩ - موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين .
 - ١٠ - الأنوار القدسية عن متن الشمسية في المنطق .
 - ١١ - إيضاح الفطرة في أهل الفترة .
 - ١٢ - شرح مختصر المستصفى لابن رشيقي .
 - ١٣ - محاسن التأويل . . وهو التفسير العظيم الذي يقع في اثني عشر مجلداً مع مقدمة كتبت في مجلد حافل .
- وقد بلغت رسائله وكتبه المطبوعة ٧٨ رسالة وكتاباً .
- أما « محاسن التأويل » فقد طبع في سبعة عشر مجلداً ، وقد أشار الأستاذ عبيد الوهاب أزرق إلى التفسير في صدد حديثه عن الكتاب الذي أصدره الأستاذ ظافر عن أبيه بقوله :
- « . . لكن الشيء الذي لا بد لي أن أنوه به هو أننا لا نجد مثيلاً لهذا التفسير في سلامة المنهج والوقوف على أسرار الشريعة وغاياتها ودقائقها والحرص على التماس الباب ، والعزوف عن البهرج الكاذب ، مستمداً وثائقه وحججه من نصوص القرآن الكريم ومطاب السنة الصحيحة وما اطمأن إليه من أقوال الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين على اختلاف مذاهبهم وتباين آرائهم ، فهو ينقل عن المحدثين وقد ادى المفسرين نقله عن المعتزلة والزيدية والشيعة والظاهرية وغيرهم لا يتحرج في ذلك ولا يتأثم ، فالحقيقة ضالته حيث وجدها التقطها ثم أذاعها في الحال بمختلف وسائل الإعلام - إعلام عصره ، وكان له إعجاب كبير بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية ، ومن عجب أن داره التي أنفق عمره فيها تقوم إلى جوار مرقدي هذين الفقيهين العالمين ، أحدهما عن يمين الدار والثاني عن شمالها ، ولا أدري إذا كان لهذا الحوار أثره في النفس والإنتاج »^(١) .

عبد القادر المغربي

١٨٦٧ - ١٩٥٦

من بيت علم قديم في طرابلس من أصل تونسي ، وقد ولد في ٢٤ رمضان من سنة ١٢٨٤ هـ - ١٨٦٧ م في اللاذقية حيث كان أبوه قاضياً فيها ، وبيته لا يزال معروفاً في تونس باسم « درغوث » واشتهر في الشام باسم المغربي ، وينتهي نسبه إلى المجاهد الكبير أمير البحر « طرغود باشا » المدفون في طرابلس الغرب .

تلقى العلوم الدينية والعربية في طرابلس وبيروت عن الشيخ حسين الجسر والشيخ إبراهيم الأحذب وغيرهما . وبعد أن حفظ القرآن وهو دون البلوغ ، أتمّ استظهار « حماسة أبي تمام » و « مقامات الحريري » و « ألفية ابن مالك » ومتون مختلفة في الفقه واللغة وفي المنظوم والمنثور . ثم رحل إلى الآستانة عام ١٣١٠ هـ وحضر مجالس علم على بعض شيوخها فأجازوه في بعض العلوم ، وكان له اتصال وثيق في أثناء إقامته في فروع بالسيد جمال الدين الأفغاني فلازمه وأشرب روحه وأحب مجلسه ، وقد دون ذكرياته عن هذه الصلة بكتيب نشره في العدد (٦٨) من سلسلة أقرأ .

أولع بدراسة آثار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والانطباع بطابع أفكاره وجرت بينهما مراسلات تدور حول الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي فتتكرر له رجال العهد الحميدي تنكراً أدى إلى اضطهاده واعتقاله أشهراً في سراي بيروت ومصادرة القسم الكبير من مكتبته وأوراقه إلى أن أفرج عنه ، فدعاه الأستاذ الإمام إلى مصر لتولى بعض الأعمال العلمية فهبطها عام ١٩٠٥ ولكن المنية اخترمت الأستاذ الإمام في تلك السنة . فعكف على التحرير في جريدة « الظاهر » ثم في جريدة « المؤيد » خلفاً للمرحوم السيد عبد الحميد الزهراوى وقد ظل يحرر في المؤيد زهاء أربعة أعوام اتسع له خلالها نشر فكرة الإصلاح الديني والاجتماعي ونقد أوضاع المؤسسات الدينية ومنها الأزهر على طريقة أستاذه الأفغاني ومحمد عبده .

بعد إعلان الدستور العثماني عاد إلى سورية فأصدر في طرابلس الشام جريدة « البرهان » .

وفي عام ١٩١٤ أوفدته الحكومة العثمانية إلى المدينة مع الشيخ عبد العزيز شاويش والأمير شكيب أرسلان لتأسيس كلية إسلامية باسم دار الفنون فوضعوا أساسها ولكن الحوادث السياسية قضت على هذا المشروع ، وبعد نشوب الحرب العامة الأولى عهدت إليه وزارة الأوقاف العثمانية أن يساعد الشيخ عبد العزيز شاويش في تأسيس كلية صلاح الدين الأيوبي في القدس وهي كلية أسست لتخريج علماء دين عصريين ومبشرين بالدين الإسلامي ، وقد ظل مدة يدرس فيها علوم البلاغة والسيرة النبوية إلى أن أنشأت قيادة الجيش الرابع جريدة « الشرق » في دمشق فولته عام ١٩١٦ إدارة التحرير فيها ، وكان من أركانها الأمير شكيب أرسلان . وللاستاذ فيها مقالات كثيرة في اللغة وتاريخ الأدب العربي والإصلاح الإسلامي .

ولما أسست الحكومة العربية في عام ١٩١٩ المجمع العلمي انتخب عضواً عاملاً فيه .

وفي عام ١٩٣٤ عين عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية في مصر ، وفي أواخر السنة المذكورة عين رئيساً للمجمع العلمي العربي بالدمشق إلى أن توقفت الأعمال في هذا المجمع عام ١٩٣٧ بسبب ضيق الموازنة ، ولما عاد المجمع إلى العمل عاد إليه نائباً للرئيس .

وفي عام ١٩٤٩ انتخب عضواً للمجمع العلمي العراقي في بغداد ولا يزال إلى اليوم يمد هذه المجامع الثلاثة بنتائج أبحاثه العلمية واللغوية ويحضر دورات المجمع المصري السنوية^(١) .

* * *

للاستاذ المغربي تأليف كثيرة منها المطبوع وغير المطبوع . أما المطبوع فهو كتاب « الاشتقاق والتعريب » وقد أثبت فيه جواز التعريب وأن ذلك لا يخل بفصاحة الكلام كما أجاز فيه اقتباس الألفاظ الأعجمية ، وكتاب « الأخلاق

(١) كتبت هذه الترجمة قبل وفاته .

والواجبات » ألفه بناء على اقتراح الأستاذ ساطع الحصرى وقد اختير ذلك الكتاب للتدريس فى الأقطار الإسلامية لا سيما العراق ، وكتاب « البيّنات » وهو جزءان ضمّنهما طائفة من رسائله فى الإصلاح الدينى والاجتماع واللغة والأدب والتاريخ طبع فى مصر أيضاً ، وكتاب « التسامح الدينى » طبعته جمعية تهذيب الشبيبة السورية فى بيروت سنة ١٩١٠ وكتاب « محمد والمرأة » و « تفسير جزء تبارك » و « على هامش التفسير » و « شرح تائيه عامر البصرى » فى التصوف ، ومناقشة أدبية لغوية بينه وبين الأستاذين الشيخ عبد الله البستانى والأب أنستاس الكرملى و « عثرات اللسان » و « ذكريات عن جمال الدين الأفغانى » .

أما تأليفه التى لم تطبع فهى رسائله ومقالاته الكثيرة المتنوعة ومحاضراته التى ألقاها فى ردهة المجمع العلمى العربى بدمشق وفى أماكن أخرى خلال بضع عشرة سنة وهى زهاء مئة محاضرة فى الدين واللغة والأدب والاجتماع والتاريخ ، و « السيرة النبوية » و « شرح المقصورة الدريدية » و « معجم لغوى » رتبت فيه الألفاظ بحسب الفنون لم يكمله و « شرح متن الكنز » و « رسالة التوحيد » و « أصل الأخلاق والواجبات » وهو تفصيل للمسائل التى وردت فى كتاب « الأخلاق والواجبات » الذى تقدم ذكره ، و « النجم الآفل » وهى ترجمة عن الإفرنسية لرواية « لا دام أو كاميليا » لإسكندر دوماس كان قد مثلها المرحوم الشيخ سلامة حجازى لأول مرة ليلة ٣ أكتوبر عام ١٩٠٨ وهى أول ترجمة عربية لتلك الرواية ، وله رسائل وتصانيف أخرى لا يحضرنا اسمها .

* * *

يدور أدب الأستاذ المغربى حول ناحيتين : الإصلاح الذى يستمد جذوره من روح الدين ومن الشئون اللغوية ، وهو فى الأمرين أميلُ إلى الانطلاق منه إلى التزمّت ، وإلى الحرية منه إلى الجمود ، تتمثل فى أدبه الكثير من خصائص أستاذه الإمام محمد عبده ، ويعتبر فى الأوساط الشامية من العلماء المجددين ، ويتميز أسلوبه بالقوة والبساطة معاً ، سهل العبارة غزير المادة ، ما من مقال أوجت إلا ويدعمه بآيات القرآن الكريم وبأحاديث نبوية وبآراء الأدباء والعلماء المعاصرين شرقيين وغربيين ، وتمتاز مباحثه اللغوية ، بالرغم من جفافها ، بالسهولة والطلاوة .

هذا ، وظل الأستاذ المغربي يوالى البحث والدرس والكتابة إلى آخر يوم من حياته - وبهمة لا تعرف الملل والكلل . . وقد وصف زميله المجمعى الدكتور منصور فهمي - يرحمهما الله - بعض ملامح من أدبه وخصائصه الذاتية بقوله :

« . . ولعلنا حين كنا نستمتع بما يكتب المغربي في ذلك الماضي البعيد لم نكن من الإدراك والعلم في منزلة تهيئ لنا تقدير الآراء ووزن الفكر وتقويمها ، ولم نكن من المعرفة بفنون النقد لأساليب الكتابة وثمرات القلم لكي نعين المكانة الأدبية التي تختار لأسلوب الشيخ في منازل الكاتبين ، على أن شيئاً كان يجذبنا إلى قلمه جذباً ويدفعنا إلى تلمس قراءته دفعاً . ولعل ذلك الشيء كان فيما يفيض به قلم المغربي من إنتاج كان بالنسبة إلى مداركنا الغضة سهلاً ومهضوماً ومفهوماً ، وكان بالنسبة إلى عواطفنا المطاوعة محركاً وحافزاً ، فكانت كتابته الحالية من التعقيد والصرامة والعسر تبدو كأنها باسمته ومتهللة ، فتغرى بالإقبال عليها لما فيها من وضوح التفكير وحلاوة التعبير .

ومرت السنون ، وكان للأيام ما كان مع الشيخ في كفاحه وتغريبه ، وفيما لقيه من الإعانات ، إلى أن وقع عليه الاختيار ليكون عضواً في هذا المجمع من نحو ثلاثة وعشرين عاماً . وتلاقينا فيه وقد بلغ من العمر نحو السبعين واشتعل رأسه شيباً ، وتوضح فيه بياض لحيته على وجهه المستدير المليح الأشقر - تحت عمامته الكبيرة المفخمة - وازدان بها وقاره ، ولم تكن السن ولا المشيب ليحولاً دون نشاطه الدائب المألوف ، وفي دار المجمع بالجيزة بالقاهرة ألقى الشيخ المحاضرات ، وأثار البحوث ، وكافح ، ونافح عن آرائه ووجهات نظره في أسلوبه الخطابي السريع الدافق . وكان ، على الدوام ، فيما ألقاه ، وفي شتى محاوراته ومبسطاته - جذاباً وفياضاً ومتفكهاً ومستبشراً وجذلاً كأنه ذلك الفقي الذي جذبت مقالاته شبيبتنا من نحو نصف قرن أو يزيد » (١) .

* * *

وبالرغم من شيخوخته - وقد بلغ التسعين - لم يتخلف عن السفر إلى القاهرة لحضور جلسات المجمع اللغوى .

وفى أمسية من أمسيات شهر كانون الثانى من عام ١٩٥٥ كان يسير بمفرده طلباً للنزهة والرياضة إذ أبصر إحدى السيارات الحوافل فبدا له أن يتقهقر مسرع الخطى لمفاداة لم تكن مستوجبة ، فسقط وأصيب بكسر فى عنق الفخذ وعولج فى مستشفى الجمهورية بإشراف زملائه أعضاء المجمع وفى جوٍّ من حنانهم . حتى إذا شفى عاد إلى دمشق ، وقبيل مغادرته القاهرة قال لزملائه وهم يودعونه . لعل مجيئى إلى مصر إنما كان للوداع . . وقد صدق حدسه وكان حقاً للوداع . . إذ عاوده وهو فى دمشق شلل مفاجئ لم يمهلَه ففاضت روحه فى السابع من شهر حزيران سنة ١٩٥٦ .

ومن مقالاته :

الحرية العلمية فى الإسلام :

قرر الدين الإسلامى - فى جملة ما قرر من أصول الاجتماع وقواعد العمران - أصلاً عاماً ، إليه ترجع الأصول كلها ، وعليه تبنى الأحكام دقها وجلها ، وذلك الأصل هو الجهر بالحق متى تبين للمرء أنه حق . قال تعالى « ويريد الله أن يحق الحق » ، « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » ، « وقل الحق من ربكم » .

ولم يكثف الإسلام بهذا بل حضَّ المسلمين على التعاون فى نصرة الحق ، وأن يصبروا على الأذى فى سبيله فقال : « وتواصوا بالحق » ، وتواصوا بالصبر » وقد أوجب هذا عليهم إلى حد أن الدليل إذا قام على أمر حق تخالفه نصوص الشريعة بظاهرها وجب تأويل النصوص والرجوع بها إلى ما قام عليه الدليل العقلى ، ونظان أنه لم يقيم فى العالم دين رفع من شأن الحق واستخدم له العقل بأكثر مما فعل الدين الإسلامى المبين ، ولذلك كان الإسلام بطبيعته أسساً للمدنية ومشرقاً للحقائق العلمية .

لا جرم أن التمدن مجموعة تجارب ومعلومات صحيحة ولو لم يعط المرء حق

الجمهور بالحق لما أمكن الوصول إلى معرفة هذه التجارب والمعلومات. فهووض الأمم وارتقاؤها في سلم المدنية متوقف إذن على جمهور أبناء كل أمة بما يعتقدون أنه الحق في مسائل العلم، وهذا ما يسميه علماء الاجتماع اليوم (الحرية العلمية). ويشهد التاريخ بأن هذه الحرية هي التي أنقذت أوروبا من الجهالة، وهدتها إلى هذا العمران العجيب. وكان رؤساء الدين في القرون الوسطى قد احتكروا العلم وأقاموا أنفسهم مقام السدنة على حقائقه، الحفظه لكنوزه وأسراره، فكانوا لا يجيزون لأحد ما أن يصرح بشيء مما يعلم ولا أن يجهر بحقيقة اقتنع بها فكانت الحقائق العلمية والأسرار الكونية تموت بموت هؤلاء النوابع. وكان الملوك يعضدون الرؤساء وينفذون ما يرسمونه لهم، ويشيرون به عليهم، كما فعلوا مع (غلييليو) الذي صرح بما يعلم عن حركة الأرض. ولما قام (لوثر) وجهر برأيه قاسى من المتاعب والشدائد ضرراً وأهوالاً، وكاد يفشل في عمله لو لم يقم فريدريك (أمير سكسونيا) لحمايته والدفاع عنه، وبذلك تم له النجاح، ووضع في أساس مدنية أوروبا الحاضرة أول حجر أعنى به الحرية الفكرية العلمية. وقد قال لى السيد جمال الدين الأفغانى إن تقدم أوروبا وارتقاءها نتيجة من نتائج الحرية الفكرية التي جاهد (لوثر) في سبيلها.

العمران أثر من آثار سعى البشر، وسعى البشر أثر من آثار علمهم واعتقادهم، فمالم يكن للبشر حرية في أن يجهروا بكل ما يعلمون أنه حق ونافع لا يتيسر أصلاً ظهور آثار العلم، ومن ثم لا يكون سعى منهم، ولا عمران لديهم، والله تعالى يقول: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى».

والنبوغ العلمى موهبة أنعم الله بها على بعض أفراد الإنسان من أية طبقة أو صنف كانوا. فإذا لم يكن للأمة حق بالحرية العلمية. وخصصنا هذا الحق ببعض طبقاتها أو بعض أفرادها حرمت الأمة ثمار عقول كثيرين من أبنائها الأذكياء الذين يكونون قد صودروا في حريتهم، ومنعوا من استعمال مداركهم حتى إذا دفنوا دفنت معهم هذه المدارك والمواهب السماوية، وبذلك تكون أممتهم فقدت قوة من أكبر قوى تقدمها، وعاملاً من أعظم عوامل ارتقاها.

يبيح الإسلام لأى كان أن يقول الحقيقة التى يعتقدوها ويصرح بالعلم الذى يعلمه بشرط الوثوق منه « ولا تقفُ ما ليس لك به علم » وبشرط الإخلاص فيه « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » أما فيما عدا ذلك فمنهى عنه أشد النهى لأنه مجازفة فى العلم وفوضى تضر ولا تنفع .

بلغت الحرية الفكرية فى الأمة الإسلامية فى صدرها الأول حدًّا لم تبلغه فى أمة من الأمم . وقد كان العلماء من رجال النحل والمذاهب المختلفة يقعد كل واحد منهم فى جانب من جوانب مسجد البصرة أو الكوفة ويجلس إليه من يريد الاستفادة منه ، والتلقى عنه ، فيجهر العالم برأيه وتأييد نحلته ، والدفاع عن مذهبه من دون ما وجل أو خشية .

ظهور (الحرية العلمية) فى هذا المظهر وبلوغها هذا الطور فى صدر الإسلام هو الذى أظهر فى المسلمين الأئمة والنوابغ فى كل علم وفن .

لما كان المسلمون يراعون فى أمورهم أصول دينهم كانوا يعطون لعلمائهم الحرية أن يكتبوا فى تأليفهم ما يشاءون . ويصرحوا من الحق بما يعتقدون ، لا تأخذهم فيه لومة لائم . وبعد أن كر الحديدان عليهم ، وتركوا العمل بأصول قرآنهم ، وتمسكوا بأذيال التقليد وضربوا (الحرية العلمية) بيد من حديد — تأخرت الأمة فى العلم . وتأخر العلم فيها . وتنوسيت حقائقه رويداً رويداً . ولم يبق من مسائله أو مسائل الدين إلا التى تروج فى عقول عامة الناس ، وترتاح إليها نفوسهم ^(١) .

حنا خباز

١٨٧١ - ١٩٥٥

من علماء اللاهوت ، عمل في حقول الوعظ والتدريس والصحافة فكان له شأنه . . وهو من رجال الطليعة في أواخر القرن التاسع عشر .

اجتذبت الدراسات الفلسفية فعكف عليها يعبّ من ينابيعها حتى أصبحت الحكمة تجرى على طرف لسانه . .

وكانت عظاته الدينية نفحات من الفلسفة الإشراقية .

ولد في حمص ، وأمضى دراسته الأولى في مدرسة الأمريكان في صيدا ، ثم درس في مدرسة اللاهوت في سوق الغرب ، انتقل بعدها إلى مصرفقضى فيها شطراً طويلاً من حياته . . وما زال إلى أن عاد إلى دمشق راعياً للكنيسة الإنجيلية .

وبالرغم من ثوبه الكهنوتي ، ونزعة الدينية ، فقد كان حر الفكر . . اشتغل في الصحافة ، وكتب في المجلات الشهرية . .

مقالاته تتميز بالانزان ، وصفاء الأسلوب ، ووضوح الفكرة . .

وهو خطيب ذرب اللسان .

ولعل مهمة الوعظ الديني التي مارسها طوال حياته ، إلى ثقافته الدينية — هي التي جعلت منه خطيباً مبرزاً ، ومحاضراً يستهوى مستمعيه بقوة بيانه .

أشهر مؤلفاته « جمهورية أفلاطون » ، « الفلسفة في كل العصور » ، « فلاسفة الأدهار » ، « مختارات المقتطف » ، « المعارك الفاصلة في التاريخ » ، « حول الكرة الأرضية » ، « لطائف أخباري في متاحف أسفاري » ، « إسرائيل » ، « فرنسا وسورية » . . إلى كتب دينية وروايات بعضها موضوع ، وبعضها معرب .

وقد ترك مجموعة من المؤلفات لم تطبع أهمها :

فلاسفة العصر . تاريخ الفلسفة . الله والفضاء . ٣٧ مسرحية ملخصة

من روايات شكسبير .

إلى الكثير من المباحث الدينية التي يسودها روح الوعظ ويخالطها تأملات

فلسفية . .

فارس الحورى

١٨٧٣ - ١٩٦٢

. . . كان لابدّ ونحن نؤرخ للحياة الأدبية التي تبدأ من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين - كان لابدّ من الحديث عن فارس الحورى الشاعر الخطيب الذى طغت حياته السياسية على حياته الأدبية . . والواقع ، أنه كان من أوائل مفكرى دمشق الذين عملوا فى سبيل النهضة العلمية فى تلك الفترات التي كانت بلاد الشام - وهى جزء من المملكة العثمانية - تغوص فى الجهالات . .

وقد كتب فارس الحورى المقال ونظم القصائد المطولة ، وهذا الذى يدعونا أن نؤرخ هذه الناحية من حياته وأن نسلكه فى عقد هذه السلسلة التي يعدّ رجالها من بناء النهضة .

ولد فارس الحورى فى ٢٠ تشرين الثانى سنة ١٨٧٣ فى قرية الكفير بمنطقة حاصبيا التابعة لولاية سورية فى العهد العثماني ، وهى اليوم من الأراضى اللبنانية ، وكان فى الكفير مدرسة ابتدائية أنشأها المرسلون الأمريكيون فدخلها وبدأ يتلقى الدروس بجدّ وانتباه فكان من أنجب التلاميذ ، ثم انتقل إلى مدرسة صيدا . وفيها قسم داخلى ، فقبلته المدرسة مجاناً تقديرًا لمواهبه المبكرة ، وما كاد يتمّ دراسته حتى عين معلماً فى مدرستهم الابتدائية فى رحلة عام ١٨٩٠ .

ولم تطل إقامته فى التعليم الابتدائي فكان يصيبه إلى الازدياد من المعرفة لتكوين نفسه تكويناً علمياً فانتسب إلى الكلية الأمريكية فى بيروت وما هى إلا فترة لم تطل حتى فاز بشهادة البكالوريوس فى العلوم عام ١٨٩٧ وكانت هذه الشهادة فى ذلك الحين شهادة ثقافية عامة . .

وإذ كان من المتفوقين فى العلوم والآداب دعاه رئيس الجامعة الأمريكية الدكتور دانيال بليس للتدريس فى القسم الاستعدادى كعلم للرياضيات واللغة العربية فوافق . .

وفى عام ١٨٩٩ استقال من وظيفته استجابة لدعوة الدكتور يعقوب صروف صاحب مجلة « المقتطف » الذى اختاره محرراً للمجلة براتب قدره خمسة عشر جنيهاً مصرياً. وتوجه إلى دمشق من أجل تصفية قضية حقوقية لأسرته فى المحكمة قبل أن يذهب إلى أرض الكنانة . . ولكن تفشى داء الطاعون وفرض الحجر الصحى حالا دون سفره فبقى فى دمشق حيث سلك مهنة التعليم فتولى إدارة المدارس الأرثوذكسية وعمل ترجماناً فى القنصلية البريطانية حيث أكسبته وظيفته الجديدة نوعاً من الحماية ضد استبداد الحكم العثمانى . .

وأكبّ فى هذه الفترة على دراسة اللغتين الفرنسية والتركية بدون معلم فبرع فيهما . واستهوته كتب الحقوق فأخذ يدرسها من شتى المراجع فما هى إلا سنة أو بعض سنة حتى دخل عالم المحاماة متمرنأ فى مكتب الأستاذ أمين زيدان ، وتقدم لفحص معادلة الليسانس بالحقوق فنالها وأخذ إجازة فى تعاطى المحاماة ولم يكن تعاطيها يحتاج لشهادة جامعية آنذاك .

* * *

بعد هذه المرحلة الدراسية التى نمت على ذكائه وتفوقه انطلق إلى الحياة العامة فانتسب عام ١٩٠٨ إلى جمعية « الاتحاد والترقى » - الحزب الحاكم آنئذ - ، وكان هذا أول عهده بالسياسة ، وبدأ يعبر عن آرائه فى الحرية والدستور ، وكان قد نشر فى مجلة « المقتبس » قصيدة عامرة الأبيات فى سقوط السلطان عبد الحميد بتوقيع « ف » جاء فى مطلعها :

| | |
|------------------------------|---------------------------------|
| لأى منقلب يقضى الأولى ظلموا | الله أكبر فالظلام قد علموا |
| أركانها وتولت أهله النقم | لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت |
| يحفّته خادماه : السيف والقلم | وحصحص الحق فى عزّ وفى ظفر |
| وقد تهددها الإرهاق والعدم | ثارت له عصبة كانت مشردة |
| فطالما صبروا بل طالما كظموا | عبد الحميد استمع منهم مناقشة |

ويقول :

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| به الشريعة والتنزيل والكلم | خليفة الله قد خالفت ما أمرت |
| من يخلفه فى قومه الصنم | ركبت مركب جور ليس يقبله |

حشدت زمرة غدارين كم سفكوا واستنزفوا ثم لا قيدوا ولا غرموا
أسرفت في نهب بيت المال فاستلبت منه الجواسيس ما شاءوا وما غنموا
إلى أن يقول :

تأبى الشريعة أن تبقيك حافظها وأنت بالصدر والإغواء متهم
فاليوم تعلم عقبي من يخنون ومن يطنخي وتندم إذ لا ينفع الندم
والقصيدة طويلة نيفت على الستين بيتاً ، وكان لها دوى في حينها ، وتساءل
الكثيرون عن ناظمها إلى أن باح محمد كرد على بالسرف فعرف أنها لفارس الخورى ..

* * *

ومنذ تلك الفترة ، وبعد عام ١٩٠٩ ، التفتت إليه الأنظار تتحدث عن
مواهبه ، وهو لا يزال في غضارة العمر ، وسرعان ما أعطته دمشق ثقتها فانتخب
نائباً عنها في مجلس « المبعوثان » العثماني ^(١) في الآستانة في عام ١٩١٤ ، وقام
بواجب النيابة أوفى قيام ، وأخذ يدرس ويبحث حتى إذا احتدمت المناقشة جادل
وصاول بلغة تركية رصينة وحجج قوية لفتت إليه أنظار زملائه البرلمانيين وكان
موضع احترام كبار الساسة والوزراء ..

وبينما هو في أوج مجده إذ بوشاية تلصق به فتزهزه هزاً ، فقد طلبه السفاح
جمال باشا للتحقيق معه بمدى علاقته بالشهداء الذين أعدمهم ، وكاد يلحق بهم
لولا عناية الله .. وبعد أن حجزت حريته خلال تحقيق طويل نفى إلى إستانبول ..
وظلّ فيها يمارس التجارة إلى أن جلا الأتراك عن سورية فعاد ليشهد رفع العلم
العربي لأول مرة في التاريخ على سارية دار الحكومة بدمشق في ٣٠ أيلول
(سبتمبر) سنة ١٩١٨ فألقى كلمة بليغة عبر فيها أصدق تعبير عن الشعور
العربي العام .. ثم أخذ يعمل مع إخوانه على تأسيس الدولة العربية الأولى ،
وانصرف ذهنه إلى ثلاث ظواهر رأها جديرة بالاهتمام وهى : مجلس الشورى ،
ومعهد الحقوق ، والمجمع العلمى العربى ، وقد اقترح على الشريف فيصل تأسيس
مجلس الشورى ليقوم بصلاحيه التشريع ، وسعى مع إخوانه لتأسيس معهد
الحقوق العربى الذى افتتح أبوابه فى شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٩ ، واشترك
بتأسيس المجمع العلمى العربى .

ثم دخل غمار السياسة ، ولن نسترسل في تأريخ مراحل هذه الحياة فحسبنا القول إنه كان في طليعة رجالات سورية الذين عملوا في سبيل حريتها وسيادتها فسجن ونفى ووقف كالطود يدافع عن حق سورية وحق العرب في حريتهم بحراً وإيمان .

وقد اشترك في أكثر من وزارة ، وألف أكثر من وزارة ، وانتخب رئيساً لمجلس النواب ، فكان في جميع المراكز التي شغلها الرجل المتزن الذي يدير الأمور بحكمة ودراية إلى تفكير عميق وسداد رأى .

وبدت مواهبه أشدّ لمعاناً في المحافل الدولية الكبرى التي ساهم فيها ممثلاً لسورية ، عقب الحرب العالمية الثانية ، فقد ظلّ مدة طويلة يرأس وفد سورية في الأمم المتحدة ويمثلها في مجلس الأمن ، وقد عرضت في هذه المحافل أثناء اشتراكه فيها قضايا عربية بالغة الخطورة ، تخصّ فلسطين ومصر وليبيا فضلاً عن سورية ولبنان ، وقد وجدت هذه القضايا جميعها في فارس الحورى محاميتها الأول ، ووفق في الدفاع عنها توفيقاً كبيراً ، وكان لجهوده الصادقة في سبيلها صدّى عميق في الأوساط الدولية وفي أرجاء العالم العربي كافة . .

والواقع ، أن حياته مليئة بشتى الأحداث والمفارقات ، ولا مجال للتوسع في مجالاتها فحسبنا هذا الإلماع لنشير إلى مقامه في عالم الفكر . .

فقد كان خطيباً واضح الأسلوب ، يتميز بصفاء الذهن وقوة الحجّة وطلاوة البيان ، يخطب الساعة والساعتين فلا يملّ سامعوه . . وخطبه أقرب إلى المحاضرة لا يهيج الجمهور بل يثير تفكيره . . وربما كان أخطب منه إذا كتب ، على أن أسلوبه في الكتابة يتميز بالدقة والوضوح . . كما يتميز شعره — وأكثره في المناسبات — بقوة السبك وجلاء المعنى ، فهو يجارى القدماء في نهجهم وأسلوبهم . . وقلّد في بدء حياته شعراء عصر الانحطاط وتهيب الفحول من الشعراء . .

ففي قصيدته التي رثى فيها أستاذه كرنيليوس فاندليك مؤسس « الكلية الأمريكية » سنة ١٨٩٦ يذكر « جيرانه بذى سلكم » .. و « بانات الحمى »

و « العنم » والكثير من الألفاظ التي ردّها « البوصيرى »^(١) في « البردة » ،
ويظهر أنه كان يحفظها كلها ويردّها حتى إذا عارضها انثالت ألفاظها ومعانيها
من ذاكرته على طرف لسانه .

يقول البوصيرى مثلاً :

أمن تذكر جيران بذي سَلَمَ مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
ويقول فارس الخورى :

فلم تهج فيّ بانات الحمى شجنًا ولا تذكرتُ جيراناً بذي سلم
إنه لم يتذكر جيرانه في ربوع لبنان أو في غياض الشام بل ذكر جيرانه
« بذي سَلَمَ » . و « دوسلم » — كما يقول ياقوت — واد ينحدر عن الذنائب في
أرض بنى البكّاء على طريق البصرة إلى مكة !

والقصيدة في ثمانين بيتاً عبر فيها عن حزنه وحزن رفاقه بفقدهم أستاذهم
الذى كان « نبراساً في كل داجية » و « أستاذاً في كل مشكلة » و « سيد كل
العارفين » :

طبيب علّمتنا ، فراج كربتنا رواء غلّتنا ، جبار منلّم
فعال خير إذا ما قلّ فاعله بغير كسب الثنا والحمد لم يهّم
وقد ختمها بقوله :

منّ لا يشق الحشى عند النواح على منّ ذكره سائر في سائر الأمم
نعم ، يليق بنا « شقّ القلوب » لمن في الدهر أصبح نبراساً على عالم
وإن قضى فله ذكر يخلد ما دامت ملائحه تتلى بكل فم
إليه جلّ مقالى ينهى وكفى حسناً لمبتدئ فيه ونختسى
ولا مجال هنا للإسهاب في قيمة القصيدة من الناحية الجمالية بل أردت أن
أقول إنه عارضها ليثبت قدرته على النظم من جهة ، وليعبّر عن الأثر الذى تركه فقد
أستأذه من جهة ثانية . وقد نظم هذه القصيدة وهو شاب في الثالث والعشرين
من عمره ، في فترة كانت العربية لا تزال في الأقمط !

(١) شاعر مصرى من شعراء العصر السابع توفى سنة ٦٩٥ هـ . وقد عارض قصيدته شوقي وسماها
« نهج البردة » كما عارضها قبلا محمود سامى البارودى وسماها « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » .

هذا ، وقد ترك لنا أكثر من قصيدة ماثورة في الصحف والمجلات لوجمعت لألفت ديواناً في أكثر من مائة صفحة .

فقد نشر سنة ١٩٠٦ قصيدة عامرة الأبيات خمس فيها « نونية » ابن زيدون ،
ومما جاء فيها :

الطيف في النوم يرضينا إذا عبنا إن عزّت العين صرفاً نطلب الأثرا
لا تعجبوا إن صبرنا نحمل القدرا « إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورا
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا »

نرضى الموان بديل العزّ أكمله والجسم ينحل سقماً من تحمّله
ونرتضى وشلاً عن فيض جدوله « أما هواك فلم نبدل بمنهله
شرباً وإن كان يظميننا فيروينا »

أعرضت عنا وأعرضنا على وصب نكّم الناس ما في القلب من لهب
فما اتخذنا تجافينا بلا سبب « ولا اختياراً تجنبناك عن كذب
لكن عدتنا على كره أعادينا »

ضاقّت على رحبها الدنيا فلا سعة تحوى فؤاداً وأحشاءً مقطعة
نأسى إذا الشمس جازتنا مودعة « نأسى عليك إذا حثت مشعشة
فيها الشمول وغنانا مغنينا »

لا شيء يسكن شيئاً من بلابلنا ولا نرجى عزاء من وسائلنا
ظعائن الأنس شالت عن منازلنا « لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا
سيما ارتياح ولا الأوتار تسلينا »

وتالت قصائده في المناسبات القومية ، ولا سيما قصيدته التي رثى فيها أحرار العرب — شهداء ٦ أيار سنة ١٩١٦ الذين أعدمهم السفاح أحمد جمال باشا ، وهي تصوير لألمه وللمأساة التي واجهتها الأمة العربية في تلك الأيام الرهيبة ، مع تصوير لعنجهية الترك أحفاد هولاء كو وتيمورلنك ، إلى غمز من قناة أصدقائه الذين كانوا لسان السفاح !

وقد بدأها بقوله :

كان التجلّد في البلوى يؤاتيني فإله حين أدعو لا يليني
ضاق الفؤاد بالآلام تبرّحني وفاجعات بنور الوجد تكويني

وطارد الهمّ عن عيني الرقاد وهل
أين النصفاء الذي قد كنت أمتحه
من كل منّاعة باتت تسامرني من خمرة الحب أسقيها وتسقيني . .
وقد اعتاد أن يجارى الشعراء القدامى الذين يبدعون قصائدهم بالتشبيب ولكن
الحزن على رفاقه الشهداء جعله يمرّ مروراً بهذه السجية فطغى الحزن على التغزل
بمحبوبته التي كان يسقيها من خمرة الحب وتسقيه :

كيف السبيل إلى يوم تصحّ به جروح قلب برمح الجور مطعون
بل كيف يهنا لي عيش ويسعدني دهرى وتعبثني الدنيا وترضيني
ومعشرى بين مطرود ومنتبذ عبر الفيافي ، ومصلوب ومسجون
والقصيدة طويلة أثبتناها كاملة في باب المختار من شعره لأنها تصوّر صفحة
من نضال الأمة العربية .

على أن نظمه للشعر لم ينقطع بالرغم من انغماسه في القضايا الوطنية الكبرى
إلى أذنيه - وكان من أقوى أركان « الكتلة الوطنية » التي ظلت خلال أيام
الانتداب الإفرنسي تقارع استعمارهم بضراوة . .

وحين زار شاعر النيل حافظ إبراهيم دمشق سنة ١٩٢٩ قرر « المجمع العلمي
العربي » تكريمه وقرّر أن يكون المعبر عنه شعراً فارس الحورى .
وفي زحمة من مشاغله نظم قصيدة عامرة الأبيات تختلف معنّى ومبنى عن
قصائده السابقة . .

وقد وصف الأستاذ الشيخ على الطنطاوى في مقال نشره في مجلة « الرسالة »
القاهرة عام ١٩٤٧ أثر هذه القصيدة في نفسه وملاحم من شخصية الحورى
بعد أن سمعه وتعرّف عليه بقوله :

« أقيمت في ردهة المجمع العلمي العربي في دمشق من نحو عشرين سنة
حفلة لتكريم حافظ إبراهيم^(١) حضرها أنا وأخى سعيد الأفغانى ، وكنا يومئذ
في مطلع الشباب ، نقصد مثل هذه الحفلات لننقد الخطباء ، ونبتغي لهم المعايير ،
فمن لم نعب فكرته عينا أسلوبه ، ومن لم ننتقص إنشاءه انتقصنا إلقاءه . . وخطب

كثيرون فى الحلقة ، وقال فيها حافظ إبراهيم بيتيه المعروفين :
 شكرت جميل صنعمكم بدمعى ودمع العين مقياس الشعور
 لأول مرة قد ذاق جفنى على ما ذاقه طعم السرور
 ولم يسلم من ألسنتنا . . .

وكان فيمن خطب رجل قصير القامة ، عظيم الهامة "جداً" ، أبيض
 الشعر ، ألقى قصيدة لا أزال أذكر أن مطلعها كان :
 لىالى التصاى قد جفانى حبورها ولتى السوداء أسفر نورها
 ومن لى بإنكار الحقيقة بعدما تجللى على وجهى وفودى نذيرها
 تذكرت أيام السرور التى مضت فىا لىت شعرى هل يعود سرورها
 لدن لى مع الأصحاب سهم مسدّد وحظى من ريم الكناس غريرها
 أسفت على عهد الشباب ولم تعد تثير فؤادى مقلة وفتورها
 وأدنتى الأيام من هوة الونى فأصبح منى قاب قوس شفيرها
 وكادت حروف الدهر تطوى صحائفى وهل بعد هذا الطى يرجى نشورها

وتخلص إلى لقاء حافظ . . وقال إنه جدّد عهد الشباب ، وهى قصيدة
 طويلة لا أروىها ، وكان صوته قوياً على انخفاض ، مدوياً على وضوح ، كأن
 له عشرة أصداء تتكرر معه ، فتحسّ به يأخذك من أطرافك ، ويأتى عليك
 من الأفطار الأربعة فتسمعه بأذنيك ، وقلبك ، وجوارحك ، بل تكاد يدك تلمس
 فيه " شيئاً " ضخماً . . على صحة فى الخارج ، وضبط فى الأداء ، وقوة فى
 الثبرات . . وثبات فى المخطّات ، واعتداد فى النفس عجيب ، تشعر به فى هذا
 الصوت الذى يكون له هذا الدوى كله ، وهو يخرج من فم صاحبه باسترسال
 واسترخاء . . لا يفتح له شدقه ، ولا يحرك لسانه ، ولا يمدّ نفسه ، ولا يجهد
 نفسه ، وأنسانا بهذا الصوت وهذا الإلقاء ، أن نقد القصيدة أو نجد لها العيوب ،
 وملك به قلوبنا وقلوب الحاضرين . . فصفقنا له حتى احمرّت منا الأكف !

وقلت لسعيد : من هذا ؟ !

قال : هذا فارس الحورى . . «

ووصفه بعد أن تعرّف عليه بقوله :

« . . . وجدت فيه رجلاً وديعاً ظريفاً حليماً واسع الصدر ، ولكنه كان مع هذا كله هائلاً مخيفاً ، تراه أبداً كالجبل الوقور على ظهر الفلاة لا يهزه شيء ولا يغضبه ولا يميل به إلى الحدة والهياج ، يدخل أعنف المناقشات بوجه طلق وأعصاب هادئة فيسدّ على خصومه المسالك ويقيم السدود من المنطق المحكم ، والنكتة الحاضرة والسخرية النادرة والعلم الفياض والأمثال والحكم والشواهد ، ويرقب اللحظة المناسبة حتى إذا وجدها ضرب الضربة الماحقة وهو ضاحك . . ثم يمد يده يصافح الخصم الذي سقط لا يرفع صوته ولا يثور ولا يعبس ولا يغضب ولكنه كذلك لا يفرّ ولا يغلب !! »

. . . وكنت أزرور المجمع العلمي العربي وهو من كبار أعضائه فأراه أحياناً في مناقشات أدبية أو لغوية . . فإذا هو في مجال العلم والحفظ . . كما هو في مجال الرأي والفكر . . وإذا هو متسلط غلاب في مصاولات الأدب كما كان الغلاب المتسلط في مصاولات السياسة ! »

* * *

ومن الأحاديث التي لن أنسى أثرها في نفسي حديثه مع الدكتور هيكل فقد زرناه قبل وفاته بستين ودارت بين الرجلين العظيمين أحاديث طلية في شتى الشئون التي تشغل الأمة العربية في وثبتها الجديدة سواء منها السياسي أو القومي أو الاجتماعي أو الفكري ، وكانت الكتب التي كتبها الدكتور هيكل عن محمد وأبي بكر وعمر وكتاب « في منزل الوحي » موضع حديث أطول ، ودهش الدكتور هيكل دهشاً عظيماً من وفرة اطلاعه العميق على الكثير من أدقّ الفترات الحاسمة في تاريخ الإسلام ، وكانت دهشته أكثر حين كان يسرد النصوص التي يستشهد بها من آيات وأحاديث وقصص وشعر وكأنه يقرأها من كتاب . وقد قال لي الدكتور هيكل بعد أن ودعناه — وقد استمرت الجلسة أكثر من ساعتين — قال لي : لم أكن أتوقع أن تمتدّ جذور ثقافته في الإسلاميات إلى هذا الحد البعيد . . وأقول لأعجب في ذلك فقد وعى صدره الكثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، إلى مجموعة كبيرة من الشعر العربي ، فلا يكاد يتحدث أو يحاضر حتى تكون الآيات والأحاديث والشعر والأمثال على طرف

لسانه . ويذكر تلامذته - وهم صفوة الرجال - الكثير من القصص عن قوة ذاكرته وسحر بيانه .

ويقول في هذا الصدد : « إننى أعب . . من هذه الكنوز الفكرية التى خلفها العرب . . فلأرتو وأشبع . إن هذه الحياة الفكرية العربية ليس لها مثيل فى الدنيا لأنها استمرت أكثر من خمسة عشر قرناً دون انقطاع ، ولم يكتب لأية لغة من لغات الدنيا أن عاشت كما عاشت لغة العرب ، نقرأ اليوم الأدب الجاهلى : أو الإسلامى ، أو الأموى ، أو العباسى ، وبيننا وبينه هذه المئات من السنين فتندوقه ، وكأن بعضه قد قيل فى أيامنا هذه ، إنك لا تجد هذا عند الإنكليز ولا الإفرنسيين ولا الطليان ولا عند أية أمة أخرى . إن تاريخ الحياة العقلية أو اللغوية على الأقل لدى الأمم الأوروبية لا يعدو مئات قليلة من السنين ، وقد لا يفهم الفرنسى المعاصر نصاً كتب فى القرن الخامس عشر أو الرابع عشر الميلادى ، أى قبل خمسمائة سنة . أما نحن فإننا نقرأ ما خلف العرب منذ أكثر من ألف وخمسمائة سنة فنرى فيه الكثير من صور حياتنا اليومية » .

وكان إلى سعة اطلاعه وعمق ثقافته وبليغ بيانه ، على جانب كبير من الاتزان والكياسة فى جدله ومناقشاته . فإذا احتدم الجدل ، دعم وجهة نظره بالنص إثر النص . وبالسند إثر السند ، إلى أن يقنع خصمه مهما كانت شقة الخلاف واسعة . .

ومجمل القول فى شعره أنه يختلف فى أخريات أيامه عنه فى بدء حياته . وليس لنا أن ننظر ، كما قلت ، إلى القصائد من الناحية الجمالية ، فهو فى أكثر قصائده يشرح قضايا ذات اتصال وثيق بقضايا الوطن ، فنرى الفكرة الموزونة والهاجسة القومية مصهورة فى قوالب موزونة تمت بصلة إلى شعراء البديع ولا سيما قصائده الأولى ، وقد رمز بذلك إلى موهبة من مواهبه العديدة فطغت الفكرة على العاطفة ، ونزعة رجل الحقوق المتزن على نزعة الشاعر المرهف الحس^(١) . .

* * *

(١) سأله الصحنى محمد الفرحانى رأيه فى الشعر المنشور فأجاب بقوله : « لا أحبه ، فالشعر العربى قائم على قواعد ، وهو كلام موزون مقفى ، فإذا أخل بهاتين القاعدتين - الوزن والقافية - لم يعد الشعر شعراً عربياً ، بل يصبح كلاماً مخترعاً من قبل صاحبه لا ينسب إلى الشعر ولا يمت إليه =

وقد ظلّ حتى آخر لحظة من حياته هذا العنصر المبرز في الحياة الفكرية والقومية والسياسية ، وحتى في المحافل الدولية . وهذا الذي جعل كبار الهيئات تكرمه وتهديه أرفع الأوسمة والجوائز ، فمنحته جامعة كاليفورنيا الدكتوراه الفخرية اعترافاً بما ثره العظيمة في حقل العلاقات الدولية ، وقدّرت الجمهورية العربية المتحدة - بتوجيه من الرئيس جمال عبد الناصر - مركزه العلمي الكبير وجهوده الفذة في ميدان القومية العربية فمنحه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية جائزته التقديرية لعام ١٩٦٠ في العلوم الاجتماعية وقدرها ألفان وخمسمائة جنيه مصرى مع وشاح النيل .

هذا ، ولم يترك من الكتب غير كتاب « في أصول المحاكمات الحقوقية » و « علم المالية العامة » وهما ثمرة محاضراته في معهد الحقوق . . والكتابان من المراجع القانونية القيمة . أما خطبه ومحاضراته وقصائده فما تزال ماثلة في الصحف والمجلات لو جمعت لألفت مجلدات ، ولعلّ أحد تلامذته - وما أكثرهم وجلهم مفكرون وأدباء - يقوم بهذا التراث الذي يؤرخ صفحات من جهاد سورية في يقظتها الفكرية ونضالها القوي .

= بصلة . وسألته : ومن هو شاعر العرب المعاصر ؟ ! قال : كثيرون هم شعراؤنا المعاصرون لا أفضل أحداً على آخر . . واستطرد يقول : عندنا في سورية على سبيل المثال لا الحصر . شفيق جبري والمرحوم الشيخ فؤاد الخطيب ، ومحمد الفراقى شاعر دير الزور الذى يعجبني فيه غزائره وصراحته القطرية المنبثقة من بيئته البدوية . ومن شعراء لبنان سعيد عقل ، ومن شعراء العراق الزهاوى بفلسفته وسلاسة شعره وصراحته ، ومعروف الرصافي بطرقه لمواضيع ممتازة مثل « الحياة شعر » التي هي من قصائده الحسنة . . ولا أنسى خليل مطران الذى يعجبني ببلاغته وإتقان لغته وضبط معانيه وبحرها حتى إنه يوم مات سعد زغلول ورثاه جميع الشعراء ومنهم مطران وشوقي وحافظ وكل شعراء مصر وسورية اجتمعوا ببعلبك ورحنا نقابل ونفاضل بين هذه القصائد ، ففضلنا عليها قصيدة خليل مطران ، وهذا حكم عدل عندما نقابل بين شاعرين في موضوع واحد في وقت واحد . . ومن شعراء المهجر رشيد سليم الخورى وإلياس فرحات وفوزى المعلوف ، كل منهم فيه شيء يعجبني فيه وخصوصاً وطنيتهم وعروبتهم فهم شعراء المهجر الممتازون ، ولا ننسى الأستاذ « بدوى الجبل » المتميز بعبقريته الفذة ، وعلى ذكر الشعراء والأدباء جرى بحث في المفاضلة بين مارى عجمى ومى زيادة في أيتهما أفضل وأيتهما أطول باعاً في الأدب ، فا كان منه إلا أن ارتجل هذين البيتين :

يا رجال الأريحيه سجلوا هذى الشهاده
إن مارى العجمية هى مى وزيادة

فى ذكرى الشهداء الذين أعدمهم السفاح أحمد جمال باشا

فما له حين أدعو لا يلينى
وفاجعات بنار الوجد تكوينى
تنام مقلة موتور ومغبون
للنفس من خفرات الغيد والعين
من خمرة الحب أسقيها وتسقينى
من أمره الأمر بين الكاف والنون
آوى إلى غير محروب ومحزون
وإن دعيت للهو ، قلت خلونى
فنظرة من شعاع الشمس تؤذينى
ورب قلب على الأحزان مرهون
جروح قلب برمح الجور مطعون
دهرى وتعبثى الدنيا وترضينى
عبر الفياق ، ومصلوب ومسجون
على الغطاريف منها والأساطين
وأطلعت من دموى كل مخزون
واطول شوقى إلى ظلّ الأفانين
على الليوث ، على الغرّ الميامين
وخلفت ورد زقوم وغسلين
معالم للهدى ، شمّ العرانين
أنقى وأظهر من زهر البساتين
أصحاب قلب بحب العرب مفتون
فى الرمل من غير تكفين وتلقين
من كل ندب بقاع الرمل مدفون

كان التجلد فى البلوى يؤاتينى
ضاق الفؤاد بالأم تبرّحنى
وطارد الهمّ عن عيني الرقاد وهل
أين الصفاء الذى قد كنت أمنحه
من كل مناعة باتت تسامرنى
قضى على صفو أياى وبدّله
أصبو لكل كتيب فى الديار ولا
أجيب دعوة من أدعو لمأتمه
وكفكفوا لحظات النور عن بصرى
فإننى حلف همّ لا يفارقنى
كيف السبيل إلى يوم تصحّ به
بل كيف يهنا لى عيش ويسعدنى
ومعشرى بين مطرود ومتبذ
أبكى ومعدرة عيني إذا ذرفت
على النجوم الداررى التى أفلت
على ظلال الأفانين التى قصفت
على الشيوخ ، على رهط الفتوة بل
على مناهل فضل غاض كوثرها
فياصل الحزم غراء شمائلهم
بيض الصحائف ما هانوا ولا غدروا
قد عابهم بقضاء الترك أنهم
ضحّوا بهم وأسروهم إلى حفر
فاستنطق الرمل عما ضمن حفرته

يا يوم «بيروت» بل يا يوم «جبرون»
 فينا شمس الهدى والعزم والدين
 يمشى إلى الموت لا يمشى إلى الهون
 فالدمع مهما تجارى لا يؤاسنى (١)
 قبلى لأقنع منه اليوم بالدون
 فى معقل النسر أو فى معقل النون
 تجرى إلى طالع بالبؤس مقرون
 والدهر ساورها بعد ابن هارون
 من طينة البغى والطغيان معجون
 منهاج جنكيز أو أنماط نيرون
 وعند إقبالها مثل الشواهين
 رءوسها فوق هامات الشواهين
 سياسة العدل والإحسان واللين
 وفى حلاقيهم سمّ الثعابين
 فنكلوا واستباحوا كل قانون
 نهباً ويرجع فى أموال قارون
 وخربوا كل معمر ومسكون
 أضرى الوحوش ولا أطفى الشياطين
 حتى محآ آية الزيتون والتين

ما كان أفجعه صباحاً طلعت به
 ما لاح نورك إلاّ بعد أن غربت
 من كل أروع عنوان المضاء به
 كيف التأسى إذا طلّت دماؤهم
 وهل تجلد موتور بمدمعهم
 أريد قوماً مغاويراً لثأرهم
 أبكى على أمة لجّ الشقاء بها
 العزّ غادرها والذلّ جاورها
 ولتى الزمان عليها كل معتسف
 من معشر جعلوا جلّى مفاخرهم
 مثل الزرايزير فى إدار دولتهم
 بيارق فى رقاع الشؤم رافعة
 قالوا سياستهم والغدر ديدنهم
 يستدرجون بحلو القول مأربهم
 لاحت لهم فرصة فى العرب سانحة
 دسّوا لنا كل مغتر يعيث بنا
 تحلّلوا السلب والتمثيل فانبعثوا
 جاحوا البلاد بفعل ليس يقحمه
 لم يكفهم برجال العرب ما فكوا

* * *

لصاحب التاج فى علياء برلين

يا ليت شعرى أما سارت فضائهم

(١) هؤلاء الرفاق الذين أعدمهم السفاح جمال باشا بعد محاكمة صورية فى ديوان الحرب العرفى
 بعاليه هم الشهداء السادة شكرى العسلى ، شفيق المؤيد العظم ، عبد الحميد الزهراوى ، محمد المحمصانى ،
 رفيق رزق سلوم ، رشدى الشمعة ، عبد الوهاب الإنكليزى ، باترو باولى ، جورجى حداد ، أمين
 لطفى الحافظ ، الشيخ أحمد طيارة ، محمود المحمصانى ، نايف تلو ، نور الدين القاضى ، محمود العجم ،
 عمر حامد ، عبد الغنى العريسي ، على الأرمنازى ، عبد القادر الخرسا ، عارف الشهابى ، محمد الشنطى ،
 عبد الكريم الخليل ، سعيد عقل ، جلال البخارى ، توفيق البساط ، مصطفى الحميصى ، عبد الوهاب
 الزوينى .

بأن يكون حليفاً للمجانين
له مناسب طوران وطوطون
ولعنة الله من بين السلاطين

فكيف يرضى على دعواه من شرف
ما كان حالهم لو لم تكن ثبتت
عليه نقمة أهل الأرض قاطبة

* * *

أقدام طاغية دامى السكاكين
حتى الرعوس لدى تمثال تنين
لرسم مفترس دامى البراثين
بل قل لكرد على والغلايين
من سوقة الشعر عبدان الدهاقين (١)
جرياً إلى السبق في تلك الميادين
حتى أشدتم بتمداح الملاحين
حتى صدعتم بتجبيذ وتحسين
أم راقكم هنك أعراض الخواتين
شكوى السجين وأنات المساكين
منشورة بين بيروت وصنّين
وما جرى فيه من « يافا » لـ « حبرون »
حواصل الطير أو جوف السراحين
وقد رثى فيه أهل الهند والصين
وأنطقكم بقول غير موزون
مشثومة بين دفات الدواوين
كرراً على الدهر من حين إلى حين
وراقبوا يوم تحرير الموازين
أضاف إليها بعض الأبيات نقتطف

قل للألى عفروا حر الوجوه على
ومنهم الشاعر المطبوع علمهم
أتخففز الرأس إجلالاً وتكرمة
قل للشقيرى مفتهم ورائدهم
وزمرة مثل ملاح ورفقته
وكل من حملوا الأقلام واندفعوا
ماذا دهاكم وفيكم أهل منزلة
ما أحدثوا في ديار العرب موبقة
هل سركم صلبهم أحرار أمتكم
أما سمعتم شهيق الباكيات ولا
ولا اطلعتم على ما كان من عبر
سلوا فلسطين تنبئكم حوادثه
الآمنون به صارت مقابرهم
وما رثيت لنا في يوم نكتبنا
هى المنافع قد أعمت بصائرهم
حتى تركتم لكم في قومكم صحفاً
فكلما ذكرت أسماؤكم لعنت
فاستهدفوا لنبال الازم دامية
وفي حفلة ذكرى الشهداء عام ١٩٢٥ أضاف إليها بعض الأبيات نقتطف
منها ما يلى :

(١) الذين تولوا تحرير جريدة « الشرق » التى جعلها جمال باشا لسان حاله هم الشيخ أسعد الشقيرى ، وكان مفتياً للجيش العثمانى الرابع ، ومحمد كرد على ، وبدر الدين النعمانى والشيخ مصطفى الغلايينى صاحب مجلة « الزبراس » البيروتية ، والشاعر شبلى ملاط .

بكيتكم وجدار السجن يحرق بي
 وصاحب الحكم يمليه لكاتبه
 الحظ قدمهم عنى وأخزنى
 تسدى العهود بتحقيق الوعود لنا
 لا بد أن يرجعوا للشام وحدتها
 من الفرات إلى الأردن رابطة

وعين حافظه بالشزر ترمينى
 وناصب الحبل فى الميدان يدعونى
 حتى أرى دول التاميز والسين
 عن كل حق بالاستقلال مضمون
 من بعد ما فصلوها عن فلسطين
 مثل الذى بين صنين وقسيون

عبد المسيح الأنطاكي

١٨٧٥ - ١٩٢٢

صحفي ، شاعر ، جواله .

عبد المسيح بن فتح الله ، يوناني الأصل ، سكن أجداده أنطاكية ، وانتقلت عائلتهم إلى حلب سنة ١١٦٣ هـ فولد فيها صاحب الترجمة ، ساح في بلاد العرب عدة سياحات فمدح أمراءها ولا سيما خزعل خان شيخ المحمرة وفاز بعطاياهم الوافرة .

وقد كتب بقلمه تاريخ نشأته فقال :

« نشأت في حلب الشهباء في وسط كله تعصب وجهل ، ومن حسن حظي أن يبتنا في حلب كان في شارع أكثر أهله عرب مسلمون يدعى " قسطل المشط " فكنت أجد من حسن معاملة العرب المسلمين لأهلي ورعايتهم لجوارنا غير ما كنت أسمع من النفرة منهم من أفواه عشرائي المسيحيين ، فشبيت وأنا على غير رأيهم في هذه الأمة الكريمة ، ثم عندما اتسعت مداركي صرت أعرف وأعتقد أن هؤلاء المسلمين العرب الذين يجاورونا ونجاورهم هم شركاؤنا في الوطن ومشاركون معنا في منافعه ومضاره ، وفوق هذا فإن بيننا وبينهم صلة قرني بلحم ودم ، لأن المسلمين عندما دخلوا سورية كان أهلها مسيحيين ويهوداً ومجوساً فأسلم منهم من أسلم وبقى على دينه من بقي ، وربما انقسمت العائلة الواحدة إلى مسلمين وغير مسلمين . . وهكذا أصبحت متعصباً للعرب أعداء نفسي واحداً منهم ، يسرني ما يسرهم ، ويسينني ما يسيئهم . وبصفتي واحداً منهم بات همي أن أعتنى بمصلحتهم ، وتوفقت إلى أصدقاء منهم أهل علم وسياسة متعصبين للعرب ، يرمون إلى استعادة مجدهم ، فتربيت على أيديهم وعلى رأسهم أستاذي المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي الشهير .

ولخدمة العرب أنشأت مجلتي " الشذور " في حلب سنة ١٨٩٧ - ١٨٩٨ فحاربتني الحكومة ، فهجرت وطني وأتيت مصر وأنشأت جريدتي الشهباء ،

ثم حولتها إلى اسم "العمران" وتبغى إلى دار هجرى أستاذى الفيلسوف الكواكى سنة ١٨٩٩ فلذت به وقضيت فى صحبته كل المدة التى أقامها فى مصر إلى أن استأثرت رحمة الله تعالى بنفسه الطاهرة فى سنة ١٩٠٢ فأخذت على عاتقى الضعيف استئناف الجهاد فى سبيل العرب الذى كان يجاهده وأنا فى خدمته» (١) .

ويشير قسطنطين الحمصى إلى نشأته الأدبية فيقول :

« درس مبادئ العربية فى حلب وأقدم على صناعة القلم منذ حدثته ، وهو لا يملك منها غير الاسم ، وقرض الشعر وهو لا يعلم موازينه إلا ما تزنه أذنه ، وما هى إلا سنوات حتى دانت له صناعة القلم فكتب ونظم ، وأقبل على المطالعة حتى وقف على تاريخ العرب ومعتقداتهم فى الجاهلية ، وعى تاريخ الإسلام ومذاهبهم وما قاله علماءهم وفقهاؤهم ، ثم حول صحيفة "العمران" إلى مجلة كان يبعث بها إلى أقاصى بلاد العرب والإسلام فى الهند والصين وخليج العجم ، وما فيها إلى رأى الشيعة » (٢) .

* * *

كان عبد المسيح الأنطاكى ذا طموح ، وقد ضاقت به بيئته فنزح إلى مصر ، وقد كانت حاب ، كأكثر المدن العثمانية تن من الجور الحميدى ، وتنتطلع إلى جو دستورى تشيع الحرية فى آفاقه ، وكانت مصر تنعم ، إلى حد ما ، بنحو حر ، فاجتذبت الكثيرين من السوريين واللبنانيين الذين عملوا فى الصحافة — وكان قد بدأ بها حياته الأدبية فى حلب حين أصدر « الشذور » — فحذا حذوهم ، وما هى إلا سنوات حتى استطاع أن يكون له مركزاً فى المحيط الصحفى ، وقد حرص أن يكون أدبه وسيلة للارتزاق وجمع الثروة لا اعتقاده أن المال هو الذى يضفى على الإنسان مكاناً مرموقاً فى المجتمع ، ومن شعره فى هذا الصدد :

ولذة جمع المال لا شىء مثلها لدى كل حر قبلُ قد عالج الفقرا
وإن الذى يجنى النضار فإنه جنى معه الإعزاز والجاه والقدر
وكأنه أراد أن يهيج نهج بعض الشعراء القدامى الذين عاشوا فى ظل الخلفاء ،

(١) « القصيدة العلوية » ص ٣٧ .

(٢) « أدباء حلب » ص ١٠٠ .

ورأى في الأمير خزل ، هذه الصورة العربية التي تتمثل فيه صور خلفاء المسلمين ، فربط حياته بحياته وقصر أكثر شعره على نشر محامده وفضائله .

* * *

من آثاره عدا مجلة « الشذور » التي أصدر منها عشرة أجزاء ومجلة « العمران » التي أصدر منها اثني عشر مجلداً ، كتاب « نيل الأمان في الدستور العثماني » و « النهضة الشرقية » وهو كتاب لم يكمل^(١) و « القصيدة العلوية المباركة » طبعت في كتاب بلغت صفحاته الستمائة صحيفة وعدد أبياتها ٥٥٩٥ بيتاً تناولت تاريخ حياة الإمام وما جرى له مع الخلفاء الراشدين ، وهي كما قال ناظمها : « أولى القصائد التي ظهرت في الشعر العربي فكانت نسيجاً وحده . لأنني ما عرفت قصيدة عربية مثلها تناولت تاريخاً أو قصة فجاءت عليها من أولها إلى آخرها بقافية واحدة ووزن واحد ، كما أنها أطول قصيدة في لغة العرب على الإطلاق ، وقد قسمتها إلى فصول جعلت لكل فصل عنواناً يعين المطالع على إدراك مراميها واستقراء معانيها ، وهي تقسم إلى قسمين أولهما تاريخ أمير المؤمنين منذ ولادته إلى أن امتدت إليه يد الشقي ابن ملجم ، والثاني خصصته بمناقب وفضائل وحكم أمير المؤمنين . . »

إلى أن يقول :

« واتباعاً لأهل الغرب دعوتها "ملحمة" وهي أقرب الأسماء إليها . وذيلت هذه القصيدة المباركة بحواش كانت تاريخاً صمياً لصدر الإسلام » .
ويحتفظ أحد أنسابه في حلب^(٢) بهذه القصيدة الكبرى ، وقد اطلعت عليها وقرأت بعض مقاطعها ، وهي وإن لم تبلغ مبلغ الشعر الجيد إلا أنها تتم عن قريحة وقادة ، ولا سيما ، وقد كان الشعر في زمنه لا يزال وثيق الصلة بشعر عصر الانحطاط ، وعلى كل فيمكن اعتبارها من الملاحم العربية في عصرنا هذا .
ويفسر الأنطاكي معنى الملحمة بقوله :

أما لفظة « ملحمة » التي أطلقها على هذه القصيدة المباركة اتباعاً

(١) جريدة « العمران » ج ١٢ ص ٦٣٣ - ٦٥٧ .

(٢) السيد فيليب أنطاكي .

للمغاربة فعناها اللغوى « الوقعة العظيمة » ولعلها مأخوذة من قولهم التحم القوم للقتال أى اشتبك بعضهم ببعض ، أو ربما قصد المغاربة باسم « الملمحة » الذى أطلقوه على القصائد التى لا ذكر فيها للقتال أيضاً « الإحكام » من قولهم لحم الأمر أى أحكمه ، ومن هذين المعنيين أطلق القوم على المصطفى صلى الله عليه وسلم « نبي الملمحة » وقالوا فى تفسيره نبي القتال أو « نبي الإصلاح وتأليف الناس » ، ويصح أن نقول إن لفظة « الملمحة » مشتقة من قولهم ألحم فلان الشعر وحاكه أى نظمه وذلك لتشبيههم ببيت الشعر أو بالثوب المحوك ، ومن هذا اشتقت لفظة « الملمحات » التى أطلقوها على القصائد المعروفة المشهورة للفرزدق وجريير والأخطل وعبيد الراعى وذى الرمة والكميت والطرماح وأرادوا بها الإشارة إلى أن هذه القصائد كانت محكمة النظم ، متألفة الأجزاء ، حسنة السبك .

ومن شعره :

العرب

مقطع من ملحته أو من القصيدة العلوية

سر فى الأعارب وانزل فى مغانيها واشهد مكارم باديهـا وقاريها
وصف فإن مجال الوصف ذو سعة خالها الزهر مع سامى مباديها
وبعد أن يصف جولته فى أرض الجزيرة من الشام إلى العراق إلى اليمن إلى تونس والجزائر ومراكش وما لقيه من إكرام وحسن وفادة يقول عن العرب :
وأمة خير ما تسمى به عرب إن رام تمجيدها يوما مسميها
وأنفس حرة ما استعبدت وأبت أن تستذل لغير الله باريها
وهممة تشد العليـا وتطلبها ما الدهر يقعدا عنها ويثنيها
وعيشة قد توختها اشتراكية أجلى مظاهر أهليها تأخيها

إلى أن يقول :

والعرب من قدم أسمى الورى حسباً إذا رجعنا إلى تاريخ ماضيها
ويعربُ الجد من علياه قد بدأت تنمو وما زال رب العرش منميا

كثرى وطاب لها قاسى ثوبها
إلا بمن قد أقاموا فى موامها
لكن عقولا تناهت فى تسامها
إن كان مجد الأراضى فى أهالها

وفى الجزيرة قد كانت منازلها الـ
مهامه أحملت محلاً وما خصبت
ما أنبتت شجراً ما أثمرت ثمراً
هى الجزيرة لا أرض تحاكيها

وبعد أن يصف طبيعة الجزيرة العربية وصفاً دقيقاً يقول :

أخلاقها سمت سمواً مباديها
مروية عبدة كبرى لقاريها
تطوى حضارتها الغرا مطاويها
أبقى لها أبداً ذكرى معاليها
وكلّ سام عظيم من مآتيها
قد استعزّ بها إذ ذلّ عاصيها

ومع خشونتها فى عيشها لطفت
تنبيك آدابها عنها وقد بقيت
وتلك أشعارها فى جاهليتها
وإنما الشعر تاريخ الأعراب قد
منه عرفنا مغازيها وحماتها
كانت له دولة فى العرب طائعيها

* * *

بها الفخار فليس العد يحصيها
إلى نفوس تناهت فى تعاليها
د الأصدقاء وبالأرواح تفديها
نالت كما تشتهى شتى أمانها
حتى ولو كان من أعدى أعاديها
إن الأسود لتخشها وتقيها
وطالما أخضعت قهراً مناويها
رقابها قط للأغيار تحنيها
أوأبدا ليس كره الدهر ماحيها
هون وأن تتصافى مع مهينيها
سوء وكان الذى يؤذيه يؤذيها
سلّت لقهر أعادييه مواضيها
يبقى على الضيم فرداً من مواليها
عن البرية وحشيها وحضرها

أ. شمائلهما الغرا التى بلغت
فن مكارم أخلاق إلى كرم
إن عاهدت حفظت رغم الزمان عهو
أو إن أتها العوافى فى حوائجها
وضيفها لم يهب غدر الزمان به
وعن شجاعته حدث ولا حرج
وحسبها أنها للغير ما خضعت
وكم لها أحت الناس الرقاب وما
سادت وصالت وأبقت من مفاخرها
كانت لعمرك تأبى أن تعيش على
يشور نائرها إن نال واحدنا
فإن يصح « وانصيراه » رأى أسداً
تضامن بين أفراد القبيلة لا
ومنذ نشأتها امتازت معيشتها

بالاشتراكية الكبرى فلا رتب
ولا ضخامة ألقاب تميز من
وأن أحكامها شورى يصيخ لها
شورى إليها انتهت من جاهليتها
والله أنزل في القرآن آيتها الـ

تنبئ ذوى الجاه منها عن أدانيها
بين الأعراب علويها وسفليها
شيوخها إذ تنادى مستشاريها
تالله قد تخذتها عن قريشها
غرا لتردع عنها مستبديها

الأب جرجس منش

١٨٧٥ - ١٩٢٧

عرفت حلب غير واحد من آجبار المسيحيين انصرفوا إلى العربية يدرسونها ويقضون العمر في قيد شواردها وحفظ مآثوراتها وروائعها إلى أن ملكوا قيادها فكتبوا ونظموا وألقوا . . .

وكما عاشت العربية معززة مكرمة في الجوامع والمدارس ، فقد عاشت نفس هذا الإعزاز والتكريم ، في الأديرة والكنائس . . . ولا سيما في لبنان . . .

وكان حظ حلب غير قليل من هذا الولع والهام فأثبتت غير واحد من الفطاحل كان رائدهم المطران جرمانوس فرحات الأديب ، الشاعر ، اللغوي صاحب كتاب « بحث المطالب » و « الأجوبة الجلية في الأصول النحوية » وغيرهما من الكتب^(١) . . . وظلّ ولا يزال الرائد الأول للكثيرين يحذون حذوه وينهجون نهجه في دراسة العربية التي انتهت بهم إلى حبها وعشقها فكتبوا ونظموا وكان ممن عرفت في الثلاثينات من هذا القرن الخور فسة قوس جرجس منش ، وهو شاعر أديب اجتذبه أبحاث التاريخ فكتب سلسلة من المقالات ، ولا سيما

(١) يقول مارون عبود في كتابه رواد النهضة الحديثة ص ٣٤ :

« . . إن لهذا الأسقف المولود في القرن السابع عشر ، فضل التأليف في النحو ، فهو أول نصراني ألف فيه . بعد ما أخذ هذا العلم عن الشيخ سليمان النحوي المسلم في حلب . وله أيضاً فضل أكبر وأعم إذ صحح الترجمة العربية للمزامير والأنجيل ، وسائر كتب الموارنة الكنائسية ، فعرفت الكنيسة فصاحت العربية ، وحب المطران العربية حملة على تعريب الإنجيل مسجوعاً ، وهذا التعريب محفوظ حتى الآن بمكتبة حلب المارونية . ولم يقف المطران عند حد التأليف في النحو بل تصدى ، قبل كل رجال النهضة الحاضرة ، إلى وضع معجم صغير ، ولكنه صحيح ، سماه "الإعراب على لسان الأعراب" .

له مائة وأربعة كتب ، بين مؤلف ومعرّب ومصحح ومختصر ، بعضها أدبي ولغوي وشعري ، وأكثرها ديني على هدى ذلك الزمان » .

ويقول عن شعره بعد أن يأخذ عليه الكثير من المآخذ : « إذا ما غفرنا له كل هذه الهفوات فما هذا بكثير منا ، فهو أول شاعر من ملة قيلت لأجلها هذه الكلمة : "أبت العربية أن تنصر" ، ولكن شاعرنا الأول نصرها ، وجعلها سيده في الكنيسة ، أجلسها عن يمين مذبح البخور فحلت محل السريانية التي أجهز عليها سيادته » .

عن تاريخ حلب في عهد الآراميين والحثيين والدولة السلوقية والرومان والعرب . وكانت الظواهر الأدبية ولغات هذه الأمم تثيره فيسهب الحديث عنها حديث العالم المتمكن من بحثه ، وإتقانه أكثر من لغة شرقية وغربية هي التي دفعته أن يدعم أبحاثه بالمستندات . . .

ففي حديثه عن غزو إسكندر المقدوني مدينة حلب وإقبال الحلبين على اللغة اليونانية وهجرهم الآرامية ثم تغلب العربية عليهما يقول :

« . . . ما كاد إسكندر المقدوني الكبير يعبر بجيشه الظافر مضائق جبال طوروس ويحتاز سورية الشمالية فاتحاً غازياً حتى نزل على حلب طارئة يونانية ترجمت اسمها السامى "بخالب أو خالبون" ودعتها بلغتها أيضاً "بيريا أو بيرو" لما بينها وبين بيريا أو بيرية التي في مقدونية ، وهي الآن "فارية" في ولاية سلانيك — من أوجه الشبه في الماء والهواء وشكل البناء وال عمران ، وسمت نهرها فويق "نخايس" على ما رواه كزينوفون اليوناني ، وطفقت هذه الحالية تزاول فنون التجارة مزاحمة السكان الآراميين على مرافق الحياة وأسباب المعاش فسارت حلب شوطاً بعيداً من الرقي والحضارة ، مغالبة ما حوّلها من البلدان كإرفاد وفورش وقنسرين وهيرابولي "جربلس" وسواها حتى غلبتها وانفردت هي بسعة تجارتها وكثرة مرافقها . . .

« ووطدت تلك الطارئة قدمها وسلطتها بنشر لغتها ومدنيتها ومعبوداتها شأن الغزاة الفاتحين ، فأقبل الحلبيون على الآداب اليونانية بما طبعوا عليه من الذكاء وحدة الذهن تحجباً إلى الأسياذ اليونان وتقرباً منهم لنيل وظائف الدولة أو لترويج أسباب التجارة أو الصناعة والفنون ، فكانت اليونانية لغة الأعيان ورجال الدولة وشاعت في المعاملات الرسمية وفي الألعاب وعلى مسارح التمثيل وعمت عبادة معبوداتها كعبادة جوبيتر والمشتري أبي الآلهة وعطارد ، وهو إله اللصوص على ما في الخط الذي كان معلقاً على باب أنطاكية ، وما الطالع الوارد فيه : (الدر المنتخب ص ١٩) إلاّ إله البخت أو الحظ في الميثولوجيا اليونانية ، ولا يزال على حائط باب النصر إلى الآن كتابة يونانية مشوهة يذكر فيها "أرتميس وكاليكتي" والمراد بهما أرتاميدوس وكالستي وكلاهما من معبودات حلب على عهد اليونان على

ما رواه كاروليدى أفندى فى كتابه " أصل الروم الأرثوذكس بسورية " .
ثم يقول :

« ونشطت إذ ذاك الآداب والفنون اليونانية وراجت سوقها فى حلب حتى إن توادوريط العلامة الشهير الذى كان يكثر من الحركة والتنقل قد كان يتردد على أنطاكية وحلب ويؤثر أن يلقى فيهما خطبه الجمعة ومواعظه البليغة . أما أنطاكية فلأنها مسقط رأسه ، وأما حلب فلأن أهلها كانوا يقبلون على سماع خطبه ومراشده بسرور ولذة . وهو كان ، فيما حكاه فى "رسالته ٧٥" ، يجيد ما شاعت الإجابة فى فنون الخطابة إلقاءً وإيماءً فتجربى الفصاحة بين شفثيه ولهاته . وتتدفق سيول الحكمة على لسانه وفؤاده ، وبالتالى إنه كان يرغب أن يخطب فى حلب وأنطاكية لاعتقاده الراسخ بأن سامعيه فى هاتين المدينتين كانوا يفهمون خطبه ومواعظه اليونانية ويقدرّون ما كانت عليه من البلاغة السامية ، وهو كان لا يقل عن باسيلدوس وفم الذهب علماً ومقاماً لولا مدافعته عن صديق نسطور ومقاومته القديس كيرلس بطل الإيمان وارتداده عن رأيه فى المجمع الخلقيدونى . ولما منع "الوليد" كتاب النصارى من أن يكتبوا دفاتر دوائر الحكومة بالرومية الكن بالعبرية (مختصر الدول ص ١٩٥) أصيبت الآداب اليونانية ، بضربة قاضية فى مطلع القرن الثامن للميلاد أخذت معها فى حلب بالتقهقر والانحطاط حتى إنه لم يبق فى القرن الحادى عشر من يحسن فهم اليونانية (مجلة الآثار ٣ : ٢٩٦) ولم تترك هذه اللغة من آثارها إلا بعض أسطر بل بعض كلمات لا شأن لها اليوم ولا تستعمل إلا فى طقس الروم الكاثوليك وطقس الروم الأرثوذكس ، وسبحان مبدل الأحوال وإليه عاقبة الأمور»^(١) .

وكتب عدة بحوث عن الدولة الحمدانية وعن الحياة الأدبية فى ظلال أميرها سيف الدولة وخصّ بطولته بكثير من الإطراء ، وقد تنابعت مقالاته فى المجلات الكبرى فكتب فى المشرق والآثار والزهور وكوكب البرية ورسالة السلام وفى مجلة المجمع العلمى العربى لاسيما بعد أن انتخب عضواً مراسلاً للمجمع . . . وخصّ طائفته بكثير من الأبحاث الدينية ، فمن آثاره :

« المستطرفات فى حياة جرمانوس فرحات » ، و « التحفة الأدبية فى إجماع

الموارنة» و «الطرفة الشهية في الرهبانية الفرنسية» و «تقويم المطبعة المارونية»
ورسالة في «رحلة إلى جرابلس عاصمة الحيشين» .

واعتبر جرمانوس فرحات النور الأول الذي أضاء طريقه وهدهد سواء المحجة .
ووصفه قسطنطى الحمصى بقوله :

«فاضل له من العلم قسط معروف ، ومن فن التاريخ سهم موصوف ،
واسع الاطلاع . كثير التنقيب . جيد الحفظ ، جميل الرقعة : منمق الخط ،
ولنا به معرفة قديمة ، وبيننا صحبة عهودها غير ذميمة» (١) .

مختارات من نثره :

حلب

توسّد حلب بسيطاً من الأرض كأنها من جهة هرمة توالى عليها طواري
الحدثان وثقلت وطأة السنين ، ومن جهة أخرى حدثة أدركها الكلال في سيرها
الشاقّ الطويل ، فطاب لها الم قيل في بسيطها الأفيح وقفرها الواسع .

فهي مضجعة في جوفها المطمئن إلى غياض ورياض وسهول خصبة قد
خلعت عليها الطبيعة أجمل حلّة فحكّت البسط السندسية . ويحيط بها روابٍ
وهضبات قاحلة جرداء كغالب جبال سوريا ، ويجرى إلى جانبها نهر قويق
فيستقى جنّاتها وبساتينها العديدة المشهورة . . .

وأول ما يشاهده الوافد عليها قلعتها الفخمة ومآذن جوامعها ومناور مساجدها
وقباب كنائسها العظيمة فلا تبدو له المدينة إلّا عن كثب فيراها متراصة متلاحقة
بعضها ببعض حتى يظن سطوحها واحدة وهذا ما تنفرد به عن سائر بلاد
سورية .

وهي واقعة في أطراف البرية مثل خيمة غناء أو جنة ناضرة يأنس بها المسافر
فيرغب في تقيّئ ظلّاتها والنزول عليها وقد أنهكه ما أصابه في رحلته من الجهد

والعياء في تلك الصحارى القاحلة والغدافد الموحشة القائمة التي تكثر في هذه الجهات .

وقد حسنت حلب في عزلتها وطابت في مقامها عن سائر المدن بما توفر فيها من مآتى الحياة وكثرة المرافق ووفرة الخيرات الطيبة التي تمكنها من الصبر على المجاعة زمنًا طويلًا بما يذكو حولها من الغلال ويسرح في مراعيها من المواشى والسائمة وينبع في جناتها وحدائقها من أصناف الخضر والبقول والأثمار .

ويزيدها خطورة قيامها على مفرق الطرق بين سواحل سورية ونواحي بين النهرين وأطراف بلاد الأناضول ، والذي يتأملها يدرك لأول وهلة أن بُساتنها قد جعلوها من أول أمرها وسطًا بين البلاد تؤمها القوافل وتحط فيها الرحال ، فلا يعجب إذا وجدها مدة قرون متوالية سوقًا حافلًا لمرافق آسيا الغربية ، ورائدًا خطيرًا للتجارة المشرقية على اختلاف أنواعها . ١٩٢١ .

سيف الدولة

أى سيف الدولة :

وليت حلب فكنت سيفها المشحوذ تذود عن حماها وتدرأ عن حيازتها عاديات الليالى ، فكان طالعك عليها ميمونًا مسعودًا فاستطالت بك عزًا وزادت رقيًا ونجاحًا .

إليك انتهت الإمارة ، وفي سمائها طلعت بدرًا منيرًا فكسفت أنوار البيت الحمدانى من قبلك ومن بعدك ، فكنت عماده الأكبر الذى تجمعت فيه المحامد ، وبسمت له المعالى . وانقادت إليه أعنة الأيام .

تحدّرت من بيت عز فما أبطرتك نعماه السابقة ، ولا أخذت لبتك زخارف الحياة الدنيا ، بل رببت على أدب النفس ، ونشأت على أدب الدرس ، حتى جاء منك شاعر عالم يفاخر الشعر بأنك أميره وعماده العظيم .

بين يدك حطّت الآداب رحالها فاجتمعت إليك حملة ألويتها وأعلامها العلماء والأدباء والشعراء من أطراف البلاد فكان مجلسك عكاظ الأدب والبيان .

ومنتجع العلم والمساجلة يتردد صداه على تراخي الأجيال والأحقاب . . .
وكفى أن يكون مؤدبك ابن خالويه وشاعرك المتنبي المشهور وكاتبك الأمير
كشاجم وخطيبك ابن نباتة وقائدك ابن عمك أبو فراس ، ومن جلسائك النامى
والوواء وأبو على الفارسي ، وشتان بين المقربين منك والمحيطين بأمثالك من
من بعدك .

لقد غزت فانتصرت ، وحاربت فقهرت عدوك ، حتى وصفت بمعتنق
الفارس والوغي ، فجمعت إلى مجد الأدب مجد السيف ، وإلى عز الدولة عز العلم .
وقلما ائتلف المجدان ، واجتمع العزان المقتربان في مجد واحد . . .
ولما فاجأك عدالك في قعر دارك قاتلت في خف من غلمانك قتال المستميت
المتهالك عن حوزة الوطن وعن دمار الإمارة ، فكنت عظيماً في انكسارك ، كما
كنت عظيماً في انتصارك وسائر أحوالك . . .

وكأنى أسمع ابن نباتة يحضّ الناس على نصرتك بقوله في الموقى :
« . . . كأنهم لم يكونوا للعيون قرة ، ولم يعدوا في الأحياء مرة . أسكتهم
الله الذى أنطقهم ، وسيجددهم كما خلقهم يوم يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ،
ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً » مما يلقي في الروح أشدّ الحماسة والإقدام .
من غبار الجهاد أو غبار المعارك جمعت شيئاً كثيراً صيرته فيما قيل لبنة
قدر راحة الكف ، وأوصيت أن توسد إليها في غيابة القبر ، فتعيد عليك ثمة ذكرى
غاراتك وغزواتك ومجد فتوحاتك وانتصاراتك على تعاقب الليالى والأيام .
أما قلت في شعرك : إنك وهبت العلياء لأخيك ناصر الدولة ، ومالك عنها
نكول ، وتجاوزت عن حقلك فيها إليه ورضيت على قلدرك أن تكون مصلية
وأن يكون الناصر مجلياً ، دلالة على ما عرفت به من حميد الأخلاق .
فله أنت . . . والله أخلاقك .

سلام على عصر نشأت به .

سلام على وطن محبوب عمرته بآثارك وأمجادك .

سلام على لحد ضمّ رفاتك في ميفارقين وهي عظام في التراب — عظام إلى
يوم البعث والدين » .

محمد كرد علي

١٨٧٦ - ١٩٥٣

علامة الشام وباعث نهضتها ورئيس مجمعها العلمي .
صحفي ، أديب ، مؤرخ .

ولد في دمشق عام ١٨٧٦ .

يرجع أصله إلى العرق الآري ، يقول : « جاء جدي من مدينة السلمانية من بلاد الأكراد (شمال العراق) وسكن دمشق قبل نحو ١٥٠ سنة ، وأمي شركسية ، فأنا على رغم من آمن وكفر من جنس آري لا يقبل النزاع ، وليس للغربي ولا للشرقي مما يقول في دمي » (١) .

وقد استطاعت دمشق الشام أن تصهره في بيتها العربية ، فنشأ على حب العرب والدفاع عن خصائصهم وحضارتهم والردّ على الشعوبيين الذين نالوا من العرب قديماً وحديثاً ، وله في هذا المجال ، مقالات ومباحث كثيرة .

كوّن نفسه بنفسه عن طريق المطالعة والدرس ، وتلمذ على الشيخ طاهر الجزائري ، وهو من الأعلام ، فأفاد من علمه وفضله كثيراً .

* * *

حين بلغ العقد الثاني من عمره بدأ حياته الفكرية بمزاولة الصحافة ، وقد لقي المتاعب والأهوال من جراء نزعاته الإصلاحية ومقاومته استبداد الحاكمين ، فهرب من دمشق إلى مصر والتقى بمفكرها وأحرارها ، وحضر دروس الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وزاول مهنة الصحافة فاشترك في تحرير مجلة « المقتطف » وفي جريدة « المؤيد » أكبر الجرائد المصرية آنذاك ، وفي جريدة « الظاهر » ، ثم أسس مجلة شهرية باسم « المقتبس » .

وفي عام ١٩٠٨ ، أي حين إعلان الدستور العثماني ، عاد إلى دمشق ليستأنف جهاده الصحفي فأصدر ، بالإضافة إلى مجلة « المقتبس » ، جريدة

يومية باسم « المقتبس » أيضاً ، وظلّ فترة طويلة يحررها ويكتب مقالها الرئيسي إلى قبيل الحرب العالمية الكبرى ، ثم تخلى عنها إلى أخيه أحمد كرد علي .

وفي سنة ١٩١٦ تولى رئاسة تحرير جريدة « الشرق » التي أصدرها السفّاح أحمد جمال باشا ، لتكون لسان حاله في الحرب العالمية ، وشاركه في تحريرها الأمير شكيب أرسلان ، والشيخ عبد القادر المغربي ، والشيخ بدر الدين النعساني ، وظلت طوال الحرب حتى دخول الحلفاء أرض سورية سنة ١٩١٨ .

عقب نزوح الأتراك من سورية سافر إلى الآستانة ، ثم عاد إلى دمشق سنة ١٩١٩ ، وفي هذه السنة ، أي في عهد الملك فيصل تأسس المجمع العلمي العربي ، وكان الأستاذ كرد علي في طليعة الداعين إلى تأسيسه ، فانتخب ، في عام ١٩٢٠ ، رئيساً له ، وبقي في رئاسة المجمع حتى آخر يوم من حياته .

تقلّد منصب وزارة المعارف ، في عهد الانتداب الإفرنسي ، أكثر من مرة ، وكان طوال عهد وزارته أداة لرفع مستوى التعليم وتعزيز دراسة اللغة العربية .

وفي عام ١٩٣٣ انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

* * *

عاش محمد كرد علي في محيط ران عليه الجمود ، وكان التعليم في مرحلته الأولى ، والتركية هي لغة الدولة ، والسيطرة لآل عثمان ، وقد رأى ، بعد أن عبّ من الثقافة الإسلامية أصنى قطراتها وأشرب قلبه حب العرب والعربية — رأى أن لا مناص لكي تستعيد الأمة العربية سالف مجدها من أن تكب على التعليم ، فدعا إليه بحماسة ، وحارب الطغيان والفساد ، ولقي من ولاية الأتراك — الذين يكرهون العرب — لقي في سبيل دعوته الكثير من العنت والأذى .

يقول في مذكراته :

« وسياسة الترك مع العرب في معظم أدوار التاريخ نمط واحد ، وهي أن لا يعترفوا للعرب بشيء من الحقوق ، لثلا يرفعوا رءوسهم أمام غالبيتهم وسادتهم ، وكان كل إنسان يطلب إصلاحاً في أرجاء هذا الملك الواسع ، سواء أكان تركياً أم من عنصر آخر من عناصر الدولة ، يعامل أسوأ معاملة ، ينفي ويسجن ،

ويصادر ويقتل هو ومن يقول قوله ، ويقولون عليه الأقاويل ، وأقل ما يتهمون به أنه مارق من الدين ، يدعى النبوة ، ويقول بإباحة النساء وشرب الخمر إلى آخر أكاذيبهم» (١) .

في هذا الجو المظلم المليء بالدس والجهل والفساد وكره العرب عاش محمد كرد على . وبديهي ، وهو شاب متحمس لوطنه ولغته أن تثور في نفسه الأحاسيس وأن يجرّد قلمه لمقاومة هذه التيارات التي جرّت عليه ، كما قلنا ، الكثير من الحن ، وقد أفاد كل الإفادة من ألوان الحياة المريرة التي واجهها في فجر شبابه فتكوّنت شخصيته تكويناً قوياً ، ولا شيء ينضج الإنسان ، والأديب بصورة خاصة . كالاضطهاد الذي يواجهه نتيجة لكفاحه في سبيل الحرية .

* *

بعد أن أدّى واجبه الصحفي نحو وطنه شعر من الأعماق أن عليه رسالة واجبة الأداء نحو العرب أجمع ، فانصرف ، بعد أن أصبح رئيساً للمجمع العلمي العربي - انصرف انصرافاً كلياً إلى الدراسات الأدبية والتاريخية . وظفر العالم العربي بمجموعة ضخمة من الكتب في شتى نواحي المعرفة ، كتب « خطط الشام » وهو في ستة أجزاء و « الإسلام والحضارة العربية » و « أمراء البيان » و « أقوالنا وأفعالنا » و « القديم والحديث » و « غرائب الغرب » و « غوطة دمشق » و « دمشق مدينة السحر والشعر » و « كنوز الأجداد » عدا الكتب التي نشرها وحققها . وأشهرها سيرة أحمد بن طولون للبلوي ، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ، والأشربة لابن قتيبة ، ورسائل البلغاء ، وترجم تاريخ الحضارة لشارل سنوبس . . .

ويشعر قارئ هذه الكتب أن الأستاذ كرد على قد اضطلع بمهمة تأريخ الثقافة الإسلامية تأريخاً صادقاً ، وكان في تحقيقه مثال المؤرخ النزيه ، المتجرد ، وكان يدعم آراءه بنصوص لأكابر مؤرخي الغرب وعلمائه المنصفين الذين درسوا أزهى عصور الحضارة العربية فكتبوها عنها المطولات .

وقبيل وفاته كتب « المذكرات » وقد دوّن فيها الكثير من هواجسه وخواطره

عمن عرفهم من الساسة والكتاب والشعراء ومختلف أنماط الرجال ، وعن الحياة
بشّى ظواهرها ، فابتعد عن نهجه كمؤرخ ، وارتدى ثوب الأديب المنطلق . .
وقد عبر عن هذا الانطلاق بقوله :

« أحاول اليوم ، وقد رأيت الدنيا مهزلة ، وذقت حلوها ومرها ، وكرعت
خمرها وخلها - أن أهزل أحياناً ، وأسخر أحياناً ، وأضحك أحياناً ، وأبكي
أحياناً ، لأن نفسي سئمت التزام الجدل ، وتبرّمت من الاضطراب فيه زمناً طويلاً ،
وطبيعتي تعصى على العيش الرتيب » (١) .

* * *

عاش محمد كرد على حياته مع الكتب ، ومع مؤلّفى الثقافة الإسلامية
بصورة خاصة وقد وصف الأستاذ جبرى هذه الظاهرة من حياته بقوله :
« ليت الشباب من كتابنا رزقوا من الولع بالكتب والعكوف على المطالعة
والانقطاع إلى التأليف شيئاً مما رزقه أستاذنا الرئيس السيد محمد كرد على . فهو
إذا خلا إلى نفسه فلنما يخلو إلى كتبه ، وإذا اعتزل دمشق إلى ريفه فى الغوطة فلنما
يعتزلها ليصغى إلى أحاديث كتاب يجالسه إصغاءه إلى حفيف شجره وزقزقة
طيره وثغاء غنمه وخوار بقره ، فما عرفنا فى عصرنا من غلبت عليه محبة القراءة
وشغله الميل إلى التأليف مثل الأستاذ الرئيس فقد فتن بالكتب فتنة الجاحظ بها
فى القديم ، فأفضت به هذه الفتنة إلى الإكثار من التأليف ، حتى اشتهر بوفرة
الإنتاج » (٢) .

* * *

تميز أدب كرد على بالصفاء والوضوح ، وهو أدب مادته ، على الأكثر ،
التاريخ الإسلامى بشّى صوره ، والحضارة العربية بأزهى ألوانها ، وقد قرأ ما كتبه
القدامى قراءة فهم وتبصر ، - قرأ لأئمة البلاغة وأعلام الشعر فى جميع العصور
الأدبية ، وكان لممارسته الصحافة فترة طويلة وقراءة ما كتبه أعلام الغرب فى

(١) « المذكرات » ج ١ ص ٤ .

(٢) « مجلة المجمع العلمى العربى » ٢٦ ج ٢ ص ٢٢٨ .

الأدب والتاريخ والسياسة — كان لكل ذلك أثره في مرونة أسلوبه وقوة بيانه . .
فما من فكرة لكاتب قديم أو حديث ، عربي أو غربي ، إلا ناقشها ومحصلها وبحسبها
حتى إذا هضمها عرضها على قرائه بعد أن يكون قد ألبسها ثوباً زاهياً من جمال
أسلوبه .

* * *

لقد أشار شفيق جبري إلى هذا الأسلوب بقوله (١) :

« . . لقد اختمرت في صدره أساليب بلغاء العرب وأمراء الكلام ، فالأسلوب
الذي صورّبه جملة من تاريخنا وأخلاقنا وعاداتنا وطبائعنا واجتماعنا وأدبنا إنما هو
خلاصة أساليب عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ وابن عبد ربه من أئمة
الأدب ، والغزالي وابن خلدون وأصراهما من رجال الفلسفة والاجتماع والعمران .
اختمرت أساليب هذه الطبقة في ذهنه بعد ممارسة طويلة لمذاهب بيانهم وبعد
إعمال الرويّة في محاسن بلاغتهم ، وملء الفكر من روائع فهم ولغتهم ، فنشأ عن
هذا الاختمار أسلوب خاص بكرر على فيه آثار كثيرة من روح هذه الطبقة من
البلغاء الذين عاشهم وخالطهم كل حياته . وقد تناسقت هذه الآثار تناسقاً
بديعاً ، وانسجمت انسجماً غريباً بحيث تكاد تضيع علينا مصادرها ، فقد
تجتمعت في بعض الأحيان في أسلوب كرد على بلاغة الجاحظ وطبع ابن المقفع
وسهولة الغزالي وابن خلدون فتلحمت هذه الأمور كلها التحاماً محكمّاً متقناً
فلا تجد فيها إلا السهولة والبساطة . ومثلها في ذلك كمثل الشعاع من الشمس ،
فإننا إذا نظرنا إلى هذا الشعاع فلا نرى إلا لونه الأبيض ولكننا إذا رددناه إلى
أصوله وفككنا أجزائه اهتدينا إلى مختلف الألوان التي تؤلف الطيف الشمسي .
ولكن هذا البيان الرائع في أكثره قد عملت فيه عوامل ثابتة غير الذي ذكرناه
فلسنا نشك في أن عناية كرد على بمطالعة كثير من كتب الفرنجة كان لها أثر
كبير في أسلوبه ، فقد أعطته هذه الكتب في كثير من مواطن كلامه دقة في
التعبير ووضوحاً في التصوير ، فأضيفت هذه الخصائص إلى خصائص أعطته
إياها كتب البلغاء من العرب فازداد رونقها وعظمت روعتها » .

وبالرغم من ذلك يقول جبرى : « إن كرد على يرتفع فى بعض مواطن من كتاباته إلى منازل البلاغ المتقدمين ، ثم ينخفض إلى مراتب دون مراتبهم ، ثم تراه فى بعض الأحيان يساير الإخباريين فى الصحف الذين همهم رواية الأخبار على أى وجه كان ، فليس له نمط واحد فى الإنشاء ، ولكنه إذا ارتفع فى إنشائه بلغ من البلاغة كل مكان » (١) .

ومن نثره :

الشعوبيون والمدنية العربية

أنكر بعض الشعوبيين من أعداء العرب فضل المدنية العربية على العالم فى زمن العنجهيات القومية — أنكروا ذلك لما ضعف سلطان العرب فى الأرض ، وسخروا مما يقول به المنصفون منهم متى عدّ ما أورثته العرب للإنسانية ، وزعموا أن المدنية الغربية هى المدنية ، وما عداها فخطوط غير مرسومة على ما يجب ، وإن كان ثمة ما يسمى مدنية فهى مدنية الفراعنة والآشوريين والبابليين واليونانيين والرومانيين ، ذلك لأن المدنية العربية لم تنشأ فيها تماثيل ولا نصب ، ولم تثبت لها كفاءة عظيمة فى النقش والتصوير . . وهم على شئء من الحق فى دعواهم ، ذلك لأن العرب لم يولعوا كثيراً بالمحسوسات ، وليس فى حضارتهم من هذه ما يعتدّ به كثيراً بالقياس مثلاً إلى ما خلفه الرومان ، وذهب الغرض ببعضهم إلى أن قالوا إن المدنية العربية لم تأت بغير الضرر مع أن الغرب لم يعرف الرومان واليونان إلا من طريق العرب : كلام من يغتر بالقوة القاهرة ، ويحكم بالظواهر . من يعنيه الهوى الجنسى والنزعات السياسية . فما دام القائل لم يحس المدنية العربية ولم ترها عينه ، فهى إذاً غير موجودة ولا وجدت ! ومن يقول هذا من العبث أن نناقشه لنقنعه .

العرب لم يخلقوا آثاراً عظيمة كأهرام الفراعنة ، ولا قلاعاً ولا طرقاً وهياكل من النوع الذى خلقه الرومان . ذلك لأن شريعتهم حظرت السخرة ، وما أباحت

إشقاء لإنسان نسعادة غيره ، والرقيق الذى قام بيده معظم ما تراه من مصانع الأمم البائدة ، كان يعامل فى الإسلام معاملة الحر برحمة وشفقة ، حتى كان المولى يعد من أهل البيت الذى استرقه ، ودولة العرب لم تطل أيامها كما طالت أيام الفراعنة والعمالقة وعاد وثمود ويونان ، ولو عرف الناقدون هذا ، وقدروا الأمور فى موازين القسط ، لما وسعهم إلا الإعجاب بما تم فى زمن قليل من نهضة العرب ، ومن لا يقيس الأمور بمقياس الماديات لا يتحرّج من الاعتراف بأن العرب تجافوا كل التجافى عن إرهاب أحد ، فكانت مدنيّتهم شعبية ديمقراطية ، بعيدة ما أمكن عن منازع الزعامات الأرستوقراطية ، وكان من نتائج تعاليمها ، ومنها إكراه الأغنياء على إخراج زكاة أموالهم للفقراء ، إذا لم ينزلوا عن جزء منها برضاهم ، أن لم يعهد فى العرب اشتراكية ولا فوضوية ولا عدمية ، ولا ممولون كمولي الغرب يعملون الحرب ويعقدون الصلح ، ولا احتكارات كاحتكارات الغرب فى الصنائع والتجارة ، ولا هذا الشقاء الذى عم وطم ، وأهلك الحرث والنسل ، وقصاراه إفقار جماعات وإغناء أفراد^(١) .

الأسلوب العربى فى هذا العصر

قضت هذه اللغة فى الإسلام نحو نصف حياتها فى استعمال الأسجاع والجناسات فأوشكت أن تضع رشاقتها بهذه البدعة فى نسج كلامها ، وما زالت تهوى فتفسد ملكتها وتخرج عن طبيعتها حتى قيض لها آخر القرن الماضى من نسلها من سقطتها وعاد بها سيرتها الأولى من ترك التكلف والرجوع إلى الطبع . ورحنا نشهد كتابتها أشبه بكتابة القرن الرابع . ونرى شعراءها ينحون مناحى شعراء الحضارة فى العصر العباسى الأول والثانى ، ومن قرأ مقالة مما تنشره الصحف والمجلات أو فصلاً من تأليف حديث صدر من قلم رجل درس العربية دراسة نظامية أو قصيدة من قصائد المعاصرين ، يدرك بأدنى تأمل كيف أخذ الكتاب والشعراء يحسنون رصف البليغ ويقدّرون الألفاظ بقدر المعانى ، وكانوا

(١) « مصادر الثقافة العربية وتأثيرها فى الحضارة الحديثة » ص ٩٨ - ٩٩ .

إلى عهد قريب يصفون الألفاظ صفًا لا ينم عن ذوق ، ويكثر من المترادفات ليتألف معهم السجع والازدواج وتستقيم القافية والوزن . أى أن اللغة أضحت في النصف الثاني من القرن الأخير ورأس مالها ألفاظ لا يعرف مالكوها كيف يتصرفون بها . والألفاظ مهما تنوق في اختيارها لا تبرز في قالب مقبول إلا بجودة التركيب ، فالبلاغة في التركيب والفصاحة في تخير الألفاظ . ومهما حاول الكاتب إحسان القوالب لا يكون إلا إلى التفاهة إذا كان المعنى في ذاته مبتدلاً مطروحاً . والمعاني كما قال العارفون صوت العقل ، واللفظ صوغ اللسان^(١) .

يا نفس

يا نفس لا تغضبى ولا تعبى ، فقد عمرت طويلاً ومتعت كثيراً ، وفنت بحمال الوجوه وجلال الطبيعة ، وهمت بصنع الخالق والمخلوق ، واستكثرت من الخللان والمعارف ، وسعدت إذ كنت أقرب إلى التفاؤل من التشاؤم ، وإلى الرجاء أدنى من القنوط ، وإلى السرور أكثر من الغم ، وعشت في سلطان الرضا طيبة الطعمة لا يد لأحد عندك .

* * *

هنا عليك ما أنفقت في الضئيل من المعرفة التى كتب لك تحصيلها ، وكان استغراقك ساعة واحدة فيما ولعت به ، يوازى في نظرك أكثر المسرات والشهوات .

* * *

درجت على بغض الفوضى وحب النظام ، وآثرت ثورة الأفكار على ثورة السلاح ، ودققت في حساب يومك وغدك ، وأيقنت ألا مجد إلا من طريق المعرفة فأحرزت لك شهرة سميت وراءها لأول أمرك ، فلما بلغت ما أربى على رجائك رحت تزهدين فيما صرت إليه ، وتندمين على فترات ضاعت سدى وإن أكسبتك مرانة ومعرفة ، وأفادتك عبرة وتجربة .

* * *

(١) من مقال عنوانه « في الخدمة العربية » المذكرات ج ٤ ص ١٠٨٩ - ١٠٩٠ .

كان يلذك ما ينهال عليك من الضربات في تأييد حق وتقويم مائل ، حتى صار ذلك فيك خلقاً وجبلة ، وما عبأت بمن كانوا يحاولون التسلق إلى الشهرة بالخط منك ، وكنت تفرحين بما يتم إذا أسفر عن تحقيق شيء مما تنوهمين غناه .

* * *

علّمتك الأيام التحلم وما كنت حليلة ، وزينت لك اللين وكنت جامعة ، وأخذت من حوادث الدهر دروساً في الصبر والأناة بقدر ما سمح به مزاجك ، وما تقاضيت الناس ما لا يملكون ، وعذرت بعضهم على ما هم فيه ، وما كلفت الأيام ضد طباعها ، وما أحببت أن يستثمرك أحد ، وقلما أتيت شيئاً وندمت عليه ، وما حزنت لرزية في مال ولا جاه بقدر حزنك لفقد الحبيب وفراق الصديق ، وبخاصة إذا كان ممن خدموا العقل بعقلهم ، وشادوا للفضل قصور العز من فضلهم ، وكنت تتخلّين عن أصحابك في أفراحهم ولا تتركينهم في أتراحهم كأنك من إخوان الضراء لا إخوان السراء ، إذا أقبلت الدنيا على صاحب تبتعدن عنه ، وإن أدبرت تكثرين من مؤساته .

* * *

سخرت من المتجربين بالوطنية ، وأنحيت على المتأكلين بالدين ، وعبثت بالواغليين على الأدب ، وعبت المدجلين بالعلم ، وعند نفسك أنك لم تتجامل ولم تجامل ، وأنت أنصفت من انتقدت . وما تعمدت أذى من زيفت كلامه ، وخالفك في آرائه .

* * *

ومن يحاول تهجين المعتقدات ، والقضاء على الخرافات والثرهات لا يطرب صوته كل سامع . أنت أردت أن يجرى طليقاً من القيود الثقيلة ، وأصحاب الأهواء حبيب إليهم الجمود على قديمهم ، والاكتفاء بما ورثوه من آباءهم وجدودهم وما خطر ببالهم أن يعملوا أفكارهم في اقتباس الأصلح ، ولا أن يتعبوا أنفسهم في إدراك ما لم يسبق لهم معاناته .

* * *

كرهت يا نفس التعصب والعصبية ، وحاربت الجهل والامية ، وفضحت مذاهب الصوفية والباطنية ، ومقت الحزبية والجمعيات السرية ، وتفانيت في الدعوة إلى الاستقلال وحب القومية ، ودعوت جبهة للعرب والعربية ، وللإسلام والمدنية الغربية . خطة واسعة لو اقتضت فيها لحف ما حملته ، ولجاءت الثمرة أكثر جنئاً وألذّ طعاماً ، ولكن من الأمور ما لا تتجلى للبصائر أسرارها لأول نظرة ، وللأيام والبيئات حكمها ، والغيب عنك مستور^(١) .

سليم الجندى

١٨٨٠ - ١٩٥٥

علم من أعلام اللغة العربية وجهبذ من جهابذتها ، قضى شطراً كبيراً من حياته فى تدريس الأدب العربى فأفاد منه تلامذته ، وهم كثر . وبعضهم أدباء وشعراء - أفادوا جميعهم من معين ثقافته اللغوية فوائده جمة ، وحين يتحدثون عنه يتحدثون عن إمام مبرز فى ميدان اللغة وفنون الأدب .

ولد سنة ١٢٩٨ هـ « ١٨٨٠ م » فى معرة النعمان : بلد أبى العلاء ، وقد عاش طفولته يستمع من أبيه وذويه أقاصيص عجيبة عن ذكاء الشاعر الفيلسوف ، فنشأ وفى نفسه حب الأدب ، وحب هذا الإنسان الموهوب الذى ملأ الدنيا بفيض أدبه وشعاع عبقريته .

بعد أن أخذ بقسط وافر من علوم العربية انتقل مع أبيه من المعرة إلى دمشق فتوطئها ، وهو فى أول العقد الثالث من عمره . . وفى دمشق اجتذبت حلقته علماءها الأعلام وشيوخها الأجلاء فتلامذ عليهم ثم انصرف إلى نفسه يعيش بين كتب الأدب واللغة والمعاجم وما زال حتى ملك قياد اللغة وأصبح من المرموقين . فى هذه الفترة - أى عقب الحرب العالمية الكبرى حين تأسست الحكومة العربية فى العهد الفيصلى - كانت لغة أكثر الموظفين الذين عاشوا فى العهد التركى ضعيفة تغلب عليها الركاكة والعجمة ؛ فأخذت الحكومة تبحث عن كتاب يحسنون التعبير بلغة سليمة ليتولوا كتابة الرسائل الديوانية ، فوقع اختيارها على غير واحد من الأدباء الشباب كان بينهم سليم الجندى فشغل وظيفة منشىء فى ديوان الحاكم العام سنة ١٩١٨ ، وهى أولى الوظائف الحكومية التى عيّن فيها ، فجعل وكده تنقية لغة الديوان من العجمة وتقريبها ، إلى حد ما ، من لغة الدواوين فى العصر العباسى . وقد نيط به ، فى نفس الوقت ، التدريس فى « مدرسة الكتاب والمنشئين » ، وهى مدرسة أحدثت لموظفى الحكومة بغية إصلاح لغتهم فقام بالمهمة خير قيام :

وصدرت ، بعد تقلص الحكم العثماني ، جرائد كثيرة أخذت تعبّر عن الأحاسيس العربية والشعور القومي ، وكان بعض الكتاب ما زالوا يستعملون تعابير واصطلاحات تنأى عن الأساليب العربية الصحيحة ، فأخذ يقوم المعوجّ ويصحح الفاسد من لغة الجرائد بسلسلة مقالات جمعت في كتيب ، وقد خالف فيها آراء كل من الجهابذين اللغويين الشيخ إبراهيم اليازجي وقسطاكي الحمصي .

وإذ ظهر فضله بما كان ينشره في الصحف وعرف بشدة حرصه على لغة القرآن انتخب في سنة ١٩٢٢ عضواً في المجمع العلمي العربي ، وكانت تحيته لهذا التقدير خطاباً ألقاه في الحفل الذي أقيم لاستقباله عنوانه « إنعاش اللغة » فرأى « أن خير وسيلة تضمن إنعاشها وسيرها مع مدنية العصر الحاضر أن تنتج من شائبة العجمة والركاكة ، وألا يصار إلى الدخيل والعامي إلا عند العجز عما يراد فهما من الفصيح ، لأن التسامح في استعمالها يفضي إلى إفساد اللغة » (١) ، وكان الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع قد قدمه بخطاب مسهب ترجم فيه أطوار حياته . وأشار في هذا الخطاب إلى تعلمه على أبي العلاء فقال :

« . . إن صاحبنا لم يتخرّج في الأدب إلاّ بأبي العلاء ، تدارس شعره منذ كان طفلاً ، إلى أن صار الآن في الكهولة ، فأثر فيه أسلوبه ، وكانت مادته اللغوية مستمدة من تلك المادة المعربية المنقحة ، وكان في أكثر أيامه إذا اسودّت الدنيا في عينه قلب صفحتين من كلامه فتعزّى وتأسى » (٢) .

وقد أشار هو إلى هذا بقوله : « إذ يجمع بيننا وحدة الدين والوطن والجنس . وقد نتحد في الهوى والنزعات كثيراً ، وقد تخرّجت به في الشعر » .

وقد أصبح ، بعد انتخابه لعضوية المجمع — من الأعضاء العاملين في إنجاح أغراضه . وبدأ يكتب في مجلته خواطر نقدية تتعلق بصميم اللغة ، ثم عيّن مدرّساً للعربية في بعض المدارس الثانوية بدمشق ، وفي مدرسة الآداب العليا التي كانت نواة لكلية الآداب فألقى دروساً في النحو « على مستوى عالٍ من التعمق والتوسع » . ثم اقتصر على تدريس العربية في تجهيز دمشق فأفاد منه

(١) « مجلة المجمع العلمي العربي » مجلد ٨ ، ١٢ ص ٧٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٧١٣ .

طلابه ، فوائده جمة . وما زال حتى سنة ١٩٤٠ حيث أحيل على التقاعد ، فعهد إليه بإدارة الكلية الشرعية وظل قائماً بها حتى سنة ١٩٤٨ .
وصفه محام أديب تتلمذ عليه بقوله^(١) :

« لم أدرك شيخنا سليم الجندى رحمه الله ، بعمامته ولحيته ، فقد قيل إنه اعتمر بالعمامة أول نشأته وكانت له لحية خفيفة ، ثم استغنى عنها . وإنما أدركته (أفندياً) يلبس أنظر بوش والبزة الإفرنجية ، ولقد بقي سليم الجندى شيخاً ، بكل المعاني التي عرفناها ، اللغوية والاصطلاحية ، فهذا اللقب عرفه العرب لاجلة من العلماء الذين نشروا نور العلم ، فقالوا في كتبهم : ومن مشايخنا ، وعرف عن مشايخنا ، وأخذنا عن مشايخنا . . . »

* * *

كان أربعة بين الرجال ، لا إلى الطويل ولا إلى القصير ، يمشى الهويني ، خافت الصوت ، كثير الحذر ، يخاف الليل ، والبرد .
ولقد كان تاريخ آداب اللغة العربية المادة التي اختص في تدريسها ، لقنها للطلاب أجيالاً متعاقبة ، بأسلوب رتيب ، لا يكاد يتغير ، ينضح منه العلم الغزير ، والحفظ الوفير ، والإحاطة بالغريب ، والعمق في البحث ، واتساع الاطلاع ، فقد كان من أعلم علماء عصره بالكتب والرجال ، ولهذا كانت خاتمة درسه حافلة دوماً بثبت من الكتب ، يرشد الطلاب إليها ليرجعوا إلى ما فيها ، وليوسعوا دراساتهم في البحث الذي كان يقرره .

ووصف أحد زملائه المجمعين سجاياه الخلقية وآثاره الأدبية بقوله :

« كان لطيف المعاشرة ، ظريف التهكم ، حاضر النكتة ، بارع الحديث ، قوى الحججة ، جم التواضع ، نبيل الخلق ، وكان إلى ذلك نقادة للمجتمع والكتب ، لا يجيب سائله إلاّ بثبت ومراجعة ، فلا يلتقي الكلام على عواهنه ، وهذا شأن العلماء المحققين » .

وقد تخرج عاينه كثير من أدباء الشام وعلمائها ، وأحيا الكثير من شوارد

ألفاظ العربية ، واستحدث مصطلحات فصيحة تشدد حاجة العصر الحاضر إليها . وكتب لكثير منها الذبوع والانتشار .

وأولع بأبي العلاء المعرى وعكف على دراسة آثاره المعروفة كلها ، حتى أصبح حجة في فهم تصانيفه ، ولما أقام المجمع العلمى العربى مهرجان المعرى لمناسبة مرور ألف سنة على مولده قام بتحقيق « رسالة الملائكة » لأبى العلاء عن نطوطة وحيدة فى العالم موجودة فى دار الكتب الظاهرية ، وهذه الرسالة ثمينة جداً لا تقل عن « رسالة الغفران » فى الكثير من خصائصها وشواردها . ونشر كثيراً من الكتب التى قام بتأليفها وتحقيقها .

فمن الكتب التى حققها وصححها مع بعض إخوانه كتاب « معانى الشعر » لأبى عثمان الأشنادانى . .

وألف عدة رسائل قيمة عن « النابغة الذبباني » و « امرئ القيس » و « على ابن أبى طالب » و « ابن المقفع » . وعن « الكرم » و « الطرق » وكتاب « عدة الأديب » كما اشترك مع بعض أدباء الشام فى تأليف سلاسل من الكتب اختاروها من عيون تراثنا الأدبى ككتب « الطرف » و « المستظهر » : على أن كتبه التى لم تزل مخطوطة أكثر من التى نشرت ، ومن أجلها كتابه فى تاريخ المعرة (١) .

ونهجه فى التأليف عدم الخروج عما كتبه القدماء وما أبدوه من آراء ، فإذا عرض إلى أديب أو شاعر بالدرس رجع إلى ما جاء فى كتبنا القديمة فحشد كل ما كتب عنهما . وقد يفاضل بين رأى ورأى ، وقد ينقد ما جاء به عالم قديم ، فما يكاد ينقض رأيه حتى يعززه برأى آخر يأنس به ذوقه وتأنس به ثقافته اللغوية . لقد مرّ الأدب العربى خلال الفترات التى أعقبت الحرب العالمية الكبرى بأطوار مختلفة ، وظهرت دراسات على جانب خطير من التحليل لأدبنا القديم ، فكان الأستاذ الجندى ينظر إليها نظرة الحذر غير المطمئن ، ويرى فى المواد التى انتشرت فى كتبنا القديمة المواد الأساسية لمن يريد أن يكتب أو يؤلف ، ووصل به التزامه والتمسك بالمنقول إلى درجة أنه « كان لا يستسيغ لنفسه أن يستعمل كلمة

« التطور » مثلاً أو « الفنان » أو « الإنتاج » الأدبي أو « التحليل » العلمي لأن مثل هذه الألفاظ في رأيه غير مروية عن العرب وفي غيرها غنية عنها^(١) .

بهذا النهج كتب رسائله وكتبه ، وهي بمضمونها تصوره لنا شيخاً من شيوخ اللغة وأديباً واسع الاطلاع على أدبنا القديم ، عاش مع أئمة البلاغة وأساطين النحو طوال حياته فبلغ به الحب درجة الهوس . وقد أراد من تلامذته أن يسيروا سيره وأن ينهجوا نهجه فأفادوا من علمه وشذ كثير من عما ارتضاه لنفسه ففتحو أذهانهم لثقافة الغرب ومناهجه يروون ظمأهم منها ويعبون من معيها فجاروا النزعات الجديدة وزوجوا بين الطريقتين فلم يقفوا حيث أراد لهم أن يقفوا عند تخوم العربية دون أن يتخطوها ، فإذا ذكروه ذكروا أستاذاً جليلاً ربط بينهم وبين لغتهم المقدسة التي أحبوها وأصبحوا أداة نشر روائعها — فكان فضله عليهم غير منكور . .

لقد كان سليم الجندى — في بداية نهضتنا الأدبية — لبنة ضخمة في جدار الفصحى ، ومن يقرأه يعيش معه في أجواء عربية خالصة تبدأ من العصر الجاهلي وتنتهى بالعصر العباسي ، فهو أقرب إلى القداسي ، في أسلوبه ونهجه ، منه إلى الأدباء المحدثين .

* * *

وقد ترك بعد وفاته عدة كتب ورسائل لم تنشر ، أهمها كتابه الضخم عن أبي العلاء وآخر عن معرة النعمان ، وقد نشرهما المجمع العلمي العربي بدمشق .

أما كتابه عن أبي العلاء الذي تولى الدكتور عبد الهادي هاشم التعليق عليه والإشراف على طبعه فيعتبر أصدق مرجع لحياة أبي العلاء ، وكتبه ونزعاته وما كتب عنه في القديم والحديث . وهو وإن لم يكن دراسة منهجية فهو أشبه بموسوعة ضمت كل ما يتصل به وبالآراء المتباينة حوله من محبيه وخصومه . .

ففي إلماعه إلى دراسة طه حسين امتدح نهجه ثم أخذ عليه بعض المآخذ ، فن قوله بهذا الصدد :

« كتاب "ذكرى أبي العلاء" هو أفضل ما رأيته من الكتب التي تشتمل على

دراسة أبي العلاء ، وأحسنها تقسيماً وترتيباً للمباحث ، وأجمعها للنواحي التي تجب دراستها من آثار الأديب : وأكثرها استنباطاً للأحكام من كلام الشاعر والنائر . وقد جعل درس أبي العلاء في هذا الكتاب درساً لعصره ، واستنبط حياته مما أحاط به من المؤثرات ، واتخذ شخصية أبي العلاء مصدراً من مصادر البحث ، بعد أن وصل إلى تحقيقها وتعيينها .

والكتاب لا يخلو من أمور تنتقد على صاحبه منها : استنباطه من كلام أبي العلاء أحكاماً لا يدلّ عليها هذا الكلام ، ومنها بناؤه أحكاماً على شبه وأهية ، ومنها أنه إذا اعتقد في أبي العلاء شيئاً حاول أن يوجّه كلامه إلى ذلك الشيء ، وقد يظهر أثر التكلّف في ذلك . ونحو هذا من الأمور ، وقد بينا طرفاً منها في كتابنا هذا كما رأيت وكما ستري (١) .

* * *

وليس بدعاً أن تختلف وجهة نظره عن وجهة نظر طه حسين في تفسير بعض شعر أبي العلاء ولكل واحد ثقافته ونهجه — نهج قديم متزمت ونهج حديث منطلق — وبرغم هذا الاختلاف فقد اعتمد كل الاعتماد على آراء طه حسين وبحوثه التي اعتبرها أوفى ما كتب عن أبي العلاء . . — وهو الذي فتح أمام الباحثين الدراسات العلائقية على منهج جديد .

وكتاب الجندی « الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره » — وهو في ألى صفحة تقريباً أشبه بموسوعة عن حياة أبي العلاء ، وكتبه وشعره ونثره وفلسفته بحيث لم يترك كتاباً قديماً أو حديثاً إلا قرأه ولخصه وأبدى رأيه فيه فكان بحق من أوفى محبّي ابن بلدته الذي يعتبر بحق معجزة من مفاخر العقل العربي المتحرر .

نثر أبي العلاء

الشاعر أو الكاتب يستمدّ معانيه وأخيلته من فيض خاطره ، ومن وحي الطبيعة والبيئة التي تكتنفه ، ويحتذى أسلوبه على مثال الزمن الذي يُظَلّه ، وإذا رزق حظاً من العبقرية والنبوغ ، شقّ لنفسه طريقاً جديداً ، ولكنه لا يستطيع أن يتجرد من هذه المؤثرات ، ولا أن يبتعد عنها كل البعد ، مهما حاول ذلك . وقد ترك أبو العلاء لنا آثاراً نثرية ، وآثاراً شعرية ، طبع في كل منهما على غرار عصره ، واتخذ لنفسه في كل منهما طريقاً طريفاً ، ومنهجاً مبتكراً . ولكنه لم يستطع أن يتجرد عن تأثير البيئة والزمن ، فجاء أسلوبه جامعاً بين القديم المتبع ، والحديث المبتدع ، وقد أردنا أن نبين طريقتيه ، ونذكر خصائصها ونواحي التجديد فيها ، وما يتوقف على ذلك ، وما يتوقف ذلك عليه ، ليسهل على الدارس معرفتها بوضوح واختصار . ولما كان النثر مقدماً في الوجود على النظم ، قدمنا الكلام فيه كما ترى .

* * *

ظهر أبو العلاء بعد منتصف القرن الرابع للهجرة ، وهو الزمن الذي انتهت فيه ترجمة علوم اليونان ، وحكم الهند ، وآداب الفرس ، ونضج فيه العقل العربي ، واستيقظت فيه أفكار الأمة ، وزخرت بحور العلم والأدب ، ونزع الكتاب والشعراء إلى الترف الأدبي ، والتنافس في التأنق والزخرفة . حتى يكاد الإنسان يظن أن كل كتاب أو قصيدة معرض يبين فيه صاحبه ما لديه من براعة وقدرة ، ويظهر ما عنده من حذق ولباقة .

وكانت جمهرة الكتاب فيه تسير في صناعة الإنشاء على الطريقة التي ارتضاها أعلام الكتاب في ذلك العهد كابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ، وأبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ، والصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وبديع الزمان أحمد بن الحسين الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

وأشباههم ، وإنما استعذبوا هذه الطريقة لما فيها من الطرافة والوشى والتنميق والأخيلة ، ولأنها كما قيل : شعر لا ينقصه إلاّ الوزن .
وقد حاول أبو العلاء أن يقتنى أثر هؤلاء ، ولكن غزارة علمه وحدة ذهنه ، وسعة خياله ، اضطرتّه أن لا يتقيّد بهذه الطريقة من كل وجه ، وقد جشّم نفسه عناءً كبيراً ، وألزمها ما لا يلزمها من جراء ذلك .
وإليك بيان أسلوبه في نثره ، وخصائصه ، وما اشتمل عليه من الأغراض والمقاصد ، وما تضمنته من الصناعات البديعية والمسائل العلمية وغيرها^(١) . .

* * *

الخلاصة :

يسوغ لنا بعد ما تقدم أن نقول : إن أبا العلاء لم يقلد ابن المقفع ، ولا الجاحظ ، ولا ابن العميد في نثره ، ولم يتقيّد بطريقة واحدة ، وإنما اختار طريقة تخيّر لها من كل طريقة ما أحب ، فطريقته جامعة لمعظم ما في تلك الطرائق وقد تزيد عليها ، ويسوغ لنا أن نقول : إنه مجدّد في نثره في نواح متعددة : كما ذكرنا ذلك في مواضعه . .

عيوب نثره :

لا يكاد يجد الباحث في نثره ما يعاب به ، إلا تكلف السجع ، واستعمال كثير من الكلمات التي يقل تداولها ، على أن السجع كان مرغوباً فيه في ذلك العصر ، وإن كثيراً من الألفاظ التي نعوّدها اليوم غريبة بالنسبة إلينا لم يكن غريباً في عصره ، زر قدّر لنا الاطلاع على جميع نثره لرأينا فيه صنوفاً من الأدب الساحر ، والعلم الزاخر ، والبراعة الرائعة ، والخيال الحبيب .

(١) لم نثبت الشواهد التي أوردها الأستاذ الجندى ، وهي بحث مطول بلغت صفحاته قرابة المائة صفحة من كتابه « الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره » ج ٢ ص ٨٠٦ ويمكن لمن يريد متابعة الموضوع الرجوع إليها .

الشيخ بدر الدين النعساني

١٨٨١ - ١٩٤٣ م

١٢٩٨ - ١٣٦٢ هـ

أديب زاخر المعرفة ، متمكن من أسرار اللغة العربية والغوص على دقائقها ..
ولد في حلب سنة ١٢٩٨ هـ - ١٨٨١ م ونشأ في محيط لم يتسع لما آتاه الله
من ذكاء وألمعية . فما كاد يبلغ العقد الثالث من عمره حتى سافر إلى مصر ينشد
علوم اللغة والدين من الأزهر ، فأقام ثمانى سنين « ١٣١٠ - ١٣١٩ هـ » انضم
خلالها إلى حلقة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ثم قام برحلة إلى الهند سنة
١٣١٩ هـ لم يلبث فيها ، فبعد أن مكث سنة ونصف سنة عاد إلى مصر ... وما كاد
يتم دراسته في الأزهر الشريف حتى التفت إلى تصحيح الكتب القديمة ، وإذ عرف
بين أقرانه بقوة البيان وقدرته على التعبير عن النزعات الإصلاحية التفت إليه الشيخ
على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » فضمه إلى أسرة التحرير . وكان من محرريها
غير واحد من بلغاء الكتاب في طليعتهم الأساتذة أحمد حافظ عوض ، محمد
مسعود ، محمد كرد على ، الشيخ عبد القادر المغربي ، سليم سركيس وغيرهم وغيرهم .
وكانت مقالاته في النقد الاجتماعي تقوم على تطهير المجتمع من الأدران
والأوشاب ، كما كان صاحب رسالة في تنقية جوهر الدين من ضلالات الحشويين
محتذياً في نهجه رسالة الأستاذ الإمام .

وظلّ ، إلى عمله الصحفي ، يصحح الكتب القديمة ، وقد تهافت عليه الناشرون
يعتمدونه في تصحيح بعض الكتب قبل نشرها . وقد مكنته هذه المهمة أن يقرأ
الكثير من الذخائر وأن يعيد قراءتها أكثر من مرة حتى أصبح ، إلى ثقافته الأدبية ،
من المبرزين في فهم النصوص القديمة وشرحها . وبما صححه ونشره بعد أن شرح
غريبه ديوان زهير ، وشواهد المفصل للزحشرى وذيله ، والمعلقات العشر ، والحیوان
للجاحظ . وساعد في تأليف « منجم العمران » وهو ذيل « معجم البلدان » . كما
شرح مفضليات الضبي .

بعد أن مكث في مصر بضعة سنوات سافر إلى تونس والجزائر وطرابلس الغرب سنة ١٣٢٦ هـ وقد أحب تونس وظلّ مدة يدرّس ويكتب ، وكان موضع حفاوة التونسيين . . . وما زال حتى قبيل الحرب العالمية الكبرى حيث عاد إلى حلب وقد كلّف بتدريس الأدب العربي في المدرسة السلطانية - التجهيز . ثم ناطت به الحكومة العثمانية تحرير جريدة « الشرق » التي كانت تنطق بلسان السفاح أحمد جمال باشا فاشترك مع محمد كرد علي والأمير شكيب أرسلان والشيخ عبد القادر المغربي في تحريرها ، ثم انتدب من قبل السفاح أيضاً لرياسة تحرير جريدة « الحجاز » التي أمر بإصدارها في المدينة المنورة لتبرير سياسة الدولة العثمانية ضد الملك حسين ، وكانت افتتاحيات الجريدة تجريحاً لسياسته بعد ثورته الكبرى على الترك .

وكان النعساني « عثمانى الهوى » ، وكان يرى في ثورة الحسين مؤامرة إنكليزية للقضاء على الخلافة الإسلامية والسيطرة على البلاد العربية .

ومن قصيدة له في مدح جمال باشا قوله :

لئن أكثر المدّاح فيك القصائد فما بلغوا في الألف من ذاك واحدا

ومنها :

| | |
|-------------------------------|----------------------------------|
| رمى الله منك الإنكليز بصارم | صقيل يقدّ الهندواني عامدا |
| عثوا وأبوا إلا لقاءك في الوغى | أراهم بما راموه منك حصائدا |
| أقاموا على شطّ القنال معاقلاً | ستبقى لهم يوم اللقاء مصائدا |
| قطعت إليهم بالجبوش مفاوزاً | بها الصرصر النكباء تشكو الجلامدا |
| لقد عزّ جيش كنت فيه رئيسه | وعزّت جموع كنت فيهن رائدا |
| فلم أر مثل اليوم أرفع همّة | وأعظم آثاراً وأكثر حاشدا |
| رأطهر أخلاقاً وأصفى سريرة | وأنجب مولوداً وأكرم ولدا |
| وقفتُ على عليك فيض يراعى | ونفسي وفكري والقوافي الشواردا |

وبعد أن مكث ستة أشهر في المدينة المنورة رجع إلى دمشق ليتابع عمله في

تحرير جريدة « الشرق » وما زال إلى أن وضعت الحرب أوزارها وجلا الأتراك عن سورية فعاد إلى حلب ملتزماً بيته .

وحين تأسس « المجمع العلمي العربي » في دمشق ، رشحه الأستاذ كرد على لعضويته فكان من أوائل الأدباء الذين أجمع الرأي على انتخابهم . . وتابع عمله في تجهيز حلب وفي مدرسة « اللابيك » يدرس الأدب العربي ، يكتب في الصحف مقالات لاذعة بتوقيع « أنى فراس » طابعها النقد الاجتماعي ونقد السياسة المحلية . . من كتبه : الجزء الأول من كتاب « التعليم والإرشاد » ، و « شرح أسماء أهل بدر وأحد » و « القواعد الجلية في دروس اللغة العربية » . وهو في جزأين ، و « نهاية الأرب في شرح معلقات العرب » .

وله شعر قليل لم يجمع ، وشعره قوى السبك رصين . . .

فن شعره قصيدة نظمها سنة ١٩٢٧ في أمير الشعراء أحمد شوقي حين احتفلت الأقطار العربية بتكريمه ، وهذه بعض مقاطع منها :

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| بنى مصر فديتكم بنفسى | وذلك كل ما تحوى اليدان |
| غبرت بأرضكم زمناً طويلاً | قليل البث ، موفور الأمانى |
| أروح وأغندى طلق الحياً | كأنى من زمانى فى أمان |
| وفوق مهادكم نشزت عظامى | وتحت سمائككم طالت بنانى |
| ومنكم كل ما أوعى فؤادى | وعنكم كل ما أحصى لسانى |

ومنها :

| | |
|--------------------------------------|---------------------------|
| زعيمكم ^(١) له الأرواح ملك | وشاعركم له ملك المعانى |
| أتاه عصيته يسعى إليه | ذلول الرأس ، منقاد العنان |
| تخير خيرها شرفاً وقدرأ | وأودعها ثنيات المباني |
| رأيت بعينه البوسفور حقاً | بما يحويه من آى حسان |
| ومذ أبصرته بعيون نفسى | إذ البوسفور كان كما أرانى |
| فما أبصرت وصافاً كشوقى | ولا بصرت بذلك مقتلان |

إذا وصف الجنان نعمت فيها وضقت من الشقاء بما تعاني
فما المرأة أصدق منه نعتاً ولا أقوى على حفظ الكيان
تريك ظواهيراً ويريك عيناً بواطن ليس تدرك بالعيان
فإن باهت به مصر سواها فقد باهت به لغة القران
وإن طعنوا عليه فغير بدع فقد طعنوا على السبع المثاني
وتلك طبيعة الإنسان قدماً طعون باللسان وبالسنان

وكان النعساني ، الأديب الناقد ، في طليعة الطاعنين باللسان والقلم . والقلم
أحد طعناً من السنان :

ساطع الحصرى

١٨٨٠

من الأمانة لتاريخنا الأدبي المعاصر أن نؤرخ لهذا الرجل . . وقد يقول قائل : ما لك تسلكه في عداد الأدباء وهو غير أديب ، وغير شاعر . . نعم ، قد لا يكون ساطع الحصرى أديباً من الأدباء الذين عرفوا بإشراق البيان وجزالة الأسلوب ، ولا سيما وقد عاش حياته العلمية الأولى في بيئة تركية . . وأكثر من هذا أنه حين تقلص حكم الأتراك عن الديار العربية ، وجاء إلى سورية سنة ١٩١٩ كان لا يحسن العربية ويكتبها بصعوبة فعكف على دراستها بجدّ واهتمام . وما زال حتى استطاع أن يعبر عن آرائه بلغة تسودها العجمة والركاكة أحياناً إلى أن حسن بيانه ، وأصبح يعبر عن آرائه بكثير من السهولة والوضوح — هذا الباحث الذى تجاوزت حياته ، مع حياتنا الفكرية بشتى ظواهرها قد لا تنطبق عليه صفة الأديب بمدلولها العميق . . ولا أنكر أنى ترددت في أن أسلكه معهم . . ثم قلت إن الرجل قد ساهم مساهمة فعّالة في حركاتنا الفكرية ، ولا سيما التى لها صلة بالناحية القومية : وتاريخنا الأدبي ، كما هو معروف ، ذو ارتباط وثيق بتاريخنا القومى . . وكلاهما يتمم بعضهما بعضاً . . ثم إنه أوسع من كتب في القومية العربية بل يكاد يكون مؤرخها ، وفيلسوفها الذى لم يشغله شىء ، بقدر ما شغلته هذه القومية التى كتب عنها أكثر من مائة بحث اشتملها أكثر من كتاب واحد من كتبه . .

وهو إلى كل ذلك من بناء النهضة التعليمية الكبرى في سورية . لكل هذا . . كان من الواجب بل من الأمانة لتاريخنا الأدبي أن نسلكه في عداد من نترجم لهم .

* * *

إنه حلبي الأصل ، يحنى المولد . .

كان أبوه السيد محمد هلال الحصرى من رجال العلم ، درس في الأزهر ونال

إجازته العلمية . . . وعقب عودته إلى حلب عين قاضياً في الباب ، ثم في دير الزور ، ثم في حماة . . . ثم عين رئيساً لمحكمة الاستئناف في المين . . . وفي صنعاء اليمن ولد ساطع الحصري . . .

وقد تنقل مع أبيه ، وهو طفل من صنعاء إلى آتنة ، إلى أنقرة ، ثم إلى طرابلس الغرب ، ثم عاد إلى المين ثانية ، ومنها إلى قونية فطرابلس الغرب حيث عين فيها رئيساً لمحكمة استئناف الجزاء . . .

كان ساطع الحصري قد ترعرع ونما خلال هذه الفترات التي تقاذفت طفولته فدخل القسم الإعدادي في المدرسة الملكية في الآستانة وانقطع عن التجوال مع والده .

وفي سنة ١٣١٦ هـ « ١٩٠٠ م » تخرج من المدرسة الملكية وقد اختار سلك التعليم فعين معلماً لتدريس العلوم الطبيعية في « يانيا » التي أصبحت جزءاً من بلاد اليونان . . . وقد بقي هناك خمس سنوات ، ثم انتقل من التعليم إلى الإدارة ، فعين قائماً على قضاء راويشنة التابع لولاية قوصوه ، وهي اليوم جزء من بلغاريا ، ومن هناك إلى قائمقامية فلورينا التابعة لولاية مناستر . . . وهي بالقرب من الحدود الفاصلة بين يوغوسلافيا واليونان . . .

وقد عمل ، وهو في سلك الإدارة مع الشباب الذين أعلنوا نزعاتهم الثورية ضد السلطان عبد الحميد ، فكتب وخطب ، وكانت مناستر مركز الحركة الفعلية لثورة سنة ١٩٠٨ .

بعد إعلان الدستور ترك السلك الإداري وانتقل إلى سلك التعليم فعين في المدرسة الملكية التي تخرج منها لتدريس « علم الأقسام » وتدريس « فن التربية » في دار الفنون وفي مدرسة « دار الخلافة العلمية » . كما تولى مديرية دار المعلمين عقب إخماد الحركة الرجعية وخلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ . . .

* * *

ثم تولى تنسيق وإصلاح « دار الشفقة » . . . وفي بداية الحرب العالمية الأولى أسس مدرسة خاصة أسمها « المدرسة الحديثة » أنشأ فيها فرعاً للأطفال ، سماه « عش الطفولة » وفرعاً آخر لتخريج معلمات لرياض الأطفال سماه « دار المربيات » . . .

عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى وجلاء الأتراك عن البلاد العربية ترك الآستانة وجاء إلى سورية ليساهم في خدمة وطنه ، فعين في مديرية المعارف ، ثم وزيراً للمعارف في عهد الملك فيصل . . ولما تقلّص الحكم العربي بدخول الإفرنسيين سافر مع الملك فيصل إلى أوروبا . . .

وحين تولى عرش العراق استدعاه فشغل عدة مناصب في سلك التعليم وعمل على النهوض بمعارف العراق . . ثم تولى رئاسة كلية الحقوق ، فمديرية الآثار القديمة حيث عني بآثار العراق والآثار العربية بصورة خاصة . . وظل فيها مدة عشرين عاماً . . .

ثم جاء سورية فعين مستشاراً فنياً لوزارة المعارف مدة ثلاث سنوات أدخل خلالها تغييراً كبيراً في مناهج التعليم . .

ومن سورية إلى مصر حيث عين أستاذاً محاضراً في معهد التربية العالي للمعلمين . . ثم عهد إليه بمستشارية الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، وكان ذلك حتى سنة ١٩٥١ ، ثم مديراً لمعهد الدراسات العربية العالمية في مصر - وهو من مؤسسيه - وقد ترك مديرية هذا المعهد واكتفى بالتدريس وإلقاء المحاضرات .

كانت نشأته الدراسية ذات اتصال بالعلوم الطبيعية ، وقد اشتغل عدة سنوات بتحنيط الحيوانات وبتبويض النباتات . . ثم مال إلى دراسة الفلسفة ولا سيما الأبحاث المتعلقة بأفاعيل الجهاز العصبي . . وهذه الدراسات هي التي أوصلته إلى الاهتمام بعلم النفس ، وهذا بدوره أوصله إلى فن التربية الذي أصبح شغله الشاغل فيما بعد . . .

واهتمامه بعلم التربية هو الذي حمّله أيضاً على الاهتمام بعلم الاجتماع وبالنقد التاريخي . .

عمل في الصحافة العلمية فأصدر وهو في إستانبول مجلة باسم « أنوار العلوم » وعندما تولى شؤون التربية والتعليم أسس مجلة « التدريسات الابتدائية » . . ثم أصدر مجلة « التربية » .

زار أوروبا أكثر من مرة . . وقضى فترات من حياته في سويسرة وفرنسا

وإنكلترا وبلجيكا وألمانيا والنمسا ورومانيا وإيطاليا وهولندا للاستطلاع تارة ولدرس أحدث مناهج التربية تارة أخرى . . وحضور المؤتمرات الدولية أحيانا . . .
وقد سافر إلى إسبانيا لزيارة معالم الأندلس ، وكان ذلك سنة ١٩٢٦ . .
ومن هناك إلى شمالي إفريقيا فزار مراكش والجزائر وتونس ، ثم صقلية
لدرس الآثار العربية وكان ذلك سنة ١٩٣٩ . . .

* * *

هذه خطوات سريعة عن ساطع الحصرى ، العربي المفكر الباحث الذى تأرجحت حياته بين سلك الإدارة وسلك التعليم . كان فى جميع مراحل حياته ينزع نزعات جديدة حرة لتهيئة عقول النشء وصبها فى قوالب جديدة لتساير التطور فى أوسع معانيه . وقد اقتضت جهوده فى وطنه العربى على النهوض بالمستوى التعليمى وربط أجزاء البلاد العربية عن طريق مناهج التدريس فى وحدة شاملة . . ووفق فى ذلك بعض التوفيق ، وله تلامذة ينهجون نهجه ويرون فى تحقيق تعاليمه ما يمهد لخلق إمبراطورية عربية كبرى .

* * *

أصدر خلال حياته الفكرية أكثر من عشرين كتاباً تدور كلها حول اتجاهات التعليم وتوحيد المناهج فى البلاد العربية ، إلى قضايا القومية بمفهومها الشامل . ولا سيما « القومية العربية » التى أولاها الكثير من اهتمامه ودراساته .
وفما يلى إلماع إلى هذه الكتب :

١ - دراسات عن مقدمة ابن خلدون . . وهو فى جزأين نيفت صفحاته على الخمسمائة صفحة ، عرض فيه عرضاً شاملاً نظريات ابن خلدون فى علم الاجتماع وفلسفة التاريخ على ضوء أحدث نظريات رجالات الفكر الأوروبى وفلاسفته . ويتميز كتابه هذا بجدة البحث وعمق التفكير ، وربما كانت دراساته هذه أوفى دراسة علمية صدرت فى العربية عن هذا المفكر العربى الكبير .

٢ - نقد تقرير لجنة مونرو « عن معارف العراق » .

٣ - الإحصاء « محاضرات عن علم الإحصاء » .

٤ - تقارير عن إصلاح المعارف فى سورية .

- ٥ - تقارير عن أحوال المعارف في سورية .
- ٦ - يوم ميسلون .
- ٧ - صفحات من الماضي القريب .
- ٨ - أصول التدريس - تدريس اللغة العربية .
- ٩ - أصول التدريس - الأصول العامة .
- ١٠ - حولية الثقافة العربية « خمس سنوات » وهي أصدق مرجع عن شئون التربية والتعليم في جميع البلدان العربية .
- ١١ - محاضرات نشوء الفكرة القومية - وقد أُلقيت في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة بدعوة من كلية الآداب بجامعة القاهرة .
- ١٢ - آراء وأحاديث في التربية والتعليم .
- ١٣ - آراء وأحاديث في الوطنية والقومية .
- ١٤ - آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة .
- ١٥ - آراء في التاريخ والاجتماع .
- ١٦ - آراء في القومية العربية .
- ١٧ - العروبة أولاً .
- ١٨ - البلاد العربية والدولة العثمانية .
- ١٩ - دفاع عن العروبة .
- ٢٠ - آراء وأحاديث في اللغة والأدب .
- ٢١ - العروبة بين دعائها ومعارضها .
- ٢٢ - ما هي القومية ؟
- ٢٣ - حول القومية العربية .
- ٢٤ - ثقافتنا في جامعة الدول العربية .
- ٢٥ - أبحاث مختارة في القومية العربية .
- ٢٦ - المذكرات .

إلى كتب غيرها في طريقها إلى المطبعة وأكثرها يدور حول القومية العربية - الموضوع الذي شغله ، بعد شئون التعليم ، أكثر من كل موضوع آخر ، فكتب فيه المطولات حتى اعتبر في نظر الكثيرين فيلسوف القومية العربية ومؤرخها الكبير .

محمد البزم

١٨٨٧ - ١٩٥٥

عرفت سورية في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الكبرى طائفة من الشعراء يمثلون مدرسة خاصة في قول الشعر - المدرسة التي تعنى عناية بالغة بالمبنى ، أى بالصياغة ، ورأيهم أن المعنى مهما كان حسناً لا يأخذ بالقلب ولا يهزّ النفس ولا يثير الشعور إذا لم يفرغه صاحبه في قالب حسن . وإذا قالوا بالخروج على المتقدمين في معانيهم فلا يقولون بالخروج عليهم في أساليبهم . . وشعراء هذه المدرسة هم محمد البزم ، شفيق جبري ، خليل مردم بك ، خير الدين الزركلي ، بدوى الجبل . وقد ساروا على نفس النهج الذي سار عليه البارودي وشوقي وحافظ إبراهيم وعلى الجارم . .

الصياغة أولاً . .

ثم تأتي الفكرة في تضاعيف الكلام .

وربما كان محمد البزم أكثر زملائه عناية بالصياغة . .

ومرد ذلك أن ثقافته عربية لا تمتّ إلى ثقافة الغرب بصلة . .

فهو ينهل من معين العربية الصافي ، وهو بدوى العاطفة ، جاهلي الخيال - إن صح هذا التعبير ، وإنه ليحلوه له ، على ما يعتقد البعض : أن يسمع هذه الصفات يرددها الأدباء والنقاد عنه ، وكأن ذلك توكيد لعروبتة التي تغنى بها أجمل غناء . . وهو أطول شعراء دمشق نفساً ، فأقل قصائده الكبرى تقارب المائة بيت . وهو حريص على لغته كل الحرص . وكثيراً ما يلجأ إلى غريب الألفاظ حتى لتحسب أنك تقرأ لشاعر مخضرم . . وهو في قصائده الحماسية أشبه بفارس قد استلّ ربحه في قلب الصحراء وأخذ يشد شعراً فيه فتوة العرب الأقدمين . . فإذا دعا الأمة العربية أن تنهض وتتحد ، وأن تكون قوية متماسكة جاءها بأمثلة عربية من الوقائع القبلية الجاهلية - من جديس وطسم . من عاد وجرحم ، من غسان وحميز .

ومحمد البزم كأحمد محرم الشاعر المصري . . فهما صنوان في النهج والطريقة والأسلوب ، فإن اختلفا في الميل والهوى . . فشعر أحمد محرم مصري إسلامي ، ومحمد البزم عربي شامي . . والعربية والإسلام شيان يتمم بعضهما بعضاً في ميدان العربية الفسيح .

ولد شاعرنا في أواخر عام ١٣٠٦ هـ الموافق لسنة ١٨٨٧م في دمشق . . وكان والده يحترف التجارة وعليها شبّ ثم هجرها حتى إذا قاربت سنه العشرين لم يعرف من القراءة إلا بعض سور قصار من القرآن ونزراً من الآي التي يكثر جريها على الألسنة مما لقنه عند « الخوجة » معلمة الأطفال .

أول كتاب أدبي عرفه - غير أقاصيص وسير كان يسمر بها ليالي الشتاء - كتاب المستطرف للأبشيبي ، فأكب عليه بالمطالعة وكان باكورة عدته الأدبية .

وظل هكذا إلى أن قرر دراسة العربية وفنونها فبدأ هو وخير الدين الزركلي ينتابان حلقات شيوخ الفيحاء وعلمائها فقرأ على العلامة الشيخ عبد القادر بدران شيئاً من ديوان المتنبي ونحواً من مغني اللبيب لابن هشام وصوراً من دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني وكتباً في الأصول ثم اتصلا بناطقة علماء دمشق العاملين وأحد أفذاذها المشهورين السيد جمال الدين القاسمي فقرأ عليه كتباً في العربية والبلاغة والمنطق كما قرأ كتباً في علمي الكلام والمنطق وأخرى في العربية والأصول على أحد علماء تونس وكان قد هبط دمشق وهو المقوه اللسن السيد صالح التونسي . . .

ثم انصرف إلى المطالعة بنفسه ، ويحدثنا البزم عن نشأته الشعرية بقوله :
« أول ما نظمت من الشعر الموزون بيتان وصفت بهما نفسي وقد أغراني
أحد الرفاق فجرعت من الخمر ما قدّرت به عشرين درهماً فخيّل لي أن الأرض
تهوى بي صعداً فقلت :

شربت من الصهباء عشرين درهماً فخيّل لي أنني صعدت إلى السما
وصافحني المريح والبدر قال لي ألاعم صباحاً أيها الخلدن واسلما
ومن ثمة أخذت أرمي الصحف بقصائد ومقطوعات قومية من حض العرب

على النهوض من إغفائهم والمطالبة بحقوقهم المنصوبة بيد الترك ما لم أزل أقرع وتره وأجرى على نعمته حتى اليوم ، وإلى أن تقدر لى الرحلة إلى عالم التحول المعبر عنها بالموت والفناء . .

شجعتنى على متابعة النشر ما كانت تلقاه تلك القصائد من الخطوة عند ذوى الخبرة بالأدب والشعر ، غير أن أمد ذلك لم يطل كثيراً حتى شهر الترك النفير العام فكمت الأفواه . واشتدت الرقبة ، وأصلت السيف فوق أعناق الأحرار من العرب ، ومشت الحشية فى النفوس ، ودب الذعر فى أشد القلوب وأقوى الأفئدة ، ولم يعد أحد يجرؤ على القول فى جهر ولا سر لكثرة ما بث من العيون وانتشر من الجواسيس فكنت كلما قرضت شيئاً فيه ذكر العرب وما يقاسونه من إرهاب الترك وخشونتهم دسسته إلى والدتى ورجوتها أن تبالغ فى إخفائه والحرص عليه حتى اجتمع لديها من ذلك طائفة صالحة . . .

وعندما جلا الترك وطلبتها منها فنتشت ولكن تفتيشها ذهب سدى وبقي لدى من الحسرة عليها ما يجده من أضاع ما قرضه فى سنين ثلاث فى ثانية واحدة . قصارى ما يقال عن حياتى العامة أن حرفة الأدب قد أدركتني قبل أن أدركها أو أسمع بها ، فقد لقيت منذ الصغر من إلحاح المصائب ، وولع بنات الدهر بى ما ولد فى نفسى كرهاً للحياة ونفرة من أكثر أبنائها فلم تبد لى إلا شمطاء جهمة الطلعة ، عبوس الوجه ، مكروهة الشم والتقبيل .
فن لى بأرض رجة لا يحلها سوى تضاهاى دارة المتقارب »

* * *

وقد امتن البزم خلال حياته تدريس اللغة العربية فى مدارس دمشق الثانوية فظهر فضله وتضلعه فى النحو وفنون الأدب .

واستفاد منه تلاميذه الكثيرون مدة طويلة تزيد على عشرين سنة . ونظم فى أغراض متعددة أهمها قصائده القومية ، وقد يلتزم فى شعره ما لا يلزم جريباً على طريقة أبى العلاء المعرى فى اللزوميات . وله شعر فى معان طريفة منها قصيدة فى الشطرنج وأخرى فى الشتاء .

وكان واسع المعرفة فى اللغة ، حسن التحقيق ، صحيح الذوق ، تسهويه

الجزالة ، وتعجبه الرصانة ، وهو واسع الرواية ، كثير المحفوظ من الشعر والنثر والحكم والأمثال والأجوبة المسكتة وأخبار العرب - شعرائهم وخطبائهم ، ونصائحهم ، فإذا تحدث في هذا الشأن أسهب وأطال وأتى بالمفيد الممتع ، وقد حبيب إليه النحو فتعمق في درسه واطلع على مذاهبه ، وكان له رأى في نصره بعض المذاهب وترجيح بعض الأقوال كما كان له رأى خاص في طريقة تدريسه .

وكان يتهم الفيروزابادى بالشعوبية في اللغة ويتعصب لابن منظور ؛ من كتبه « كلمات في شعراء دمشق » وهى رسالة نشرها متتابعة في جريدة « الميزان » الدمشقية (أغسطس ، سبتمبر ١٩٢٥) وكتاب على نسق « رسالة الغفران » لم يبيضه ولم ينته سماه « الجحيم » يقول صديقه الأستاذ خير الدين الزركلى صاحب الأعلام إنه في نقد أئمة من النحاة واللغويين .

انتخبه المجمع عضواً عاملاً سنة ١٩٤٢ وعهد إليه في بعض الشؤون اللغوية كالنظر في بعض المعاجم والمصطلحات التى عرضت على المجمع ؛ وقد ألحت عليه الأمراض منذ أكثر من ثلاث سنوات فانقطع عن العمل وأقام في المستشفى العسكرى بالمزة حتى وافاه الأجل صبيحة يوم الاثنين الثانى عشر من أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥ وهو فى عشر السبعين من عمره^(١)

وتولّى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية طبع ديوانه بعد وفاته ، فصدر فى جزأين تجاوزت صفحتاهما الخمسمائة صفحة ، وتضمن الجزء الأول قصائد فى شئون الوطن العربى والإلهيات والرتاء والأدب والقوميات أما الثانى فضمّ "مقطوعات متفرقة وأغاريد .

ون شعره :

قوانع المصدر

وتعطر أصناف البلايا سحائبه
تروح بسعد أو بنحس كواكبه
ويعدو علينا صرفه فنوائبه
بقايا خميس أسلمته كتابه
مواخر يمّ طاميات غواربه
فيلهو بنا في ذمة الدهر عائبه
لياليه بالنعماء لسنا نعاتبه

دع الدهر تنمو بالرزايا مصائبه
فما الدهر إلا مرّ يوم وليلة
تطاردنا خيل الزمان بلا وفي
تقارعنا الأيام حتى كأننا
وتحبو إلينا الحادثات كأنها
وتسعى خطوط لا مرد لوقعها
نعاتبه في السر جهلا وإن أتت

ومنها :

عليها من الذل المشين عناكبه
على العرب صب واجف القلب واجبه
على الصم أجت في الفؤاد حبابه
لأعول والتفت عليه نوادبه

تقوض عز العرب فيها فجمعت
على عدن فليندب العرب ما بكى
ولو شاهدت عينا نزار بنيّه
ولو شام ما قد حل بالعرب يعرب

ومنها :

تمشى إليكم بالسموم عقارب
فأدمت بنا في النائبات مخالبه
بقية عزم لم تبدها نوائبه
من الحزم عضباً لا تفل مضاربه
ثياب جهول باديات مثالبه
بسعى إلى أن يدرك الحجد خاطبه
متون العلى والجهل تسمو غياهبه
فلا هطلت إلا بذل سواكبه

أقوى ، لا ترضوا المذلة منزلا
ولا تيأسوا إن أظهر الغرب غدره
ففينا وإن طال المدى وعدا الردى
فهبوا هبوب الليث للمجد وانتضوا
دعوا الظلم وانضوا مطرف البغي واخلموا
ألا فأنهضوا والدهر ساه ولا تنوا
متى ندرك الشأو القصي ونعتلى
ألا إن شعباً نام عن نيل مجده

وطنى

وطنى الذى سحر العقول ، فسحره
فجماله حَمَلَ العُدَاة لساحه
نزلت به آى المحاسن فاستوت
جل فى مسارحيه وعُج برياضه
فترك سرّ السحر أعين غيده
حسن لدى حرامه وحلاله
والشئ قد يجنى عليه جماله
أوقاته ، فبكوره آصاله
متمتعاً تحنو عليك ظلاله
ويُريك قدّ السّمهرى غزاله

خداع العدو

ألا يا لقوى والعدى تُضمّر الردى
يدب إليكم بالردى أفعوانها
وقد يلجأ الخصم الألد لخدعة
فهلاً أبيتم للهوان احتماله
وهذى لعمر الحق والسيف فرصة
وتمزج بالأدواء فيكم لبانها
ألا فاحذروا ما اسطعتم أفعوانها
إذا لم يطق يوم النزال طعانها
جهاراً ، فقد تأبى الرجال هوانها
فلا تركوا للسانحات أوانها

* * *

سماً بنى أمى ، وسمماً بنى أبى
ألا فاغضبوا للحق والسيف ، وليكن
ألا نهضة تنكى العداة وفتكة
ألا نزوة ينسى الفتى عندها الردى
ألا غضبة جياشة يعربية
وقد تحمدُ الحسناء من كان شأنها
شعاركم يوم الوغى أرجوانها
تزعزع أركان العدى وكيانها
تحفف فى هذا الأسى خفقاتها
فتعرف أهل الأرض طراً مكانها

مارى عجمى^(١)

١٨٨٨ - ١٩٦٥

أول رائدة من رائدات الأدب في دمشق الشام .
حموية الأصل نزع جدها إلى الشام منذ مائتي سنة .
تعلمت في المدرستين الروسية والإيرلندية . وأنهت دراستها وعمرها خمسة عشر عاماً .

كانت تحبّ المطالعة والكتابة والخطابة منذ طفولتها .. وما زالت إلى أن حققت الكثير من أمنياتها .

لم تكد تشعر بقدرتها على التعبير حتى فكّرت في إصدار مجلة نسائية تكون لسان حال المرأة ، وسرعان ما حققت الفكرة ، فأصدرت في عام ١٩١٠ مجلة « العروس » . ومجلتها ثاني مجلة تصدر في دمشق بعد مجلة « المقتبس » لمحمد كرد علي ، وإن دلّ هذا على شيء فعلياً ثقّتها بنفسها .
وصدرت المجلة مديحة بقلمها وبأقلام بعض الكتاب الذين جندتهم لمعالجة معضلات المرأة العربية .

وكان في طليعة مَنْ اعتمدت عليه الأستاذ فليكس فارس صاحب جريدة « لسان الاتحاد »^(٢) للصلة الروحية التي تربطها بهذا الأديب الخطيب ، وكان لزمنه من أشهر الخطباء ، وحين ترجمت رواية « المجادلة الحسنة » عن الإنكليزية أهدتها إليه واعتبرته القائد الذي بثّ فيها روح الشجاعة الأدبية^(٣) .

(١) ترجع نسبة العجمي إلى أن الجد يوسف كان يتاجر بالحلى والسجاد والتبناك في بلاد العجم وكان حين يأتى إلى دمشق يرتدى ثياباً أعجمية فأطلق الناس عليه اسم « العجمي » .
(٢) فليكس فارس : أديب لبناني ، كان يدرس اللغة الإفرنسية في المدرسة السلطانية في حلب وكان من خطباء جمعية الاتحاد والترقى لسان حال الاتحاديين ، وقد أشاد كثيره من الخطباء بمعلمة جمال السفاح .

(٣) تضمن الإهداء الفقرات التالية :

هدية إلى أخى فليكس فارس

إلى الكاتب الرقيق الروح والقلم

وظلّت تصدر المجلة باستمرار حتى بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ . ولم يقف نشاطها خلال الحرب بل انصرفت إلى التدريس وإلى المشاركة بشئون المجتمع ، وقد سئلت عما كانت تعمله خلال هذه الفترة فأجابت :

« . . . أربع سنوات مضت كنا فيها لا نغفل هنيهة عن مراقبة ما يجري ، فمن السجون إلى مدافن الأحياء - أعنى المستشفيات - إلى أكواخ البؤساء ، إلى ضحايا الجوع في الأزقة . فجمعنا ما جمعناه عبرة للظالمين وتسجيلاً لصحائف الأتراك السوداء » (١) .

وإلى واجبها الإنساني لم تهمل واجبها القومي ، فقد اتخذت من نشاطها الاجتماعي ذريعة لتواجه الطاغية أحمد جمال ، وتطلب إليه العفو عن أحرار البلاد الذين زجّهم في السجون وعلّق مشانقهم بعد محاكمة صورية - فلم يجد استشفاعها . . .

وعادت إلى منزلها تكتب وتنظم الشعر الحزين الذي يصوّر مأساة الوطن . وما كادت تنقش الظلمات وتضع الحرب أوزارها عن كاهل الشعوب حتى استأنفت إصدار المجلة في سنة ١٩١٨ وبدأت تؤدي رسالتها بنشاط أوسع وبأدب أغزر (٢) .

وكانت مواهبها خلال هذه الفترات قد نمت ، وثقافتها قد نضجت فعرفها عالم الفكر أدبية شاعرة ، تجمع بين الصناعتين . كتبت المقال ، ونظمت الشعر ، وترجمت عن الإنكليزية ، وحاضرت ، ودرّست الأدب .

= والقائد الذي بث في روح الشجاعة الأدبية

والأخ الذي رفع ستار الشقاء ، وأرأى سبيل الواجب ، ودعاني إلى الجهر بما في جسد الاجتماع البائس من السوس النافر

أهدى روائي هذه عربون شكر وولاء

ماري

(١) « العروس » ، العدد العاشر ، المجلد الرابع سنة ١٩١٨ صفحة ٣٣٤ .

(٢) توقفت المجلة بعد صدور العدد العاشر والحادي عشر لشهر كانون الثاني وشباط (يناير وفبراير) سنة ١٩٢٦ ، من المجلد ١١ بسبب سوء المواصلات وقلة الورق على أثر نشوب الثورة السورية ضد الحكم الفرنسي .

وكما عاشت مع الأحداث خلال العهد العثماني عاشت مع الأحداث خلال الانتداب الإفرنسي ، فكانت جريئة في الإفصاح عن آرائها ، تعترّ بالنزعة القومية ، وبرسالة العرب التي لها شأن وأى شأن في تاريخ الحضارة الإنسانية . كان بيتها ندوة من ندوات الأدب ، يهرع إليها أدباء الشباب الذين يؤمنون بالتجديد إيمانهم بالحفاظ على التراث القديم .

وكان من رواد الندوة خليل مردم بك ، محمد البزم . أحمد شاكر الكرمي ، — يرحمهم الله — وشفيق جبري والدكتور كاظم الداغستاني وكثيرون ممن حملوا راية الأدب الدمشقي في تلك الفترات ، وما زالوا به إلى أن أصبح أناشيد عذبة على لسان الكثيرين .

كانت تعقد جلسات ممتعة يعقب أريجها بالشعر والموسيقى والشراب ، وبقصص الأدب وأحاديث وحكايات تتصل بماضي العرب وبنهضة العرب وبما يهز ويثير ضمير العرب .

وكانت تسمعهم شعرها فيطربون ، ولا سيما الشعر الوصفي والعاطفي والقومي .. وهي مجودة في مختلف ألوانه ولا سيما الشعر الوصفي الذي يتناول الطبيعة ومباهجها فن تحية للربيع إلى وصف لأفانين الزهر : من الورد ، إلى البنفسج إلى الياسمين ، إلى ظلال الأدواح ، إلى غوطة دمشق ، إلى ذرا لبنان ، وقد تتخذ من وصفها للطبيعة مادة للتعبير عن « ذاتها » ولتهزّ الوسانين من بنى قومها :

| | |
|----------------------|---------------------|
| يا قوم أين ربيعكم | أين الروائع والغرر |
| أين الصفاء وأين مج | دكم القديم وما يهر |
| لبست رياضكم الحدا | د أسى على حظ عثر |
| لم لا تعود مع الربيع | ع حياة شعب محتضر |
| يخضر فيه رجاؤه | بمضاء فتیان سمر |
| يا من تهلل للربيع | ع ومن بروضته خطر |
| أين الربيع من القلو | ب خفقن في يوم الظفر |

وفي تحيتها للصباح تقول :

هلل الروض للصباح وكبّر ياله شاعراً تغنى فأسكر

هَبَّ والزهر في الغلالة يشدو ما أحيلى الصباح !.. الله أكبر
وبعد أن تصف يقظة الفجر والزهور التي تفتحت عن أقمار ونجوم تخاطب
النهر بقولها :

ما ترى الأزرق الخضم يلين يعتربه عند الصباح السكون
صاح : طالت يد الزمان علينا فتي ياصبح الأمانى تبين
وإذ كان التعبير عن الخوالج القومية ، في العهدين العثماني والإفرنسي ، جريمة
تعرض الشعراء للأذى أخذوا يرمزون ، وهذا ما لجأت إليه الشاعرة ، ففي
قصيدتها « إلى البنفسجة » — بعد أن تصف تجهّم الشتاء برعده وبرقه وأشلاء
أغصانه وصفناً دقيق التعبير تقول :

بنفسجة لولا اخضرار وشاحها لما شمت في الفيحاء أخضر زاهيا
تجيل عيوناً قد تكحلن بالدجي يطوف بهن الدمع رائح غاديا
لا شك أنها ترمز إلى ما كانت تقاسيه سورية من نكبات
وتقول :

بنفسجتي صبراً على الجور والقلبي فإن جميل الذكر ما كان باقيا
لقد وصفت الطبيعة أدق وصف . ولا أريد أن أقول إنها تأثرت بالصنوبري
شاعر الطبيعة المبرز ، بل كادت تجاريه في بعض مقطوعاتها ، وقد عقدت
مع الرياض ألفة موثقة :

عقدتُ لزهر الرياض الإخاء وعشت أشيد بإحسانه
فأهدى إليه عقود الولاء ويمنحني فوح أردانه
عزائي إذا ساورتني الهموم يرفقه عن كبد نازيه
ففي ظلمتي من سناه النجوم تشعّ على طرفي الخافيه

* * *

وما الزهر إلاّ بيان جميل يعبرّ عن خلجات الثرى
تراه إلى جانبينا يميل ويهمس شيئاً بسمع الورى
لا مجال للإلماع إلى الكثير مما نظمته في شتى المناسبات من شعر وصفي إلى
عاطفي إلى قومي ، بل أردت الإشارة إلى موهبتها المبكرة كشاعرة جارت فحول
الشعراء في زمنها ، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ أمين نخلة ، وكان من رواد

ندوتها حين كان يدرس في كلية الحقوق .

بقوله : « . . . أما الشعر فإن مارى لم تنجح إلى نظمه إلا في بعض ما كانت تتحرك نفسها في الأحيان من حب للإيقاع وطرب النغمة . . أو في بعض المخابيل السامية التي يلوح فيها لطائفة من عيون البشر النادر العزيز من ملامح الاتصال بين الأرض والسماء . . وهى في النظم ما عرفت احتفالا ولا تعملا . . فإنما شعرها أشبه شئء بالزهر الزكى في جبالنا اللبنانية أمام الربيع يخرج إذ يخرج فلا يدرى أحد كيف طلع من قلب الأرض » .

ويقول : « وليس عجباً أن تكون العلاقة شديدة بين القليل الذى نظمته والكثير الذى كتبه . فإنهما سقيا من غمام واحد : هو الطبع وهو الذوق وهو رونق الفصاحة » .

وفى كلام عن شعرها المنشور يقول :

« ولقد عنيت مارى فوق ذلك بالشعر المنشور أى النثر الشعرى ، فكانت في جملة كتاب مهودوا من نحو خمسين سنة لهذا النوع من الكلام وهو الذى صار يقال له : " الشعر الحديث " والذى انحطّ سويّه في هذه الأيام الأخيرة . وإن لمارى في الشعر المنشور قطعاً بلغت الغاية بها في التحجّب للمعاني ، ومسح اللفظ بمحجباتها مسحات ينفج بها نفحة اللمس لمداهن المسك » (١) .

* * *

لقد تركت مارى عجمى قطعاً كثيرة من الشعر المنشور تنبض بروح الشاعرية الحقة ، وهى تعبير صادق عن روحها المتوثبة ، ففي حفلة تكريم دمشق لخليل مطران ألفت قصيدة منشورة لم تتحدث فيها عن شعره بل عن رسالة « الشاعر » الذى نعتته بابن الليل :

يا ابن الليل : وما كل شاعر بابن الليل

إن للأدب دولة . أنت سلطانها

وللفن جسم ، الشعر روحه

يظلّ الجمال طيّ الإيهام حتى تذيبه
ويبقى الحزن ملء النفوس حتى تجاوه ..

* * *

يا محيي الليل حتى مطلع الأسحار
أمن هزيم الرعود ، وانقضاض الصواعق ، واشتعال الهشيم
تخرج أنشودة الحماسة
النافخة النار ، المقوّضة عروش الظالمين
الكاتبة اللعنة على الخانعين

ثم تقول :

يبصر الأعشى روعة الجمال بعينيك
ويسمع الأصمّ تهليل الطرب بأذنيك
وتفتت كبد الصخر بنجوى حنينك
ويشتاق من لا حبيب له طيف حبيبك

وفي ذكرى ٦ أيار (مايو) سنة ١٩١٦ - يوم الشهداء الذين أعدمهم
الطاغية أحمد جمال السفاح التركي - أهابت بتلك الأرواح القدسية أن تعود
لتهزّ ضمير الأمة التي كادت تنسأهم بعد أن اتخذت لها أحباباً أخذوا يهزءون
بمقدراتها ويرأوغونها مراوغة الثعالب :

أما تبرحون غارقين في رقادكم أيها النائمون ؟
أما تعبّت أجنابكم ، وملّت من اللصوق بالرمال ؟
قوموا ، فقد نتمّ طويلاً !

إن نفحات الربيع مألوفة الفضاء
والأطيّار تتسابق على الأفنان

والجدال تنادىكم « أن هيئاً عودوا إلينا »

فقد كفى القلوب وجداً وأنيباً

لا نستطيع أن نرحّب بالربيع وأنتم بعيدون عنا !

ولا يطيب لنا فوح الأزهار ، وفي الأرواح نفحات دمائكم البريئة

قوموا ... فإن الأمة التي تعرفتموها ، لا تريد أن تعرفكم
لقد اتخذت لنفسها أحباباً من بعدكم ، يراوغونها مراوغة الثعالب
لقد غدت تطرد أبناءها وتبيع حق حياتها للغريب رخيصاً
وتجد لذة في امتصاصه دمها
عودوا ... فقد عادت الورود الحمراء — إلى مآقينا .

* * *

كان صوتها يرتفع في كل مناسبة ولا سيما في المناسبات القومية والاجتماعية
ذات الاتصال الوثيق بثقافة الفتاة السورية لتأخذ مكانتها المرموقة في حياة
المجتمع .

وكانت الفتاة السورية ، لعهدا ، لا تزال على مقاعد الدرس ، بينما
كانت هي ، بين لداها ، في طليعة المثقفات : أديبة مرموقة وشاعرة مبدعة ..
ولئن غصّت دمشق في يومنا هذا ، بالأدبيات والشاعرات والطبيبات
والمهندسات نتيجة لتطور حياتنا الفكرية ، فقد كانت ماري عجمي ، في
زمنها وبين لداها ، هي النجمة الملتمة والرائدة التي تقود بنات جنسها إلى
حياة العلم والأدب .

وقد وصفت وداد سكاكيني . وهي في طليعة أديبات سورية المبرزات
وأرسخن قداماً في صناعة الأدب — وصفت ماري بقولها :

« كان الفرزدق إذا سمع شعراً للخنساء قال : تلك أنثى غلبت الفحول ..
وفي زماننا هذا لو يُسأل فحول الأدب عن " ماري عجمي " لأعادوا قول
الفرزدق في الخنساء .

عرفت أديبة الشام وأنا طالبة أُنشَوِّف إلى مطالع الأدب النسوي المعاصر ،
فتمثلت من خلال آثارها روحاً جبارة نفذت إلى دقائق الحياة فتحسستها في
حقائقها وتلمستها في مظانها ، وخيّل إلى أن وراء آثار الأديبة عبقرية طلعت
قبل الأوان : وفي بلد لم يتعهد مغارس الفكر والبيان ، وحين جمعني إلى الآنسة
ماري عجمي وداد ووفاء وجدت أن الخيال الذي كنت أراها من خلاله غاب

عنى خجلا لقصوره فى تصويرها ، فلقد رأيت منها ما وراء النظر ، وسمعت ما فوق الكلام » .

وبعد أن استعرضت ملامح حياتها أشارت إلى توليها تدريس الأدب فقالت :

« . . . ويدور الزمان بالناس ، فإذا الآنسة مارى عجمى أستاذة الأدب العربى فى معهد الفرنسيسكان تعلّم الطالبات الشابات أدب العربية على أحكم دراسة وأقوم طريقة ، ولو أنك سمعتها تحاضر تلميذاتها عن المعرى أو الجاحظ ، وضرب بينك وبينها بحجاب لقلت : ثمة أستاذ كبير يحسن الخوض فى تاريخ الأدب ، ويردّ صدور البحث إلى أعجازه ، ويحيّد المقارنة والموازنة بين الشعراء أو بين الخطباء والباحثين ، وقد يهزك العجب والإعجاب لندرة الأساتيد الذين أوتوا مواهب الأدباء ، وأحاطوا علماً بمواهب النقد الحديثة ومناهج البحث والتحليل . ولئن زحزح عنك الستار أو الحجاب ، ورأيت المحاضر أو المدرس من بنات حواء لشدهت ودهشت ، وظننت فى التناسخ الظنون ، ولا بدع إن أخذك العجب فإن تدريس الأدب العربى لا يزال فى شرقنا العزيز وقفاً على الرجال ، وقليل ما هن اللواتى اضطلعن بهذه المهمة الكبرى ، فتعمقن العربية ، وألمن بلغة غربية كما أوتين المزايا والمواهب المنشودة فى معلّم الأدب » (١) .

* * *

وكانت ذات قلم لاذع ونكتة مبطنّة بالخوض ، لا تتردد أن توجه سهام نقدها . فى إطار من نكاتهما ، إلى أعزّ أصدقائهما ، فى مقالها « أدباء سورية فى العهد الجمالى » (٢) أى جمال باشا السفاح — وصفت فليكس فارس بقولها : « . . . كانت الحرب موالية لخطته السياسية فكان زين النقود فى جيبه أطرب أغنية غناها له الزمن ، وختم أفراحه بزيجته عسى أن يرزقه الله منها بنين وبنات » .

(١) مارى عجمى فى مختارات من النثر والشعر : الرابطة الثقافية النسائية فى دمشق ص ٦٠٤ .

(٢) « العروس » العدد العاشر المجلد الرابع .

ووصفت شبلي ملاط بقوله :

« . . . مشى شعره مع السياسة وتغنى بها في المحافل فنال من ثمارها نصيباً وافراً
أعاد له جوائز عصر المخضرمين والمولدين ، وفي شعره المنظوم زمن الحرب شيء
كثير من تاريخ كبراء الترك في سورية » .

ووصفت بشارة الخوري - الأخطل الصغير - بقولها :

« . . . لم يكن الجو ملائماً لـ " برقه " فانزوى في قرية يصطاد العصفير
التي كان يتغزل بزقرقتها . ثم انخرط في سلك محتكرى الحبوب فنال النصيب
الوافر ، على أنه عاد فانزوى ثانية ، ولعل " برقه " ينم عن مقره الآن » .
ولم تهمل نفسها فكتبت تقول :

« . . . حجبت " العروس " في خدرها : وأودعت نقودها في البنوك . فلم
تهرم العروس ولكن نقودها تحولت أوراقاً لا بد أن تخيط منها ثوباً لعروسها
التي برزت من خدرها الآن ! » . .

وحين أقيم لها يوبيل فضى في بيروت سنة ١٩٢٦ وصفته بقولها « . . . كان
أشبه بحفلة مأتم (على البارد) لروح لا تزال حائرة ! »

* * *

وظلّت في صراع مع الحياة تكتب وتنظم وتحضر الندوات وتخطب .
يقول الأب إميل مرقد :

« كانت تلقى الخطب والمحاضرات بوفرة ، وليس هناك ناد في سورية أو
لبنان أو فلسطين إلا وألقت فيه كلمة ، وإذا ما وجدت في حلقة أدبية أو سمر
كانت سيدة الكلام ، فكلامها الكثير - ثرثرة حسب رأيها - ولكنه في مسمع
الناس صوت العندليب » (١) .

نعم ، ظلّت في صراع مع الحياة إلى أن آثرت العزلة على حياة اضطربت ،
في نظرها . موازينها ومثالياتها ، وقد أصابها في أخريات أيامها ما يصيب كل
فتاة عانس ولا سيما إذا كانت أديبة ذات إحساس متقد وشعور دافق - ما
أصاب « مَيّ » ، وقبلها مريانا المارش ، فلزمت بيتها تتأكلها الهواجس والآلام ،

وظلّت تجرّ ذكرياتها ، الحلوة منها والمرّة ، إلى أن فاضت روحها في مساء الخامس والعشرين من كانون الأول سنة ١٩٦٥ بعد أن تركت أحد عشر مجلداً من مجلّتها ، إلى روايتين ترجمتهما عن الإنكليزية وهما «المجدلية الحسنة» و «أعجد الغايات» وديوان شعر ، إلى مقالات متفرقة لم يطبع منها غير مختارات نشرتها «الرابطة الثقافية النسائية» في دمشق :

ومن شعرها :

أمل الفلاح

| | |
|---------------------------------|---------------------------------|
| من الفارس المغوار في ساحة الوغى | من السهم لا يشنيه ردّ الجحافل |
| من النهر يجري بين كفيّه صاغراً | يُغيّر مجراه برغم الحوائل |
| من الغصن يهتز انشراحاً للمسّه | ومن ذا كسا الجرداء أبهى الغلائل |

• • •

| | |
|--------------------------------|--------------------------------|
| هو الزارع الفلاح لولا جهاده | لما شمت بالريحان حسن المخايل |
| هو الطود للعبء الثقيل وقد بدا | على وجهه منه انتقاد المشاغل |
| نبيّ فقد أوحى إلى الفقر بالشذا | وعلق أقراط الغصون الحوامل |
| رسالته طيب وجنى ونشوة | وكعبته الخضراء حجّ القوافل |
| في جدّه عين الحياة تفتّحت | على غرر من كل صوب حوافل |
| بها موكب الأرواح والكرم والمنى | يرفّ حوالبه جناح البلابل |
| يلين لطلع ناعم النسج غصّه | له صور الأحلام في عين آمل |
| كأنّى به أم تلين لطفلها | وترعاه في عطف على الدهر شامل |
| شغوف بحسن الأرض يهوى خيالها | ولو حال دون الملتقى ألف شاغل |
| وقد بات مطبوعاً على لوح قلبه | بصورة روض ناضر الزهر مائل |
| تغنّى له في كل فجر حمامة | وتحنو عليه دوحه في الأصائل |
| فتسرّع أسراب الطيور مطيعة | يُعدن . ولا يدرين معنى التكاسل |
| وكلب حمول للرزايا محبّب | رقيب وفيّ العهد ، ليس بخاذل |

يُميت وقطعان النعاج بيبابه
وماذا عليه إن تقوّس ظهره
لئن ضاق بالكوخ الصغير مقامه
خلا جيبه أما الفؤاد فقلّوه
تغلغل في صُمم الجنادل روحه
يشعّ من المحراث ما في فؤاده
فهل عجب إن بث روحاً فرددت
لئن خشنت منه اليدان فكفّته
يتيه عليه المترفون بمآلهم
فإن أرقوا لم تعرف السهد عينه
وإن ركبوا أسرى فجلتى عليهم
وأحلى نشيد في الليالى سماعه
يُذلّ عقاب الشّم بأساً وقوة
هو الساعد المفتول لا يعرف الونى
فما الزهر إلّا الشكر حقّ لجاهد

فلست ترى في أهله غير باذل
على كونه في الرقص حور الحماثل
فإن له رجب الفضاء المقابل
حنان يفيض الدهر فيض الجنادل
ففجّر بالإلهام أصفى المناهل
من النار يستحي بها كلّ ماحل
شفاه الأقاحى مدحه بالهياكل
سماح وإن الجود بسط الأنامل
وليس لهم مثل ابتسامة عامل
وإن بطروا أثنى على خير واصل
وإن سكروا لم يدر معنى التغافل
نشيد غيوم الأفق تهيمى بوابل
وينزل في الغابات أعلى المنازل
هو العزة الشّماء دون تطاول
وما الحصب إلا من جزاء المناضل

عز الدين التنوخي

١٨٨٩ - ١٩٦٦

من أعلام اللغة ، عاش حياته مع المعاجم والكتب ، ولا سيما كتب الأدب والبلاغة والمخطوطات التي تتصل بعلوم العربية ، وقد حقق ونشر أكثر من كتاب واحد .

ولد في عام ١٨٨٩ بدمشق . وبدأ حياته بتعلم القرآن في المدرسة الابتدائية السباهية . ثم درس مبادئ اللغات : العربية والتركية والفارسية والفرنسية في المدرسة الرشيدية الابتدائية والعالية : ثم انتقل إلى مدرسة الفرير الفرنسية ومنها إلى مصر لطلب العلم في الأزهر . . وعاد بعد الأزهر إلى فرنسة مع البعثة العلمية الأولى الدمشقية ليدرس الزراعة في إحدى مدارسها فمكث ثلاث سنوات . ولم يكد يرجع ليتولى التدريس في المركز الزراعي في بيروت حتى تنشب الحرب العالمية الأولى ويدعى لخدمة العلم . . .

وإذ كان كالكثيرين من شباب العرب يضطرم قلبهم بحب العروبة وبيغض الأتراك الذين أضمرُوا سوء للعرب ، فقد فرّ من الجيش التركي بحلب والتحق بثورة الملك حسين ، ولم تكد تنتهي الحرب العالمية ويدخل الجيش العربي سورية حتى عاد إلى دمشق ليساهم مع إخوانه الشباب ، وإذ كان ممن يملكون ناصية العربية في تلك الفترة التي كانت اللغة التركية هي الطاغية على لغة الدواوين عين عضواً في « مجلس المعارف » الذي ألفتته الوزارة والذي تحول فيما بعد إلى « المجمع العلمي العربي » .

ولم يمكث طويلاً في دمشق ، فبعد العدوان الإفرنسي عليها واحتلالهم سورية — هاجر إلى العراق فعين أستاذاً للأدب العربي في دار المعلمين ثم دار المعلمين العالية ببغداد . وظل سنوات إلى جانب ساطع الحصري عاد بعدها إلى دمشق . ليعين أميناً لسر المجمع العلمي العربي وليتولّى التدريس في المدارس الثانوية وفي كلية الآداب . . وظلّ في البيئة التدريسية إلى أن أحيل

على التعاقد فعين نائباً لرئيس مجمع اللغة العربية . وظل يشغل هذا المركز الذى يوائم ثقافته ونفسيته إلى آخر يوم من حياته . .

« . . لم يكن الأستاذ التنوخى مرجعاً فى كتبه ومؤلفاته التى أنشأها وحققها وترجمها فحسب . بل كان فى حياته فى المجمع مؤثلاً لأعضائه وموظفيه وزواره يرجعون إلى ذاكرته فيما يستعصى عليهم معرفته من كلمة لغوية أو نادرة نحوية أو قضية فقهية أو مشكلة تفسيرية ، فكان أسرع فى الإجابة إلى كل ذلك من الكتاب نفسه . وكانت إجابته لا يأتىها الباطل أبداً لشدة تثبته مما يقول ، وتأكده مما يروى .

وكان كل عالم عنده معرضاً للخطأ لأنه إنسان يخطئ ويصيب . كما كان كل كتاب فى رأيه غير خال من العيب لأن الكمال لله وحده . وأذكر شاهداً على هذا أنى شاهدته يراجع الجزء الأول من المعجم الكبير «تاج العروس» للزبيدى . وقد ملأ حواشيه بملاحظات القيمة وتعليقاته الرائعة . وبعد أن قرأ على شياً من هذا قال : « إن الزبيدى ذاته لم يسلم من الخطأ فى هذا المعجم الرائع » ردلتى على عشرة تاريخية تورط بها هذا العالم الكبير . وقد كان رحمه الله يقرأ لى ثم التفت إلى يقول : « لا تستغرب أن يقع الزبيدى فى الخطأ فقبله وقع فى الأخطاء ابن منظور . وابن سيده . والفيروزابادى والجوهري . والفيوى إلى آخر هذه الأسماء التى خلدت بمجهودها اللغوى وبجتها العلمى والنحوى » (١) .

* * *

كان ينظم الشعر ويخطب فى المناسبات . وهو يملك ناصية القول : وقد شهدته فى أكثر من مناسبة قومية وفكرية . فكان يعتلى المنبر لفترة محددة ، فلا يكاد يبدأ حتى يسترسل ويسهب إسهاباً يدخل الملل إلى نفوس المستمعين . . وقد يُنبّه . فلا يسمع ، ويظل يتكلم . ويتكلم إلى أن ينقلب الملل . لدى المستمعين . سأمأً وضجراً .

(١) « المعرفة » العدد ٥٤ آب (أغسطس) سنة ١٩٦٦ ص ١٢٣ - ١٢٤ الأستاذ أحمد

ومن النكات التي تروى أن ظريفاً دمشقياً شكره عقب حفلة عامة لم يخطب فيها . وفوجئ هو بهذه العاطفة الندية تخرج من هذا الإنسان الذي لا يفلت أحد من نكاته اللاذعة ، وسرعان ما استدرك وقال له : لكنني لم أخطب أيها الأخ ، في هذا الحفل ! وأجابه ظريف دمشق على الفور : جئت أشكرك لأنك لم تخطب !! .

* * *

على أن هذه النكتة اللاذعة التي يرددها أدباء دمشق لا تنقص من فضل الرجل الذي يعد من أعلام اللغة التي صان ذمارها ، وقد ترك الكثير من الآثار المطبوعة تأليفاً وترجمة وتحقيقاً أثبتها فيما يلي :

- ١ - الفتح المبين في شرح عينية ابن سينا الرئيس
 - ٢ - دروس في صناعة الإنشاء
 - ٣ - مبادئ الفيزياء ، جزآن
 - ٤ - قلب الطفل
 - ٥ - تحقيق كتاب . المنتقى من أخبار الأصمعي للإمام الربعي
 - ٦ - تحقيق « تكملة لإصلاح ما تغلط به العامة » .
 - ٧ - تحقيق « بحر العوام في ما أصاب فيه العوام »
 - ٨ - شرح « الإيضاح » للقزويني .
 - ٩ - إحياء العروض
 - ١٠ - تحقيق كتاب « الإبدال » لأبي الطيب اللغوي - جزآن
 - ١١ - تحقيق كتاب « المثني » لأبي الطيب اللغوي
 - ١٢ - تحقيق كتاب « الإنباع » « » « »
 - ١٣ - تحقيق كتاب « مقدمة في النحو » لخلف الأحمر . . .
 - ١٤ - شارك في وضع « المعجم العسكري » بقسميه « الفرنسي - العربي والإنكليزي - العربي »
- وأكثرها مراجع وثيقة للكثيرين من الأدباء وطلاب الأدب .

من شعره :

أكابرنا

أكابرنا ما المجد ؟ ما تطعمونه
أكابرنا ما المجد ؟ ما تكتسونه
أكابرنا ما المجد ؟ أما فطنتم
وأن تبتنى تلك القصور شواغحاً
وأن تنهبوا الفلاح أرض جدوده
وأن تأكلوا مال اليتيم وصاية
وأن ترقدوا والحادثات يواظظ
وأن تركبوا للسبق خيلاً سوابقاً
لعمري العلى ما المجد زقاً وقينة
فما المجد إلا العلم يحجي مواتكم
وجاركم من جوعه ، البطن يابس
وهذى اليتامى أعوزتها الملابس
تُراث أتاكم فجأة ومغارس
وأن تقتنى للفخر فيها الملابس
وأن تسلبوه غرسه وهو غارس
كما فعلت طللس الذئاب النواهِس
وأن تضحكوا والكارات عوايس
وخيلكم فى المكرمات شوامس
ولا هو دور تقتنى وعرائس
ولا المجد كل المجد إلا المدارس

محمد الفراتي

١٨٩٠

شاعر أديب من منطقة الفرات ، ومن مواليد دير الزور ، نشأ في أحضان الفقر وعاش طوال حياته في جوّ من الشقاء والبؤس ، وفي رحاب المطالعة والدرس .

لم يكد يعي ذاته ، ويخطو الخطوة الأولى في ميدان المعرفة حتى أحسّ بظلم شديد للاستزادة منها والعبّ من مواردها ، فاتجه إلى الأزهر . .

وهناك ، في تلك البيئة الدينية العارمة عاش محمد الفراتي في الرواق الشامي يدرس ويحضر دروس أساتذته في الفقه والمنطق وعلوم العربية ، وكان قبل سفره إلى مصر يهجس بالشعر ، ويحفظ منه الكثير الكثير .

في تلك الفترة من أيام دراسته ، ونحدها بقبيل الحرب العالمية الكبرى ، كان العالم الإسلامي يغطّ في نوم عميق . وكانت رسالة الكتاب والشعراء تقوم على تنبيه الغافلين وإيقاظ الوسنانين للسير في الطريق الشائكة الطويلة التي سلكتها شعوب الغرب . . .

وكانت أصوات الكاظمي وشوقي والرصافي والزهراوي وحافظ وغيرهم من شعراء الأقطار العربية تعلو في المناسبات القومية والظواهرات الاجتماعية . وعاش الفراتي في هذه الفترة . فارتفع صوته أيضاً، وهو في العقد الرابع من عمره :

ترقّت شعوب الغرب من حيث إننا من العلم لا قشراً أصبنا ولا لبناً
فهم أعلنوا حرباً على كل جاهل ونحن على أوطاننا نعلن الحربا
وهم أوضحوا بالعلم كل خفية وبتنا نقاسى من جهالتنا الكربا
ويقول :

بنى وطني هبتوا جميعاً إلى العلا
دعوت إلى الإصلاح قومي وكم فتى
ولما رأيت القوم غنى أعرضوا
فأخاب قبل اليوم منّ للعلاها
إليه دعا قبلي وما أحد لبتي
ولم يقبلوا نصحي ولم يدركوا العقبي

أخذت على نفسى المواقف أننى سأجعل شعرى ما حييت لهم عتبا
وبالرغم من هذه النبرات التى رددتها طويلا فقد ظلّ صوته خافتاً لا ينصت
إليه الجمهور إذ ليست له شهرة عمالقة الشعر ، ولا سيما ، ومثله فى أروقة الأزهر
كثيرون ، فانزوى فى محيطه يعبّر عن ذاته ، ويصف مجتمعه ، ويشكو ظلم
القدر وعنت الدهر . .

وتطول سنوات الحرب ، وينقطع عن أهله وذويه ، ويزداد بؤسه وشقاؤه ،
ويحاول أن يهجر مصر ويعود إلى وطنه ولكن هيهات والحرب فى أشدّ أيامها ،
والاتصال بين القطرين منبتّ ، فيندب سوء حظه ويقول :

| | |
|---------------------|-------------------|
| بلدة لم ترع حقى | حق لى عنها الشخوص |
| كل غالٍ فهو عندى | غير آدابى رخيص |
| أقسمت أن لا ترانى | أعين فى مصر خوص |
| جحدونى غير بدعٍ | جحدت قبلى النصوص |
| فاعجبي يا دولة الشـ | عر إذا قال الرهيص |
| أنا فى مصر مقيم | ما على جسمى قميص |

ويشعر غيره من الطلاب السوريين بالفاقة والعوز بعد أن انقطعت عنهم
موارد أهلهم وذويهم ، ويقام حفل فى دار الأوبرا تحت رعاية السلطان حسين
كامل إعانة لطلبة الأزهر السوريين ، ويشارك الأثرياء والأدباء والشعراء فى هذا
الاحتفال ، وينشد القرأتى قصيدة تثير الشجن :

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| حليف سهاد نازح الدار معدم | ومالى سوى حسن اصطبارى مغنم |
| أبيت ومن دمعى بحار زواخر | وفى باطنى جمر الغضا يتضرم |
| أروح وأغدو لا أرى لى مسعفاً | وأرعى نجوم الليل والناس نوّم |
| لعمرك ما أدرى وإنى لصابر | متى ينجلي هذا الشقاء المحمّ |
| وإنى لأخفى الهمّ عن كل شامتٍ | ولكن لسان الحال عنى يترجم |
| ثلاثة أعوام أقاسى بها الأسى | أجرع كأس الصبر والصبر علقم |

ويقول :

أأبقى بليل البؤس حيران تأهياً وفيكم بدور آل مصر وأنجم (١)
وكل أيامه في مصر شكوى وألم وأنين . يتجلى فيها البؤس من جهة ،
والحنين إلى الأهل والوطن من جهة أخرى . .

ويترك مصر إلى الحجاز لئلا إعلان الثورة العربية ، ثورة الشريف حسين
على الأتراك - أمل العرب آنذاك - ويعيش فترات هناك ، وينظم أكثر من
قصيدة . من مدح إلى إشادة بالنهضة العربية ، إلى وصف حياة البادية
وشظف عيشها ، إلى حنين إلى مسقط رأسه :

هبت من « الزور » ريح نشرها عبق في طي أردافها المنشور عن وطني
ريح بها الراح ممزوج بقرقفها والزنجبيل وذوب الشهد في المزن
ولا يكاد يستقر في الحجاز حتى يضيق بجوّها الذي يحدّ من حرية
الفكر ولا سيما بعد أن نثرت حوله الوشائيات التي كادت تزجه في غيابة السجن
فيعود إلى مصر منتظراً الفرج .

ويجلاو الأتراك عن سورية ويرفرف العلم العربي على ربوعها فيعبر عن فرح
الملايين بقصيدة أشار فيها إلى عنجهية الأتراك وازدراهم لحقوق العرب :

إن فتح الشام أعظم فتح ترتقى مجدها به الإسلام
أبني الترك فاعلموا اليوم أنا أسد في اللقاء صيد كرام

* * *

يا بني العرب هبة من رقاد إن ذاك الرقاد عار وذام
فلأجدي الأمرين إما مات أو حياة ما بعدها إرغام
قل فسحقاً لذن لأبناء جنكبي ز فأمن من بعدهم وسلام

(١) أنشد في هذه الحفلة حافظ إبراهيم قصيدته الشهيرة « أيها الوسمي زر بنت الرب » والتي

اختتمها بقوله :

| | |
|---------------------------|----------------------------|
| من لظي نيرانها بعض الشر | إن في الأزهر قوماً نالهم |
| في عناء وشقاء وضجر | أصبحوا - لا قدر الله لنا - |
| أو يضاموا إنها إحدى الكبر | نزلاء بيننا إن يرهقوا |
| مهم ضر ونابهم غير | فأعينهم فهم إخوانكم |
| إن خير الأجر أجر مدخر | أقرضوا الله يضاعف أجركم |

ويعود الشاعر إلى « دير الزور » فلا يكاد يستقر بها حتى تتقاذفه الأيام فيسافر إلى العراق ثم إلى البحرين . . ثم يعود إلى سورية ، ولم ينقطع خلال هذه الفترات عن النظم من شعر قومي إلى شعر اجتماعي ، إلى ما يهز ضمير الأمة العربية في صراعها مع مغتصبي أوطانها .

فاجتمع لديه ثمانية دواوين لم يطبع منها غير الجزء الأول سنة ١٩٣١ بعنوان « ديوان الفرات » ، أما البقية فمحيصة خزانته وهي : « النفحات الأولى » . « العواصف » ، « الهواجس » ، « صدى الفرات » ، « النفحات الثانية » ، « أروع القصص » ، « سباحات الخيال » .

هذا ، وإلى اهتمامه بالأدب والشعر . فقد درس علم الفلك على بعض علماء الهيئة القدماء ، وهذا الذي دفعه أن يكون على اتصال بالآراء العلمية الحديثة ، وحين تأرجح بين قديم هذا العلم وحديثه قفز إلى المريخ على جناح الشعر فكتب كوميدية في بضع مئات من الأبيات بعنوان « إلى عالم المريخ » حذا فيها حذو الزهاوي في « رحلته إلى جهنم » وإن اختلف الشعاران في الاتجاه والنزعات . فالفراتي ، إلى فلسفته الشكوكية ، مؤمن كل الإيمان ، بخلاف الزهاوي الذي طغت نزعته الشكوكية على إيمانه وبقينه .

وتشتمل هذه الكوميديا السماوية على :

١ - حلم مربع أو ليلة في عالم المريخ

٢ - الكوميديا السماوية : من أنا ؟ ومن أين جئت إلى هذا الوجود ؟

٣ - الساحر

٤ - غرور الشباب

٥ - في حانة إبليس

٦ - إلى أين مصيري بعد الموت ؟

وقد قصّ في هذه الرحلة الحياة الأولى في كوكب « هيدا » وهو سيّار يتبع إحدى شمسوس المجرة في طرفها الشمالي من وراء القطب . وكيف تجردت روحه عن جسده في دنيا ذلك الكوكب وانطلاقها في السدم إلى أعماق الكون البعيدة حيث رأت نوراً ليس من جنس نور العوالم ، فتوهمت أن ذلك النور هو نور الله ،

جلّ جلاله ، وهنا صادفت روحه روحاً أخرى أخبرتها بأنه سبحانه تعالى تنزه عن أن تراه الأرواح المجردة . وأن ذلك النور هو نور النبي محمد ، وحيماً اتصلت روح الشاعر بذلك النور الأقدس صعبقت ولم تحسّ إلا وهى إنسان على هذا الكوكب .

يقول :

خرجت عن المجرة مستحثاً
فجدت بي وقد لمحت سديماً
وطارت ألف عام وهى برق
رأت مالا ترى عين ابن أنثى
رأت ماليس يحصى من شمسٍ
تدحرج كالكرات بصولجانٍ
وقد تبدو توابعها فتحكى
غريب أمر هذا الكون إني
فلو أعطيت قوة ألف روح
لما أدركت كم فى الكون يلقي
وعن ذاك السديم خرجت أهوى
تدوم بالفضاء مبعثرات
ولولا النور يدفى كنهه روحى
بعدت عن السديم أشدّ بعد
فلم أبصر من الأكوان شيئاً
سوى نور ولا كالنور يلقى
يلوح على مدى بعد سحيق
فقلت لعل هذا نور ربى
فزدت له اشتياقاً واعتراى
فرحت له كمثل البرق تحدو
إلى أن صرت عنه قاب قوس

قوى روحى لتسرع فى المسير
يرى كالغيم من «ذات الشعور»
وأعيائها مدى ذاك العبور
وإن جهدت على كره العصور
تحرك كالرحا بيدي مدير
خفى فى يد الملك القدير
فراشاً حام حول كرات نور
ليعجز عن تصوره شعورى
وطرت هناك آلاف الدهور
سديم وانكفأت على غرورى
إلى سدم كأمواج البحور
هنا وهناك تبعث بالحرور
إذن جمدت ببرد الزمهرير
إلى أن جزت أمواج الأثير
يعد من الطبيعة كالنقير
ترأى لى فضاء عفى من سرورى
كومض البرق فى الليل المطير
وذى سبحانه من قدس طورى
ذهول كاد يفقدنى شعورى
بى الأشواق كالطفل الغرير
ولا تسأل هنالك عن حبورى

إذا صوت يرنّ بسمع روحى غريب الجرس أشبه بالصفير
تعالى الله ليس تراه روح مجردة ولا عينا بصير
ولا تجهل فذلك نور طه حبيب الله ذى الجاه الكبير
تقرّب واغترف من فيض نور يحفّ الكون كالبحر الغزير
ولما أن قربت نشقت عرفاً ذكياً فانتشيت من العبير
محيت من الوجود فلا وجود يعبر عن مفاته شعورى
ولا أدري بنفسى أين أضحت فهل محقت إلى أخرى الدهور
إذا بي فوق هذى الأرض أحياء وتحت لوائه يحيا ضميرى
والقصيدة طويلة - أزيد هذا المقطع من الكوميديّة التى تضمنت أيضاً
جولته مع كوكب الزنادقة وكواكب الشعراء وكواكب العباقرة - عباقرة العلم -
الذين يصفهم بقوله :

أهابت بالطبيعة فاستجابت عناصرها لما تهوى قواها
تحيل إذا تشاء الترب تبرا وحر لظى تقطّره مياها
وما غير الأثير لها وسيطاً وكاد يكون فى نظرى إلها
ويكفى أن تموجه عقول بفكرتها فيبلغها مناها
متى رامت عويصاً ذائِلته وكم من مشكل حلت نهاها
لها فى كل فن عبقرى تمارسه طرائق لا تنهاى
وتشعر بالذوانى حين تمضى ولم تكحل بغمض مقلتاها
ويبنى كل فرد فى أوان صروحاً يعجز الدنيا بناها
عباقر تخلق الأشياء خلقاً ولم تنكر خوارقها الإلها
والكوميديا فى نيف وستائة بيت .

ولا شك أن لشعراء الفرس القدامى أثرهم فى هذا الاتجاه .

ونحن نعلم أن الأستاذ الفراقى يحسن الفارسية كالعربية وقد وضع فيها عدة كتب وترجم عن أكابر شعرائها .

وضع ثلاثة كتب فى قواعد اللغة الفارسية وتعليمها باللغة العربية ، وهى فى ٧٠٠ صفحة ، إلى قاموس فارسي عربى ، وآخر للكتابات الفارسية .

وقد ترجم رائعة سعدى الشيرازى - نهلستان - « روضة الورد » وهى من

أشهر مؤلفاته التي تضمنت كثيراً من الحكايات الطريفة والمفارقات التي مرت بحياته إلى ملح وحكم ونكات وأفكار ترمز إلى التوجيه والإصلاح . .
كما ترجم روائع من شعر ثلاثة من أعلام شعراء الفرس وهم جلال الدين الرومي وسعدي الشيرازي وحافظ الشيرازي - ترجم شعرهم شعراً فجاءت الترجمة كما اعترف كبار أدباء الفرس المعاصرين الذين يحسنون اللغتين - جاءت الترجمة كالأصل .

* * *

لقد اجتمعت للفراقي ثقافة دينية وثقافة أدبية « أزهرية الطابع » ، وانطلاق في جواء الأدب الفارسي الكلاسيكي ، ومطالعة لما تقذفه ثقافة العصر من نزعات تجمع بين روحانية الدين ومادية العلم ، فإذا تفلسف في أسرار الكون والحياة كان مشدوداً إلى تلك الينابيع الثرة ، وهذا ما يلمسه القارئ في كوميدته « الحلم المربع » أو « ليلة في عالم المريخ » (١) .
ولكتاب الله الكريم أثره البالغ في ثقافته الدينية والأدبية التي بدت واضحة في كتابه « إعجاز القرآن » في الآيات الكونية وتطبيقاتها على أحدث نظريات الفلك . وما يزال ، وقد جاوز التسعين (٢) يعيش : بعد أن احتضنت وزارة الثقافة والإرشاد القومي شيخوخته - يعيش في جو من التأليف والترجمة والنظم ، وكان آخر إنتاجه ترجمته لروائع الأدب الفارسي القديم كما أشرنا آنفاً .

(١) ارجع إلى مجلة « الحديث » المجلد ٣١ الأعداد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ سنة

١٩٥٧ .

(٢) لا عبرة لما جاء في سجل النفوس من أنه من مواليد سنة ١٨٩٠ ، فالواقع ، أنه جاوز التسعين - مد الله في عمره - وقد أشار إلى ذلك في قصيدة « غرور الشباب » التي نظمها قبل سنوات في مداعبة شيخوخته على ضوء نظرية فورنوف بقوله :

| | |
|---------------------------|-------------------------|
| شاب رأسى من الزمان وشابت | مع رأسى جوامح اللذات |
| أتراني وقد بلغت من العم | ر عتيا وجف ماء قناتي |
| وأراني وقد أنفت على التـ | مين حتى حسبت في الأموات |
| أتمنى بأن يعود شباب | لى طالت في إثره حسراتي |
| قال : هذا على غير عير | فأطعنى أجثك بالبينات |
| فبتلقح خصيتيك ستمسى | بنشاط التناس في الغابات |
| قادراً ما حييت مثل على فـ | ح حصون الأوانس الخفرات |

الصواعق المحرقة

وهي القصيدة التي وصف فيها ذاته قبل خسين سنة . .

ولكن صرف الدهر أفقدني حسي
فليس على من لم يساعده من بأس
ثلاثاً فلم أسكر فأترع لي كأسى
على السوافي من شقائي ومن تعسى
فأصبح من نعمي الحياة كما أمسى
زميلي «جان فابخان» في ظلمة الحبس^(١)
كما يقتضيه الفن مني على الطرس
مثال «إمام العبد» إلا من الحبس^(٢)
فلون بياض الحبس رمز إلى النفس
وقد كان مجهول المكان أخوا بؤس
وأين مكان النابهين من الفلاس
قصوري بالآجر والطين والكلس
وما أعولت أي لا شقيت عرسي^(٣)
بكدهي بالمنشار طوراً وبالفأس
من الساج والصفصاف والجوز والبقس
وأجلست من يأوي لبيتي على كرسي
بدت في أديم الذقن من مطلع نحس
بموسى إذن تأتي عليها من الأس
من العدم والإملاق صنفراء كالورس

أخني ليس ما بي من جنون ولا مس
هو الدهر لم يخلص من اللؤم طبعه
سقاني من الأوصاب نهلاً وعلى
فلو كنت مداحاً «كشوقي» لما سفت
إذن كنت أكتال المديح لعاهلي
ولو كنت رساماً رسمت بريشتي
وأعملت فكري كي أمثل بؤسه
ولو كنت مثالا لما كنت ناحتاً
ويكفيه مني أن أبيض وجهه
فقد كان مثلي خامل الذكر معدماً
يريد له فلساً فيخطب وده
ولو كنت بناءً بنيت كما أشأ
فأسكنت أطفالاً ببيت يكهم
ولو كنت نجاراً لأنعتب ساعدى
وأحضرت أخشاني لأرضي زبائني
وحددت منقاري وأرهقت مسجحي
ولو كنت حلاقاً «لزينت» لحية
فطالت كليل البائسين فمن لها
لقد نسجت فيها العناكب فاغتدت

(١) جان فالخان هو بطل رواية «البؤساء» التي وضعها فيكتور هوغو .

(٢) إمام العبد هو ، كما يقول الشاعر ، إمام البؤساء .

(٣) العرس بكر العين : الزوجة .

نخيلاً وأعنا باً فأثمر لى غرسى
نهضت فعاقبت المسيئين بالكس
مكاناً بيافاً أو بحيفاً أو القدس
هنالك فى السودان بين بنى جنسى
بى الجن فاستغنيت عن صحبة الأنس

ولو كنت جناناً غرست بجنتى
ولو كنت كناس الشوارع ساعة
ولو كنت «عزرا» أو «صيون» وجدت لى
ولو كنت زنجياً لعشت منعماً
ولو كنت عفريتاً من الجن لاحتفت
ثم يخاطب شيطانه بقوله :

ولا أنا من يبدل الطهر بالرجس
هو الدهر مطبوع على الغبن والوكس
عهدتك يا «ملحوب» ذا خلق شرس^(١)
كما يخرج السهم المريش عن القوس

فما أنت ممن يبدل الغى بالهدى
فكيف اتفقنا يا خبيث وإنما
فلا تعرض رأياً أراه فإننى
همست بأذنيه فراح مولياً

وبعد أن يذكر أيامه فى بغداد وما امتاز به العراقيون من مروعة وشمم
ودفاع عن وحدة العرب يقول :

على أنها الآلام من طبعها تنسى
فقد أخلفت ظنى وقد غيرت حدسى
على ساحل الآلام من شقوتى مرسى
قريباً من البلوى ، بعيداً عن الأنس
فروحت عن قلبى ورفهت عن نفسى

فلست بناس ما حييت ولا هم
عذيرى من الأيام هل أنت منصفى
فهل نافعى أنى أديب ومركبى
أنى الله إلا أن أعيش مشرداً
صواعق نار من فؤادى قذفتها

معروف الأرناؤوط

١٨٩٢ - ١٩٤٨

صحفي ، أديب ، روائي .

ولد في بيروت سنة ١٨٩٢

من خريجي الكلية العثمانية الإسلامية التي أنشأها الشيخ أحمد عباس الأزهرى .
كان منذ عهد التلمذة ميالا إلى الأدب ، وقد عكف على دراسة العربية
والإفريقية فتفوق فيهما على أقرانه ، بدأ يكتب ويترجم وينشر مقالاته في جرائد
« البلاغ » و « الرأى العام » و « الإقبال » فلفت إليه الأنظار .
اجتذبه الفن الروائى فعكف على مطالعة القصص الإفريقية وأفاد منها
كثيراً .

كان أسلوبه الإنشائى وخياله الجامح من العوامل التي مهّدت له أن يلج
ميدان القصة ، فكتب وترجم أكثر من قصة واحدة ، وهى قصص كانت تدور
فصولها على المغامرة والبطولة وتستمد وقائعها من هذه الأحداث التي تشغل بال
المواطنين العثمانيين .

في سنة ١٩١٦ طلب إلى الجندية ، ويشير إلى ذلك بقوله :

« في صيف سنة ست عشرة وتسعمائة وألف ، أُلقت بي حظوظي إلى مغاني
إستانبول ، وأرادني القدر جندياً من جنود الحرب الكبرى التي روعت القصي
والدني ، فارتضيت ما لا يرتضيه العمر الطرى الجنى » .

وقد ظل طوال مدة الحرب في الآستانة ينعم بحمال طبيعتها فاستيقظت
في نفسه الكثير من الهواجس الأدبية فسجلها بأسلوبه الرائع الجميل .

لم تكد تنتهى الحرب حتى عاد إلى دمشق ليعمل في الصحافة ، فأصدر في
عام ١٩١٨ جريدة « الاستقلال العربى » بالاشتراك مع عثمان قاسم ورشدى
ملحس لم تدم طويلا ، وإذ كان من هوة الصحافة فقد أنشأ في عام ١٩١٩
مجلة أدبية باسم « العلام العربى » لم تكتب لها الحياة أيضاً فتركها وأصدر عام

١٩٢٠ جريدة « فنى العرب » فاستمرت تصدر باستمرار مدة ربع قرن وظل محررها ويكتب مقالها الافتتاحى إلى آخر يوم من أيام مرضه الوبيل . وقد كان للمقال الرئيسى الذى يكتبه صداه القوى فى نفوس الساسة والأدباء معاً ، لأنه كان يصوغ الفكرات السياسية والاتجاهات القومية فى قوالب من الأدب الرفيع غاية فى الجزالة والإيقاع الموسيقى . مع أنه كان ينهج فى سياسة جريدته نهجاً حرّاً يخالف أحياناً نهج الساسة ، ومع ذلك فقد كانوا يجمعون على تقديره وحبه وعلى إكبار أدبه لإيمانهم بإخلاصه للقضية العربية ولكل ما يتصل بتاريخ العرب . وقد كان إلى عمله الصحفى ، يغذى جريدته بالدراسات والبحوث : يكتب الفصول الأدبية والبحوث التاريخية ، ويترجم المقالات السياسية عن الإفرنسية ، وظل سنوات يتولى وحده تحرير الجريدة كلها .

ومع مشاغل الصحافة المتعبة المرهقة فقد انصرف إلى التأليف الروائى الذى بدأ به حياته الأدبية .

وكتابة الرواية هى الظاهرة التى انسجمت مع نفسيته وأدبه ، فقد امتلأت نفسه بأجماد العرب وتاريخهم المجيد ، ولا سيما تاريخ النبى محمد ، فعكف سنوات يعدّ العدة لهذه الرواية التاريخية فما انبثق عام ١٩٢٩ حتى كان بين يدى قراء العربية روايته الكبرى « سيد قریش » وهى فى ثلاثة أجزاء قاربت صفحاتها الألف صفحة . فكان لصدورها دوى كبير فى عالم الأدب ، وسرعان ما كافأه المجتمع العلمى العربى على إنتاجه فانتخبه فى سنة ١٩٣٠ عضواً بين أعضائه العاملين ، واستمر إنتاجه الأدبى فأصدر سنة ١٩٣٦ رواية كبيرة عن « عمر بن الخطاب » فى أربعة أجزاء تناولت بأسلوب روائى شائق حياة العرب الاجتماعية والسياسية وكفاحهم فى سبيل حرية الشام والعراق من زمن محمد سيد قریش إلى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ومن المؤسف أن لا يصدر منها غير جزأين فقط بلغت صفحاتهما السبعمائة . ثم أصدر فى عام ١٩٤١ رواية ثالثة عن « طارق بن زياد » وأعقبها برواية رابعة عن « فاطمة البتول »^(١) ثم هدّه المرض

(١) وكانت أولى محاولاته فى كتابة الرواية التمثيلية رواية « أبو عبد الله الصغير » آخر ملوك العرب فى الأندلس ، وهى مأساة تاريخية ذات خمسة فصول طبعت سنة ١٩٢٩ على نفقة الكلية للفاروقية بحلب .

فتوقف إنتاجه وهو فى اكتمال كهولته ، فلم يكذب يتم العقد السادس من حياته حتى وافاه الأجل فى اليوم الثلاثين من شهر كانون الثانى سنة ١٩٤٨ . وكأنه كان ينتظر مصيره العاجل ، فى مقدمة إحدى رواياته يقول :

« ولئن بقى فى الأمل طول ، وفى الأجل فسحة ، فسأكتب كثيراً ، وأصور كثيراً ، وأغنى كثيراً . . »

ولكن القدر لم يرأف بهذا الأديب ليكتب كثيراً ، ويصور كثيراً ويغنى كثيراً . . ولو مد الله فى أجله وعمر طويلاً لترك للأدب العربى ثروة ضخمة ولكتب تاريخ أبطال العرب بأسلوبه الرائع وبيانه المشرق الذى تترقق الحياة فى كل كلمة من كلماته .

* * *

هذا ، وقد كان معروف الأرنؤوط من المؤمنين بفكرة الإمبراطورية العربية فكتب فى الدعوة إلى هذه الفكرة مئات المقالات ، وقد برزت هذه الفكرة صوراً حية حتى فى رواياته . . فى رواية « سيد قریش » - والمفروض أن تكون ذات إطار دينى - كانت الأفكار القومية أغلب ، وما رأيت كاتباً استطاع أن يقرب بين وجهة نظر المسلمين والمسيحيين فى القومية العربية ويحبها إلهم بل يجعلها عقيدة من العقائد كما فعل معروف الأرنؤوط ، ومن يقرأ روايته هذه ، ورواية « عمر بن الخطاب » فإنه ينساق إلى هذه الآراء بدون تردد . فقد أبدع أيما إبداع فى تصوير الشوائب العربية والنخوة العربية والبطولة العربية والكرامة العربية والاعتزاز بالقومية العربية - كل ذلك بتدليل منطقى وأسلوب شعرى أخذ ينفذ إلى أعماق النفوس - وقد وصف الدكتور سامى الدهان أسلوبه بقوله : « يكتب على الورق كما ينسكب الربيع على الطبيعة فيورق ويزهو ويعطر ويسحر ويضحك ويبتسم ويغنى وينشد ، وتشرق من خلال ذلك ألوان زاهية وأنوار مشرقة ، فتقع على حلو اللفظ وضاحك المعنى وعاطر الصور ومجنح الخيال ، تتسابق الألفاظ المدوية ، والعبارات الضخمة ، والكلمات المختارة بين السطور كما تستبق الفتيات إلى عرس فتزغرد وتصفق وترقص وتنشئ وتسكر ، ثم تخلف هذه الموسيقى التى تبدو للسامع عنيفة حيناً

هادئة حيناً آخر كالطبيعة نفسها ، أو كالموصوفات عينها . يصف المعركة فتسمع القعقعة والدوى ، ويرسم الليل الساجى فترى الأشباح تسبح فى الظلام ، ويصور المحبين فتحس الثغور والصدور والقُدود تلتقى وتنفصل ، كأن عصاً سحرية قد حركت المشهد وقادت المنظر فاتصل سحر السماء بالحديث ، وانتقل عطر الزهر إلى المرأة ، وحملت الملائكة إلى المحبوب فضائل الرجال وخصال الأبطال .

كل ذلك فى كلمات جمعت للكاتب وجعلت طوع يديه ، يصفها ويرصفها فى المحل المناسب ، وتقع فى الموقع الرضى ، فلا تكاد تنبو لفظة إلا فى القليل ، فكأنه يقول الشعر من غير قواف ، وكأنه يرصف الدر فى السطور من غير أن تحس له تصنيعاً كثيراً أو تكلفاً ممجوجاً ، والغريب أنك لا ترى عليه آثار التعب والإرهاق فهو يكتب الصفحات كما يكتب السطور ، يسيل قلمه بالكتب هداراً كشلال يرغى ويزبد عند مسقطه ، فإذا سار صفا وسكن ، وتقلبت على وجهه صور السماء وظلال الأحياء ، ولذلك كتب فنال فى الأدباء مرتبة الكاتب المخلّق والأديب المسترسل ، وقد امتدحه لذلك شاعر القطرين خليل مطران ، وقال فيه العالم الأديب الدكتور منير العجلانى يصف « روعة إنشائه المشحون بالعطر والصدى واللون » وكتب فيه صفيه الأستاذ الكبير شفيق جبرى عميد الأدب فى الشام يرسم ذكرى ثلاثين عاماً معه يقول فيها : « كان يجب فى فنه الألفاظ الحلوة المرحّة الضاحكة ، ويحرص على هذا الشكل من اللغة ، وما أعرف كاتباً اجتمع له من حلوة الألفاظ ومرح اللغة وبشاشتها ما اجتمع لمعروف الأرناؤوط » (١) .

قال يصف جزيرة العرب :

جزيرة العرب

تمتد مصر إلى الشمال الشرق من أفريقية ، فهي بلاد النهر الأزرق والسهل الأخضر ولكن الصحراء الغلفاء تغمر هذا وذاك ، ثم يربط مصر بالعالم الآسيوى شسع من أرض كدراء ، وتمنعها أن تقرب من دجلة والفرات شواحق الرمال وبواسق التلال .

تتالى على مصر فى عمرها المديد فراعنة وقياصرة . وتعاقب على العراق أمتان عظيمتان : بابل وآشور ، ثم طلعت مصر على العالم بالروائع الفواتن ، فطلعت بابل وآشور على العالم بالروائع الفواتن ، ونزعت مصر إلى الفتح فى بابل وآشور فمنعتها الصحراء هذه الأمنية ، ثم نزعت بابل وآشور إلى الفتح فى مصر فحاربها الصحراء فى أقدمش شهواتها القومية .

ولم يلبث أسياى الدنيا القديمة فى دجلة والفرات والنيل أن فطنوا إلى خطر البيد التى تصاقب بلدانهم فنزعوا إلى إذلالها وترويعها ، ورموها بالجيش والكتائب فجنىت أرضها الذل والروع . وقهرت الجيوش والكتائب . فجنى أسياى الدنيا إلى أسلوب جديد فى التضيق على الصحارى فأقاموا على أطرافها الحواجز وخلقوا فى هذه الأطراف الفيح طوائف من الممالك وولوا أمرها صنائعهم وعبدانهم من ملوك وأمراء فأمعن هؤلاء الملوك والأمراء فى طوافهم بالصحراء يريدونها على أن تلين فلا تقهرهم على الملاينة لأنها تحب الحرية ولأنها المهد الأول للحرية .

ثم طويت مصر القديمة وأدرج الفراعنة فى رمال العفاء . واحتجى رسم بابل وآشور . وتالت على شواطئ النيل ثم على شواطئ دجلة والفرات أمم وشعوب ودول ، وشرع هؤلاء الذين ورثوا دنيا المصريين ودنيا الآشوريين والبابليين فى إنشاء الحياط والأسوار والحصون ، ثم جهزوا الجيوش والكتائب ورموا بها إلى الصحراء فعبثت بكبرياء الجيوش . ولم يرعها زهو الكتائب . وذلك لأنها تحب الحرية وتحرص على أن تظل مهدها الأول !

وهكذا ظلت شواطئ النيل وشواطئ دجلة والفرات ميداناً واسعاً لمصارع الدول والأمم فى أفريقية وآسيا ، فشهد التاريخ فى متباين عصوره عبقرية هذه

الأثم في الإعمار والإنشاء ثم شهد عجزها عن الصمود أمام بواغث الفناء .
حدث هذا في عالمين اثنين يختلفان في السلائق ويتباينان في الشيم ، بينما
الصحراء الغلفاء تقبس نشاطها وزهوها من بريق الشمس على الرمال . وبينما
أبناءؤها يبتسمون للحياة وهم شخوص إلى مصارع الأثم ! وذلك لأن الصحراء
تحب الحرية ولأنها تحرص على أن تظل مهد الحرية الأول !

اسم هذه الصحراء « جزيرة العرب » وما بهذا الاسم سرف ولا إغراق
وكيف يكون في هذا الاسم سرف وإغراق ورمال جزيرة العرب تحتدم وتضطرم
كما تحتدم البحار وتضطرم ، ثم تفور وتثور كما تفور البحار وتثور ! ثم هي
إلى ذلك ليل مديد ينشر ظله المحرق في بطحاء غبراء تبلغ رقعتها ثلاثة ملايين
كيلومتر يفصلها عن بلاد الأكاسرة خليج فارس وعن الهند الإقيانوس الهندي
وعن أفريقية البحر الأحمر وقناة السويس . وتحول بادية الشام بينها وبين
بحر الروم وتمنعها رمال العراق من دجلة والفرات .

يتألف هذا العالم السحيق من تهامة على السواحل ومن نجد في السهول وتنحرف
هذه السهول العليا من الغرب إلى الشرق مبتدئة بتلك القمم الرفيعة التي تحدد
بالبحر الأحمر ومنتهية عند الهضاب والتلال في الخليج الفارسي . ثم تبلغ هذه
الجبال أوسع مدى في السمو والارتفاع في إقليم مواب ، ولاتلبث أن تنحدر حتى
تبلغ في انحدارها صعيد اليمن من غير أن تكون لها صفة الجبال المتقاربة المتشابهة
لأن أودية عظيمة تفصل بين أجزائها ، وأعظم من هذا كله وأجل أن تتفاح
شطآن الجزيرة على البحر الأحمر في أماكن واعرة لا يجرو أجنبي على وطئها
ولا تقربها السفن .

فأى خارقة من الخوارق هذه الدنيا الغارقة في الرمال ؟

* * *

إلى أن يقول :

في أساطير القدماء أحاديث لذة وبارعة عن المهد الأول لحرية الإنسان
الأول. ومن هذه الأحاديث اللذة البارعة ، أن سيد العالم حينما خلق الأرض
وأثرعها بالصخور والمياه والمروج والأودية وخلع عليها بدائع وروائع لم يمنع

جزيرة العرب من نعمه السوابغ ففجر في بطحائها الأنهار وأخصب مراعيها ،
ثم أحب أن يهب لكل مصر من أمصار الدنيا حظه القليل من الرمال وفي ذلك
نفع كبير للناس فابتعث جبريل رئيس الملائكة على توزيع الرمل فلذعت الغيرة
إبليس رئيس الشياطين وهو في مستقره فأقسم ليكيدين لجبريل ، فلما خلق سيد
الملائكة في سماء جزيرة العرب تهافت إبليس عليه وأحدث في الكيس الملىء
بالرمل ثقباً فاستفاض على الجزيرة وطغى على الأودية والأنهار والبحيرات
فأصحرت الأرض وجفت المياه واستحال البلد الذي حياه الله بضحك الربيع
المونق إلى أفوات جاهمة شديدة التعبيس .

ولكن الله الذي أحب جزيرة العرب لم يرقه هذا الذي فعله زعيم الشياطين
فقال : « لأكسونها حلة من ضياء وبهاء » ثم أفاض على ترابها الذهب وأترع
آفاقها بضياء الشمس وملاً نفوس ناسها بنشيد الحرية الرقيق فأشجى إبليس
أن تغمر هذه الأرض الكابية سيول من الضياء وروعه أن يلطف نشيد الحرية
الرقيق صدرها — الجائش الثائر ، فأحاط أفقها بالغيوم وطفق يقهقه ، ولكن
الله كان يحب هذه الجزيرة العاربة فلم يشأ أن يتمادى إبليس في طغيانه فابتعث
ملائكته على تبديد تلك الغيوم ففعلن وأترعن سماء الجزيرة بالنجوم الزواهر
فإذا خطف هذا الذهب الإلهي في المساء بهرت بروقه أعرابى الصحراء وتسرب
من هذه البروق قبس جميل إلى خيمته فضوؤها فرق وافتن ووضع يده على
صدره فإذا هو يمر بذلك النشيد العلوى فيلذ صليله ويفتح فيه لا يقول ما
يقوله الناس بلغة الناس بل ليقول الشعر المذهب الصريح في الحرية التي صقلت
كبريائه ولطفت أهواءه وجعلت منه وهو الذي يعيش عيشته الجحافة الحشنة
في وطنه الجفاف الحشن سيد دنياه في صفاء فضائله ورقة شمائله . ثم ليجعل منه
الشاعر الذى يكرم الحرية والنبي الذى يؤثل هذه الحرية !

ثم يتجم هذا الفصل الطويل الذى عرض فيه إلى أحداث جزيرة العرب
ونشأة سيد قریش بقوله :

وفى يثرب التى فتحت ذراعيها لليتم والفقر والألم والاغتراب أصبح يتيم قریش
سيد هذه الدنيا القديمة التى روعها الفرس وأذلها الرومان ، وفى يثرب طفق محمد

ابن عبد الله النبي يرسل الرسل إلى أرض الشام والعراق ليبشر هؤلاء بدنيا جديدة لا تدين لكسرى ولا تخضع لقيصر ، وفي يثرب ارتفع صوت الطفل الذى لم يعرف فى طفولته المتواضعة أباً يهدد أوجاعه وأماً تغنيه أغانيها الرقيقة العذبة ، فسمعتة جبال الشام فرقت له ووعته سهول العراق فصبت إلى جرسه . بلى : فى يثرب لا فى فارس ولا فى بزنتية كان مصدر هذه الشعلة المقدسة التى ضوأت صحارى جزيرة العرب وجعلت منها سيدة الأنهار والبحار من شواطئ عدن إلى شواطئ البوسفور (١) !

بغداد (٢)

كانت بغداد سيدة الشرق ، ومهوى أفئدة الناس فى العالم العربى يوم كان الخليفة القرشى سيد الدنيا بلا منازع .

وكانت بغداد طول عصورها ميثق الفجر الذى ضوأ الصحارى والمدن والبحار النائية والخلجان البعيدة ، لأن الخليفة القرشى سيد الدنيا أبى أن تكون هذه الدار الضاحكة على تاج حصاد الفتوح وحدها فوضع على مفرقه حصاد بغداد من العلم والمعرفة والحضارة فهاب العالم بأسها وعنفوانها ، وطأطأ رأسه أمام ذكائها وعبقريتها وتجلى فيها الحامية الراعية الساهرة على ميراث العقل والألمعية .

إننا لا نحاول أن نفتح أمام القارئ كنوز العصر العباسى ، فذلك أمر لا نستطيعه ولا نبلغ إليه ، وليس فى وسع أحد أن يفتح هذه الكنوز . ويرى نفائسها وتحاسينها وزخارفها لأن فى أشعتها ذلك الحريق الذى لا تطيقه عيون المبصرين ، وإنما أردنا أن نفهم الناس أن بغداد فى العصر الحاضر لم تقطع صلاتها بعصورها الماضية ، فهى لا تزال برغم هذه الصحارى التى تفصلها عن العالم الذى كانت ترعاه وتحميه سيدة الشرق ، ومهوى أفئدة الناس ، والنهر الذى تتدفق منه سيول العلم والمعرفة والحرية ، ولا غلو فى ذلك ولا إسراف .

(١) من رواية « عمر بن الخطاب » ج ٢ ص ١٢٠

(٢) مجلة الحديث . المجلد ١٣ العدد ٦ ص ٥١٠ .

خير الدين الزركلي

١٨٩٣

أربعة من شباب دمشق أُلّف حب الأدب بين قلوبهم منذ بداية النهضة الفكرية في سورية ، وقبيل الحرب العالمية الكبرى ببضع سنوات إذا أردنا الدقة. فنظموا وكتبوا ، وكانوا لسورية – كما كان شوقي وحافظ والمطران لمصر – الرواد الأول لديباجة الشعر العربي بعد هجعتة الطويلة ، وكانوا صدى هذه الأحاسيس التي تختلج في صدور الأمة العربية ، وما زالوا ينظمون ويعبّرون أصدق تعبير عن أحاسيسهم الوجدية ، ومشاعرهم القومية إلى أن أصبحوا حملة لواء الشعر في دمشق ، أريد بهم محمد البزم وخير الدين الزركلي و خليل مردم و شفيق جبري .. وخير الدين الزركلي من أسرة دمشقية ، ولد سنة ١٨٩٣ ، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية ، انتسب إلى مدرسة اللايك في بيروت ، وكان قد درس العربية على مشايخ دمشق – على الشيخ عبد القادر بدران والشيخ جمال الدين القاسمي وغيرهم من الأعلام ، وتعلم على مدرسة محمد كرد على الفكرية التي كانت تنزع نزعات حرة في توجيه الأمة نحو الإصلاح .

« فقد كان محمد كرد على أكبر مشجع لشباب الشام على مدارس كنوز الأجداد الأدبية وعلى التزود ب زاد العلوم العصرية . ولم تكن محاربة الجهل في الشام من الأمور السهلة في أوائل هذا القرن ، فلقد كانت حجب الجهل على العقول مسدولة ، وكانت المدارس التي تعلم العلوم العصرية جد قليلة ، فحارب الأستاذ الجهل والحجاب والبدع والخرافات » (١) .

وإذ تتلمذ الشعراء الأربعة على مدرسة كرد على ، فقد نهجوا نهجه وساروا على طريقته وكانت اجتماعاتهم غير المنقطعة تتناول مدارس الأدب ورواية الشعر والتحدث في شؤون الوطن العربي . . .

(١) « مجلة المجمع العلمي العربي » المجلد ٣٠ ص ٣٢٩ الأمير مصطفى الشهابي .

وكانوا يتسابقون في تصوير خوالج الأمة العربية وإثارة شعور أبنائها لاستعادة المجد المذهب .

وكان لكل شاعر نهجه في التعبير عن ذاته ، وإن تلاقوا جميعاً عند هدف واحد : وهو التعبير عن الذات العربية ، والتغنى بأجداد العرب ، وإثارة الشعور القومي ، مع حرصهم على نصاعة الديباجة وإشراق الأسلوب . . .

وحين جلا الأتراك عن سورية سنة ١٩١٨ وتأسست الحكومة العربية في عهد الملك فيصل ، زاول خير الدين الصحافة ولما يبلغ الثلاثين من عمره ، فأصدر مع يوسف حيدر جريدة « المفيد » للدفاع عن الفكرة العربية ، وكان لمقالاته أثرها في التوجيه القومي ، وفي نقد سياسة الحلفاء الذين تنكروا للعرب ، بعد الوعود التي قطعوها للملك حسين .

وفي صبيحة اليوم الذي دخل فيه الإفرنسيون دمشق ، ليقوضوا عرش فيصل ويقضوا على ما كان لسورية من استقلال ، غادرها الزركلى إلى فلسطين ، ومنها إلى مصر حيث تلقى دعوة من الملك حسين لزيارة الحجاز ، وتوجه إلى مكة ثم عاد إلى مصر فعمان قبل أن يصل إليها عبد الله بن الحسين .

وكان المجلس العسكري الإفرنسى قد أصدر حكمه غيابياً في ١١ آب (أغسطس) ١٩٢٠ بإعدام جمهرة من رجال السياسة الأحرار . وبينهم خير الدين ، ولما بلغه الخبر ، ابتسم ابتسامة الهزء المريرة وأنشد :

نذروا دمي حقاً علىّ ، وفاتهم أن الشقى ، بما لقيت ، سعيد
الله شاء لي الحياة وحاولوا ما لم يشأ ، ولحكمه التأيد
ومن عمان أخذ يكتب قصائده الحماسية ضد الغاصبين . . .

وكان الناس ، في سورية ، يتلقفون هذه القصائد سرّاً ، وسرعان ما يستظهرها الشباب والشيوخ ، ويرددونها في مجتمعاتهم الخاصة كنقطة من نقطات شاعر حر ، نزع عن وطنه في أقصى الظروف ، وحكم عليه بالإعدام بعد أن احتل الإفرنسى بلاده ، وكانت نقثاته الحرة تعبيراً صادقاً عن شعورهم الوطني المكبوت .

وفي عمان عيّن عضواً في مجلس المعارف ، فرئيساً لديوان رئاسة الحكومة ، وكان . يأمل كالكثيرين ، أن تكون عمان مركز الانطلاقة الكبرى لإعادة الحكم العربي إلى سورية ، ولكن خاب أملهم ، لأن التفاهم بين الإنكليز والإفرنسيين كان على أتمه . . فغادر عمان إلى مصر . .

وفي مصر أسس مطبعة تجارية للتغلب على مصاعب الحياة . ورأى أن يملأ فراغ وقته بما يعود على قومه بالخير . . .

وإذ كانت الخزانة العربية في حاجة إلى كتاب يضم شتات ما فيها من كتب التراجم . مخطوطها ومطبوعها ، قديمها وحديثها ، يعرف قراءها بمن اجتازوا مرحلة الحياة وخلفوا أثراً يذكر لهم أو خبراً يروى عنهم من أصول الأمة العربية وفروعها . وإذ كان العصر الذي نعيش في خضمه يقتضي أن يكون بين أيدي القارئ العربي قاموس يغنيه عن مطولات السير وضخام أسفارها ، فقد اضطلع بهذا العمل الخطير وحده ، وما زال يعمل بصمت ودأب وصبر وهو منفي في دار غربته تتقاذفه الأسفار - إلى أن أتم وضع قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين في الجاهلية والإسلام وسماه « الأعلام » فصدر سنة ١٩٢٧ في ثلاثة أجزاء بلغت صفحاته الألف صفحة (١) .

(١) إن قاموس الأعلام قد تم طبعه الآن في عشرة مجلدات ، وقد أضاف إليه الكثير من لم تدون سيرهم . . وعكف خلال هذه الفترة الطويلة من عام ١٩٢٧ حتى عام ١٩٥٧ يجمع وينسق ويعيش مع المخطوطات القديمة إلى أن اجتمعت لديه ذخيرة كبيرة من التراجم فغربلها ونسقها وما زال إلى أن بلغ قاموسه الكمال ، وهو أوثق مرجع لأعلام الأمة العربية خلال تاريخها الطويل ، ومن ميزاته أنه يضم خطوط الكثيرين من الأعلام الذين وردت أسماءهم في هذا القاموس الفريد .

هذا وقد استطاع الأستاذ الزركلي خلال سفارته في المغرب التي امتدت ثلاث سنوات أن يعيش ساعات فراغه مع مخطوطات مكتباتها في الرباط وفاس ومكناس ومراكش وكان كلما عثر على سيرة لم يدونها في أعلامه سجلها في كناشة ، وما زال إلى أن تجمع لديه مادة تؤلف معجماً جديداً ، وسيصدر قريباً بعنوان « الإعلام بمن ليس في الأعلام » . ويكون المستدرك الثاني . ويضم هذا المعجم تراجم لشخصيات فذة لم تأليف قيمة كنا نعتقد أنها مفقودة ، وقد اطلع على أكثرها وصورها وصور نماذج من خطوط أصحابها . . وهي سجل صادق عن التراث العربي في المغرب .

ويعمل على جمع ما تفرق من شعره لطبعه وقد يؤلف هذا الديوان ثلاثة أجزاء كبيرة ، وأكثره في الأحداث التي مرت بالأمة العربية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى إلى يومنا هذا ، إلى طرائف في الوصف والإخوانيات .

هذا ، وقد اصطفى خير الدين الزركلى ، وهو فى مصر ، غير واحد من الأدباء فى طليعتهم إبراهيم عبد القادر المازنى - كانوا يجتمعون ويتحدثون فى الأدب والحياة والسياسة العربية ، وكان المازنى أقرب أدباء مصر إلى نفسه فتحابا وتصافيا ، وكان لا يمرّ يوم دون أن يلتقيا .

ومن مصر عاد إلى القدس حيث أصدر جريدة « الحياة » وكانت مقالاته تعبيراً صارخاً عن شعور العرب فى شتى قضاياهم ، ونقداً لاذعاً للإنكليز وللفرنسيين الذين أعلنوا الحرب جهاراً على حقوق العرب . . .

ومرة ثانية ترك العمل فى فلسطين نتيجة الضغط الذى كان يلقاه من الإنكليز ومن حكومة عمان ، وكان نهجه يختلف عن نهجها كل الاختلاف . وخلال الأيام التى قضاه فى عمان كان قد سجل الكثير من الحواطر والأسرار عن المملكة الهاشمية فأصدر كتاباً عنوانه « عامان فى عمان » كما أصدر كتاباً آخر عنوانه « ما رأيت وما سمعت » وصف فيه وصفاً شيقاً ما أصاب وطنه عقب معركة ميسلون .

وفى عام ١٩٣٤ التحق بالملك عبد العزيز بن سعود فنزل من نفسه أكرم منزلة . . ونيط به الكثير من الأعمال الدبلوماسية فثقل المملكة العربية فى المؤتمرات التى شهدتها وفى سفاراته خير تمثيل .

وكان فى جميع موافقه العربى الزاخر الشعور . والأديب العف اللسان . وما زال ينتقل من الرياض إلى جدة إلى القاهرة ، ومن الشرق إلى الغرب ، ومن منصب إلى آخر إلى أن استقر به المقام سفيراً للمملكة العربية السعودية فى المغرب « الرباط » .

وحين كان فى الرياض كتب كتاباً عن الملك عبد العزيز بن سعود ، ضمنه وثائق ومعلومات وانطباعات ذاتية عن الجزيرة العربية لها قيمتها لصدورها عن أديب شاعر تختلف نظرتة عن نظرة الكثيرين ممن كتبوا عن تلك البقاع التى لا تزال تطوى فى صدرها الكثير من الأسرار . وما يزال الكتاب فى خزانته يعيد النظر فيه ويضيف عليه ما تختزنه ذاكرته عن أيام عاشها واصطبغت أحداثها بالكثير من الملابس التى ظلت خافية ، وربما قدمه للطبع أخيراً .

وبالرغم من اضطراره بالأعمال الرسمية والمهام الحكومية فيظل الأدب شغله الشاغل . .

فنشأته التي قامت على دراسته علوم العربية من منابعها ، ثم بديهته الأدبية ، ومطالعاته غير المنقطعة لكتب الأدب ، إلى حفظه الكثير لشعراء العرب الأقدمين ، ومواجهته أحداث الحياة بشتى ألوانها – المتجهمة تارة والباسمة تارة أخرى . إلى ملكته الشعرية ، إلى شعوره الدافق وإحساسه العارم بالنزعة العربية ، ثم رحلاته إلى الشرق والغرب ، ومكوثه سنوات طويلة في قلب الجزيرة العربية يدرس بيئتها وأحوالها ، ماضيها وحاضرها ، وخلق أبنائها وطباع ناسها ، ونثرها وشعرها – كل ذلك جعل منه شاعراً من كبار شعراء العربية ، وأديباً زاخر المعرفة ، وباحثاً في تراجم الأعلام يكاد يكون فريداً بين معاصريه .

وشعره الوطني والعاطفي يؤلف أكثر من ديوان واحد ، وإن كانت العربية لا تعرف غير ديوانه المطبوع سنة ١٩٢٥ باسم «ديوان خير الدين الزركلى» وهو يضم قصائد وطنية ومقاطع وجدية وتأملات ذاتية ، أكثرها في الحنين والألم – الحنين إلى غربة الوطن لجريح – والألم لما قاساه وطنه من محن وكوارث . .

وفى جوهذين العاملين كتب شعوره وأناته في قصائد قوية تصور شعور إنسان يحس إحساس قومه ، وتثيره آلامهم ، وتفزعهم مصائبهم ، فتستحيل الكلمة عاطفة ملتهبة تؤرخ أحداثاً جساماً . .

« وقد نحا في شعره منحى المتقدمين من حيث الجزالة والمتانة والأسلوب . وجمع إليه النمط المرغوب عند المتأخرين من حيث الوزن والوضع ، فجاء شعره آية في الإجداد وغاية في الإبداع والبراعة ، وهو لكثرة ما يحفظ من شعر المتقدمين وأقوالهم قد يدمج شيئاً من كلامهم في شعره حتى يخيل إلى الإنسان أنه تعمد الإغارة على معنى سبق إليه ولفظ أحكم حوكه غيره كقوله :

وما الموت إلا سبات عميق فقيم البكاء على الهاجع

وهو مأخوذ من قول أبي العلاء المعرى :

الموت نوم طويل لا هبوب له والنوم موت قصير بعثه أمم

وقوله :

إنما الشعر سلسبيل زلال كيف يدرى الزلال من مرّ فوه
وهو مأخوذ من قول المتنبي :

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا

غير أن من عرف ما أوتيه خير الدين من غزارة المادة وجودة القرينة يستبعد منه أن يعتمد مثل ذلك ، على أن بين المعاني التي استعمل فيها هذه الكلمات والتي استعملها غيره فيها — فرقاً بيناً وخلافاً جلياً ^(١) .

هذا ما أخذه عليه الأستاذ سليم الجندى في مجلة المجمع العلمى العربى حين صدر ديوانه قبل نصف قرن ، وقد وصف طريقته في نظم الشعر بقوله :

« لخير الدين الزركلى جولة في الشعر يقصر عن لحاقه كثير ممن عنى »
« بالشعر وجعله شغله الشاغل ، وله عناية شديدة بتنقية شعره »
« وتهذيبه ، وربما نظم خمسين بيتاً ثم عاد عليها بالتمحيص والاختيار »
« حتى أبقى منها عشرين أو ما دون ذلك فيأتى شعره وقد خلاص من »
« الركافة والوهن ، وسلم من التكلف الممل » .

* * *

وقد نظم خير الدين ، خلال هذه الفترات أى منذ أربعين سنة ، الكثير من القصائد ، وهى تؤلف ، كما قلت ، أكثر من ديوان واحد ، لما تطبع بعد ، ولعله يطبع جميع ما لديه من كتب ورسائل ودواوين بعد أن فرغ من طبع معجمه الكبير — قاموس الأعلام — الذى استنفد منه كل وقته وشغله عن الكثير من مدونات . . .

ونثره كشعره فيه طلاوة وجزالة وصفاء . . والشعر عنده شعور ينبض به قلبه حين تثيره الأحداث الكبرى ، وحين تدغدغه ذكريات الوطن أو ذكريات الأجداد العربية . وحين يهبجه منظر من جمال الطبيعة أو سر من أسرار الحياة الغامضة .

وشعره سهل ، واضح ، بعيد عن الكلام المتعاضل ، وهو إلى سهولته ووضوحه جزل ، مشرق ، يمتّ إلى عمود الشعر العربي الأصيل بنسب وثيق ، وهذا الذى يجعله على لسان الكثيرين من شباب الشام حين يرددون ذكريات الوطن الحزين خلال محنته الرهيبة على عهد الإفرنسيين . .

ومن شعره القوى :

وطنى

مضى على نظم هذه المقطوعة الشعرية أكثر من ربع قرن وهي تعكس حنين الشاعر إلى وطنه الأول ، وكانت سورية عند ما نظم الشاعر هذه القصيدة ترزح تحت نير الاستعمار الإفرنسى :

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| العين بعد فراقها الوطنـا | لا ساكناً ألفت ولا سكنا |
| ريانة بالدمع ألقها | ألا تحسن كرى ولا وسنا |
| كانت ترى فى كل ساحة | حسناً فباتت لا ترى حسنا |
| والقلب لولا أنه صعدت | أنكرته وشككت فيه أنا |
| ليت الذين أحبهـم علموا | وهـمـو هنالك ما لقيت هنا |
| ما كنت أحسبى مفارقهم | حتى تفارق روحى البدنا |
| يا موطناً عبث الزمان به | من ذا الذى أغرى بك الزمنا |
| قد كان لى بك عن سواك غنى | لا كان لى بسواك عنك غنى |
| ما كنت إلا روضة أنفا | كرمت وطابت مغرساً وجنى |
| عطفوا عليك فأوسعوك أذى | وهـمـو يسمون الأذى مننا |
| وحنوا عليك فجردوا قضبا | مسنونة وتقدموا بقنا |
| يا طائراً غنى على غصن | والنيل يسقى ذلك الغصنا |
| زدنى وهج ما شئت من شجنى | إن كنت مثلى تعرف الشجنا |
| أذكرتنى ما لست ناسيه | ولرب ذكرى جددت حزنا |
| أذكرتنى بردى وواديه | والطير آحاداً به وثنى |

كم ذا أغالبه ويغلبني
لى ذكريات فى ربوعهمو
إن الغريب معذب أبدا
لو مثلوا لى موطنى وثنا
دمع إذا كفكفته هتنا
هن الحياة تألقاً وسنى
إن حل لم ينعم وإن ظعنا
لهمت أعبد ذلك الوثنا

سورية الشهيدة

الأهلُ أهلى ، والديارُ ديارى
ما كان من ألمٍ بجلقٍ نازل
إن الدم المهرق فى جنباتها
دمعى لما منيت به جار هنا
وشعار « وادى النيرين » شعارى
وارى الزناد ، فزنده بى وارى
لدعى ، وإن شفاها لشفاى
ودى هناك على ثراها جارى

* * *

يا وامض البرق اطمئن وناجنى
ماذا هناك ؟ فإن صوتاً راعنى
النار محدقة بجلق بعد ما
تنساب فى الأحياء مسرعة الخطى
والقوم منغمسون فى حماها
الطفل فى يد أمه غرض الأذى
والشيخ متكئاً على عكازه
صبرت دمشق على النكال لياليا
لهفى على المتخلفين برحبها
يتربعون الموت فى غدواتهم
لا يعلمون : أفى سواد دجنة
الوابل المدرار من حمم اللظى
والظلم منطلق اليدين محكم
أجالس السمار ضاحكة بهم

إن كنت مطلعاً على الأسرار
والصوت فيه جفوة الإذعار
تركت « حماة » على شفير هار
تأتى على الأطمار والأعمار
فتكاً بكل مبر صبار
يرمى ، وليس بخائض لغمار
يرمى ، وما للشيخ من أوزار
حرّم الرقاد بها على الأشفار
كيف القرار ولات حين قرار
وإذا نجوا فالموت فى الأسفار
هم سهد ، أم فى بياض نهار
متواصل ، كالوابل المدرار
يا ليت كل الخطب خطب النار
ضحك الهوى ماحل بالسمار ؟

غضّ الصبا كتفتّح الأزهار
 ما للقصور دوائر الآثار؟
 حلّ السنّا، ما لرياض عواري؟
 هل في ديارك بعدُ من ديار
 أفتغدين وأنت دارُ بوار؟
 متكالبون على الضعاف ضواري
 فشقيمت في الإيراد والإصدار
 فصرخت فيهم صرخة الجبار
 في مثلهنّ يلوّحُ نهجُ الساري
 ظلمُ الحوادث مطلعُ الأنوار
 إلا ليرفع فيك قصرَ فخار
 ما كان فيك لهم من «استعمار»
 ثار ، وثرت وأنت ربةُ ثار
 شهودك غيرَ مقودة لصغار
 منهارُ أطلال على منهار
 أنقاضُ عَمَران ورسمُ دَمار

أمعاهد الأدب الطريف ثكلته
 أمّ القصور نواعماً ربّاتها
 أمّ الجنان الكاسيات رياضها
 أمّ الحياة ، وللحياة نعيمها
 زهو الحضارة أنت مطلعُ شمسها
 ويحّ الحضارة كيف يمتن اسمها
 هم أوردوك وأصدروك على صدّي
 هم أخرجوك فأخرجوك مهيجةً
 طالّت لياليك الثلاث ، وإنما
 وإذا الظلام عنا تبلج فجره :
 ما انهار قصرٌ في حماك ممدّ
 ما دمروك هم ، ولكن دمّروا
 حملوا عليك موائبين وما لهم
 ما ينقمون عليك إلا أنهم
 فإذا المنازلُ وهى شامخةُ الذرى
 وإذا المدينة «تدمر» أو «نينوى»

* * *

واستوح غامض سرها المتواري
 في ما محاه الدهرُ من أسطار
 والصحو غايةُ نشوة الإسكار
 صدرَ الأسنة أيما إيغار؟
 فيها المصارعُ ، أيما استهتار؟
 متداول الأنجاد والأغوار
 شتى المذاهب شردُ الأفكار
 منهم ، وبين مخادع غرّار
 يغزوهم مائة من «الثوار»

قم سائل الأجيال يا ابن نسيجها
 فلعنّ عبدة مجتلى صفحاتها
 إن الشعوب لتستفيقُ إن انتشت
 أرايت كيف طغى الفرنج وأوغروا
 أرايت كيف استهتروا بمطامع
 الشرق بين قويمهم وضعيفهم
 وبنوه بين وعيدهم ووعودهم
 لا تأمنن فأنت بين مكافح
 وانظر إلى الآلاف من بسلاهم

من كل مغوار صليب عودُه
 الواثبين إذا يقال « تأهبوا »
 إن أنصفت أيامُ « ذى قار » لنا
 طارتُ بألباب الفرنجة صبيحةُ
 واستهدفوا الأطفالَ في حجراتها
 عموا بمضطرب القذائف كل ذى
 سَروا بضرب الآمنين فرارَهم
 يقتادُ كلَّ مدجج مغوار
 والقاحمين إذا يقال « بدار ! »
 سلفاً، فنحن اليوم في « ذى قار »
 في الشام فاندفعوا إلى الأسوار
 والمطفلات وهن في الأخدار
 ضَعَفَ، وخصَّوا كل ذات إزار
 فاعجبُ لعار ستَروه بعار

* * *

غضبتُ لسورية الشهيدة أمةُ
 ورعت لها ذمم الوفاء فلم يضعُ
 لله والتاريخ والدم واللغى
 تأبى الجماعةُ أن تهون لغاصب
 وإذا العرى انفصمت تولى أهلها
 في مصر تطفئُ غلة الأمصار
 عهدُ تسلسلٍ في دم الأعصار
 حقٌ، والآمال والأوطار
 والفردُ موقوفٌ على الأقدار
 ضيمُ المغير بخطبه الكبار

جورج صيدح

١٨٩٣

شاعر دمشق تقاذفته الأسفار منذ نعومة أظفاره فلم يكد يشبّ عن الطوق حتى انتقل من مقاعد الدراسة في عينطورا — لبنان — إلى القاهرة ، ومنها إلى فنزويلا ، فالأرجنتين ثم عودة إلى الوطن فمقام في باريس .

هذه السنوات الطوال التي قضاها في الأسفار بعيداً عن الأهل والوطن لم تنسه مرابع طفولته ، فكلما اشتدّ به النوى ونأت به الدارحنّ إلى دمشق التي لا يكاد يذكّرها حتى تفيض عيناه بالدمع — ذكرتها نائياً والدمع هتان — :
دمشق : إن قلت شعراً فيك رددته قلبي كأن خفوق القلب أوزان
أنا وليدك يا أمّاه كم ملكت ذكراكِ نفسي ، وكم ناجاك وجدان

* * *

دمشق إن أشجّت الأوطان مغترباً إني لأوجع من أشجّته أوطان

* * *

يا مسقط الرأس والأرحام تجمّعنا حاشا تغيّرني في حبكِ الغير
أنسى يميني ولا أنساك يا وطناً فيك ابتدا — ليته فيك أنتهى — العمر
هذا الشاعر الدمشقي الذي طوّحت به الأقدار ، وعاش فجر شبابه وزهو
كهولته في الاغتراب هل يعتبر من شعراء المهجر أم من شعراء سورية .
فالواقع ، أنه لم يستقر في مهجر من المهاجر الأمريكية كما استقرّ الكثيرون ،
وإذ خلا كتابه « أدبنا وأدباؤنا » الذي أرّخ فيه لمائة شاعر وأديب مهجري من
سيرة ذاتية له وهو لا يقلّ عن الكثيرين منهم — رأيت من الواجب بحق
الأدب المعاصر أن أسلكه بين أدباء سورية وهو منهم في الصميم ، ولا سيما
وما من مناسبة قومية أو ظاهرة من ظواهر الحياة في الوطن السوري إلا وصفها
أدق وصف ، وخصّ دمشق ، الحبيبة إلى نفسه ، بشعير يفيض بالحب المزيج
بالدوعة والشوق والحنين :

هجرت ربوع الشام والقلب مشخن جريح سهام كان أقتلها الهجر
إذا البلبل الغريد فارق روضه فكل رياض الكون في عينه قفر

سقى الله جنات سقنتى حنانها كأم على أحضانها الولد الغر
سكرت بها فى فجر عمرى وهأنا صحت ولا فجر هناك ولا سكر

هذه الظواهر فى حياته هى التى دفعتنى أن أسلكه بين أدباء سورية فكتبت إليه أطلب بعض المعلومات عن نشأته والسنوات التى عاشها فى غربته فلم يبخل بالجاب وسرعان ما وافانى برسالة غاية فى الرقة والتواضع ، وإذا هى ، على إيجازها ، تؤرخ الفترات المتباينة التى عاشها ، وهأنا إذا أثبت الكثير من فقراتها لاحتوائها على الكثير من المفارقات فى حياة هذا الشاعر الذى ظل فى بؤسه ونعيمه وفيّاً لرسالة الأدب^(١) . . وكان الشعر أدواته للتعبير

(١)

باريس ١٥/٤/١٩٦٥

أخى . . . سامى الكيال

. . . رسالتك الكريمة أربكتنى بما نقلته إلى من سمو الشعور وكرم النفس فضلاً عن عطور الثناء على مجهودى الأدبى فى التأليف ، وهو لا يمثل جزءاً من مجهودك الكبير المشر

. . . تاريخ حياتى يؤلى نبش تذكاراته وعرضها على الأنظار لأنه سلسلة هفوات وزلات كانت كل واحدة منها جناية على نفسى وعلى موهبى وعلى مستقبل ، ولا أستطيع فهم اليد الخفية . يد العناية الإلهية ، التى سمحت بأن أبقى على قيد الحياة وعلى حال بسيط من النعمة المادية برغم تصرفاتى الطائشة وانصرافى عن الأدب والثقافة والعلم .

ولدت فى حى إسلامى من أحياء دمشق اسمه « زقاق الصّواف » قرب مكتب عنبر عام ١٨٩٣ وكنت سادس المواليد فى العائلة قبل اثنين تبعانى ، وكان إخوتى الأطفال يرتادون مدرسة ابتدائية فى حارة الكنيسة الأرثوذكسية البعيدة عن منزلنا ، وتلافياً لهذه المشقة اشترى والدى « كان قاضياً فى محكمة استئناف الحقوق مدة ٣٠ عاماً » منزلاً بجوار المدرسة تجاه الدار البطريركية فانقلنا إليه ولزمت هذه المدرسة عاماً واحداً ١٨٩٩ ومنها انتقلت إلى المدرسة الآسية وأنهيت العلوم الابتدائية فى عام ١٩٠٩ وكنت مبرزاً فى العربية مقاطعاً للدروس باللغات الأجنبية فعاينى أهل بسجنى فى كلية عينطورا بعيداً عنهم لكى أتعلم الفرنسية ، فدرست فيها عامين ونلت الشهادة الممتازة عام ١٩١١ وكان ذلك آخر عهدى بالدرس والتحصيل إذ أكرهت على ممارسة العمل الذى أمقته وهو التجارة ، فانتقلت توا عن عنطورا إلى المتجر فى القاهرة ، وصرت صدفه غنياً من أغنياء الحرب ، ولكن خسرت مالى ومركزى بعد سنين معدودة . حملنى الإفلاس على الهجرة إلى أوروبا عام ١٩٢٥ فى طلب الرزق ، ولما تعذر وجوده هناك هاجرت إلى فزويلا وتاجرت ٢٠ عاماً متوالية . وفى سن الخمسين انسحبت من ميدان الأعمال وفقاً للعهد بينى وبين نفسى وانصرفت إلى المطالعة وإلى السياحة فى أنحاء العالم إلى اليوم ، حاملاً فى قلبى جرح الاغتراب على جيبى آثار الجهاد المرهق .

آثارى هى المذكورة فى الدراسات المنشورة عني . لم أقف على طبع أثر واحد منها لسوء الحظ =

عن خواجه الذاتية . ففي مصر لم تصرفه أعماله التجارية الضخمة عن حياة

= فكانت جميعها مشوهة بالأخطاء المطبعية. الديوان الأول : « النوافل » طبعه محرر جريدة في بونس لايرس بينما كنت مقيماً في فنزويلا عام ١٩٤٧ . ولولا أني أرصدته للجان الدفاع عن فلسطين لأحرقته اشتماراً منه . تلاه مجموعة صغيرة باسم « النبضات » أصدرها كبيرة الحجم فنان عراق ادعى المقدرة والعبقريّة في الإخراج فكانت الطبعة نكبة ثانية ، لا تخلو صفحة من خطأ مطبعي ، وبعد إهداء بعض نسخ مصححة بخطي تعبت ومللت فألقيت بما بقى إلى مستودع الزبالة . . ثم على أثر زيارتي الأولى للأوطان قادماً من الأرجنتين تطوع صحافي لبناني على تسجيل ماجريات رحلتي في كتاب طريف جمعه وطبعه بعد سفري من بيروت فلما عدت إلى بيروت نهائياً من الأرجنتين وجدت ألف نسخة « ألف خدعة » ، معنونة باسم « السفارة الأدبية » ناديت خدام الفندق فحملوها إلى المطبخ وألقوها في الآتون ! وفي عام ١٩٥٦ نشرت جامعة الدول العربية محاضراتي في معهد الدراسات في طبعة سقيمة أخجلتني وأثناء وجودي في باريس طبعت دار العلم للملايين الطبعة الثانية ١٩٥٧ والطبعة الثالثة مؤخراً عام ١٩٦٤ وأنا بعيد . .

أما ما لم يطبع وينشر فهي حكايات حداثتي ونكبات تجارقي ومشقات غربتي وانحرافات سيرتي وخيانات أصدقائي . لما بدأت بتدوين الصفحات الأولى وأرسلتها إلى الصديق فريدجحا فدمت على تسرعي وانقطعت عن التدوين ولم أحتفظ بنسخة مما كتبت إليه . ذكرت فيها كيف نظمت الشعر قبل أن أحسن كتابته في عهد الطفولة ، وكان أول ما نشرت منه عام ١٩١٠ في جريدة « البرق » لبشارة الخوري ثم توالى قصائدي على مجلة « سركيس » أثناء إقامتي في القاهرة فلم تخل مجموعة منها ، مع العلم أني كنت غارقاً في بحر التجارة ، لم أتعلم العروض في المدرسة ولم أقتن معجماً عربياً إلا في الأرجنتين بعد التقاعد ن الأعمال التجارية .

وفي صدد الحديث عن أصل تسمية العائلة « بصيدح » وهل لهذه التسمية علاقة بعمدوبة الصوت قال : بحث مرة عن شجرة أسرتنا وعن أصل التسمية « صيدح » فعثرت في خزانة جدي لوالدي (م) كان تاجر أقمشة في خان قريب من الجامع الأموي في دمشق « على مجلد ضخيم متين يضم صفحات التوراة والأناجيل ، مع صفحات بيضاء مضافة إليها ، وعلى هذه الصفحات كان جدي يخط تاريخ العائلة أباً عن جد ويسجل حوادث الميلاد والوفاة والعماد والزواج . . ويالللأسف ، إن هذا الأثر الثمين فقد لما بيعت مفروشات بيتنا مع جميع محتوياته بعد ما قررت العائلة الاستقرار في القاهرة . . ولم يفتن أحد لسحب التوراة من الخزانة المذكورة . ويروي جدي تسلسل البطون والأفخاذ من قبيلة عربية زحفت من حوران إلى دمشق . أما عن التسمية فيقول إنها لقب غلب على الكنية الأصلية لما اشتهر أحد أجدادي برخامة صوته في قبيلته ، يؤكد أن الأجيال المتعاقبة لم تخل من صاحب صوت رخيم يبرر اسم « صيدح » . ويذكر أطراف حادثة جرت له سنة الستين ، أي سنة المذابح والفتنة الدينية فقال ما معناه : « لما هاجم بيتنا الرعاع بسكاكين وخناجر مصبوغة بدم الحيران عرفني واحد منهم كان استضافني مراراً وسمع غنائي فنع رفاقه من الفتك بي على شرط أن أجود على مسامعهم بعض الآيات القرآنية ففعلت ونجحت في التأثير عليهم ، فما كان منهم إلا أن ألبسوني عمامة بيضاء وجروني إلى مثذنة الحراب وطلبوا مني أن أؤذن . فأذنت واشتريت حياتي وحياة عائلتي بهذا الثمن . .

وقد سمع بالحادثة الأمير عبد القادر الجزائري فأرسل قبل المغرب رجالاً من حاشيته نقلوني مع عيالي إلى قصره حيث بقيتا في حمايته إلى نهاية الاضطراب » .

الأدب وقول الشعر ، فما يكاد يخلو إلى نفسه أو يعيش تلك اللحظات الحاملة
التي تثور فيها العواطف حتى ينطلق لسانه بالشعر . يصف هذه وتلك ،
ويتحدث إلى جارتته التي لم تشعر بألمه وبالأسى الذي يعصف بفؤاده من جراء
وحدته :

أنت لو كنت سمعتِ أنثى من جانبيًا .
ربما كنت رفعتِ نظراً منك إليًا

* * *

أنت لو كنت فهمتِ سرّ قلبي من عيوني
ربما كنت ابتسمتِ بسمة الأخت الحنون

ويزداد حبه لجارته ، ويزداد صدودها . وتخطر على الشرفة فيزداد أوار
حبه ، ويكون حديث وهمس وعتاب :

أسرفتِ في قطع العهود وبخلتِ . . إلّا بالصدود

* * *

أنسيت ما عاهدتني في حضرة البدر الشهيد
لما التقينا بين أشجار « الجزيرة » والورود
في ليلة نام الوشا ة بها عن الحب الهجود

* * *

رحماك أطيّار الجزير رة ردّدى ذاك النشيد
فلقد سمعتِ حديثها في ذلك الليل السعيد
قالت - أما قالت - غداً ألقاك في «باب الحديد» ؟
ويلدى على يدها أردّد ما تقول وأستعيد
عبثت ، أعمدة تُرى في ذمة الجار العميد
أم كلما وعد الحبيب ب تنصّت الدهر العنيد
وجنى جنايته على الـ قلبين والحب الوليد
ساحته لو كان يسـ مح مرة فيما أريد
لولاه لم أعكف على رصد النوافذ من جديد

هذه نفحة من نفحات خليل مطران ، ولا عجب — وهو صادق في تعبيره
عن هواجسه — أن ينهج نهجه في هذه المعابث التي تكررت في أكثر من
قصيدة مع « سائقة السيارة في القاهرة » ، و « ليلة البحيرة » في سويسرا :

جذّني « جانين » قد طاب السرى ونسيم البحرة الشافي سرى
فإذا أذبل جفنيك الكرى فاتركي المجذاف للماء الأمين
وتعالى ° ، ننزوي في معطى

و « العاصفة في غابة بولون » وهي قصة من أروع قصص الحب التي
يمتزج فيها الإثم بالطهر — قصة الشاعر مع التلميذة الباريسية « ليدى » :

جاءت إلى الموعد ذاتُ التقى في يدها سبحتها والكتاب
تقول لى : صدّقنى والدى أنى إلى القداس أبغى الذهاب
أتكتفى مثلى بقداسها والقلب قلبي والشباب الشباب؟
حوصرت في مدرستى طيلة الأسبوع أَدْعُوا لأحد المستطاب
صليت فيها كل يوم ولى في سابع الأيام حق الثواب

وقضيا يوماً مشرق الأسارير يتساقيان كنوس الحب ، ولكن الطبيعة لم
تتركهما ينعمان بهذا اللقاء فسرعان ما تجهم الجو وحجبت الشمس وهطلت
الأمطار فلجأ إلى أريكة كثيرة الأفنان بين الشعاب :

إذا التصقنا نتقى رعدة للبرد زدنا رعدة واضطراب
بتنسا سجينين بتلك الربي ورب سجنٍ للمحبين طاب
وتندب « ليدى » حظها ، وترتعد فرائصها وتثور في نفسها العاطفة
الدينية ، فتقول هذا عقاب إلهي لأننى أثمت :

أخطأت بالكذب أمام السما فأرسلت يمتصّ منى السحاب
واخيفتى حين يرى والدى على ثيابي لطخات التراب
ويلي إذا أبتُ وذى حالتي والويل أدهى إن أبيت الإياب
ويطمئنها الشاعر :

لا تجزعى « ليدى » ولا تيأسى أخوك ذو رأى يفلّ الصعاب
هيا إلى الفندق في المنحنى صاحبه شههمٌ رقيق الجناح

نعطيه في الغرفة أثوابنا ونصطلي فيها ونحسو الشراب
يردّها بعد قليل لنا مغسولة مكويّة لا تعاب
ويتهل وجه الفتاة ، ويزايلها الحوف وتنزع ثيابها ، وينزع ثيابه ،
ويختليان . . . ويشاهد الشاعر الحسن مستكملاً :
أشهى ثمار الروض مقشورها يغرى بمجنانه وضوح اللباب
والقصيدة - وهي من الأدب المكشوف - غاية في براعة التصوير
ودقة الوصف .

* * *

وقد كثرت مقطوعاته وقصائده التي تروى مغامرات الصبا وغراميات
الشباب ، وحين دلف إلى الشيخوخة ظلّ قلبه المشبوب يعيش في الذكريات
الحلوة :

ونذرت الزهد لا أفشى به نكبة الشيب ، ولا أسلو هواك
ويقول :

لا تعذلي بعد الكهولة صبورتي عذري شباب النفس والإحساس

* * *

ويترك مصر إثر نكبة مالية نزلت به عام ١٩٢٥ ، فيخرج مقهوراً من
معركة دامت ثلاثة عشر عاماً ، ويركب البحر ، وتجنّم على صدره الهموم .
ولا يلبث أن ينفس عن صدره بقصيدة عنوانها «التاجر الخاسر» الذي عثر به
الجد وهوى نجمه فتزح يحمل في طوايا صدره عزة النفس والألم :

صابراً ليس يشتكي غير ما فيه من سقم
ما أزال إباءه عند ما زالت النعم
دونكم ماله فلا تذكروا عرضه بدم

ولا يكاد يصل كاراكاس عاصمة فنزويلا وتطأ قدماه أرضها حتى يشعر
بالوحشة فيحنّ إلى الوطن :

وطني : ما زلت أدعوك أبي وجراح اليّـم في قلب الولد
ما رضيتُ البين لولا شدة وجدتي ساعة البين أشدّ

فتعشمت العنا نحو المنى وتقاضانى الغنى عمرأ نفد

* * *

وطنى : طوّحت بنى فى مهجر يُرهبُ الحر بأنواع النكد
شاعرٌ يُرجى ولا يرجو وفى مسجد الأصنام يوماً ما سجد
تجداه البغاث استنسرت كلما زاد أناة وجلد
وتمنى الموت حتى لا يرى غارة الهرّ على ذيل الأسد

شاعر امتلأ صدره بالعزة والأنفة والكبرياء ، فلم يئأس مما نزل به بل
جدّد العزم ودخل المعترك التجارى فوافاه الحظ وعادت بوارق النعمة والثراء
تختلج بين جوانحه . . ولم يصرفه هذا عن رسالة الأدب ، فظل قلبه يفيض
بالشعر ويصف شتى ألوان الحياة ، ويخوض مع شعراء « العصبة الأندلسية »
ميدان المعركة القومية التى شغلت العرب ، ولا سيما بعد نكبة فلسطين ، ويصُب
جام غضبه على الصهاينة . . وعلى الذين خلقوا لإسرائيل وأخذوا يمدونها بالمال
والسلاح :

لا خير فى شعب تصهين قلبه فغدا يُرابى فى الورى ويحاجى
سلب العروبة قدسها وأباحه للفاجرين ، كناهب وهّاب
إن شام فى السنجاب ذيلاً مُذهباً أفتى بنحر الليث للسنجاب

* * *

بنو فلسطين قطعان مشردة عن الحياة ، ملاكُ الموت راعيها
وكفّ صهيون بالأقداس عابثة كأنما الله أمرٌ ليس يعنيه
أما الملوك فلا حس ولا بصر ولا حديث سوى الأسلاب تُحصيها
وفى الأرجنتين ، على أثر مذبحه دير ياسين ، تنادى أبناء الجالية إلى
الاجتماع ، وخطب الخطباء وألقى موشحاً جاء فيه :

تحت ستر الليل ، ستر المحرمين طرق الفجّار بيت المقدس
يا فلسطين : على مَنْ تعتين إن تكن نامت عيون الحرس

* * *

ديرياسين على الدنيا العفاء إن تكن دنيا الزنيم الأجنبي
ثأرك الصارخ في سمع السماء جمرة تكوى قلوب العرب
قسماً ما هُدرت تلك الدماء وهى فى ذمة عيسى والنبي

* * *

قد هزنا عرش رب العالمين بدعاء من قرار الأنفس
ربُّ هب أبطالنا النصر المبين وقنا ثانية الأندلس

وديوانه « حكاية مغترب » يروى قصصه الذاتية وقصص نضال أمته .
فبينما نعيش معه فى واحة من الأنس والنعيم ، نطرب للنغم وتسكرنا الكلمة
الشاعرية التى تدغدغ أحاسيسنا ، إذ بكلماته تنقلت فى بعض المواقف إلى شواظ
من نار على رأس المستعمرين وعلى الذين كانوا سبب نكبة فلسطين — حكايات
طويلة يرويها عن اغترابه ، عن الوجد والحنين ، عن الألم والأنين . حكاية
النفس الثائرة والروح الحائرة المحلقة فى الآفاق ، فوفاءه لإخوانه ، ومعايسته
مع خلافه ، ونوازع الجمال التى تثير وجدانه ، وليالى الصفو التى تهز مشاعره
وترقص كيانه ، والأحداث التى تنزل بقومه فتثير أشجانه — كل هذه الألوان
المتباينة بأفاقها وأشواقها وأصدائها وأهوائها انتظمت شعراً سهلاً حلو النغم —
« شعر الديباجة الأنيفة ، والنغم المرح الطروب والعاطفة الصادقة المرفهة » (١) .

* * *

وتجلت موهبة جورج صيدح كباحث أديب حين طلب إليه ساطع
الحصرى أن يحاضر طلاب معهد الدراسات العربية العالية عن أدب المهجر ،
فزجه فى تجربة الدراسة الأدبية ، وإذا به يهادن عالم الشعر وينصرف لعالم
الدراسة والبحث فيعيش من جديد مع أدباء المهجر وشعرائه ومفكره — يدرس
أدبهم وشعرهم دراسة أديب عايش أكثرهم وعرف الكثير من حياتهم الأدبية ،
الخاصة منها والعامة ، ما ظهر منها وما خفى فاشتملت المحاضرات تاريخ الهجرة
وبواعثها وتياراتها وحظ الأدباء منها ونشأة الأدب المهجرى ومراحل نموه وأثره
فى الأدب العربى العام وخصائصه ورسالاته ونواحي نشاطه ، إلى مآخذ

خصومه عليه . وصدرت هذه المحاضرات فى كتاب سنة ١٩٥٦ فى القاهرة بعنوان « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية. » ثم أعيد طبعه فى بيروت سنة ١٩٥٧ كما أعيد طبعه للمرة الثالثة سنة ١٩٦٤ وقد أضاف إليه دراسات جديدة عن أدباء أغفلهم فى الطبعة السابقة ولم يعط عنهم معلومات شافية ، إلى دراسات أخرى استطاع أن يتوسع فى معالجتها بفضل الاتصالات والتحريرات والمطالعات التى أتيحت له خلال سبع سنوات مرت على كتابة الطبعة السابقة ، وقد برزت مواهبه كأديب محقق وباحث منصف ، وناقد لا تفوته الغمزة التى تهذى القارئ إلى الهفوات التى وقع فيها الشعراء أو انزلق إليها الأدباء ، وإلى نقده الموضوعى اللاذع . كان المحامى البارع المتحمس لرسالة الأدب المهجرى ، فأصبح كتابه — على كثرة ما صدر من الكتب والرسالات عن الأدب المهجرى — أصبح من أصدق وأوسع وأوثق المراجع له ، فهو بحق موسوعة كاملة ..

ومن شعره :

محمد

قصيدة نظمها بمناسبة المولد النبوى

١

| | | | | |
|-------------|------------|--------|---------|----------------|
| وجه أطلّ | على الزمان | لألاؤه | شقّ | العنان |
| فيه شعاع | النيرا | ت وفيه | أنفاس | الحنان |
| ضاقّت قريشُ | به ، أما | يكفى | قريش | الأزهران ؟ |
| منّ ذا رأى | طفلاً يُنا | غى | الله | بالسمع المثنان |
| نبذ التأمم | وهو فى | مهد | الرضاعة | والختان |
| يا صاحبيّ | بأى آ | لاء | السماء | تكذبان ؟ |

٢

| | | | | | |
|---------|--------|--------|--------|---------|--------|
| لا يعجز | الله | الذى | إن قال | كن للشئ | كان |
| أمرّ | الرمال | فأطلعت | صحراءُ | يثرب | أقحوان |

لرسل آيات ، وه
الروح يُملى ما يتر
بالضاد آذن ربّه
يا صاحبي : بأى آ
ذا الطفل آيته البيان
جمه ، ونعم الترجمان
فتخلدت لغة الأذان
لاء الرسول تكذبان ؟

٣

شرفاً حراء الغار : هل
أخذ الشهادة من شفا
في صدره طمّ النجى
وتنزلت أمّ الكتا
فهدى الأعراب ذلك الأ
أضحوا وفي الدنيا لهم
يا صاحبي : بأى آ
كحراء فى الدنيا مكان ؟
ه المصطفى أخذ البنان
وصان معجزة الزمان
ب على اليتيم مع اللبان
مى بالسور الحسان
شأن وعند الله شأن
لاء النبى تكذبان ؟

٤

الوحى سطر شرعة
ورسالة الإيمان تنة
والعرب أخلاق تنو
فتحوا البلاد فذمة
يوفون بالندر الذى
وضعوا الندى فى وضعه
يا صاحبي : بأى آ
من لا يدين بها يدان
شر بالسواعد واللسان
ر على الضلالة والهوان
تقضى وأرواح تصان
كتب الكتاب له الضمان
ووراء حدّ السنان
لاء الرسول تكذبان

٥

زهت العروبة وابنتت
تغزو ، ولكن حربها
العدل حائط ملكها
للمجد ما لم يبن بان
باسم ابن آمنة أمان
وأساسه تقوى الجنان

فرضُ الزكاة محتمٌ لا آمنٌ فيه ولا امتنان
والأمر شورى ، والخلافة بيعة للديدبان
هذا كيان الشرق ، هل في الغرب يفضله كيان ؟
يا صاحبي : بأى آلاء الرسول تكذبان ؟

٦

يا آمنٌ سريت على البراءة وجزت أشواط العنان
آن الأوان لأن تجدد ليلة المعراج . . . آن
عرج على القدس الشريف فففيه أقداسٌ تهان
ضجّ الحجيح به وريد مع ضريحه والمسجدان
والقوم ألسنة مبدلة كأن الحشر حان
هذى سدوم تصاعدُ النيران فيها والدخان
والذعر يحدو الشاردي ن كأنهم قطعان ضان
ماذا دهاهم ؟ هل عصو ك فأصبح الغازى جبان ؟
أنت الذى علمتهم دفع المهانة بالسنان
ونذرت للشهداء جنا ت وخيرات حسان
يا صاحبي : بأى آلاء النبى تكذبان ؟

٧

سمعاً رسول الحق ، ضامع الحق واختلّ الوزان
أُم تنازعنا البقا ء كأنها خيل الرّهان
باسم السلام تسلمت وتأمّرت باسم الحنان
عملت على خنق الشعو ب بما تجود به اليان
وتأنقت ، فالنير فى عنق الأعارب أفعوان
لا حرمة الإنسان تر دعها ولا قدس المكان
لأنل من هذا مشى ال عربى للحرب العوان
فاشفع له ، وأعنه يا نعم الشفيع المستعان

| | |
|---------------------|------------------------|
| بارك جهاد المؤمن | ين النافرين إلى الطعان |
| الضارعين إليك ، باء | سم الآل والصحب الغران |
| وييوم مولدك السنى | وبحق موحيك القران |
| أن لا تصون دماءهم | وامنح فلسطين الصبيان |

خليل مردم بك

١٨٩٥ - ١٩٥٩

شاعر ، أديب ، من أركان النهضة الأدبية في الشام ، خلف محمد كرد على بعد وفاته في رئاسة المجمع العلمي العربي بدمشق .
خطّ سيرة حياته بقلمه فقال :

« ولدت في دمشق سنة ١٨٩٥ وقبل أن أبلغ السنة السابعة من عمري جعلت أذهب إلى الكتاب . ولما تجاوزت العاشرة دخلت مدرسة الملك الظاهر الابتدائية الرسمية . وكنت منذ عقلت على نفسي وصرت أقرأ وأكتب أجدي ميالاً للشعر وقراءته وحفظه ، وفي هذه المدرسة وجدتني أقول الشعر دون أن يكون لي إلمام بشيء من علوم العربية . وانتقلت من تلك المدرسة بعد ثلاث سنوات إلى المدرسة الإعدادية الرسمية ولم أمكث بها إلا سنة وبعض السنة . وشرعت أتلقى دروساً خاصة في العربية وآلاتها كما أخذت مع النحو طرفاً من الفقه عن الشيخ عطا الكسم وطرفاً من الحديث عن الشيخ بدر الدين الحسني . وكنت مع رفاق لي في الطلب نجتمع في أوقات معينة لمراجعة الدروس ومطالعة بعض كتب الأدب . وكان أكثر اعتمادى في الأدب على دراستي الشخصية .

ولما جلا الأتراك عن دمشق في أواخر سنة ١٩١٨ وقامت الحكومة العربية عينت مميزاً لديوان الرسائل العامة . وفي سنة ١٩١٩ عينت مدرساً للإنشاء في مدرسة الكتاب والمنشئين التي جعلتها الحكومة لموظفيها خاصة ، ولما أعلن استقلال سورية الأول وبويع الملك فيصل ملكاً عليها وتألّفت أول وزارة سورية نقلت من ديوان الرسائل العامة وسميت معاوناً لمدير ديوان الوزراء . وبعد أن دخل الجيش الإفرنسي دمشق وبرحها الملك فيصل صرفت من عمل الحكومة .

وفي سنة ١٩٢١ أسس فريق من الأدباء في دمشق جمعية " الرابطة الأدبية " فانتخب رئيساً لها وكان من أعمال هذه الجمعية أن أصدرت مجلة الرابطة الأدبية ونشرت كتاب معاني الشعر للأشنانداني ، وكان لي فيهما عمل .

ولم يطل عمر هذه الجمعية لأن الساطة الإفريقية أمرت بإلغائها .
وفي سنة ١٩٢٥ انتخبت عضواً في " المجمع العلمي العربي " وكانت
أطروحتي كتيب شعراء الشام في القرن الثالث .

وكنت درست بدمشق اللغة الإنكليزية مدة يسيرة ثم ذهبت سنة ١٩٢٦
إلى لندن لأتمم دراستها بين أهلها فمكثت في لندن ثلاث سنوات حضرت في أثنائها
محاضرات في اللغة الإنكليزية وآدابها بجامعة لندن فضلاً عن الدروس الخاصة
التي كنت ألقاها هناك .

وفي سنة ١٩٢٩ درست الأدب العربي في الكلية العلمية الوطنية بدمشق
واستمر عملي بها تسع سنوات ألفت في أثنائها سلسلة " أئمة الأدب العربي "
طبع منها خمسة أجزاء وهي : الجاحظ ، ابن المقفع ، ابن العميد ، الصاحب بن
عباد ، الفرزدق .

وفي سنة ١٩٣٢ أصدرت مع الدكاترة جميل صليبا وكامل عياد وكاظم
الداغستاني مجلة « الثقافة » فعاشت سنة واحدة .

وفي سنة ١٩٤١ انتخبت أمين سر عاماً للمجمع العلمي العربي .

وفي سنة ١٩٤٢ عهد إليّ بوزارة المعارف .

وفي سنة ١٩٤٨ أعيد انتخابي لأمانة سر المجمع العلمي العربي . وفي هذه
السنة انتخبت عضواً مراسلاً للمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وفي سنة ١٩٤٩ عهد إليّ بوزارة المعارف ووزارة الصحة العامة ، وفي السنة
نفسها انتخبت عضواً مراسلاً للمجمع العلمي العراقي .

وفي سنة ١٩٥١ رجعت إلى أمانة سر المجمع العلمي العربي .

وفي سنة ١٩٥٢ عهد إليّ بوزارتي المعارف والخارجية .

وفي سنة ١٩٥٣ انتخبت رئيساً للمجمع العلمي العربي . «

* * *

خليل مردم بك من بيوتات دمشق القديمة ، ومن عائلة عرفت بالجاه
والثراء ، عاش فترات حياته في العهدين التركي والإفريقي إلى أن شهد عهد
السيادة والاستقلال . أي عاش في محيط تنور فيه النفوس على الغاصب ،

فقد كانت سورية ، بعد الحرب العالمية الكبرى تحت الانتداب الإفرنسى ، وكان للنضال الإفرنسى أثره فى نفوس الشعب السورى بجميع طبقاته ، وفى نفوس الأدباء بصورة خاصة . فنشأ وهو يكره كل الكره الأوضاع التى اقترفها العهدان فى بلاد الشام ، وكانت البلاد فى بدء تطورها ، والفكرة العربية فى نمو مطرد ، فما شعوره على حب كل ما هو عربى وكل ما يعود على العرب بالخير . . ولما احتدم الكفاح فى عهد الإفرنسيين كان شعره من الأصوات المعبرة عن أحاسيس الأمة وشعورها ، عن آلامها وآمالها ، عن كفاحها ونضالها ، وليس للشاعر الذى يعيش فى محيطه إلا أن يتأثر بجو هذا المحيط ، وقد تأثر خليل مردم بك بجو دمشق المحموم أيام الإفرنسيين ، أى منذ تقلص حكم فيصل سنة ١٩٢٠ إلى أن جلا الإفرنسيون عن سورية فى عهد شكرى القوتلى سنة ١٩٤٦ فكتب عشرات القصائد يصور هواجس فؤاده وهواجس قومه معاً .

* * *

وهو شاعر دقيق اللفظ ، زاخر المعنى ، غلب شعره الوصفى على الكثير من أغراض الشعر . وهزته أحداث سورية ، أيام الانتداب الإفرنسى ، فوصفها وصفاً بليغاً أقرب إلى الواقع منه إلى الخيال ، وكان لا ينجح إلى الخيال إلا حيث تقسره ضرورات السياسة خوفاً من بطش الغاصبين . وشعره القوى من المراجع الثبته لمؤرخ يحاول أن يستقرى نفسية الأمة فى الفترة التى مرت بها سورية خلال الحرب بين العالميتين حيث كانت مغلوبة على أمرها . . على أنه ، كشاعر منطلق ، لم يفته أن يصف أدق مظاهر الحياة العصرية ، فقصيدته « الرقص » تعتبر من أروع قصائد الشعر المعاصر ، فقد وصف هذه الظاهرة الغربية فى محيط الشباب الذين اندفعوا وراء فنون الغرب وبدعه ، وهى ذات جرس منغم تتمشى والإيقاع الموسيقى الذى ينقل خطوات الراقصين فى حلبة الرقص . .

غلب الشعر على حياة خليل مردم بك الأدبية فى بدء نشأته ، وما زال حتى نهاية كهولته حيث انصرف إلى الدراسات الأدبية وإلى تحقيق الشعر القديم ونشر المخطوط منه ، فقد حقق ديوان « ابن عنين » الدمشقى سنة ١٩٤٦ ،

وديوان عليّ بن الجهم سنة ١٩٤٩ وديوان ابن حيوس سنة ١٩٥١ ثم ديوان ابن الخياط سنة ١٩٥٨ ، وقد طبعها كلها المجمع العلمي بدمشق ، نشر هذه الدواوين الأربعة بعد أن قدم لها ببحوث واسعة عن حياة هؤلاء الشعراء وعلمهم وأدبهم ولغتهم وعصرهم ومكانتهم من عالم الشعر وتأخذ النقاد على شعرهم .

وطريقته في البحث أن يحشد الكثير من أقوال المتقدمين حتى ليكاد أسلوبه يضيع بين وفرة النصوص . غلب على طبعه التحقيق أكثر من التعبير . وقد لا تجد أي تنافر بين ما تخطه يراعيه وما يورده من نصوص لغيره ، ومردّد ذلك كثرة قراءته للأدب العربي القديم وللأدب العباسي الذي تترقّق الكثير من صورته على نثره الذي يماشي أسلوب الفحول من الأدباء المتقدمين .

* * *

هذا ، وقد نشر المجمع العلمي العربي بدمشق ديوانه بعد وفاته^(١) فاشتمل على الوصف والوطنيات والنسب والاجتماعيات والإخوانيات والمراثي والإسلاميات وهو في نيّف وأربعمئة صفحة أشرف على طبعه وعلق عليه ولده الشاعر عدنانُ مردم بك وقدّمه الدكتور جميل صليبا بدراسة مستفيضة عن خصائص شخصيته وشعره فاعتبره وجه دمشق الحق وشاعر الغوطة الملهم وعالم الشام الفاضل : تتمثلّ فيه طبائع أهل الشام على أحسن وجه وأتمّ صورة .

يقول : « لم أجد بين شعرائنا المعاصرين شاعراً وصف غوطة دمشق كما وصفها خليل مردم بك ، فهو يصوّر رياض الغوطة وأزاهيرها وجداولها وخالئها وأطيارها تصويراً دقيقاً مفعماً بخنان القلب وأحاسيس النفس ، وهو يحنّ إليها حنين العاشق إلى معشوقه ، يلقاها بوجه باسم ونفس متعطشة إلى شذى ريحانها فيشجيه عبق الزهر ، وساجع الطير ، وانسياب الغدير . وتعانق الغصون فيقف أمام الطبيعة وقفة المسحور ، يعاطيها أحاسيسه وتعاطيه صورها ، ولا يصورها إلا بعد أن يغمس ريشته في مداد قلبه ، ولا ينثر في سمائها أحلام نفسه وهوى فؤاده إلا ليتحد بها اتحاد الصوفي بمعبوده ، فكأن نفسه مرآة

(١) توفي رحمه الله . صبيحة يوم الثلاثاء الواقع في ١٥ محرم سنة ١٣٧٩ الموافق ٢١ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٩ .

تعكس أسرار الطبيعة ، وكأن الطبيعة صورة من صور نفسه . والدليل على ذلك أنه يشبه صور الطبيعة بآثار النفس الإنسانية : فللزهرة مقلة وسنى ، وخذ ناضر ، وثغر باسم ، وجفن حائر ، وجبين يعرق ويرشح كما يرشح جبين البكر حياءً ، وللغصون أذرع ممدودة للتعانق ، وللرياح تأوّه ، وللأطيّار حركات تحكى حركات القيان الراقصة ، وتغريد يشبه ألحان المغنين ، كأن الطبيعة التى يصفها كائن حيّ له قلب يدقّ ، وعرق ينبض ، وأنفاس تتدفق .

« وأبواب شعره على كثرتة قليلة طغى عليها باب الوصف فى الطبيعة والفن ، فليس له فى الحكمة والثناء والاجتماع إلا قصائد معدودة ، وليس له فى المدح والفخر إلا أبيات قليلة أتت ضمن قصائده المختلفة ، على أن له قصائد كثيرة فى الحماسة الوطنية والنسيب وأخرى فى الحنين إلى دمشق والتفجع على فراقها ذكر فيها مسارح صباه ومعاهد أنسه .

« وقد خلا شعره من الهجاء إلا فى مواطن القدح على المستعمرين والإنحاء باللائمة على المتصاغرين أمامهم . وكما خلا شعره من الهجاء فكذلك خلا من ذكر الحجون والعبث واللهو ووصف اللذات الحسية ، فهو لا يتفنن فى وصف الرقص إلا ليقول إن الرقص هو ولعب ، يهون به كل صعب ، ويتيسر كل عسير ، ولا يصف مجالس الشراب إلا ليطلب من الله أن يغفر له زلات الصبي ، ويتقبل منه التوبة . »

وكما خصّ جميل صليبا الشاعر وشعره بدراسة مستفيضة ، خصه الدكتور سامى الدهان بدراسة عن حياته . ونشر له المجمع عقب وفاته كتاب « جمهرة المغنين » ، ألفه وهو فى فجر حياته الأدبية ولم تناهز سنه الثامنة عشرة ، والكتاب « تاريخ موجز عن المغنين المسلمين وسيرهم فى أزهى عصور الخلافة الإسلامية أيام بنى أمية وبنى العباس إلى زمن الراضى ، وبه بحث ممتع عن تاريخ الغناء والمغنين وتأثير الغناء وآلاته ومن دونت له صناعة فى الغناء من الخلفاء وأولادهم مع ترجمة لابن النقيب . »

الحلف والجار^(١)

أجارك الله ، هذا الحلف والجارُ
 هم حكّموا فإذا التحكيم عندهم
 قضيةٌ عجبٌ تبكى وتضحك سل
 لا يستقيم قياس في تناقضها
 الحصم يحكم والقاضى بها همـلٌ
 إذا المحامى أعان الحصم في ترة
 عليك - لا لك - أعوانٌ وأنصارُ
 تحكم ، وإذا التخيير إجبار
 عن خطبها الوفد^(٢) واستشهدها (غارو)^(٣)
 ولا يصح على ما تمّ معيار
 والحق يصرع والبهتان سوار^(٤)
 فليت شعرى ممن يدرك الثار

* * *

قل للحليف^(١) وخير القول أصدقه
 من بعد عشرين عاماً بين أظهرنا
 عهدى به يستثير الطفلُ غضبته
 أعيذه أن يقولوا عنه جبّار
 ما بال جيش توارى وهو جرار
 لم يحم ثغراً ولم تمنع به دارُ
 ما باله اليوم رحب الصدر صبار
 على الضعيف وعند البأس خوار

* * *

يا لابس الثوب مزهواً بجذته
 عساك تزعم أن الأمر بتّ به
 يقضى على حقنا بغياً وليس لنا
 ويل الضعيف وأُفٌ للقوى إذا
 إذا الممالك لم ترفع قواعدها
 انظر فقد علقت في ذيله النار
 من دون علمك ، هلى في ذاك إعدار
 علم ، لعمرك هذا الهون والعار
 لم يبق للعدل إيراد وإصدار
 على الأسنة فالبنيان منهار

* * *

قالوا « الجزيرة » لا ترضى بحكمكم ما فى « الجزيرة » إلا النفط والقار

(١) قيلت بمناسبة حوادث الإسكندرونة التى اغتصبها الأتراك من سورية .

(٢) اللجنة الدولية التى أرسلتها عصبة الأمم إلى الإسكندرونة للإشراف على الاستفتاء .

(٣) المندوب الإفرنى فى الإسكندرونة .

(٤) السوار الذى يواكب نديمه إذا شرب والسوار من الكلاب الذى يأخذ بالرأس .

بهزل دهرک إسکاف وخمار
فی ظهره من سیاط الترك آثار
فصال یرهیج فی الميدان حمّار؟
وراء قترته (١) كالرعد هدار

ديار عمرو بن كلثوم يعيث بها
من لاجئ ودخيل وابن سابلة
(طی) و(تغلب) هل نامت فوارسها
رواية سمجة صوت الملقن من

* * *

لو يستثار بها الموتى إذن ثاروا
فأين - لا أين - ألباب وأبصار؟
فلم تُقَطَّع أرحام وأقطار؟
شأن العبيد ، وبقى الناس أحرار
على المزيد - ولا أرقام - أصفار..
جهلاً أكلكم يا عرب أغمار (٢)
حمى مباح وإذلال وإفقار
كم أرسلت شرراً بالقدح أحجار
بالسوء والعسف أنياب وأظفار
لى القبلتين « بها لم يأمن الجار
من حرمة « الحرم القدسي » أستار
إن الحوازب والأحداث مضمار

بنى « العروبة » كم من صبيحة ذهبت
إن الحوادث لو أدركتم عبر
الرحم واشجة والدار جامعة
هنتم على كل شعب من تخاذلكم
لم تغن كثرتكم عنكم كأنكم
تخربون بأيديكم بيوتكم
يا ليت شعري ماذا يستفزكم؟
أرى الحجارة أحمى من أنوفكم
إخوانكم في « فلسطين » تنالهم
« مهد المسيح » و« معراج النبي » وأو
كم ريع سرب بها بغياً وكم هتكت
أين السوابق للجلی إذا نزلت

١١ ربيع الآخر ١٣٥٧ هـ

١٠ حزيران (يونيو) ١٩٣٨ م

(١) القتره : الكوة أو النافذة - الخبأ .

(٢) أغمار جمع غمر وهو المجهول الحامل الذكر .

على الناصر

١٨٩٦

وصفه أمين الريحاني حين أصدر ديوانه «الظما» سنة ١٩٣١ بقوله :
 « . . إن أفق شعره ليحيط بنزعات متعددة ، متباينة ، وبأساليب هي
 عنفوان الفتوة ، متنوعة البذور . . منها زاهر ، ومنها ما يزال في البراعم والأكام .
 وله نهيمات فظيعة^(١) ، ونفحات شذاها من البنفسج والياسمين . .
 ومن العجيب أن الذئب والغزال يرعيان في قلبه ، ولا يتعدى الواحد غابه
 رحماه » .

وهو وصف في غاية الدقة ، والواقع أن على الناصر ، الذي جمع بين
 الطب والشعر ، إنسان غريب الأطوار ، فيه شذوذ الموهوبين ، كونه نفسه
 تكويناً غريباً . كثير المطالعة . نهم لا حدود لنهمه في كل ما يتجه إليه قلبه
 وعقله . . إذا أحبّ تراءت الدنيا في نظره أغرودة من الأغاريد ، وإذا بغض
 انقلب ثورة هائجة . .

لا يقبل الجدل فيما انتهى إليه من رأى ، وقد يجادل الساعة دون ملل
 ليقنع مجادله بوجهة نظره . .
 عرفته منذ أربعين سنة يهجس بالشعر فما انقطع عنه وما زال وهو في
 السبعين من عمره .

ولد في حماة سنة ١٨٩٦

وأتمّ دراسته الرشدية فيها . والإعدادية في دمشق ، والطب في إستانبول
 — الطبية الشاهانية — ، ثم سافر إلى باريس للتخصص في الأمراض الجلدية
 ففكث فيها بين سنتي ١٩٢٣ — ١٩٢٤ عاد بعد ذلك إلى الإقامة في حلب
 لمزاولة مهنته وما يزال .

هوايته المفضلة الأدب ، يقرأ التركية والإفرنسية والإنكليزية والفارسية وقد

(١) يشير إلى قصيدة الاحتراس .

حذق الأخيرتين وهو فى سن الأربعين . .
سألته مرة عن منهجه الأدبى فقال :

« إنى أومن بأن الشاعر الحقيقى يخلق فنه بوحى من روحه ، وإن نسب
الباحثون إبداعه إلى المدارس والمناهج الفنية ، فالفن المسخر بتصميم سابق —
فن زائف لا أصالة له . . فهل يغردّ الهزار وأمامه ” نوبة النغم “ . . !
وعلى الناصر شاعر له عالمه الخاص — عالم الطبيعة والكتاب والمرأة — .
فن هذه الينابيع الثرة ، ومن « ذاته » — يستمدّ مادة شعره .
وهو صادق الوصف فى تصوير هواجسه وحالاته . . لا يعرف الكذب ،
ولا اللعب بالألفاظ . .

وفى شعره دائماً هذه الألوان المتباينة من نفسيته المتشائمة تارة ، والمبهجة
تارة أخرى ، والتشاؤم فى نفسه أغلب وإن ظهر بمظهر الهازئ بالأحداث التى
تداعب ذاته وبالموت حين يفتح شقيقه وينشب أظفاره .
يقول فى قصيدته « تلاقيت والموت » .

| | |
|--------------------------|-------------------------|
| تلاقيت والموت وجهاً لوجه | فكان ابتسام وكان ازدراء |
| ظواهر فيها الوداد الأكيد | وأخرى يتمم فيها الرياء |

* * *

| | |
|-------------------------|----------------------------|
| تلاقيت والموت فى حانة | يهلhel فى زائريها الرجاء |
| تلاقيت والموت فى معبد | يتمم فى مؤمنيه النقاء |
| تلاقيت والموت فى غارة | يرى الغدر فيها شقيق الوفاء |
| تلاقيت والموت طى الربيع | وطى الخريف وطى الشتاء |
| تلاقيت والموت . . لكنى | وإياه دوماً نجيد الدهاء |
| فلا هو يظهر عارى الجبين | ولا أنا أهتك ستر الخفاء |
| كأنى وإياه منذ البداي | ة تراباً ولأء وخلا صفاء |

* * *

تلاقيت والموت وجهاً لوجه فكان ابتسام . . وكان ازدراء . .
وقد قاده حبه . وهو شاب ، أن يكتب قصيدة « الاحتراس » التى أشار

إليها الريحاني - قاده هذا الحب أن ينبش قبر حبيبته ليطفئ جذوة حبه !
 فبعد أن خطف الموت محبوبته انتابه حزن شديد حتى كاد يرتدى فوق
 نعشها . . . ولا غرابة في ذلك . . . فهذا شيء طبيعي في النفس البشرية . . .
 ولكن الغريب أن يطفأ لا عجز لا بزيارة القبر والبكاء كما يفعل العاشقون . .
 ولكن لوعة حب على الناصر لا تطفأ إلا بنزوة صارخة تمثل بعض شذوذه :
 أقبل الليل باتئاد ممضٍ واشتياقي لها قليل الأناة
 ظلمة الليل ! أسرعى وتمطى واسترني بأقلم الظلمات
 ظلمة الليل ! أنت نوري المفقدي ودليلي إلى حمى اللذات ...
 إنه في المقبرة . . . يناجي القبور والصليبان والأشباح والأكفان وينبعث من
 أعماقه هذا النداء :

أى عطر يفوح منك أيتها المدافن ؟
 ما هذا العبير الذى يسكرنى . .

ويعتريه الدهول فيخاطب البوم أن يقف عن نعيقه وأن لا يعكر أحلامه !
 وينهال على القبر فيحطمه فلا يكاد يرى وجه حبيبته حتى يشيد بقدسية
 الموت :

أيها الموت : أنت تحيي البرايا باختطاف الأرواح ملء أجسام
 أيها الموت أنت رب جليل تنقذ الناس من قذى الآثام
 ثم يخاطب محبوبته :

لا تراعى عذراء روحى : تعالى واظمئى من ثغرك المكثام
 إنك الآن طوع فرط احتراصى إنك الآن طوع كل مراعى
 وهجم على الفتاة ، وهى موسدة فى قبرها ، يفترسها كوحش ضار :
 افترست الفتاة كالنمر أضرى وبهصرى غدت ثن العظام
 وبنابى مزقت ثغراً تولى عنه فى حفرة الردى الإبهام
 ونهشت النهدين نهشاً مريعاً يتوانى عن وصفه الإلهام
 برهة كنت فى حماها سعيداً أنصفتنى من شؤمها الأيام

ويختم القصيدة بقوله :

أوخ خ . . فيها طمأنت بعض احتراصى

* * *

إن تأثره ببودلير هو الذى قاده إلى هذا اللون من الأدب القاتم ، والواقع أنه أغرم ببودلير فى بدء حياته الأدبية كما أغرم بادكار ألن بو فقرأهما كثيراً ، وشعر بتجاوب نفسى بينه وبينهما .

هذا الطبيب الشاعر . الغريب الأطوار . المؤمن « بذاته » إيمانياً مفرطاً جعله يعتقد أنه ما من شاعر فى الشرق أو فى الغرب ، فى القديم ، أو فى الحديث بلغ مرتبته !

ولا يتردد أن يتحدث بزهو عن شعره وعن « أنايته » . . هى عنجهية عرف بها الشعراء — إلا أن على الناصر أصرحهم فى هذا المضمار !
يقول فى صدد الحديث عن « ذاته » :

« مرّت الأيام وأنا أنظم من الأحلام والابتناسات والأخيلة والزهور والأضواء — تيجاناً مغرية لأقدمها إلى " أنايتى " .
هذا دأبى ، وهذا ما حجب لى الحياة .

مرّت الأيام وأنا أجمع من الشره والطموح والبغض والانتقام والغيرة والشهوة — أشواكاً تصمى قلبى . .

هذا دأبى وهذا ما حجب لى الحياة . . .

مدّ وجزر فى خضم الحياة . . .

كتب هذا وهو فى بداية كهولته . .

وقد ختم هذه المقطوعة النثرية التى عنوانها : « أنا » بهذه النفحة الغريبة التى تصور ملامح من ذاته . .

يقول :

« أما الآن ، فأنا كأرملة غمجرية تجرّ بجانبها مسخين ، شعشاء ، تعصف الريح العاتية بأطمارها البالية وتهزها كبقايا علم بعد معركة دامية . ولكن عينيها

الملمهتين في وكري جبينها العالى — معلقتان بالأفق البعيد ، تنظران إلى الأمام ، إلى الأمام » (١) .

أكثر شعره يدور حول « ذاته » وهو أجسه وأحلامه ، حول ضيقه وبرمه . وشكوكه و يقينه ، عن حبه والأزمات التى تدغدع عاطفته ، عن آرائه فى الطبيعة والبشر .

وقد أصدر عدة دواوين تتحدث كلها عن هذه الألوان — ويظل اللون الذى يرمز إلى « ذاته » وإلى « شذوذه » هو أوضح الألوان — أريد شذوذ الشعراء الذين يعيشون مع شياطينهم فى عالم مليء بالرؤى والأسرار . يكتب النثر كما يكتب الشعر .

وقد لا تجد فى نثره ، ولا فى شعره إشراقة الأسلوب ، ولكن تلمس حرارة الشعر ووهج العاطفة ودفق الإحساس . .

وربما كان فى طليعة الشعراء المحدثين الذين ثاروا على الوزن وعلى القافية ودعوا إلى تحرير الشعر من هذه القيود ، وإلى إرسال الكلام لإرسالاً لا يتوخون فيه إلا أن يكون منبعثاً عن الشعور ، ذا وقع فى الأذن . وذا جرس على الأسماع ! . . .

قال هذا يوم كان يقرزم الشعر فى بدء شبابه وبالرغم من هذا الاتجاه الذى دعا إليه لم يستطع أن يحرر نفسه من قيود الوزن ، ومن عبودية القافية فى الكثير من قصائده . من دواوينه المطبوعة :

١ — « قصة قلب » . . . وهى مقطوعات شعرية ، ومنها أوبريت فى فصل واحد عنوانها « الشاعر وآلهة الحب » سنة ١٩٢٨

٢ — الظمأ — سنة ١٩٣١

٣ — البلدة المسحورة « قصة » سنة ١٩٢٥ (٢) .

(١) ديوان « الظمأ » ص ١ .

(٢) وقد وصفها الريحانى بقوله : إن فى كتابك هذا عبقرية مبدعة ، ولكنها لا تزال تتعثر فى مدارج الفن . فأنت لا تكبح الخيلة منك ، ولا ترعى دائماً وحدة الأسلوب ، ولا التناسق فى الفكر والروح ، فتجىء بالتألف فى بعض المواقف الرائعة ، وتقطع على القارئ الرعدة بضحكة فضفاضة ، ومع ذلك فقد جئتنا بالمبتكر وهذا شيء يذكر فيكبر . فأهنتك وأدعو لك بالمزيد « المذهب » من هذا الأدب الجديد فى روحه « الأنفيل » فى قالبه .

٤ - السريال : سنة ١٩٤٧

٥ - دنّ الدموع : سنة ١٩٥٤ وهى أشبه بقصة صوّر فيها الهجسات الإنسانية التى يحسها المفكرون فى مصطرع الأهواء - أريد الصراع بين المادية والمثالية ... بين موقدى نار الحروب ودعاة السلم ، فجعل من الإنسان هذا الشيطان المارد الذى لا يعرف فى سبيل أمجاده الكاذبة وأنانيته الصارخة سوى إثارة الأحقاد وخلق الضغائن . والركض وراء المطامع التى تنتهى به إلى زجّ البشرية فى أتون النار ، وبالرغم من روح التشاؤم التى تسود عناصر هذه القصة التى اعتبرها ملحمة من ملاحم الأدب الرمزى - ولا يصدق عليها هذا الوصف - فنزعة الخير تطفئ فى نهايتها على روح الشر . وهذا ما يتخيله الشعراء الذين يعيشون فى أبراجهم العاجية تتأكلهم الوحدة المضنية التى تلهمهم مختلف الهواجس والصور .

٦ - وأما «السريال» فهو مقطوعات من الشعر السريالى قدّم لها صديقه أوركخان ميسّر الذى ضمّ هو أيضاً إلى الديوان بعض مقطوعات من شعره السريالى ثم ختمها بتوضيح للسريالية مع شرح بعض النماذج . ونقرأ هذه المقطوعات فلا نفهم منها شيئاً ، لا هى رمزية : ولا سريالية . وجل ما فى الأمر . . أنها كلمات متقطعة لا يربط بينها أى رابط ولا ترمز إلى شىء وإن اعتقدنا أنها هى الشعر الذى يضمّ فى كل حرف من حروف الكلمات عوالم مرّت فى ضمير الشاعر . . .

وقد أعدت قراءة هذه المقطوعات أكثر من مرة . وكنت ألتبس كل مرة أن أجد المتعة التى تجعلنى أحسّ مع الشاعر رعشته وجوّه السحرى ولكن عبثاً . ومهما أهتم فهمى فلن يفوتنى قصيد الشاعر ، أى شاعر كان قديماً أو حديثاً ، من شعراء الغرب أو الشرق - نعم - مهما أهتم فهمى فلن تفوتنى روح الشاعر مهما هجس به خافقه ، وما انطوت عليه نفسه .

ولا بأس أن يشاركنى القارئ فى تلاوة مقطوعة ، لا أعمد إلى الاختيار بل أفتح الديوان كيفما اتفق ، وأنقل ما تقع عليه العين ، فقد يكون أحد القراء أوسع فهماً منى فىرى فيها ما لم أره وما لم أتذوقه .

ثلاث دقائق :

دقة !

عرف

سكر

قبر شفاف

حياة . . .

ومقطوعة ثانية لأورخان ميسر :

تيار

لا طاقة للتدفق

زهور على الضفة

عين حولاء . .

ولادة

ضمة عدم

تيار يتدفق .

ويفسّر أورخان ميسر السريالية بأنها تشبه من وجوه عديدة ما يحاول تحقيقه اليوم رجال العلم في طرق تغذية الإنسان ، إنهم يحاولون ، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد ، أن يجعلوا حبة في حجم الحمصة أن تعطى الفرد العادى ما يحتاجه جسمه من الحيوى « ج » مثلاً دون أن يضطر إلى إرهاب جهازه الهضمى بتناول ثلاث أو أربع برتقالات وأن تمتعه الحبة ذاتها بذات الإحساس الذوقى الذى يولّده طعم البرتقال المعروف .

ثم ينتهى من هذا التعليل إلى القول :

« كان الدكتور على الناصر ، حتى زمن قريب . فى جملة الذين يأكلون البرتقال بكميات كبيرة بدافع العادة والاستمتاع الآلى ، غير أنه كان سريع الاستجابة لتطور الفكر الإنسانى ، وكان عقله سريع التحول من الشكل التكعيبي إلى الشكل الانسيابى ، فاستدوق الحبوب المدسمة وعاف كميات الألياف التى ترهق أجهزة الجسم المختلفة ، فاستطاع أن يقول فى كلمات

قليلة ما كان يقوله بالأمس في سطور كثيرة . . .

نظم الدكتور المقطوعة التالية المؤلفة من ٧٦ كلمة في عام ١٩٣٧ :
 قال لى القلب ساخرأ في المساء قم نضع زهرة على قبر حزنك
 ذاك حق الوفاء . . . إيه لماذا حجبت بالضياء آفاق عينك ؟
 لم أجبه . . . فقادنى مذهولأ ودرجنا على الرفات طويلا
 أضللناه ؟ لست أدرى ولكن تحت هذى الألواح إني دفته
 هاهى السروة التى غرسها أنملى فى التراب حين لحدته
 انحنينا على الضريح لنلقى زهرة من ولائد الأضواء
 فتعالى من جانبيه فحيج بارد كارتعاشة استهزاء
 نشر الحزن وهلة فى المساء

هذا والحالة الشعورية العابرة انحدرت إلى اللاشعور الذى جهزه وتبناه
 وقذفه فى عام ١٩٤٧ كما هو فى قطعته السريالية المؤلفة من ١٦ كلمة :
 شفه .

أشلاء من زهرة ممزقة
 مشوهة لم يبق من تناسقها
 إلا قطرة دم
 ترنو إلى عين .

ثم ساق مثلاً آخر من قصيدة نظمها عام ١٩٣٩ والمؤلفة من ١١٣ كلمة
 والتي استحالت بعد عشر سنوات مقطوعة سريالية من ١٢ كلمة !

وكأنى بالأستاذ ميسر — رحمه الله — أراد ، وهو ذونزعة علمية ، أن نزج
 عالم الشعر وواحاته الظليلة ونغماته المطربة فى مختبر كياوى ، ونحمد الله أن
 الطبيب الشاعر قد ترك هذا الهذر ، وشفاه الله من هذه اللوثة فعاد إلى سجيته
 الأولى ، وكان لسهام كوبيد ، وهو فى فجر شيخوخته وأب لولدين وقد أصبح
 جدا — كان لسهام كوبيد أثرها فى دغدغة أحاسيسه فنظم الكثير من
 الشعر العاطفى والفلسفى الذى انتظمه ديوان لم يطبع باسم « قصة أيام »
 قصة حب فتاة فى رونق الصبا — وللشيوخ ظواهر غريبة فى الحب —

عاش على الناصريقتات من البسمات واللحظات وربما من القبلات والحلوات —
هذه النشوة أعادته شاباً في فجر صباه :

قسراً أعدت لي الحياة ة أعدت لي فجر الحياة
أنت الربيع دم الإله انسأب في الأرض الموت
نعم الحياة إذا نعمت بغيتها نعم الحياة

* * *

أريدك . . وإن كنت في القلب والعين ، في كل جارحة من كياني
مشوق إليك كشوق اليتيم إلى الأم في غفوة من حنان
وأصبو إلى الصوت فيه العجيب من اللغو يسبي صميم جناني

هذا الشاعر الذي عاش حياته مع كتب الطب ودواوين الشعر ، وألزم
نفسه بوحدة قاسية سرعان ما يجن جنونه وتشور عاطفته حين تدغدغ أحلامه فتاة
تهتف إليه فيتنفس الصعداء بعد أن عاش سبعين عاماً في ضباب واكتئاب :

أتنفّس الصعداء لما فجأة تتكلمين

يا ضحكة خضراء في أذني كالروح الأمين

أتنفّس الصعداء لكني أعود إلى الجنون !

وهو يسجل سحب تلك الأيام المظلمة بقوله :

سبعون عاماً عشتها سبعون عاماً في ضباب
غمزات أضواء كذا ب أشبعتني باكتئاب
يمتها كالظامئ المص هور يخدع بالشراب
روحي الملمحة في الجما ل وفي الكمال وفي الشراب
لم تعجن غير مرارة الخد لان منها والعذاب
يا للمفاجأة الغري بة بعد يأس واضطراب
عانقت بالحب الصدو ق هنا : الطفولة والشباب

لقد ذاق طعم الحب فأضناه . وكان في بعض حالاته أشبه بمجنون
ليلي ، أو بأراغون مجنون إيلزا . . وهو لم يصف فتاته السمراء التي بادلتها الحب
والتي لم تبلغ الثلاثين ربيعاً من عمرها الغض — لم يصف عيونها وشعرها وقدها

وغنّجها وملاحتها - لم يصف جماها الطاغى بقدر ما وصف « ذاته » المعذبة ،
فكان الشعر وسيلة للتنفيس عن ألمه ولا سيما بعد أن حم الفراق وطوحت بها
الأقدار ، فهو يذكرها بألم وحنين :

آه بلا جدوى فليت مرارة الآهات تجدى
بينى وبينك هوة فوق الترد والتحدى
أإذا رجعنا هل يطيق عظيم ما عاناه وجدى ؟
يا قصة ألدت فى قلبى .. أنا أبكيك وحدى !

لم يستطع أن ينام ليلة العشرين من شهر أيار سنة ١٩٦٦ وكانت هجساته
هذه المقطوعة التى أتبعها بمقطوعة ثانية بعد شهور .. فما تكاد تثيره الذكرى
حتى يهدد نائثرته بهذه النفحات :

تُطل لتشجى النفس بعد هدوئها أمور تفضت تستثير ولا تُجدى
فلم تخمد الأيام مشبوب نارها وتذكو ضراماً حين أهذى بها وحدى
ضلالة وهم غادرتها لشؤمها فلم يبق فيها غير حشجة الصدر
فياليت أنى فى الحياة فراشة لأحفر فى صدرالى ذهبى - قبرى

وستظل « قصة أيام » هى أجمل وأعمق ما نظمه من الشعر . وهذه القصة
غير منشورة وهى وديوانه « الأغوار » فى جزأين غير منشورين ، ويضم الأغوار
قصائد ومقطوعات عن الفترات التى مرت من حياته بين الشباب والشيخوخة
- حتى فى كهولته هو هذا الإنسان الغريب ، الثائر ، المتمرد ، الصاحب -
وصعبه هو صدى أغوار نفسه التى تعيش بين « الواقع » و « الأوهام » . ولعل
أبلغ تصوير لهذه الحالة قوله :

ما زلت أوقن أن سُخف الوهم يغنى
دعنى أهدهد عمق مأساتى بفنى
طوبى لمن فى مأثم الدنيا يغنى
ويلون الأحداث بالحلم المفنّ
إنى لأعلم كيف أن العيش يثنى
وتباطؤ الأعمار ما يوحى ويعنى

لكننى ، ولقد نعمت بصحوة فوق التمنى . . .

. . . يا صحوة : قد كنت فوق طلاب روحى والتمنى !

وقد ضمّ « الأغوار » إلى جانب القصائد نفحات نثرية سماها أساطير ،
منها أسطورة الغوطة ، وأسطورة الأرز ، وقصص واقعية فى سطور .

* * *

لقد عاش على الناصر ، الطبيب الشاعر فى قوقعة من « ذاته » ، فلم
يواجه الجمهور قط ، وطالما دعى للكلام فاعتذر ، وكان قد ألحّ عليه صديقه
أورخان ميسر ، الأديب السريالى - إن صحّ التعبير - ألحّ عليه أن يلقى
بعض مقطوعات من شعره فى أحد الأندية الدمشقية . . وقبل بعد إصرار
طويل ، وأراد قبل أن يلقى قصائده أن يقدم نفسه للجمهور ، أو لصفوة
من محبى الأدب والشعر ، بهذه الكلمة التى لم تلق أيضاً . .

وإنى أثبتها لأعطى صورة من حياته التى عاش أيامها ، مع كتب الأدب
والفن والطب ، مع الكأس والمرأة - فى نطاق وحدة قاسية وأحلام مضمخة تارة
بالعطور وتارة بتراب القبور !

قال :

لا أدرى كيف يمكن للشاعر أن يعرّى نفسه أمام الجمهور ولا يكلّل
عرق الحجل جبينه .

إنه يتحرك فى أجواء نفسه ، والنفس البشرية إذا زال عنها كابوس الوعى
تأتى بما يأتى به الأطفال ، فلو درى الطفل بأن العيون تتفحصه لتعثر فى
طفولته .

إن « اللا شعور » نفسه لا ينجو من الواعية إلا إذا اضطّر أن ينفجر
كبركان ، وقد يسبب هذا الانفجار الخراب فيدمر ولا يبني . .
إن الشعر الصادق يحلل ولا ينقد .

والشاعر الحقيقى جدير بالثناء والعطف فى حياة يكفى أنها تؤول إلى ذلك
النوم الأبدى الأبله .

إن شعلة الوعى التى منحها الإنسان ، والتى يسعى إلى ازدياد توقدها

هى « بؤس الشاعر » و « علة اضطرابه » . وهى العامل الأكبر لثلا يرى الحياة إلا بمنظاره ، ذى الزجاج ، جمّ الألوان .

إنه ينظر إلى الحياة كما ينظر الأطفال من عدسة صندوق العجائب « هكذا قدّم نفسه حين اضطّر أن يلتقى مقطوعات من شعره أمام الجمهور فقال :

« وها أنا أعرض لكم ، فى هذه الأمسية ، نماذج ما رأيته بمنظارى المخدوع » .

* * *

من عزلته . وقد أنس بها وضاق ، أعطى الشعر المعاصر ألواناً متباينة من شعر عاطفى وفلسفى ، يمثله ، فى شتى حالاته أصدق تمثيل .

الأمير مصطفى الشهابي

١٨٩٧ - ١٩٦٨

من أعلام النهضة الفكرية في سورية .

خلف محمد كرد علي ، بعد خليل مردم بك ، في رئاسة المجمع العلمي العربي وإن اختلف نهجه عن نهج سلفيه .

كان محمد كرد علي موسوعة في تاريخ الأمة العربية والحضارة الإسلامية إلى الإمام واسع بالسير والأعلام ، وكان خليل مردم بك شاعراً وله مشاركة في الأدب والشعر ، أما الشهابي فبالرغم من امتداد أفق ثقافته ، فقد قصر جهده على ظواهر الحياة العلمية ومصطلحاتها في اللغة العربية ولا سيما التي لها علاقة بعلوم الزراعة وعلوم المواليد الثلاثة من نبات وحيوان وجماد .

ويرجع هذا الميل إلى دراسته الأولى منذ دخل مدرسة غرينيون الزراعية العلمية في فرنسا والتي حصل منها عام ١٩١٤ على شهادة مهندس زراعي ، فلم يكذب يرجع إلى سورية ، وبعد أن انحسر ظلال الحكم العثماني عنها ، حتى قدم إلى أبناء وطنه ثمرة من ثمرات علمه وفنه - أريد بعض كتب ألفها لها علاقة بالزراعة . فأصدر كتاب « الزراعة العلمية الحديثة » وكتاب « الأشجار والأنجم المثمرة » وكتاب « البقول » ورابعاً عن « الدواجن » - وكانت الزراعة في سورية لا تزال في طورها البدائي ، فكتب هذه الكتب وهو مدير الزراعة والحراج ، وهي مصلحة ذات ارتباط وثيق باختصاصه . .

ومن مديرية الزراعة انتقل إلى مديرية أملاك الدولة . وأكثر أملاكها مناطق زراعية ، ثم إلى مديرية الاقتصاد الوطني ولكن مهام هذه المصالح الحكومية لم تشغله عن نهجه العلمي وعن نزعاته الفكرية ، فكتب المقال الأدبي ، وألقى المحاضرة العلمية ، ونظم الشعر . . وظلت المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، قديماً وحديثاً ، شغله الشاغل ، فأعطاه الكثير من جهده وفنه ، وعاش أنصر أيام عمره ، مع المعاجم العربية والإفرنسية ، وهل عمل

شاق . ومرهق فكان يجد فيه لذته ولا سيما حين يحكي كلمة مهجورة لا تنأى في مدلولها عن روح العصر . وكان حصيلة هذا العمل « معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية » وهو أول معجم يصدر في هذا الموضوع حتى أصبح مرجع الكثيرين المشتغلين بهذا العلم . طبع أول مرة سنة ١٩٤٣ ثم أعيد طبعه طبعة ثانية منقحة ومزودة سنة ١٩٥٧ وهو يضم أكثر من عشرة آلاف لفظة عربية أو معربة ، وضعها قبالة الألفاظ الفرنسية والأسماء العلمية .

من وظائف المديريات العامة إلى المناصب الكبيرة — من محافظ إلى وزير إلى سفير (١) — إن أعباء هذه الوظائف لم تشغله عن الحياة الثقافية . كما قلت ، فظلّ وفيّاً لرسالة الفكر ، وكانت مقالاته وأبحاثه غير منقطعة عن المجلات الأدبية ولا سيما « المقتطف » و « الهلال » و « مجلة الحجمع العلمي العربي » و « الثقافة » وتؤلف هذه المقالات والأبحاث مادة كتاب نشر أخيراً بعنوان « الشذرات » وصفه الأستاذ أحمد الجندی أحد سكرتيرى الحجمع بقوله :

« . . إن القارئ يجد فيه ناحية جديدة كل الجدة . . . طريقة كل الطرافة ، وهى ناحية الكتابة الأدبية الصرفة التى تصوّر أخلاق بعض الناس ، وترسم لك بعض المواقف والهواجس عند الكثير ممن عرفهم الأستاذ الكبير ، مما يمكن أن يدخل فى عداد الكتابات الأدبية التى سميت فى المصطلح الحديث " الفن للفن " ، فهى كتابة فنية حقاً تعنى بتصوير الآراء ورسم الأفكار ،

(١) تقلب الأمير مصطفى فى مناصب الدولة العالية وتسلم منصب وزير فى أربع وزارات وشغل على التتابع منذ عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٤٩ مديرية الزراعة والحراج ، مديرية أملاك الدولة ، مديرية الاقتصاد الوطنى ، وزارة المعارف ، محافظة حلب ، وزارة المالية ، وزارة المالية والاقتصاد الوطنى والإعاشة ، محافظة اللاذقية ، الأمانة العامة لرياسة مجلس الوزراء ، محافظة حلب للمرة الثانية ، محافظة اللاذقية للمرة الثانية ، وزارة العدل . وهو من قدماء العاملين للقضية العربية ، وكان عضواً فى جمعية « العربية الفتاة » وجمعية « العهد » وبقى فى الحكومة السورية طوال عهد الانتداب بقرار من إخوانه لتقريب وجهات النظر بينهم وبين السلطة الإفرنسية بغية الحصول على الاستقلال ، وكان أحد أعضاء وفد المعاهدة سنة ١٩٣٦ . وعين وزيراً مفوضاً لسورية فى المملكة المصرية فى ٢٨ حزيران سنة ١٩٥١ ثم رفع إلى رتبة سفير عند ما رفع التمثيل بين مصر وسورية إلى درجة سفارة .

— هذه المعلومات مستقاة من كتاب خاص عنه —

ولا ترمى إلى لإثبات نظرية أو تحقيق مفهوم غامض .

« هذا اللون من الأدب يعتبره النقاد أرفع ألوان الأدب لأنه أقرب إلى الشعر الذى يُلْتَمَس فيه إلى الصورة والنعمة واللمحة الخاطفة الأخاذة يتخلل كل ذلك ظرف ظاهر ، ونقد سافر ، فيه كل المتعة والجمال . » (١)

وظلت النواحي المعجمية أغلب في أدبه وإن لم تصرفه عن النواحي الفكرية في مختلف مجالاتها .

فقد دعاه معهد الدراسات العربية العلمية لإلقاء محاضرات على طلبة الدراسات الأدبية واللغوية فكانت « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » موضوعه المفضل ، وألقى سلسلة محاضرات انتظمت بعدئذ في كتاب طبعه سنة ١٩٥٥ ثم أعيد طبعه ١٩٦٦ بيد أنه أضاف إليه الكثير من الخواطر ، وهى نتيجة دراسات واختبارات دامت سنين عديدة ، ولا يتمسك برأيه بل يترك للعلماء مجال البحث والنقاش فقال : « إن لبعض علمائنا وأدبائنا آراء مختلفة في معالجة المصطلحات العلمية إجمالاً وتفصيلاً ، فعسى أن يحدوهم هذا الكتيب على نشر النصيح من آرائهم وبحوثهم ، ففي المناظرة ، بأسلوب علمي مهذب ، فوائد يستفيد منها المتأدبون »

وبعد سنة ألقى في المعهد أيضاً سلسلة محاضرات عن الاستعمار . . تكلم عن الدول وصنوفها ، والاستعمار وتاريخه ، والتسلط وأشكاله . وعلى ما يسميه المستعمرون حقوق الاستعمار ، وهى الذرائع التى يتذرعون بها تسويقاً للاستعمار في نظرهم ، كحق القوة وحق العنصرية وحق الاحتلال وحق الحياة وحق الاستعمار لأجل نشر المدنية إلخ . . وقد دحض هذه الحقوق المزعومة دحضاً علمياً وفلسفياً وخلقياً ودينياً ، وأثبت حق الثورة في سبيل الاستقلال ، ثم تناول بالبحث أساليب الدول الاستعمارية في إدارة شؤون المستعمرات والمحميات والطرائق التى تتبعها في التسلط على مختلف مرافقها . .

وقد صدرت هذه المحاضرات في كتاب اعتبره الجزء الأول عن « الاستعمار » وإذ رأى أنه لم يستوف الموضوع بكامله أتبعه بسلسلة محاضرات انتظمها الجزء

الثانى من الكتاب وهو مؤلف من قسمين : القسم الأول تكلم فيه عن بلاد العرب وسكانها ، والقضية العربية وماهيتها ، وبقطة العرب الحديثة ومبعثها ، والقضية الشرقية وأهدافها . والحرب العالمية الأولى وتأثيراتها : والثورة العربية الكبرى ومسوغاتها ، وظهور فكرة الانتداب بدلا من الاستعمار أو الحماية واستيلاء فرنسا على لبنان ثم على سورية سنة ١٩٢٠ م . أما القسم الثانى فجعله خاصاً بأساليب الحكم والإدارة التى اتخذها الفرنسيون فى سورية ولبنان منذ سنة ١٩٢٠ حتى جلائهم عنها سنة ١٩٤٦ م . وبحثه فى الجزء الثانى مبنى على خبرة شخصية عاشها فدونها ثم جمعها فى هذا الكتاب .

وتابع محاضراته فى المعهد عن «القومية العربية : تاريخها وقوامها ومرامها» جمعها فى كتاب صدر سنة ١٩٥٩ وحاول فى هذه المحاضرات أن يفصح عن رأيه فى كنه عقيدتنا القومية وتاريخها الحديث والعوامل المكونة لها والأهداف التى ترى إليها والفلسفة المثالية التى تحدد أغراضها وعلاقتها بالقوميات السائرة وبالبشرية جميعاً ، والكثير من المعلومات التى اشتملت عليها المحاضرات مقتبسة من مذكراته واعترف بقصوره عن توفية الموضوع حقه إذ لا يستطيع الرجل الواحد أن يضطلع بتاريخ الحركات القومية الحديثة فى بلادنا العربية ، فهذا التاريخ يحتاج إلى جهد مشترك تقوم به جماعة من المثقفين ، على أن يكون كل واحد منهم قد عاش مع الحركات الوطنية فى قطره ، وتتبع سيرها عن كثب ، ودون صفحاتها تدويناً صحيحاً مجرداً عن الهوى .

وبالرغم من ذلك فالكتاب يؤرخ مرحلة من مراحل القومية العربية التى يعتبرها عقيدة قوامها ، من حيث الفكرة المثالية ، أمران :

الأول : الشعور والإيمان بأن الشعوب العربية فى جميع أقطارها أمة عربية واحدة ، وبأن أوطان تلك الشعوب أجزاء من وطن كبير واحد هو وطن الأمة العربية .

والثانى : إرادة السعى لتحقيق الأهداف السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية لهذه الأمة

ويرى أن القومية العربية لا تركز على عامل العنصرية وإن يكن معظم

سكان البلاد العربية يمتون إلى سلالة بشرية واحدة هي السلالة العربية القديمة المسماة بالسلالة السامية . . ولا تتركز على الدين وإن يكن معظم هؤلاء السكان مسلمين . ففي القومية العربية : « العربي من تكلم العربية وأراد أن يكون عربياً ، مهما كان دينه ، ومهما تكن السلالة البشرية التي ينتمي إليها ، وفي القومية العربية المسلمون والمسيحيون سواسية ، على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم ، هي تجلّ العقيدة الدينية القويمة ، والتحلى بالأخلاق الدينية الفاضلة » .

ثم ينتهى إلى القول بأن القومية العربية ليست فلسفة قومية ضيقة ، ولا مذهباً اجتماعياً محدوداً قوامه الأثرة أو التعصب أو البغضاء ، بل هي فلسفة اجتماعية مثالية بناءة تقدمية تدعو كل عربي إلى محبة أمته العربية ووطنه العربي ، وإلى الاعتزاز بماضى هذه الأمة ، وإلى العمل التقدمى لحاضرها ومستقبلها ، كما تدعو إلى محبة الإنسانية ، وإلى خير البشرية ، وإلى حق كل شعب على الأرض بتقرير مصيره .

* * *

ومع هذه الآفاق التي طرقها ظلّ مرتبطاً بالناحية التي شغلت قلبه وفكره — أريد الاصطلاحات الجديدة التي تتناول الشؤون الزراعية ، فلا يكاد يصطاد كلمة حتى يصهرها في مصطلح جديد يضمها إلى معجمه . . ويمضى أيامه بين المجمعين : مجمع دمشق ومجمع القاهرة ومع الكتب والمراجع لإغناء اللغة بالمصطلحات . . .

ويمتاز أسلوبه بالدقة والوضوح والبعد عن المعاظلة — لغة أكثر العلماء الذين لا يملكون ناصية اللغة . ولا تخلو مجلة المجمع في كل عدد من أعدادها — من مقال له في شتى النواحي الفكرية ذات الاتصال الوثيق بالعربية وبتطورها اللغوي المتجاوب مع ثقافة العصر ومنهجه العلمى .

شفيق جبرى

١٨٩٨

من أعلام الأدب فى سورية . صاحب طريقة فى الترسل ، شاعر ،
ناثر ، باحث .

ولد ليلة الأربعاء فى ١٤ شعبان سنة ١٣١٤ هـ « ١٨٩٨ » م .
أرسله والده ، وهو من كبار تجار دمشق ، إلى كتاتيب الحارة ، ليتعلم
القرآن وحسن الخط وقليلًا من الحساب الهندى .

وفى السادسة من عمره أشار على والده صديق مسيحي صاحب مصرف
مشهور أن يرسله إلى مدرسة « العازاريين الإفرنسيين » فأدخل وهو صغير ،
ومكث فيها تسع سنوات حصل على شهادتها الثانوية فكان الأول فى صفه ،
وقد أتقن الكتابة الإفرنسية حتى قال له أستاذ الفلسفة فى آخر سنة إنك تستطيع
بإنشائك أن تدخل السوربون من دون امتحان .

أما العربية فلم يتقن منها آنذاك ، إلا بعض القواعد النحوية وذلك لفساد
ذوق الحوارنة الموارنة الذين أخذ عنهم ، هذا ما حدثنى به الأستاذ نفسه ، ولولا
صديق له من الروم نصحه أن يدرس ابن المقفع والمتنبى واليازجى والصابى لما
وجد إلى الكتابة سبيلًا .

وحين خرج من المدرسة سنة ١٩١٣ سافر إلى يافا مع أهله لأشغال لهم فيها
فكان يرسل إلى جريدة « المذهب » فى زحلة بعض مقالات فى الفلسفة والتاريخ
الطبيعى .

وفى غضون الحرب عكف على ابن المقفع وابن عبد ربه وابن خلدون
والصابى وعلى شعراء الجاهليين والمتنبى فقوى ببيانه بعض القوة ، وحين عاد إلى
دمشق شرع فى نشر قصائد ومقالات فى صحفها . وكان ذلك فى سنة ١٩١٨
فلفتت إليه الأنظار ، كان له بيان قوى على قالة المدة التى استعد فيها لهذا
البيان ، حتى إن الرصافى لما سمع شعره فى تلك الفترة لم يصدق أنه حديث العهد
بالشعر .

وقد رجع بعد ذلك إلى الأدب الإفرنسى ، وتعلق بأناتول فرانس فأفادته كتيبه كثيراً . وتعلم من هذا الكاتب العبقري وضوح العبارة ووضوح الفكر ، والبعد عن الحشو والغموض .

انتسب من سنة ١٩١٨ إلى الوظائف ، وكانت الدولة آنذاك تبحث عن الذى يعرف الكتابة الجيدة بالسراج والفتيلة ، كما يقول المثل العامى ، وبقي مدة طويلة رئيساً لديوان المعارف ، واستمرّ وهو فى الوظيفة ينشر المقالات والقصائد فنشأت له قدرة على الشعر والنثر قلما تنشأ لغيره .

ولما أنشأت وزارة المعارف كلية الآداب الأولى سنة ١٩٢٨ عين أستاذاً ومديراً وألقى خلال سنتين عدة محاضرات عن الجاحظ والمتنبى كان لها أثرها فى نفوس الطلاب ، وقد جمعت هذه المحاضرات فى كتابين متداولين أحدهما عن الجاحظ والآخر عن المتنبى ، فاستقبلهما الأدباء فى مصر والشام والعراق أحسن استقبال .

بقي مدة فى الوظائف ثم انقطع عنها خمس عشرة سنة . . ثم عاد إليها عميداً لكلية الآداب ولا يزال ، وقد قام إلى عبء العمادة بالتدريس . وهو شاعر مقل . . أكثر شعره فى المناسبات الوطنية والتزعات القومية ، وله فى الوصف ومناجاة الطبيعة مقطوعات كثيرة .

انتخب لعضوية المجمع العلمى العربى ، وهو من أعضائه البارزين . من صفاته قلة الضحك وقلة الكلام ، أما قلة الضحك فناشئة عن كآبة دخلت على قلبه منذ صغره . والمرح الذى يراه فيه أصدقائه أحياناً ما هو إلا لون من التكلف ، وأما قلة الكلام فناشئة عن كثرة تفكيره . . وكثيراً ما سرّ بعض الأساتذة من قلة ضحكهم ، وضجر بعض الطلاب من قلة كلامه . يؤثر العزلة على مخالطة الناس ، ومن أبيات له تصور نفسه وعزلته عن العالم قوله :

| | |
|-------------------------------|---------------------------------|
| تجافت عن الدهماء لم تحتفل بهم | ترى عبسهم بشراً وبشرهم عبسا |
| فما ألفت بالليل بارقة الدجى | ولا هى ناغت فى رفيف الضحى الشمس |
| وما لى وما للناس أبغى وصـالهم | فما وصلهم نعى ولا هجرهم يؤسا |

نعم ، فقد اشتهر في محيطه بالخفاء والوحشة ، وأعتقد أن الذين وصفوه هذا الوصف ظلّموه لأنهم لم يخالطوه ولم يعرفوا نفسيته حق المعرفة ، فظاهره لا يدل على باطنه ، في ظاهره وحشة من العالم ولكن الذي يتصل بهذا الظاهر يجد أنساً بدلا من الوحشة . . إنه لا ينبسط إلاّ إلى الذين يثق بهم ويطمئن إليهم فإذا اجتمع إلى مثل هذه الطبقة انكشف باطنه فظهرت عليه آثار الأنس والمرح .

لقد ابتعد في أيامه هذه عن كل شيء ما خلا عمله والطبيعة . . خمسة أشهر في الحرم الجامعي وسبعة أشهر في ظلال الطبيعة ، وقد اختار قرية « بلودان » مصيفاً ، وبني فيها داراً صغيرة تطلّ على الروابي المخضوضرة وقد أحيطت بحديقة صغيرة امتلأت بأشجار التفاح ، حتى كادت بلودان تعرف به لألفته إياها .

* * *

لقد كان في الحرب الكبرى الأولى قابعاً في داره في أكثر الأيام يقلب النظر في طائفة من كتب الأدب ويقتبس عنها ما يهديه إليه الذوق حتى ألف أساليب المتقدمين من بلغاء الكتاب والشعراء . . فلما انقضت الحرب دخل في غمار الحياة العامة وكانت البلاد في ثورة فكرية شديدة - ثورة على الحلفاء الذين نقضوا عهودهم ومواثيقهم فاندفع في قول الشعر .

فكانت قصائده ترجمان هذه الثورة ، ولقد أفصح في شعره عن عواطف البلاد الوطنية ونزعاتها القومية ، واستمر في هذا النحو من الشعر إلى أن جلا الأجانب عن البلاد، فإذا رجعت إلى تاريخ سورية كان شعره جزءاً من هذا التاريخ ، ومع كونه لم ينتسب إلى حزب من الأحزاب ولا مارس السياسة بالفعل فإنه كان صوت كل حزب وطني على بعده عن الناس وإيثاره العزلة في أغلب حياته العامة .

لم يعيش في محيط معين وإنما عاش في محيط نفسه فقد خلق لهذه النفس أفقاً مناسباً لمزاجها وتفكيرها وشعورها ، وعاش فيه كل حياته ولا يزال إلى يومنا هذا يعيش في أفقه الخاص بعيداً عن كل الناس ، قريباً منهم .

* * *

هذه صورة عن مراحل حياة الدراسة والوظائف التي تقلدها والآفاق التي

عاش في ظلها ، وهو اليوم في طليعة أدباء سورية وكبار شعرائها . . يمتاز شعره بالقوة والجزالة والفيض ، فإذا نظم رأيت العاطفة المتقدة واللفظ المختار والأسلوب الجزل ، وقد كان للمتنبي كما كان للبحتري أثرهما البليغ في شعره . . أخذ عن الأول الروح العالية وأخذ عن الثاني سلاسة التعبير ؛ فجاء شعره مطبوعاً بهاتين الصفتين . وأكثر شعره في المناسبات القومية ، وله شعر تظهر عليه آثار خيال مصقول مثل قصيدته في « النبي محمد » ومثل قصيدته « نوح العندليب » ، ولنثره هذا اللون الخاص الذي يميزه عن غيره من الأدباء ، فهو صاحب أسلوب مشرق تبدو « الذاتية » قوية في كل سطر من سطور مقالاته . . وهو لا يكتب لمجرد الكتابة ، بل لا بد له من عوامل تثيره للكتابة . . وأكثر هذه العوامل « النزعات الأدبية » بمفهومها الواسع : « الشعور القومي » ، « الطبيعة » ، ولما هج الطبيعة أثرها في أدبه ، فإذا عبّ من مناظرها امتلأت نفسه بالفيض والخير والجمال ، وأنت حين تقرأ مقالة من مقالاته أو بحثاً من بحوثه تلمس جمال العاطفة وجمال الفكرة معاً في أسلوب مشرق هو « السهل الممتنع » بعينه .

تأثر بابن المقفع وبأناتول فرانس ، كما قلت ، فكان لأدبهما أكبر الأثر في أدبه ، فتح عينيه على ابن المقفع فاقتبس عنه وضع اللفظ في موضعه وسهولة التعبير حتى أصبح له أسلوب خاص يعرف به ، وانصرف إلى أناتول فرانس فأخذ عنه وضوح التعبير ودقة الفكر .

ولأسلوبه هذا الجرس الجميل الذي ينزل من النفس منزلة سهلة ، فهو لا يتقعر بألفاظه ولا تتنافر كلماته ولا تتعاضل جملته بل ترى التماسك قوياً بين جميع جملته ، منذ بداية البحث حتى نهايته .

ومع مشاركته الكتاب في كل ما يتصل بالشعور القومي ووصفه الكثير من مباحج الطبيعة وبعض مظاهر الحياة والكون ، فقد تناول الكثير من شؤون الأدب بالدرس والبحث . . وحين اندمجت حياته الأدبية بالحيط الجامعي وبالجمع العلمي أصبح لأدبه هذا الطابع المتزن الذي يقوم على الدرس والبحث . ظهر ذلك في مؤلفاته الثلاثة : المتنبي والجاحظ ودراسة الأغاني ، عدا مقالاته ومباحثه في مجلة « المجمع العلمي العربي » ومجلتي « الحديث » و « الثقافة » ،

وقد يكون بين الأكاديميين الوحيد الذى خرج أدبه من قيود التزمّت إلى الأفق المنطلق . فالبحث مهما كان وعراً وذا صلة باللغة ومشاكلها فهو يفيض عليه من روحه المنطلقة وأدبه الضاحك ما يسهل وعورته ويجتذب قارئه ليقراً بحته وهو مرتاح النفس .

هذا وقد ظهر له أخيراً دراسة عن « محمد كرد على » وهى سلسلة محاضرات ألقاها فى معهد الدراسات العربية العليا وكتاب « أنا والشعر » روى فيه حياته الشعرية فى مختلف مراحلها ، وهو أول كتاب يظهر لشاعر معاصر يروى تجربته فى النظم وأسرار معالجته للشعر وخصائص هذه المعالجة ، كما كتب كتاباً آخر عنوانه « أنا والنثر » نحا فيه نفس المنحى فى كتابه « أنا والشعر » وهما كتابان فريدان يؤرخان ظاهرة حية من أدبه وشعره كتبها بكثير من الصدق .

ومن كتبه « بين البحر والصحراء » و « العوامل النفسية فى سياسة العرب » و « أبو الفرج الأصبهاني » و « أرض السحر » وقد سجل فيه انطباعاته الذاتية عن رحلته إلى أمريكا : الأولى سنة ١٩٥٣ والثانية سنة ١٩٥٦ . والكتاب من أمتع كتب الرحلات ، امتلأ بالصور الأدبية التى تصف مشاهد الطبيعة ومحيط الجامعات ، وخصائص الأمريكان فى آفاق تفكيرهم وعلمهم بأسلوب غاية فى القوة والجزالة والإشراق. والكتب التى لم تطبع « ديوان العندليب » « أحمد فارس الشدياق » . « أفكارى » ويضم الكتاب الأخير مقالاته المنشورة وهى على جانب كبير من القيمة الأدبية .

ومن نثره :

وطننا الروحاني

لم يعد الوطن ، على ما قرره أحد علماء الاجتماع ، عبارة عن أرض الآباء والأجداد الذين يتم نسلهم حياتهم الأولى، ولكن الوطن إنما هو جملة تقاليد وأفكار وعواطف مشتركة ، تجعل أهل البلد الواحد يشعرون بأنهم إخوة ، وإذا أردنا أن نؤمن بقوة هذا التعريف فلننقل رجالاً من وطنهم إلى

وطن رجال آخرين ، حتى يدركوا أعماق المهاوى الروحية التى تفصل بين شعوب تختلف حالاتهم الذهنية ، ونستطيع أن نشهد هذا الأمر فى مؤتمر يجتمع فيه رجال من أوطان شتى ، فلا تلبث أن تنشأ الاختلافات بينهم ، ولا تنشأ اختلافات المصالح وحدها ، ولكننا نرى اختلافات العواطف والأفكار التى تمنعهم عن أن يفهم بعضهم روح بعض . وقد تؤلف بينهم المعتقدات السياسية ساعة من الزمن ، ولكن ماضيهم البعيد لا يلبث أن يفصل بعضهم عن بعض ، وهذا أمر لا يطول زمن شعورهم به .

إن هذه الحرب التى ستغير كثيراً من مناحى تفكير البشر ، ستغير فهمنا لمعنى الوطن ، فستقلنا فى هذا الفهم من ناحية مادية إلى ناحية روحية ، فكما سئم البشر النزعة المادية التى ولدت الحرب ، وأخذ رجال الفكر يوجهون الخلق نحو نزعة روحية تجد الأهم فيها راحة وسلاماً ، فكذلك سئمنا فهمنا المادى لمعنى الوطن ، وأخذنا نفتش عن فهم روحى له . وما نشوء « جامعة الدول العربية » إلا مظهر من مظاهر هذا الفهم الروحى . لا شك فى أن هذه الجامعة قد بحثت فى بعض الجلسات عن بعض الحدود المادية فى جزء من بلاد العرب ، ولكنها لم تقتصر على هذا النحو من البحث ، فإن لجأها بحثت عن وحدة الثقافة فى بلاد العرب وعن وحدة الاقتصاد ، وربما بحثت فى الآتى عن أمور من هذا الشكل . ومعنى هذا كله أننا معاشر العرب قد خرجنا من حدود فهمنا المادى لمعنى الوطن ، ودخلنا فى حدود فهمنا الروحى له . فلم تعد الحدود بيننا وبين مصر مثلاً هذه الصحراوات الجديدة ، فإن هذه الصحراوات على اتساعها قد عجزت عن أن تفصل بيننا وبين مصر . أجل . إن الحدود المادية لم يبق لها سلطان بين البلاد العربية ، وأى قيمة لهذه الحدود بعد الاختراعات التى اهتدى إليها العلم فى تهديم المدن والقضاء على البشر ، فى بضع دقائق تذهب مدينة من المدن بين سمع الأرض وبصرها فتصبح أثراً بعد عين ، لم يبق لنا بعد اختراعات التخريب والتدمير إلا الاستعانة بالسلطان الروحى فى فهم معانى الوطن . وفى توثيق الأواصر بين أوطاننا المختلفة .

فرغت من أيام من مطالعة كتاب يصف الأواصر بين الشام ومصر فى

الغابر والحاضر فلم تستطع الجبال والأودية والبحار والصحارى أن تفصل مصر عن الشام أو الشام عن مصر ، من قديم التاريخ ، ففي أكثر العصور فتحت مصر أبوابها لأهل الشام وفتحت الشام أبوابها لأهل مصر ، وفي بعض العصور كان إلى مصر والشام واحداً ، فنشأ عن هذا كله اشتباك الأواصر السياسية بينهما ، وتبعه اشتباك الأواصر العلمية والأدبية ، وأكبر مظهر من مظاهر هذا كله شعر الشعراء ، فإذا أصابت الشام مصيبة سكب شعراء مصر دموعهم فيها ، وإذا أصاب مصر مثل هذه المصيبة بكى شعراء الشام ، وقصائد شوقي وحافظ لا تزال راسخة في الأذهان .

فالذى يستنتج من ذلك أن أكثر بلاد العرب مشتبكة الأواصر في التقاليد والأفكار والعواطف ، وأن بلاداً بلغت من تقارب الأواصر هذا المبلغ جديدة بأن نسميها وطناً واحداً على مصطلح هذا العصر ، فليس الوطن على نحو ما قالوا عبارة عن جبال وأودية وسهول وأنهار وبحار ، وإنما الوطن عبارة عن أواصر مشتبكة مثل الأواصر بين مصر والشام ، أو عن عواطف متقاربة مثل عواطفهما فإذا لم نفهم معنى الوطن بعد اليوم على هذا النوع من الفهم فلا وطن لنا ولا أرض ولا سماء .

ولقد فهموا معنى الوطن في القديم فهماً قريباً من هذا النمط ، وعبر الجاحظ عن هذا الفهم لما ذكر كلام جماعة من الخواص الخالص قالوا : العرب كلهم شيء واحد لأن الدار والجزيرة واحدة والأخلاق والقيم واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابه والاتفاق في الأخلاق وفي الأعراق من جهة الخؤولة المرددة والعمومة المشتبكة ، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء ، فهم في ذلك شيء واحد في الطبيعة مثلاً واللغة والهمة والشمال والمراعى والراية والصناعة والشهوة .

ولكني أظن أنه لا يصح إطلاق كلام هؤلاء الخواص الخالص على علاقته ، فإذا صح هذا القول أو بعضه في عرب الجزيرة فلا يصح في الشعوب العربية كلها . ففي هذه الشعوب اختلافات من حيث القيم التي أشار إليها الجاحظ ، ومن حيث الهمة والطبيعة والأخلاق ونحو ذلك . ولكن هذه الاختلافات لا تمنع

الشعوب المذكورة عن أن تعتبر بلادها وطناً واحداً ، فإن هذه البلاد اشتركت في الماضي في تقاليد وأفكار وعواطف متقاربة ، وهي في الحاضر أشد شعوراً بضرورة الاشتراك .

هذا هو الوطن الروحاني الذي نؤمن به بعد اليوم ، فلا جبال ولا سهول ولا صحارى تحجز بين بلاد العرب ، فإذا كنا لا ندرك معنى الوطن من هذه الناحية الروحية فلا قيمة لحدوده المادية بعد هذه القنابل الذرية .

ومن شعره :

صبيحة النبي

| | |
|----------------------------------|-------------------------------|
| سرت في بطاح البيد صبيحة صائح | فاجت بمسراها بطون الأباطح |
| ترامت فدوت فاستطال بها المدى | وقد طرحتها البيد أقصى المطارح |
| فمرت على الركب الحيمارى فأمسكوا | بحمر المطايا بين غاد ورائح |
| وألقوا بأذان إليها طليحة | وقد صعقوا فوق الركاب الطلائح |
| تراهم سكارى في الفياثي وما مشت | حميا كؤوس في خلال الجوانح |
| مضوا يسألون الريح عن صبيحة الفلا | فما الصوت في عصف الرياح ببارح |
| ينادى مناديبهم هل الأرض زلزلت | فأجفلت الآرام ملء المسارح |
| أم الملاء الأعلى تدلت نجومه | فكل سبيل في الدجى غير واضح |
| أصبيحة إنس في الجبال دويها | أم الجن صاحت في رحاب الصحاح |
| فلا الصوت صوت الإنس في كل هضبة | ولا الحس حس الجن فوق الصفائح |

* * *

| | |
|---------------------------------|---------------------------------|
| ولما ألح اليأس في الركب أدبلوا | يطيحون في الظلماء كل المطايح |
| ومال بهم غمض الليالي من الونى | وما النوم في جنح الليالي بجناح |
| فناجى خليل في الشجون خليله | مضى الليل في نجوى الشجون الفواح |
| فبيننا رجال الركب في غمرة السرى | وأجفانهم تهفو إلى أى سانح |

إذ الفجر في البیداء قد زحزح الدجی
ولاح خیال یقطر الأنس طیفه
ملامح نور فی العراء رفیفها
تصیح بهم أنى النبی محمد
وهب نسیم الفجر دون اللوابع
فدبّ دبیب الروح فی کل طائع
ومطلع وحی من رفیف الملامح
بُعث ولم أبعث إلیکم بفادح

* * *

حملتُ الهدی أجلو بضوء سراجہ
أضمد من جرحی السیوف جروحهم
تعالوا ، تعالوا أجمع الشمل بینکم
تسیح دماء العرب من کل نخوة
أروح علی جهد من الهمّ جاهد
أما ضجت الأخلاق من ظلم أهلها
فما نفره تلوی بأعناق رهطکم
فأین قلوب کالغصون التفافها
تعالوا، تعالوا أملأ الأرض بالهدی
فهذا بیانی کالضحی غیر زائف
عن العرب ما أعیا ضیاء المصابح
وأمسح ما ناءت به کف ماسح
فلا کاشح یعدو علی حوض کاشح
لقد ملئت منها صفاح المسایح
وأغدو علی برح من الحزن بارح
أما رزحت فی الظلم بین الروازح
وما وحشة تخنی علی کل زائح
إذا ساحت غالت بروح التسامح
وأزحفُ بقرآنی إلی کل نازح
وهذا شعورای کالصبا غیر جارح

* * *

تمهل هذا الركب فی الوحی برهة
أنتبت فی هدی الفیافی نبوة
فلا الرمل ریان یسح به الندی
فما تدرك الأبصار فی البید بهجة
فما فی سواد اللیل أنس لمقلة
فکیف یجیش الوحی فی ظل قفرة
وأمعن فی وجه من الظن طالح
وأفق الفیافی کالح أى کالح
ولا الترب خفاق بظل الدوائح
ولا تسمع الآذان صدح الصوادح
ولا الأنس باد فی بیاض الصبائح
فما ظلها للوحی يوماً بصالح

* * *

لسرعان ما جلتی الیقین ارتیابهم
مشی الوحی فیهם مشیة البرء فی الضنی
فهشوا إلی طیب من الوحی فائح
فأی فتی من سحره غیر طافح

وقد فتحوا الدنيا كلمحة لامح
يلفون وجه الأرض لفّ الوشاح
ولا ردت الأمواج خوض الجحاح
سوايح خيل تهتدى بسوايح
وفي كل يمّ منهم سبوح سابح
إذا ارتفعت أصواتهم بالفواح
ويلقى بهم إيمانهم في الطوائح
ولا الحثف في الإسلام صعب الجوائح
وراضوا على أسيافهم كل جامع
ولا تاج كسرى كالنجوم اللوامح
وأهوى إلى أقدامهم كل طامح
مضى ما بنوه بالسيوف الرواشح

فطاروا إلى الدنيا بدين محمد
كأن الرياح الذاريات مطيهم
فما عاقت الصحراء عن طي رملها
تجوز بهم رمضاء كل تنوفة
ففي كل برّ منهم زحف زاحف
كأن دوى النحل مثل دويهم
يجول بهم إسلامهم كل جولة
فما الموت في الإيمان مرّ مذاقه
فقادوا على أرامحهم كل مصعب
فلا قيصر يزهو على الشام تاجه
تناثرت التيجان تحت خيوطهم
رواشح بالموت الزعاف سيوفهم

* * *

تئن أنين الطير من كل ذابح
لإذلالها يلهو بها كل مازح
ولا عيشها في الخلق عيش الصحاح
تفيض جفون بالدموع السوافح
فما نضحت عنها عيون النوائح
ألا ربما هبوا بصيحة صائح !

فأين رسول الله يشهد أمة
تعالت فطاحت فاستكانت فأصبحت
فلا ملكها في الأرض مشتبك العرى
على مثلها من ذلة بعد عزة
فهذى فلسطين تنوح من الأذى
فهل صيحة في العرب تبعث ملكهم

قبر المسيح بين سيف الدولة وصلاح الدين

هذا ابن حمدان والآثار ناطقة
حمى الديار ديار العرب فانطالمت
سيوفه من دماء الروم قد رويت
ملّ « البطاريق » من غاراته وبدا
اضرب بعينك في آيات شاعره
تكاد تسمع صوت الروم إن صرخوا
إما قتيل تواری الأرض أضلعه
لو كان يعبد دون الله من صنم
لولا جهاد بنی حمدان فی حلب
تلك البطولات كالأهرام راسخة
انهض ورتل صلاح الدين آيتها
جاءوا إليك بجيش يعصمون به
لو كان همهم قبر المسيح لما
أيمنحون بنی صهيون تربته
الحقد يأكل أكلا من جوانحهم
عيسى بن مريم في الإسلام حرمة
ما في شريعته إلا السلام فهل
أين السلام وقد هدّوا قواعده
محتهم وبطون الأرض تكتهم
حطّين قد غذيت منهم منابتها
أين الحصون وأين التازلون بها
ودّ العباب الذي خاضوا غواربه

فما يعنى على آثاره القدم
له الأناشيد والأوتار والنغم
وكاد يشرق منها السيف والقلم
على « البطاريق » من أهوالها السأم
تظل تنطق في آياته الكلم
وتلمس الخوف إن خافوا وإن وجموا
أو سالم من سيوف العرب منهزم
ما كان لى غير سيف الدولة الصنم
ما كان للعرب تاريخ ولا علم
فأين ما طمسوا منها وما هدموا
الأذن مصغية والعين تلتهم
قبر المسيح فما صانوا ولا عصموا
تهودت فيهم ذرية ظلموا
ويزعمون التقى ، هبّات ما زعموا
والحقد نار على الأكباد تضطرم
في كل قلب له من أهله حرم
صموا عن الشرع إنكاراً له وعموا
وإنما السلم في أفيائنا عدم
في كل راية عظم لهم ودم
فاخضوضر الشيخ والقيصوم والسلم
لم يغنهم عن جماح العرب معصم
لو كان يبلعهم من بعد أن هزموا

ليغسل العار عن شعاء هزمهم وكيف يغسل هذا العار بعدهم

* * *

يا أمة من تراث الدهر خالدة
ظنوا اجتياحك مأموناً عواقبه
كم غارة لهم في الشام عاصفة
في كل غور من الأغوار معترك
مضوا وخلوا هشيماً من شبابهم
حلوا بأرضك حيناً ثم ما لبثوا
لما رأوك وقد أعيت جحافلهم
كان أنسأهم من بعدهم حلفوا
فأقحموا في ديار الغرب شزيمة
هذي حضارتهم والشر يملؤها
يشردون شيوخاً من ديارهم
قوم يموتون من بؤس يشتمهم
خير من العلم جهل تستقر به
هل يبعث الله نوحاً في سفينته
كأنما الروض من آثامهم يبست

مضت ولم تستبح آثارك الأمم
وما دروا أنهم في ظنهم وهموا
فلم يصبك على غاراتهم هرم
وكل نجد من الأنجاد مصطدم
نما به العود والغيطان والأكم
أن غادروا الأرض لم تثبت لهم قدم
ولوا وقد أورثوا الغيظ الذي كظموا
أن يبعثوا الحق نيراناً وينتقموا
من آل صهيون لا عهد ولا ذمم
ماتت على صرحها الأخلاق والشيم
كأنهم في صحارى تيههم بهم
وآخرون على أطلالهم نعم
حرية الخلق والأنفاس والنسم
حتى يعم الورى الطوفان والديم
فما ينصرها ورد ولا غم

من قصيدة عنوانها « بطولات العرب » ألفت في
مهرجان الشعر الأول سنة ١٩٥٩ .

بدر الدين الحامد

١٨٩٩ - ١٩٦١

من شعراء حماة المبرزين ، نشأ في بيئة دينية ، فأبوه الشيخ محمود الحامد أحد شيوخ الصوفية ، وجده لأمه الشيخ مصطفى الجابى عالم دينى وشاعر . وقد درس عن أبيه القرآن والعربية ، ثم دخل المدرسة الإعدادية فلما أتمّ دراسته الثانوية انتقل إلى دار المعلمين ، ولكنه لم يتمّ الدراسة فيها لاضطراره ، بعد وفاة أبيه ، إلى العمل ليقوم بأود العائلة . .

وقد أشار إلى العناء الذى لاقاه فى بدء حياته بقوله :

« . . . قُذِفَ بى إلى هذه الدنيا فى ١٠ شعبان سنة ١٣١٩ هـ فلم أكد أبلغ أربع عشرة سنة من العمر حتى منيت بفقد الأب وضياح الأمل ، فلما بلغت ست عشرة دُهِيت بفقد الأم فحرمت نظرات العطف والحنان ، وكان لى ولأخوى الصغيرين بقية من إرث نتعيش بها فاجتاحها الدهر ، فإذا نحن أفقر من الفقر ، وتقطعت بى الأسباب ، فكنت أنتى سرت أجد سبيل الحياة سداً ، وفيما بين ذلك ينصبّ علىّ العذاب من السماء ، ويأخذنى ظلم البشر من الأرض . فكان الألم فى هذا الدور منبعث الشعر ، وكانت نظراتى إلى الحياة نظرات نقيمة ، فما يطيب لى إلا الانفراد ، وجميع ما فى هذه الدنيا من نضارة وجمال كان يهيج عندى الألم . . . وكـم آسف كلما فكرت أن معظم ما نظمته فى هذا الدور ضاع من يدى » (١) .

* * *

لقد نظم الشعر وهو فى طراوة العمر ، وإذ كان يحسن العربية فقد عيّن فى العهد الفيصلى « ١٩٢٠ » - معلماً ، وأتيح له ، خلال ثلاث سنوات من تعيينه ، أن يتمّ دراسته فى دار المعلمين ، وأن ينال سنة ١٩٣٢ أهلية التعليم ..

وانصرف في هذه الفترة إلى كتب الأدب يقرأها ويتزود منها لإنماء ثقافته ، ومن دواوين الشعر يحفظ روائعها ، وحين امتلأت نفسه أخذت قريحته تفيض بألوان من الشعر الوطني ومن الشعر العاطفي ، وأخذت الصحف تنشر له بعض القصائد والمقطوعات ، وقد أشار إلى من تأثر بهم من الشعراء بقوله :

« . . . أما الشعراء الذين تأثرت بهم فهم : المتنبي والبحتري في الدرجة الأولى ، وبشار وأبو نواس والعباس بن الأحنف وابن المعتز وأبو فراس وشوقي — أمير شعراء هذا العصر — وشعراء البادية المغرمون في صدر الإسلام أمثال جميل وقيس وعروة ، وشعراء الأندلس الذين يصفون الطبيعة عامة » (١) .

وقد كان شعره خلال هذه الفترات تعبيراً عن هواجسه وأحلامه ، وكانت الهواجس الوطنية أبرز ، ولا سيما بعد أن تقوض الحكم العربي في عهد فيصل ودخل الإفرنجيون سورية ، فثارت العواطف وهاجت النفوس ، وكان الشعر بعض الهواجس المعبرة ، وكان بدر الدين الحامد في طليعة شباب حماه وشعرائها تعبيراً عن هذه الهواجس التي أثارت عليه نقمة الإفرنجيين الذين كانوا يريدونه ، وهو معلم في المدارس الحكومية ، أن يسبح بحمدهم لا أن يثير الجماهير عليهم ، وحين شبت ثورة حماة سنة ١٩٢٥ ألقى القبض عليه وزج في السجن ، وقد أشار إلى هذا بقوله :

« . . . وفي أواسط السادسة والعشرين من العمر حدثت ثورة حماة ، فكمت الأفواه ، وزجّ بي في السجن ، فقضيت مرّة العذاب ، فلما أفرج عني بكيت كثيراً على ما صارت إليه البلاد ، وكأن هذه الحوادث أيقظت فيّ الشعور بالألم مرة ثانية ، فانصرفت إلى نظم الشعر الباكي الذي يمثل الطبيعة باكية متألمة ، وزريت على القضاء الذي شاء لنا الشقاء » (٢) .

ومن شعره الذي كان يردده في تلك المحنة قوله :

كلما نادى المنادى أين بدر الدين ؟

نلت لا شك يناديني إلى « زبل » و « طين »

(١) نفس المصدر ص ١٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨ .

إشارة إلى الأعمال الزرية التي كان يلقاها وهي أهون ضروب المهانة والعذاب . وظلّ ، بعد خروجه من السجن ، وفيماً لمبادئه الوطنية ، وكانت « الكتلة الوطنية » — قائدة النضال — تعتمد في الحفلات والمناسبات القومية التي تقيمها — كانت تعتمد على الشعراء ، فكان البزم ومردم وجبري وبدوي الجبل وأبو ريشة هم المعبرين عن وجدان الأمة وعن نزعاتها وفوران ثورتها ، وكان بدر الدين بين هؤلاء الشعراء ، فلم تخل حفلة من قصيدة له ، وكثيراً ما جرّت عليه هذه القصائد ألوان النعمة والغضب فما كان هذا يثنيه . . .

وحين تمّ الجلاء وأعلن استقلال سورية استفرته الفرحة وأطلقت قريحته عن قصيدته الرائعة :

بلغت ثأرك لا بغى ولا ذام يا دار ثغرك منذ اليوم بسام^(١)

وكانت نكبة فلسطين بعد الجلاء مثار ألم شديد للشاعر ، فلم تخل قصيدة من شعره إلا ذكرها :

يا فلسطين لك الذكرى ولى مدمع ، بعد النوى ، منسجم
رب رحماك ظلام دامس أينما سرنا ، ورأى مبهم

* * *

ثمّة ظاهرة ثانية في حياة الشاعر جديرة بالتنويه ، فإن حياة الضنك التي عاشها وهو في فجر عمره قد زابلت ، فأنصرف يعب من مباحج الحياة شتى ألوانها — من أفق ديني مترمت إلى أفق منطلق وألوان من العبث واللهو البريء . وقد وصف هذه الفترة التي لازمته من شبابه إلى كهولته ولم تفارقه حتى في شيخوخته في قوله :

« . . . ولما شاء الله أن يسهّل الأسباب بدأت أنظر إلى الحياة من وجهها الضاحك على ما فيّ من ألم ، واسترسلت في اغتنام اللذات فما أحجمت عن واحدة منها . وجمال الطبيعة يزيدني طرباً ويهيج في الذكرى الماضية فأنصرف إلى سماع الغناء والاستمتاع بمجالس اللهو ، وقد تملكني الغرام فكان الشعر ضاحك اللفظ ،

(١) أشير إلى هذه القصيدة في مقدمة الكتاب .

باكى المعنى ، وقد ذهب بعض هذا الشعر ولكن فيما بقى منه غنية عما ذهب « (١) .
هذا كلام قاله وهو فى فجر الشباب ، على أن هذه الظاهرة ظاهرة الاستمتاع
بالمباهج واللذات قد لازمتها فى جميع مراحل حياته .

يقول صديقه وزميله الأستاذ عمر يحيى :

« . . . كان بدر الدين ذا نفس حساسة شاعرة بكل ما تحمله هذه الكلمة
من معنى ، لم يبخل على نفسه بلذة من لذائذ الحياة ، لزم مجالس الشراب والغناء
فكان بهجة المجالس وزينتها ، يغلب عليه أحياناً الروح الدينى الذى نشأ عليه أبواه
فيتوب ، ولا يلبث أن يعود مردداً . . .

اليوم أشرب كأسى وفى غد سأتوب !
وهكذا دواليك . . . إلا أن غلبة الروح الدينية عليه ، فى أواخر أيامه ،
كانت ظاهرة كل الظهور » (٢) .

* * *

وكان ذا ميل للموسيقى ، ولعل لهذا الميل علاقة بشاعريته : فقد كان يعشق
النغم ، ويدرك طبقات الأصوات ، ويحفظ فروق الأنغام الفرعية منها معرفة يقصر
عنها أهل الاختصاص ، فالغناء كان رفيق حياته ، والمغنون كانوا رفاقه وأبناءه ،
ولم ينشأ مغن فى حماة إلا وكان لبدر الدين فضل عليه فى الشعر والموسيقى والغناء . .
ولسنا ننسى أقواله التى تغنى بها المغنون فى حماة :

أترع الكأس وطبيها بعرف من لماك
واسقنيها إن عيني لا ترى شيئاً سواك
وليقولوا ما أرادوا أنا صب فى هواك
جنتى كأس الحميا ونعيمى فى رضاك

وكانت هذه الأبيات تقيم الدنيا عليه وتقعدوها ، فهو ، كما قلنا فى مسهل

(١) نفس المصدر ص ١٧ .

(٢) من رسالة خاصة .

البحث ، من عائلة دينية يكتنفها الوقار والطابع الديني الذي لا يحتمل التساهل في مثل هذه الأمور ، ولا يحتمل أن يذكر أحد من أفراد هذه العائلة مثل هذه الكلمات « أترع الكأس » أو « اسقنيها » أو « كأس الحميا » — إنها ألفاظ تخالف الشرع ، وإن على الشاعر أن ينصاع لهذا الشرع الشريف فيتقيد بأوامره وينصرف عن نواهيه ، وكـم أثار عليه الناس قوله :

يا حبيبي أذن المغرب فانهض للمدام
ودع العود يغنينا تراتيل الغرام

لقد ثار الناس لهذا التوقيت الذي جمع بين « المدام » و « أذان المغرب » .
وكان الناس كانوا يتطلبون من بدر الدين أن يقول :

« يا حبيبي أذن المغرب فانهض للصلاة »^(١)

* * *

كان بدر الدين طويل النفس ، لا تقل قصيدة من قصائده عن الثمانين بيتاً .
وكان حسن الإلقاء ، بحترى الأسلوب ، ومن المؤسف أن تظل قصائده — وتؤلف
أكثر من ديوان — مبعثرة في بطون الصحف ، وهي سجل واضح للكثير من
الأحداث الوطنية الكبرى التي واجهتها سورية خلال الانتداب الإفرنسي . .

لم يصدر له غير ديوان في سنة ١٩٢٨ وهو يضم بواكير شعره ، إلى « تمثيلية
شعرية » — على ما يدعوها هو — نشرها سنة ١٩٤٦ تبتدئ حوادثها بإعلان الملكية
في سورية وتتويج الملك فيصل سنة ١٩٢٠ وتنتهي بخروجه من دمشق ٢٨ تموز
سنة ١٩٢٠

منها : بعد انكشاف الستار عن جماعة من الناس في الطريق وهم يصخبون :

أحمد : الصبر أصبح لا يطاق فإلى متى هذا النفاق
باعوا البلاد رخيصة والأمر تم على اتفاق
راشد : تباً لهم خانوا إذن واسترخصوا حق الوطن

أثروا وألقونا على مرّ الليالى فى المحن
أصوات : خطيب . . خطيب . . .

الخطيب على مكان مرتفع :

أيها الناس أصبح الأمر جدّا فضعوا اليوم للخيانة حدّا
لهف نفسى على بلاد بنوها لا يصونونها ويأتون إدّا
أسلموها إلى العدو وقالوا لا نطيع الدفاع أخذّا وردّا
كل يوم عدونا يتحدّى هو يحيا ، ونحن بالذل نردى

وبدا ألمه واضحاً من خداع الأمانى ومهزلة الزعامات . وقد بحّ صوته وهو
ينادى إلى أخذ الأمور بالجد لا بالهزل ، وبالألفة لا بالتنازع ، حتى إذا يشد أنشد
نفسه هذه المقطوعة :

أصبحت لا آسى على فائت ولا أمنى النفس بالمقبل
حسبي وحسب الناس أنى امرؤ فى كل ما يجنون لا ذنب لى
أخلصت حتى لم أدع لى مخلصاً يسبقنى فى الموكب الأول
ظنّاً بأن الحق للمجتلى فى أفاقه لا بدّ أن ينجلي
يا ويح قلبى فى خداع المنى ضلّ فما يدرى السبيل الجلى
لاشئ فى دنياك ، يا مخلصاً إخلاصه يرمى به من عل
وفيت لا بل زدت حتى لقد صرت محط القول فى المهزل
فهل رعى حقك أربابه أنت شج والقلب منهم خلى
بالله يا كاسى أنيرى دجى أقطعها فى دهرى المحمل
ويا ندامى أعيدوا الهوى غصّاً فغصنى بعد لم يذبل
خذوا علىّ العهد أنى لكم وأننى حددت مستقبلى
لا شأن لى فيما أرى فليسد « أبو زياد » قومه أو « على »

وهكذا انتهى صراع الشاعر إلى يأس مرير .

من شعره :

في زكبة فلسطين

رانتْ على أجواء يعرب غمة ترى صفاء سمائهم بدخان
يتفرقون ويلتقون كأنهم خيل الحران تشدّ بالأشطان
يا ويلنا شاد اليهود حصونهم في دارنا ، والعرب في هذيان
هم يبتنون ونحن نهدم ملكنا أنا من ذرا « قيس » وأنت « يمانى »
هذا ابن عمك في الحفيظة سهمه يدى مطاك فكيف تلتقيان
ونقول : إنا وحدة عربية قول جميل الوقع فى الآذان

الجمال

لا تسلى عن الجمال فىنى بفؤادى ضللت فى أسراره
ورد نيسان برعم فتحته نسمات الصباح من أياره
كان فى ذمة الربيع جيناً كوّنته النطاف فى آذاره
فدعوى وما أهيهم فقلبي شاعر ينطوى على مزماره

عبء الهوى

حملونا عبء الهوى ونسونا ما عليهم لو أنهم ذكرونا
نحن منهم على خيال مقيم يبعث الوجد والصبابة فينا
خلفونا على الهوى ثم بانوا ليتهم قبل بينهم ودعونا

الهناء ثوان

قد خبرنا أفعال هذا الزمان وبلونا من أمره كل شان
فعلمنا أن الخطوب توالى وعرفنا أن الهناء ثوانى

أيهما الأغنياء : كاد فقر الإنسان يصبح كفراً

اسأل الليل عن شجون المعنى بات نضواً وبت أنت مهنا
يا حليف السهاد تلك حظوظ أى نفس تنال ما تمنى
علم الله أن ليلك داج فى تضاعيفه الشقاء ارجحنا
أنت بالفقر موجه تتخى وأخو اليسر بالهنأ يتغنى
قدر الله لا اعتراض ولكن أى ذنب هذا الفقير تجنى

• • •

مثلت لى الأيام طيف خيال هو يعتادنى إذا الليل جنا
كلما لاح أشعل القلب ناراً فتتزى بين الضلوع وأنا
صورة فى الدموع غرقى أراها فى ثنايا الخيال تذبل حزنا
أخذ الفقر رونق الروح منها فهى لفظ يمر فى غير معنى
تقتضينى نرف الدموع جهاراً أرايتم دمعاً إذا سال أغنى
لى فى البؤس سابقات ليال كنت منها فى ريق العمر مضى
كل شىء يفنى ولكن ذكرى قسوة الدهر لن تبيد وتغنى
كاد فقر الإنسان يصبح كفراً صرف الله عادى الفقر عنا

• • •

ما تقولون فى فقير لديه صبية كالنجوم نوراً وحسنا
هم يبيتون فى الليالى جباعاً والطعام المرىء نحن طعمنا
وعليها مجاسد من حرير وعليهم حط الزمان وأخنى
حسبنا الله كلنا من تراب أى فرق فى الخلق روحاً ومبنى
نتساوى غداً إذا نحن متنا منهم الدود آكلات ومننا
قد يكونون عند ذى العرش أعلى فى مقاماتهم وأثقل وزنا
إنما العمر لمحة من خيال فإذا مر قيل كانوا وكنا

* * *

يا غراساً في دارة الفقر تحيا
نحن في الظل من حماك نبثنا
وعلقنا من الحياة بسفر
رب نفس بالفن عزت وسادت
وافتقار قد كان درب افتخار
حكمة الله والحياة شؤون
ما على ذى الثراء لو كان غوثاً
سأغنيك من الحوى لحنا
وعلى الصدق والعفاف نشأنا
فيه سر محجب فقرأنا
هي لولا الشقاء لم تأت فنا
كم فقير بالعقرية جنا
رب فقر يكون للنفس أهنا
للهيف ينسابه وجنا

* * *

أيها الناس نحن في زمن شبت
كرة الأرض ألهبت بشواظ
لجج البحر أججت بسعير
ملئ البحر والسماء حميا
كم بلاد دكت وكم من ألوف
نحمد الله أننا في أمان
غير أن الفقير لا يجد القو
أيها الأغنياء كونوا كراماً
إن تكونوا بنعمة فاشكروها
به الحرب والشقاء أرنا
رب رفقا فأت أدري وأحني
والسموات أزجت النار مزنا
وسبيل الحياة أصبح دجنا
طحنهم رحي المنية طحنا
رب فاحفظ لنا الأمان وزدنا
ت ومنا الغنى بالمال يعنى
وملاذاً عند الخطوب وركنا
من عليكم باليسر والفضل منا

* * *

يا رجالا تجمعوا ليقولوا
أنت منا ونحن منك وها نحن
كل هنيئاً ونم قريراً فإننا
نعمة الله وشى ثوب جميل
كيف يهدا أو يستقر فؤاد
ليس من بات طاوياً بدموع
كل يوم نلتى غرائث حيارى
للفقير الضعيف كن مطمئنا
على الضنك في الحياة اجتمعنا
بسقاء نجود بالمال إنا
وببذل المعروف تزداد حسنا
ونداء الفقير في السمع رنا
مثل من بات باللذاة يهنا
ما علينا لو بالقليل أغثنا

وذكرنا أن الثراء معار
 قد بلونا الزمان عسراً ويسراً
 فرأينا الإحسان أجمل فعل
 أحسنوا ما استطعتم عن سخاء
 ليس عيباً أن لا تكون غنياً
 من ترقى فإنه يتدنى
 وخبرنا الحياة خوفاً وأمناً
 فهو شمس الحصال بل هو أسنى
 طاب فعل الإحسان غرساً ومجنى
 إنما العيب يا فتى أن تضنا

نظير زيتون

١٩٠١ - ١٩٦٧

من أئمة الترسل . عاش الشطر الأكبر من شبابه وكهولته في المهجر ،
يحور الصحف ويكتب المقال الأدبي . ينقد ويترجم ، ويشارك في المهرجانات
الأدبية والمؤتمرات القومية . وقد دلف إلى الشيخوخة ، يغمر الصحف
والمجلات بمقالاته وبحوثه ، ولا ينسى الأصدقاء من رسائله الإخوانية المضمخة
بعبير الأدب .

ولد في حمص في شباط (فبراير) ١٩٠١ ، وتلقى علومه الابتدائية وشيئاً
من الثانوية في مدارسها الأرثوذكسية ، ودرس القواعد على الأستاذ يوسف
شاهين الذي تثقف عليه كبار أدباء المهجر الحمصيين ، ثم انتقل إلى المدرسة
الإنجيلية الوطنية التي كان يديرها الأستاذ حنا خباز حيث درس الإنكليزية
وشيئاً من الفرنسية والتركية .

وفي سنة ١٩١٤ ، أي في أواخر سنته الرابعة عشرة ، نزع من حمص
إلى البرازيل ، مع لقيف من الرفاق الذين كانوا ينشدون « المستقبل الذهبي »
في العالم الجديد . . .

وهناك ، عكف في أول الأمر ، على التجارة الصغيرة مقتفياً خطوات
من سبقوه من المغتربين السوريين واللبنانيين ، فما لقيت فيه رجلها ، ولا جنت
نفسه من ثمارها ما يحقق أملها ، وما عثم أن طلقها ، وعمل « كاتباً تجارياً »
في « سان باولو » .

وإذ ذاق حلاوة المعرفة وهو صغير ، انصرف إلى الدرس والتبحر في آداب
اللغة الفرنسية إلى جانب مطالعته في اللغتين البرتغالية - لغة البرازيل -
والإسبانية ، وكان ينشر في هذه الأثناء بعض المقالات الوطنية والاجتماعية في
الصحف المهجرية فإذا هي تشق طريقه إلى الصحافة .

فى سنة ١٩٢٦ دعاه العالم اللغوى رشيد عطية^(١) وأسند إليه رياسة تحرير جريدته اليومية «فتى لبنان» ، وكانت تقود الدعوة الاستقلالية والتوجيه القومى فاتخذها الأدباء العرب الأحرار وشعراء القومية ، وفى طليعتهم الشاعر القروى ، منبراً لهم ، وظلّ على رياسة تحريرها حتى عام ١٩٤٢ حيث احتجبت بأمر من رياسة جمهورية البرازيل التى حظرت نشر الصحف باللغات الأجنبية طوال الحرب العالمية الثانية .

فى سنة ١٩٣٢ شارك فى تأسيس «العصبة الأندلسية» وفى تحرير مجلّتها «العصبة» فنشر على صفحاتها الكثير من المقالات والدراسات .

وكان إلى عمله فى الحقل الصحفى ، يكتب ويؤلف ويترجم ، ترجم رواية «النبى الأبيض» للروائى الإنكليزى هول كابين ، وهى رواية تدور حوادثها حول نضال المصريين فى العهود الخديوية فى سبيل استقلالهم واسترداد حريتهم وكانت الرقابة البريطانية قد منعت نشر هذه الرواية ونشرها فى مصر ، ومنها «مركيزة سنطوس» للمؤرخ الروائى البرازيلى الدكتور باولو سيتوبال . ومنها «أرلندة المناضلة» وهى رواية تشرح الحركات الثورية التى قامت بها المنظمات الأيرلندية فى سبيل استقلالها عن التاج البريطانى ، ومنها «فلسطين العربية» وهى مجموعة دراسات وآراء حرة لكتاب بريطانيين ، وهناك ترجمات أخرى أهمها : «اعتراف ابن الشعب» لمكسيم غوركى .

ونلاحظ أن الروايات التى اختار ترجمتها تتناول الحركات الثورية ونزعات الشعوب فى سبيل حريتها وسيادتها .

ومن تأليفه : ١ - «ذنوب الآباء» رواية اجتماعية ، ٢ - رسالة فى «استقلال البرازيل والإمبراطورية الأولى» - أطروحة تاريخية ، ٣ - «سقوط الإمبراطورية الروسية» ، وقد تضمن الكتاب دراسة الأسباب التى أدت إلى انهيار العرش القيصرى فى روسيا ، ٤ - «الشعلة» مجموعة خطب ألقاها فى البرازيل مصدرة بمقدمة تاريخية أدبية عنوانها «المنبر العربى فى البرازيل» ،

(١) مؤلف «الأعراب فى قواعد الإعراب» فى ستة أجزاء ، ومحقق مقدمة ابن خلدون وشارح ديوان البحرى ومؤلف معجم عطية المطبوع فى سان باولو .

٥ - « هيرودس الكبير » - دراسة لعصر المسيح ، ٦ - « يسوع المصلوب »
وتدور حول الصراع بين اليهودية الجلمدة والمسيحية المنطلقة ، ٧ - « روسية في
موكب التاريخ » وهذا الكتاب يقع في جزأين في نحو ٨٠٠ صفحة ، ويكاد
يكون المؤلف العربي الوحيد الذى يتضمن تاريخ روسية منذ أقدم العصور
حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية ووفاة ستالين ، وله أيضاً كراس عنوانه
« رشيد عطية : حرف عربى من لبنان فى المهجر » وآخر عنوانه « الشهيدان :
الزهاوى وسلوم » وكتيب عنوانه « فى ذروة الوطنية والإنسانية » وآخر بعنوان :
« انهيار إمبراطورية وولادة أمة » وقد أوحى به العدوان الثلاثى على مصر .

* * *

بعد هذه السنوات الطويلة التى قضاها فى المهجر من سنة ١٩١٤ إلى
سنة ١٩٥٠ عاد إلى الوطن بوازع من الشوق والحنين فلم يلق من حفاوة الدولة
ورفدها ما لقيه بعض زملائه من أعضاء « العصبة الأندلسية » فتأثر وأوى
إلى منزله يعيش فى عالم الأدب الواسع الرحاب ، حسبته التكريم الذى لقيه
من رجال الفكر الذين قدروا أدبه ولا سيما بعد أن عين عضواً فى مجمع اللغة
العربية بدمشق وعضواً مراسلاً فى مجمع القاهرة فكان هذا التقدير أجمل عزاء
له وسلوى . ومن مدينته الوداعة أخذ يتابع الحركة الأدبية بشتى تياراتها ،
الصاخبة منها والهادئة ، فيبدي آراءه بجرأة واعتزاز ، ويزين الصحف والمجلات
بأدبه الذى غلب عليه السجع والذى أضفى عليه من الروثى ما جعله فى الكثير
من جملة أقرب إلى الشعر المنثور منه إلى أدب المقال ؛ فاستساغه البعض وأنكره
آخرون .

ولا غضاضة على أديب يلزم نفسه بالسجع إذا استطاع أن يعبر عن
فكره بانطلاق فى عصر طابع الأدب فيه ، بل طابع كل ظاهرة من ظواهر
الحياة - الانطلاق . . ولكن مهما حاول الكاتب أن يعبر عن آرائه فقد تلزمه
السجعة أن يطمس جوهر الفكرة التى تختلج فى ذاته ، ولا أقول إن الأستاذ
نظير عاجز عن إبراز أفكاره وهواجسه ، وهو ذو باع طويل فى فن الترسل .
ويمتلك الكثير الكثير من مفردات اللغة ، ولكنه ، لو انطلق ولم يلزم نفسه

بأدب المقامات — بأدب الهمداني والحريري — لكان أثره في الأدب أبرز وأعمق . إذ مهما حاول أن يعبر عن أفكاره فستظل "مخنوقة" في نطاق المترادفات قد لا تتيح لها أن تنفّس وأن تأخذ مجالها الرحب في التعبير .

وقديماً ميّز النقاد بين النثر والشعر فكان ميدان النثر أرحب .

وكم اضطّر الشعراء مراعاة للقافية والروى أن يطمسوا الكثير من الفكر وأن يلجئوا إلى الغموض فاعتبر الإلماع رمزاً ؛ وهو بعض خصائص الجمال في شعرهم !

وأعود إلى القول بأن الأستاذ نظير لو تخلى عن السجع وانطلق دون قيوده لكان أثره في الأدب أبرز ولا سيما وهو ، بثقافته العميقة ، وبجودة أسلوبه وقوة لغته يمثل صورة واضحة من الأدب المهجري الذي لا ينحدر إلى الهلهلة والميوعة ، كما هو عند البعض ، بل يتميز بالقوة ويزخر بالعاطفة والخيال المجنح الذي تترقق بين أسطره واحات من الشعر الذي يهزّ النفس هزاً . . . والغريب أنه لم يلزم نفسه بالسجع إلا بعد عودته من المهجر ، وفي مواقف وموضوعات معينة .

وقد أوضح لي رأيه في رسالة خاصة فقال : « السجع لون، عربي أصيل عريق ، عرفه العرب في الجاهلية والإسلام وعصوره المتأخرة ، يكفي أن نذكر القرآن الكريم لتتجلى لنا روعة السجع ووقعه الأخاذ ، والسجع ، كما أفهمه وأزاوله — منزلة بين النثر والشعر والنثر العادي الدارج ، أو إذا شئت سمّه النثر الصحفي ، سهل المنال ، خفيف الأحمال ، واسع المجال ، ميسور الوصول ، يجري هيناً على كل قلم . والسجع الذي ألتمزه أحياناً يختلف كل الاختلاف عن سجع المقامات ، حيث لا تتعدى السجعة الواحدة فقرتين أو ثلاثاً بمعنى واحد تقريباً ، أما أسلوب في السجع فيقفز في السجعة الواحدة إلى عشر فقرات أو أكثر ، ولكل فقرة انطلاقة . ولكل فقرة إشراقة ، ولهذا حلاوة ، ولأخرى طلاوة ، في تناغم وإيقاع ، ولا أعرف كاتباً مارس هذا الأسلوب في سجعاته ، ولعله طراز في جديد في أدبنا الحديث ، وإن كان كثير من يمتقون السجع ويعدّونه من مخلفات العهد البائد ، لما فيه من حشو

وتكلف يبعدانه عن الإبداع ، فالسجع ، كما قلت منزلة بين النثر والشعر .
 وأنا لا أستطيع أن أرتفع إلى الشعر — لا النظم — لأعبر عن أفكارى وأحاسيس
 نفسى ، ولا أرضى لأدبى أن أهبط به إلى النثر العادى الدارج الذى يعالجه
 كل قلم بسهولة ، فكانت لى تجربتى فى السجع المديد المتناغم الذى تؤلف فيه
 السجعة الواحدة مقطعاً كبيراً وكأنه مقطع قصيدة واحدة » .
 ومن نقثات قلمه :

من وحي السد العالى

لله تلك الكلمةُ العذراء . .
 تخلّفت عن رفيقاتها فى سُبات عذب الأصدا .
 وسادها الجوزاء ، وفراشها الثرىا العصماء ، ولحافها القبة الزرقاء .
 وأفافت باسمّة مهللة ، وفى وجهها سناءٌ ورّواء .
 فإذا هى وحيدةٌ على كئيبان البادية الغبراء .
 ورمّت أبصارها فى الأقاصى تنشد الركب فى البيداء .
 واستصرخت هلعاً بقلب لهيف الأداء :
 أين أنتنّ يا شقيقات الحوباء ، أين أنتنّ يا شقيقات النور الأزلى
 المعطاء . .

أفراقٌ ولا وداع ، ولا أملٌ باللقاء . .
 ونادت ، ونادت ويا رعدةً فى النداء ، يردّها رجوع الصدى حشرجةً
 فى الفضاء .

وتهافت قلبها فارتمت على البطحاء ، وأجهشت بالبكاء . .
 وساورها اليأس وكاد يسفحُ ما فى كأسها من صهباء . ويستلّ ما فى
 عينيها من ضياء ، ويصوّح ما تنصّر فى جوانحها من براعم الرغد والنعماء .
 ورفعت يديها تشكو إلى الله غربةً عاتية فى وحشة طاغية ، مزّقت
 أمنيتها الزهراء . .

وكان صباحٌ وكان مساء .

وسلستُ لها الأحلام بعد العناء .

جمع الله شملها بالشقيقات ، فكان العناقُ ، وكان العزاء .

فقلنَ أخيةُ لا تجزعى ، سيأتيك يوم الصفاء .

إذا كنت كثنبان رمل ، وجلاميدَ صخر ، ونجوى شقاء .

فلله سرٌّ حكيمٌ مصنونٌ تحجب عن أعين البصراء .

وإن كان يومك مد لهم الغيوم ، فلا بدّ أن تشرق الليلة القمراء . .

وردت وقالت : تعستُ . . وأنى لرملى وصخرى ازدراع الرخاء . ومن

أين لى أن أفيص ينابيع خير تروى الظماء . .

ويولت ، وفي ناظرها بریقٌ من العزم والمضاء . .

* * *

جئت لتصلى وتشكو إلى الله ما انطوى عليه قلبها الحصيب من المني

الهدباء .

إلهى ، إلهَ الجمال ، إلهَ المحبة ، إلهَ العطاء .

أنا منك ومضة غوث . أنا منك نفحة خير ، أنا منك نسمة برّ ، أنا منك

مُزن السماء .

فجُدد يا إلهى علىّ بماء . وظلّ ظليل لهذا العراء ، وثدى كريمٍ حنون

سخيّ الولاء ، فإن عيس الدهر يوماً وكشر للأصدقاء ، تسلفتُ بسمتى وجهة

الرجاء .

أنا لستُ مثل شقيقائى ، قمة شماء أوروضة غناء ، أو بحيرة زرقاء ، أو

بقعة خضراء ، أو مدينة فيحاء . .

أنا لستُ نهراً ، لستُ شلالاً ، لستُ وادياً أنيس الأفياء . .

ولستُ سحابة غيث وآلاء ، وإنما أنا ، ويا بؤسَ ما أنا ، أرضٌ

مواتٌ جدباء .

وإنما أنا فى موكب الحياة عقبةٌ كأداء . إنما أنا يا الله ، يا مبدعى ،

كلمةٌ عقراء . .

وابتهلتُ إلى ربها وفي ناظرها انتفاضةٌ بكماء ، ودمعةٌ خرساء .
 إلهي غفرانك فليس طموحي صدى الكبرياء ، ولكن طموحي جمالٌ
 أغاريدُه فرحةٌ في العلاء .
 ومن أين للرمل . ومن أين للصخر ، أهاميس قلب رخم الغناء . وأساجيع
 حبّ تهزّ السماء ، وأغاريد وجد حنون ، صلاة إلى الله في فم الورقاء . .

* * *

لله تلك الكلمة العذراء .
 سمعت هاتفاً قصيماً يناديها فأصغت أيتها إصغاء .
 وتهلل وجهها بشراً وبهاء .
 ستكونين أعظمَ مما تحلمين يا عذراء الصحراء .
 ستكونين ينبوعَ رحمة وسلام وثراء .
 ستكونين غوثاً ونعمة وبركة تملأ الأرجاء .
 ستكونين الأغردة الكبرى في موكب الكرامة والإباء .
 ستكونين الزمرّدة الخضراء في قلادة أفريقية السوداء .
 ستكونين آية الكفاح الجبار في معركة السلم البيضاء .
 ستكونين كعبة الإلهام والجمال في قوافي الشعراء ، ورؤى الأنبياء .
 ستكونين وثبة التاريخ في تاريخ العباقرة الأصفياء . . .
 وماذا . . . ؟

ستكونين رمزاً حياً للصداقات بين الشعوب وعنواناً للولاء .
 تبارك ثديٌ يدرّ العلي والرخاء ، وتبارك ما تلد للإنسانية والهدى تلك
 الأحشاء . إنه الثورة ، إنه النضال ، إنه الإنشاء والبناء .

فاخشع يا خوفو ، وطأطيْ أيها الهرم ، وللم كنوزك يا توت عنخ
 آمون ، وعضّوا يا آل فرعون . إذا ولدت ثرواتكم الجاحدة الجاحمة الأهواء
 بهارج الخيلاء . فعذراء الصحراء تلد الحياة رغادةٌ وعلياء ، ومناجعَ خيرٍ
 غصراء ، ومنازل طمأنينة قوراء .

فقرّى عيناً ، وطيبى نفساً آيتها الكلمة العذراء .
ستكونين للحب والسلام والجمال ، ستكونين كما لكِ الله شاء . شمساً
متهادية الألاء . . .

إنك هدية الله إلى الإنسان
وإنك صلاة الإنسان إلى الرحمن
وما شاء الله وقدّر كان
فأعظم بهدية سيد الأكوان
وأكرم بمعجزات يد العمران ، فى أسوان ، صلاة شكر وإيمان .

* * *

فى السدّ العالى . . .
قرأنا أبجدية البطولات العوالى . والانطلاقات الغوالى ، والانتفاضات الحوالى ،
ووثبات الأساطير الحوالى . .

وقرأنا فيه حلم ألوف وألوف من السنين . حلماً عملاقاً تراقصت أشباحه
على النيل الميمون . حلماً قدسياً تلاً فى سراب الرمل والصخر الدفين . حلماً
زكياً علق بأهداب المصلحين المؤمنين ، حلماً رائعاً ساحراً فكّ طلاسمه
« عبد الناصر » الأمين . .

فيا لعصر السدّ العالى من عصر ، لياليه هزيع من ليلة القدر ، تبلى
فيه للعروبة الفجر ، فانطلق النسر ، وتحقق النصر ، ولله الحمد والشكر .

جميل صليبا

١٩٠٢

مفكر أديب ، وباحث واسع الاطلاع على مجرى الفكر العربي والأوربي معنى بالدراسات الفلسفية و بدراسة الفلسفة العربية بصورة خاصة .

ولد في السابع من شهر شباط سنة ١٩٠٢ بالقرعون ، وهي قرية من قرى البقاع ، ولما بلغ الثامنة من سنه انتقل مع والده حبيب الخوري داود صليبا إلى دمشق فأدخله المكتب السلطاني سنة ١٩١٠ ، فلما انقلب المكتب السلطاني . بعد الحرب العالمية الأولى إلى مدرسة تجهيزية عربية كان أول من تابع دراسته فيها حتى حصل على شهادتها عام ١٩٢١ فأوفدته وزارة المعارف السورية مع تسعة طلاب إلى فرنسة لدراسة العلوم والفنون والآداب وكان الأستاذ محمد كرد علي وزيراً للمعارف وقتئذ فرأى أن يرأس هذه البعثة العلمية وأدخل صاحب هذه الترجمة في فرع الفلسفة من كلية الآداب بجامعة السوربون، فحصل على شهادة التربية العالية من معهد علم النفس سنة ١٩٢٣ ، وعلى شهادة اليسانس في الفلسفة من كلية الآداب سنة ١٩٢٤ وعلى شهادة اليسانس من كلية الحقوق سنة ١٩٢٦ وعلى شهادة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٢٧ . ولما أنهى دراسته عاد إلى سورية فسمى أستاذاً للفلسفة في مدرسة التجهيز بدمشق سنة ١٩٢٧ .

وكان برنامج الفلسفة في المدارس التجهيزية إلى ذلك العهد ، غير وافٍ بالقصد فأصلحه ورتب مواده ووضح مفرداته واصطلاحاته . .

وظلّ سنوات يمارس مهنة التدريس على أحدث المناهج التي أخذها عن الغرب حتى سنة ١٩٣٥ حيث انتدبته وزارة المعارف مفتشاً للتعليم الثانوي ، ثم سمته ، بعد ذلك ، رئيساً للتعليم الثانوي عام ١٩٣٩ فعمل على إصلاح المدارس الثانوية ورفع مستوى التعليم فيها .

وكان خلال هذه الفترات يكتب ويترجم ويحاضر ، وقد اشترك مع

الأساتذة خليل مردم بك وكامل عياد وكاظم الداغستاني في إنشاء مجلة « الثقافة » التي لم يكتب لها البقاء طويلاً ، كما اشترك في تحرير مجلة « المعلمين والمعلمات » ومجلة « التربية والتعليم » وقد زودها بمقالات توجيهية وآراء حصيفة في مجرى الفكر العالمي ، وكانت مادته الأساسية الفلسفة العربية : أصولها وخصائصها ، ما أخذته من الإغريق وما أعطته إلى الغرب ، وقد ألقى في كلية الآداب ست محاضرات جمعت في كتاب عنوانه « من أفلاطون إلى ابن سينا »^(١) وهو الموضوع الذي شغله وهو يجتاز مرحلة اليسانس إلى الدكتوراه . وقد كانت أطروحته التي قدمها للحصول على شهادة الدكتوراه هي « دراسته عن فلسفة ابن سينا »^(٢) .

وإلى جهوده ، في وزارة التعليم ، فقد انصرف إلى التأليف وإلقاء المحاضرات في شتى المعاهد العلمية والثقافية فأصدر كتاب « علم النفس » في نيف وثمانمائة صفحة وقد طبع مرتين ، كما أصدر كتاب « المنطق » في ٤٠٠ صفحة ؛ والكتابان على جانب كبير من التركيز الفكري وبسط أعضل النظريات الفلسفية بأسلوب سهل واضح .

وكان قد أصدر خلال هذه الفترات ، بالاشتراك مع الدكتور كامل عياد « المنقذ من الضلال » و « حى بن يقطان لابن طفيل » ومنتخبات من ابن خلدون ، كما نشر « نصوصاً منتخبة في المنطق والنفس والأخلاق والتصوف لابن سينا » مع مقدمة عن حياة الشيخ الرئيس وأثره في تاريخ الفلسفة .

واختصّ المجالات العربية بمقالات ودراسات مختلفة في شتى ألوان الثقافة ؛ فكتب في الهلال والحديث والرسالة والثقافة والأديب والسياسة الأسبوعية . . أى أن نشاطه لم يقف منذ بدأ حياته الفكرية مما حفز الجمع العلمي العربي أن يضمه إلى أفراد أسرته فانتخبه عضواً عاملاً سنة ١٩٤٢ وأخذ منذ انتسابه إلى هذا الصرح العلمي يكتب في مجلته ويحاضر من على منبره ، وكانت أولى

(١) طبع في دمشق عام ١٩٣٥ .

(٢) طبعت في باريس بالإفرنسية سنة ١٩٢٦ .

محاضراته : ١ - الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية ٢ - الغزالي وزعماء الفلاسفة
 ٣ - أبو الهذيل العلاف. وغير ذلك من المحاضرات الفكرية . ومنذ انتسابه
 لعضوية المجمع إلى اليوم وهو يساهم مساهمة فعالة في تحرير المجلة ، فلا يصدر
 عدد إلا وله فيه دراسة قيمة ، وقد نشر سنة ١٩٤٩ بإشراف المجمع « الرسالة
 الجامعة » . كما نشر في دائرة المعارف الإسلامية تعليقا على فلسفة ابن رشد
 وترجم مقالة « الطريق » لديكارت ، عدا الرسائل والكتب التي نشرت مستقلة
 لكتاب « من الخيال إلى الحقيقة » وكتاب « الاتجاهات الفكرية في بلاد
 الشام وأثرها في الأدب الحديث » وهو محاضرات ألقاها على طلبة قسم
 الدراسات الأدبية واللغوية في معهد الدراسات العربية العالية بمصر ، إلى مجموعة
 من المقالات والمحاضرات التي تؤلف عدة كتب والتي لما تطبع بعد .

* * *

هذه خطوط مميزة لنشأة الدكتور صليبا ، ولحياته الدراسية ، مع إلماع
 إلى إنتاجه الفكري . وهو رجل فكر واسع الاطلاع ، يغلب على أدبه الطابع
 الفلسفي والنزعات التأملية الخيرة التي جاءت من دراساته الواسعة لفلاسفة الغرب
 والشرق . وللفلسفة اليونانية والإسلامية بصورة خاصة ، وقد استطاع ، بعد أن
 وعى مذاهبها ونهل من مواردها ، أن يصب الآراء التي يعرض إليها في أسلوب
 عربي مشرق يرجع إليه طلاب الفلسفة ورواد المعرفة فلا يجدون أية مشقة في
 فهم غوامضها وإدراك ملتوياتها . وقد ردّ الكثير من المصطلحات الفلسفية
 الحديثة إلى أصولها العربية القديمة . ورأيه في تعريب المصطلحات العلمية
 الحديثة يلخص في القواعد التالية :

١ - البحث في الكتب العربية القديمة عن اصطلاح مستعمل للدلالة
 على المعنى المراد ترجمته . ويشترط في إقرار هذه القاعدة أن يكون اللفظ
 الذي استعمله القدماء مطابقاً للمعنى الجديد .

٢ - البحث عن لفظ قديم يقرب معناه من المعنى الأوروبي الحديث ،
 فيبدل معناه قليلا ويطلق عليه المعنى الجديد

٣ - البحث عن لفظ جديد لمعنى جديد مع مراعاة الاشتقاق العربي .

٤ - اقتباس اللفظ الأجنبي بحروفه على أن يصاغ صياغة عربية كقولنا الديموقراطية .

وقد سار على هذا النهج الذى اختطه لنفسه فى ترجمة الكثير من الألفاظ والمصطلحات ، وهو فى هذا المجال مجدد يريد أن تخرج اللغة من قفص المعاجم لتساير نزعات التطور .

ويعمد ، حين يعرض لموضوع فلسفى أو لغوى ، إلى التبسيط مهما كان الموضوع صعباً ، فيختار الألفاظ السهلة التى لا تنأى عن ذوق القارئ المثقف . وهو من الأدباء المفكرين المؤمنين بنزعات التطور التى يريدونها أن تأتى عن طريق المدرسة ، ونزعاته ليست ثورية بل نزعات حرة هادئة تستمد قوتها من أصدق نظريات العلم والمنطق ، ومع أنه عاش حياته فى جو مدرسى فلم يحتجزه هذا المحيط فى نطاق من التزمّت ، بل كان ، ولا يزال ، وثيق الصلة بمجرى الحياة الفكرية المتطورة فى العالم . فإذا أضفنا إلى هذا انطواء نفسه على الدراسات الفلسفية التى هضم أكثر مذهبها ، كما أشرنا إلى ذلك ، والتى طعمت أدبه بأسلوب المناطقة قدرنا قيمة ما تخطه يراعتة فى شتى ميادين الفكر .

وخلاصة القول فالدكتور جميل صليبا من عيون مفكرى دمشق الأدباء الذين فتحوا فى مجرى التفكير العربى ناحية ربطت بين المذاهب الحديثة وما تركه الفلاسفة العرب من مذاهب فى الكثير من التيارات العقلية التى ما تزال تبسط فيض إشعاعها على مرّ العصور .

ولقد زاملته فى اللجان الثقافية لجامعة الدول العربية ، وفى مؤتمر اليونسكو الثالث ، وفى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فلمست منه الروح العلمية الأصلية والتفكير الهادئ المتزن والأدب الجهم الذى يزينه التواضع - السجية التى يتميز بها العلماء - فكان فى مناقشاته المتثددة يفرض احترامه على الجميع . .

وهو معنى بوضع قاموس للاصطلاحات الفلسفية التى جمعها من كتب الفلاسفة وكتب الحدود والتعريفات ومعاجم اللغة وقواميس الفلسفة ، وينشر هذه

الاصطلاحات في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق في سلسلة من المقالات يبين فيها اختلاف معانيها باختلاف الفلاسفة الذين تداولوها . وقد ذكر إلى جانب كل لفظة ما يقابله من الألفاظ اللاتينية والفرنسية والإنكليزية . وقد قصد من نشر هذه الاصطلاحات في سلسلة مقالات متتابعة قبل أن يضمها كتاب أن يفسح المجال أمام العلماء للإدلاء بآرائهم وملحوظاتهم . فالألفاظ ، في نظره ، حصون المعاني ، والاصطلاحات نصف العلم ، وكل علم ليس فيه اصطلاح ثابت محدد إنما هو علم ناقص مبدّد .

عمر يحيى

١٩٠٢

شاعر حماسة وأديبها ، اهتمن تدريس اللغة العربية فكان من أبرع الأساتذة الذين غرسوا في نفوس الناشئة حب الأدب . .

في طبيعته الانطواء والعزلة والانكماش عن الناس ، وبالرغم من بعده عن التيارات السياسية فقد عاش مع الأحداث التي عاشتها سورية في نضالها مع الإفرنسيين . . فما من حادث مسّ شعور العرب إلا سجل ملابساته بشعر يجمع بين القوة والجزالة .

فأحزانه صورة من أحزان قومه . .

نشر في عام ١٩٣٦ ديوان « البراعم » . . وفيه أكثر قصائده الوطنية والوجدية . . ولشعره الذاتية هذه الجزالة التي تقرؤها في الشعر الأندلسي .

وربما تأثر بشعرهم أكثر من تأثره ببقية شعراء العرب ، فأناشيده الحزينة تصور لوناً من الأناشيد الباكية التي أطلقها شعراء الأندلس بعد أن أضاع العرب فردوسهم المفقود . .

والديوان ملئ بتجارب الشاعر — التجارب التي عاشها في وطنه وفي رحلته إلى « البحرين » حيث علم في مدارسها لفترة لم تطل ، نفاه بعدها الإنكليز إلى الهند . .

فقد تخوفوا من جذوة شعره الوطني أن تلهب النفوس . وكان شعره تنبيهاً للغافلين وثورة على الغاصبين :

أرض تفتياًها الوفاء فحسبها فخرأ لو انّ « شيوخها » حكامها
أين العروبة والإباء يظلها يوم الكريهة رتعا آرامها
لم يبق منها غير رسم دارس رفت على أرجائه آلامها

وبعد أن يثير الشباب للعمل ، وبعد أن يقص قصة نفيه من وطن عربي

يقول :

قالوا : إلى الهند المسير فأنتم
مرحى : وأما الإنجليز فإنهم
الواغلون الشاربون دماءها
والأرض إن نام الحماة يكون من
ضاق المغير بأن نهيب بشعبها
ورأى بنا ظمأ إلى إيقاظها
غرباء في البحرين لا أرحامها
أهل البلاد وأهلها أيتامها !
الغاصبون لها وهم هدمها
حظ الذئاب العاسلات سوامها^(١)
ويود أن لو لم يفق نوامها
من نومها فأمصّه إقدامها

وفكرة الأدب الهادف أو الموجه أو الملتزم الذى يدعو إليها الشباب المنفعلون مع تيار القومية العربية فى هذه المرحلة من حياتنا الأدبية والذين يحسبون أنفسهم من دعايتها وبناتها ؛ إن هذه الفكرة قد عاشها أدباؤنا وشعراؤنا منذ أكثر من ربع قرن وبعضهم قبل نصف قرن ، وقد ظهرت جليلة فى الصراع السياسى الذى وقفه الشرق العربى مع الاستعمار الغربى ، ووقفته سورية مع الإفرنسيين .

وعمر يحيى سار على نفس النهج الذى سار عليه البزم ، والزركلى ، وجبرى و خليل مردم بك . .

* * *

وحين عاد عمر يحيى من منفاه عاود التدريس فى مدارس سورية فأفاد تلاميذه منه كل الفائدة ، ذلك لأن ثقافته العربية جدّ قوية ، إلى إلمامه باللغة التركية والفارسية والإفرنسية ، وقد عرب عن هذه اللغات بعض مقطوعات نثرأ وشعرأ . .

وهو من المدمنين على مطالعة كتبنا الأدبية القديمة ، وربما أعاد قراءة بعضها أكثر من مرة ؛ « فلا تراه إلا وفى يمينه كتاب يطالع فيه أينما حطّ به المسير حتى ليعرف شخصه من هذه الخلّة . . وغاظ هذا النهم زوجه ، وودت لو أمكنها حرق جميع ما تحويه خزائنه من كتب ، وشكته لبعضهن ، وبلغه ذلك فقال من قصيدة عنوانها « المرأة والكتاب »^(٢) :

(١) العاسلات : الذئاب . السوام : اللقطيع .

(٢) مقدمة الديوان ص ٢٨ .

رأيتها توقد من غيظها
تسيل الدموع ولا تنثني
فقلت لها : ما الذى قد دهاك
أخاف عليك وقوع الجنون
أجابت دعيتى إن المصاب
فعند الصباح ولوع به
إذا ما تغنى بليلاه قيس
وتشكو الزمان وتشكو المصاب
تهر وتبدو بظفر وناب
فأصبحت منه وفيك ارتياب
وأحذر من أن تشقى الثياب
أتانى من حملة للكتاب
وعند المساء إليه المثاب
فزوجى بحب الكتاب أهاب

* * *

أناديه حيناً فلا ينثنى
وليس يبالي بما أشتكى
إذا ما شكوت وثار شجونى
ولكنها توبة من فتى
كأنى أنادى الصخور الصلاب
وليس يرد على الجواب
أشاح وقال : نويت المتاب
يرى حين يخطى أن قد أصاب

* * *

فلولا حذارى على عقله أتيت عليها بنار الثقباب
« وشعره منسجم اللفظ يسهل كثيراً ويغرب قليلاً ، ولو أراد لجعله غريباً
كله ، ولو أراد لجعله سهلاً كله . . ويفطن للدقيق من هواجس النفس .
ويجمع الواضح المتين جمعاً أقرب للإيجاز منه إلى الإسهاب . وقد يصور صوراً
مادية وقد يصور معنوية ، ويقصّ إذا أراد القصص ، ويرقّ فى الغرام ،
وتظهر فيه العاطفة وقد تتوارى . . أما الحزن العميق ، فيحوط شعره بسياج ،
وربما أطلّ من جميع قصائد الديوان » (١) .

ومن كتبه غير المطبوعة :

- ١ - سراب عمرى ، وهو الجزء الثانى من ديوانه .
 - ٢ - مجموعة تراجم ومقالات كانت نشرت فى مجلة « الحديث » .
- و « الكشف » و « الزهراء » ؛ كزرياب وأبى فراس ، وابن المعتز . وخالد

الكاتب ، والبيغاء ، والصباي ، وغيرهم .

٣ - كتاب « اللحي » : تسجيل لتاريخ اللحية وما قيل فيها قديماً وحديثاً في ٢٠٠ صفحة .

٤ - مجموعة محاضرات ورحلات .

٥ - تبسيط العروض .

٦ - النحو .

٧ - الإملاء .

٨ - مجموعة من القصائد المترجمة لأشهر الشعراء كألفريد دوفني وألفريد ده موسى وغيرهما .

ومن شعره :

يا طير

من قصيدة « يا طير » . . يذكر فيها فلسطين قبل النكبة .

لا يأنف القلب الشجيّ المتأب ولا يجيد الشكو إلا المصاب
إلى أن يقول :

يا طير ما غرّدت رأد الضحى إلا لداء مومج قد أذاب
تبكى على إلفك ضيعته أم أنت تبكى ذلك المجد غاب
ومنها :

يا طير في القدس لنا إخوة أضحى حماهم نهبة للذئاب
والمسجد الأقصى له رنة ال شكلى تنادى للعذاب المذاب
كم طفلة في ظله غصة أشلاؤها أنحت عليها الكلاب
ووالد يبكى على ولده وذى أسى لا يستطيع الجواب
وكم بناء شامخ هدمت معاول الظلم ذراه الرحاب

ما هكذا التمددين ؟

في رثاء طالب حلبى أردى قتيلًا لاشتراكه في مظاهرة
ضد الاستعمار الإفرنسى .

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| هذى شظايا القلب في أدمعى | لا تأملى يا عين أن تهجعى |
| لى كبىد حرّى ستبكى معى | إن فاتكِ الدمع فلن تجمدى |
| أبى على الذل فلم يصدع | في ذمة التاريخ جارى دم |
| وما نأى بعد عن المطلع | وفي سبيل الله يا من هوى |
| شلت يمين الظلم من أشنع | زمله الظلم بأثوابه |
| لو تسعف الأقدار لم يرجع | رماه غدرًا وانثنى هاربًا |
| بالنار والبارود والمدفع | فقل لمن ينحى على أعزل |
| ما هكذا التمددين يا مدع | ويزعم التمددين من شأنه |
| أعين أبناء لنا رتّع | أغاية التمددين أن تسمّلوا |
| أرجل أسراكم مع الأذرع | أم شرعة الإنسان أن تقطعوا |
| من أزغب الريش ومن مرضع | وتهدموا الدور على أمة |
| ليسوا على الإذلال بالهجع | وتفتنوا الأحياء من ذادة |
| فنحن أدرى منك بالأنفع | إن كان فيما جئت لإصلاحنا |
| فلم تدع في الضرع من مرضع | أو كنت ترجو الدرّ من ضرعنا |
| صحائف الفتك ولم تخضع | خمسًا وعشرين شهدنا بها |

على نهر العاصى

يصف نواعير حماه

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| صى ووقت الأصيل في ريعانه | حبذا موقف الشجى على العا |
| لا كشدو الصيداح في أغصانه | وأنين الدولا ب يبعث معنى |

ليس يألو تقلباً يضحك الرب
مع فيبدي عن دره وجمانه
يعرف الربع فضله فتراه
رافع الشكر من شذا أقحوانه

* * *

إلى أن يقول :

دائر حول نفسه كمضيع
قلبه بين عينه وحسانه
أو كخل مفارق يسأل الرب
مع قواء عن أهله وجنانه

* * *

ما علمنا الجهاد يشكو فيحكي
نغمات المحروب في أوطانه

* * *

متقاعد

آخر ما نظم بعد أن أحيل على المعاش

ألقيته في ركنه جالساً
يذكر من أيامه ما مضى
يرنو إلى زورق أحلامه
وقد طوى الزورق يم القضا
فلا أغاني الركب في سمعه
ولا ترانيم الهوى والرضى
كل أمانيه وآماله
من دهره لو كان يدنو الغضا..^(١)

* * *

وراح يروى : أمس كنا على
ما يشتهي القلب وما يطلب
نبكر للذات : قم هاتهما
فالصبح واني وانجلي الغيب
سوابق اللهو تهادي بنا
ومن ثغور الورد ما نشرب
يعانق الصفصاف أو هامنا
ومن ربي العاصي لنا ملعب

* * *

ثم انثنى يبغي على فائت
ثم انثنى يبغي على فائت
أصحابه ! لم يبق من صحبه
غير الرؤى يا طيب أيامه

(١) ولكن الغضا ليس دانياً .

ذرتهم في كل أفق وما أبقت يمين الدهر في جامه
أضحى غريباً وامّحى كل ما جناه من أطياف أوهامه

* * *

لاحت له في منظر ساخر آماله البيضاء عبر السنين
ترتد عنه رهبة الطائر من قبضة الفخّ وعادى المنون
ماذا جنى من عيشه الغابر ماذا جنى من مغريات الظنون
جراحه في قلبه أصبحت رفاقة ما بين تلك الغضون

محمد سليمان الأحمد

(بدوى الجبل)^(١)

١٩٠٣

من أبرز شعراء سورية ومن صفوة أدبائها الذين عرفوا بإشراق الأسلوب ، لا يقل نثره في جمال موسيقاه عن شعره .

ولد عام ١٩٠٣ في قرية « ريفة » التابعة لقضاء الحفة . وقد تلقى علومه الابتدائية والثانوية في مدارس اللاذقية ، وشب ونفسه ميالة إلى الأدب . قرأ أكثر دواوين العرب ورسائل أئمة البلاغة ويكاد يكون القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى يديم القراءة فيه ، ويتمثل بالكثير من آياته البينات .

بدأت فيه ملامح الشاعرية وهو في العقد الثانى من عمره ، فحين جمع قصائده ، في الديوان الذى أصدره سنة ١٩٢٥ استقبله الكتاب والناقدون بكثير من الإطراء . فقد كتب عنه الأستاذ سليم الجندى أحد أعضاء المجمع العلمى يقول :

« ضرب في الإجادة في الشعر بسهم وافر ، وانقاد إليه من المعانى الأدبية والقوافى الصعبة ، وهو في ضحوة عمره ، ما يقصر عن إدراكه فيه كثير ممن بلغ الأصيل من حياته ، وإن الواقف على ديوانه هذا ليرى في تضاعيف شعره الشاب من جزالة اللفظ ومتانة التأليف والمعانى الغضة ما ينم عن موهبة

(١) عرف الشاعر بلقب « بدوى الجبل » أكثر مما عرف باسمه ، وأصل التسمية أنه أرسل في بدء حياته الأدبية قصيدة إلى جريدة « ألف باء » مطلعها :

أتجدى وما أجدى الحسام وما أغنى قواف من الأشعار تبقى ولا تفسى
أعجبت صاحب الجريدة الأستاذ يوسف العيسى ، وخشية من أن لا يلتفت إليها القراء نشر القصيدة غفلا من اسمه ونسبها لبدوى الجبل ، وحين ظهرت جاء الشاعر يسأل الأستاذ العيسى عن هذا الإغفال فأجابه بقوله :

لقد ابتدعت لك هذا اللقب لأن القصيدة فائقة الجمال وخشيت أن لا تقرأ من كثرة الأدباء
فاستعرت هذا اللقب لأجلب نظر القراء فيعرفوا الأديب من قراءة قصيدته ، ثم يقول : « والقصيدة جزلة كشعر البادية ، فانظما بدوى ، ولكن ما هذا البدوى ؟ إنه من الجبل » ، وبسرعة البرق جرى هذا التفكير في مخيلتي وظهر هذا اللقب .

واسعة وقريحة مطواعة وحذق في صناعة الشعر ، وإذا صح أن يبنى حكم المستقبل على الحاضر ساغ لنا أن نقول إن بدوى الجبل سيكون شاعر الشيوخ غداً كما كان شاعر الشباب اليوم » (١) .

ربع القامة - إلى القصر أقرب - ، أسمر اللون ، في عينيه بريق وإشعاع ينمّ عن عبقرية وشاعرية ، تعلو البشاشة وجهه . نحيف في طفولته وشبابه ، ممتلئ الإهاب في كهولته ، يفيض بالحس الدقيق والشعور المرهف ، سريع الحركة ، جمّ النشاط ، يتأثر لكل شيء ، ويتألم من كل شيء ، ويبكى على كل شيء :

أنا أبكى لليل أوحشه البد ر ، ولقلب هدّه الحرمان
أنا أبكى للهمّ يأوى إلى القلا ب فيقسو على الغريب المكان
أنا أبكى لكل قيد فأبكى لقريض تغله الأوزان
يرفّه عن نفسه بالمأكل والمشرب والملبس ، ويغتسل بالماء البارد صيفاً
شتاء ، خريفاً ربيعاً ، فهو مترف أنيق :

وأنا المترف الأنيق ولكن ترفى صاغه الرحمن
دمت الأخلاق ، سمح ، طاهر ، نقي السريرة ، همومه كبرى .
حلو النادرة ، بارع النكتة ، متواضع لصديقه ، لطيف المعشر ، حلو
الحديث ، ذرب اللسان ، حاضر البديهة ، معترّ بمواهبه وعروبته . من
كلماته :

« . . . لم أته على الدنيا لأني خلقت عبقريةً ،

ولكني تهت على الدنيا لأني خلقت عربيّاً » (٢)

* * *

خاض المعامع السياسية في عهد الانتداب الإفرنسي فكان في طليعة شباب
الكتلة الوطنية المكافحين عن حرية الوطن وسيادته ، وكان من الشعراء الذين
ارتفع صوتهم في تلك الفترات .

(١) « مجلة المجمع العلمي العربي » مجلد ٥ ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٢) « بدوى الجبل : حياته وشعره » لمحمد الخطيب ص ١٥ .

عمل في الحقل الوطني منذ فجر شبابه فاشترك في المؤتمر السوري الذي عقد في دمشق عام ١٩٢٠ ، وكان لاتصاله بالأمير فيصل وتزويده بالتوجيهات إلى الشيخ صالح العلي الذي قام بثورته في جبل العلويين - كان لاتصاله بقائد الثورة أثره في نفوس الفرنسيين فما كادوا يحتلون سورية حتى كان بدوى الجبل بين الكثيرين من الزعماء والشباب الوطنيين الذين زجّوا في السجون ، وقد حكم عليه بالسجن المؤبد والأشغال الشاقة ونقل إلى جزيرة إرود ، وبعد أن قضى عشرين شهراً أفرج عنه . .

وهنا تمرّ فجوة من حياة الشاعر فيصانع الإفرنسيين مضطراً ، ويشترك في المجلس التمثيلي في اللاذقية ويعترف بالدولة العلوية على مضض ، ثم لا يلبث أن يعود إلى سجنه الأولى ليتابع جهاده الوطني مع رجال الكتلة الوطنية الذين ناصبوا الإفرنسيين العداء ، وما زالوا حتى ظفروا بالمراحل الأولى للاستقلال .

هذا ، وقد انتخب عن اللاذقية نائباً في المجلس النيابي في ثلاث دورات ونيطت به الوزارة أكثر من مرة .

ما من حدث قوى إلا وله في وصفه قصيدة كبرى لا تكاد تذاع حتى تتناقلها الصحف ، وتصبح على لسان الكثيرين من الشيوخ والشباب ، وترى الصحافة السورية أنه الشاعر الذي غنت البلاد على قيثارته في أفراحها ، ومسحت بشعره الدموع في أحزانها . . فقد مرّت بسورية أدوار طويلة كان فيها الشاعر والخطيب والكاتب هم القادة الحقيقيون ، يشيرون شعور الشعب ويدغدغون أحلامه ، ويغذون آماله ، ولطالما أثار بدوى الجبل كوامن النفس على الاستعمار والمستعمرين ، ولطالما كانت نفثات روحه لظى مستعراً في وجوههم ، وحمماً لاهبة على رؤوسهم .

صدر له ديوان قبل ثلاثين عاماً وهو مفقود اليوم ، ويجمع قصائده المتفرقة ليصدرها في ديوان كبير .

انتخبه المجمع العلمي العربي عضواً عاملاً بين أعضائه لمكانته السامقة في عالم

الشعر العربي ، ويعتبر بدوى الجبل ، بعد شوقي ، من أعلامه ^(١) . ذلك لأن شعره نبرات هزت ضمير الأمة العربية هزة النشوة والتوثب ، وربما كان شعره اليوم أصدق مرآة لتاريخ العرب في شتى نوازلهم ، في نضالهم الدامي ، في نكباتهم ومآسهم ، في أفراحهم ومباهجهم ، في الذكريات القومية ، في كل ما يثيرهم ويدفع بهم إلى طريق المجد والمكرامات .

وهو في مقطوعاته الذاتية كما هو في قصائده الموضوعية خصب الخيال ، واسع الأفق ، قوى السبك ، جمع دقة المعنى ورقته وصفاء ديباجته ، إلى قوة اللفظ وجزالته وعمق أخيلته ، ويعتبر ، بالنسبة لتطور مذاهب الشعر العربي المعاصر في هذه الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية — يعتبر « الحجة الوحيدة الباقية في يد المدرسة الكلاسيكية ، نسيج البحرى الموشى لم يكن له من مكان في هذا العصر لولاه ، وهو يحجر وراءه ربع قرن من أمجاد القافية ، كل بيت عنده كالزهرة الأنيقة ، كالكأس المترعة ، فيها اللون والتويج النضيد ، وفيها العطر والنشوة الأخيرة .

أعجب ما فيه لغة مطواع تمنحه ما يشاء من اللفظ الأنيق ، حيث يشاء» ^(٢)

« . . إن قصائده تدخل في منهاج المدرسة القديمة الكلاسيكية فلا تخرج على الأوزان المعتادة ، ولا تتحرر من القافية الواحدة إلا ما كان من اندفاعات طارئة أيام الصبا في ديوانه . أما قصائده بعد الديوان فهي القصائد العربية ذات القافية الواحدة والوزن الواحد والموضوعات المتعددة ، ففيها الوصف والنسيب والمدح والعتاب والسياسة والهجاء ، وكأنها قصيدة جاهلية أغناها الشاعر بتجاربه وبما وقع له من صور حسية ومادية ، وإن خرج عن منهج القصيدة الجاهلية فترك النسيب ووصف الراحلة فلأنه تأثر بعصور أخرى وثقافات غير الجاهلية ، ولكنه بقي ذلك الشاعر الذى يمثل الجاهلية بتسجيل

(١) في رواية للأستاذ صالح على أن بدوى الجبل ذكر أمام شوقي . وكان ، قد قرأ قصائده ،

فقال : « ده شاعر أفهمه » . وحين توفى اشترك في حفلة التأبين وألقى قصيدة طويلة مظلها :

لا الأمس يسلبك الخلود ولا الغد هيات أنت على الزمان مخلد

(٢) مصطفى شاكر « مجلة الآداب » ج ١ سنة ٣ ص ٨٣ .

الحوادث والتاريخ والمناسبات ، وبقي ديوانه مجموعة هائلة لتجاربه ولتخليد
المناسبات — بقي مرجعاً هاماً يعاد إليه لدراسة العصر من وجهة نظر شاعر
معين ، وبقيت موضوعاته هي الموضوعات التقليدية بصورة غالبية لولا بعض
نوادير أكسبته إياها حياته في القرن العشرين « (١) » .

* * *

وفي موضوع تحرير الشعر العربي من الوزن والقافية يقول :
إن الشعر العربي ، في قوالب الوزن والقافية ، يتسع لكل ما يتفق مع
رسالته من حاجات الحياة المعاصرة . والعربية خصبة ، والفقر ليس فيها ،
والوزن والقافية نغم وجمال وعذوبة ، لا قيود ولا حدود .
ويقول :

أما الشعراء ونقاد الشعر الذين يرون تحرير الشعر العربي من قوالب الوزن
والقافية ، ففي وسعهم أن يفعلوا ذلك . وسنقرأ حينئذ فنّاً رفيعاً وسيماً قد يكون
حكمة وقد يكون فلسفة ، وقد يكون كل شيء . . . ولكنه — وهذا غير مهم —
لن يكون شعراً عربياً على كل حال !
ومن شعره :

أبو العلاء المعري

مقاطع من قصيدته الكبرى التي

نظمها بمناسبة ذكرى مولده الألف

| | |
|----------------------------|-------------------------|
| الدهر ملك العبقريه وحدها | لا ملك جبار ولا سفاح |
| والكون في أسراره وكنوزه | للفكر لا لوغى ولا لسلاح |
| ذرت السنون الفاتحين كأنهم | رمل تناوله مهب رياح |
| لا تصلح الدنيا ويصلح أمرها | إلا بفكر كالضياء صراح |

* * *

| | |
|-----------------------------|---------------------------|
| خير العقائد في هواى عقيدة | شما ذات توثب وجماح |
| تبني الحياة على هدى إيمانها | والعقل مثبت غيرها والمأحى |

لا تشك من قصر الحياة فربما
سفر الحياة إذا اكتفيت بمتنه
واختر لنفسك مية مرموقة
بين النجوم على الأديم الصاحي

* * *

ومنها :

أعمى تلفت العصور فما رأيت
نفذت بصيرته لأسرار الدجى
من راح يحمل في جوانحه الضحى
أمصور الدنيا جميعاً فائراً
البغى عند الأقوياء سجية
هوّن عليك فى النفوس بقية
خلف الهجير وعنفه وهيبه

* * *

إيه رهين المحبين ألم يئن
ظفرت برحمتك الحياة وصنتها
أنضيق بالأنثى وحبك لم يضق
يا ظالم التفاح فى وجنتها
عطر أحب من المنى وغلاله
هى صورة لله جل جلاله
منحت بقدرته النعيم ولوّنت

* * *

إيه حكيم الدهر أى مليحة
أسكنتها القلب الرحيم فراها
جرحت إباءك والحياة فأقلا
لو أنصفت لسقتك خمرة ريقها
ولأسعفتك — على الهوى — بمعطر
لاتخف حبك بالضغينة والأذى
وأطل هجاءك ما أردت فخلفه

ضنّت عليك بعطرها الفواح
ما فيه من شكوى ورجع نواح
باب المنى ورميت بالمفتاح
سكر العقول وفتنة الأرواح
بالحسن لا بشقائق وأقاح
الحب جوهر حقدك الملاح
غرر منضدة من الأمداح

إني لأشمت بالجبار

لقى الشاعر من غنت الإفرنسيين ما لقي ، وكان يرقب الأحداث والكوارث
التي انصبّت على الشعب السوري خلال عهد الانتداب بحسرة وألم ، فلما
انهارت فرنسا في بداية الحرب العالمية الثانية واحتلها النازيون الذين أذلوا
عزتها وأهانوا كرامتها وكبرياءها نفّس الشاعر عن آلامه وآلام أمته بهذه
القصيدة التي نظمها وهو منفي في بغداد ، وبالرغم من منع نشرها في سورية
تسرّبت إلى الأيدي والأفهام فحفظها المثات وتداولتها أيدي الآلاف ، وهي
تروى سطوراً دامية من قصة الانتداب :

| | |
|--------------------------------------|-------------------------------------|
| يا سامر الحى هل تعنيك شكوانا | رقّ الحديد وما رقّوا لبلوانا |
| خلّ العتاب دموعاً لا غناء بها | وعاتب القوم أشلاء ونيرانا |
| آمنت بالحق يدكي من عزائنا | وأبعد الله إشفاقاً وتحننا |
| ويل الشعوب التي لم تسق من دمها | ثاراتها الحمر أحقاداً وأضغانا |
| ترنح السوط في يمني معذبها | ريان من دمها المسفوح سكرانا |
| تغضى على الذل غفراناً لظالمها | تأنق الذل حتى صار غفرانا |
| ثارات يعرب ظمأى في مراقدها | تجاوزتها سقاة الحى نسيانا |
| إلا دم يتنزى في سلاقتها | أستغفر الثأر بل جفّت حميانا |
| لا « خالد » الفتح يغزو الروم منتصراً | ولا « المثني » ولا رايات « شيبانا » |

* * *

ومنها :

| | |
|---------------------------------|-------------------------------|
| قل للألى استعبدوا الدنيا بسيفهم | منّ قسم الناس أحراراً وعبدانا |
| إني لأشمت بالجبار يصصره | طاغ ويرهقه ظلماً وظغيانا |
| لعله تبعث الأحزان رحمته | فيصبح الوحش في برديه إنساناً |
| والحزن في النفس نبع لا يمر به | صاد من النفس إلّا عاد ريانا |
| والخير في الكون لو عريت جوهره | رأيته أدمعاً حرّى وأحزاناً |

* * *

هلا تذكرت يا باريس شكوانا
على المصلين أشياخاً وفتيانا
تهوى بها النار بنياناً فبنيانا
كالعارض الجون تهداراً وتهتاناً
من الكرى قدرٌ يشتدّ عجلانا
وتحسب الطيب أذبالاً وأردانا
طرفاً تهدهده الأحلام وسنانا
حوين فنّاً وتاريخاً وأزمانا
هلا تكافأ يوم الروح سيفانا
ولا سلاح لنا إلا سجايانا
فطالما سمئنا بغياً وعدوانا
من الأذى فتملّى صرفها الآنا
على الأرائك خداماً وعبدانا
لله ، لا لك تدبيراً وسلطانا
ما كان أغناكم عنها وأغنانا

سمعت باريس تشكو زهو فاتحها
والخيل في المسجد المحزون جائلة
والآمنون أفاقوا والقصور لظى
رى بها الظالم الطاغى مجلجلة
أفدى المخدرة الحسناء روعها
تدور في القصر عدواً وهى باكية
تجيل والنوم ظلاً في محاجرهما
فما ترى غير أنقاض مبعثرة
تلك الفضائح قد سميتها ظفراً
نجا به الظلم سكران الظبي أشراً
إذا انفجرت من العدوان باكية
عشرين عاماً شربنا الكأس مترعة
ما للطواغيت في باريس قد مسحوا
الله أكبر هذا الكون أجمعه
ضعيفه تنزّى في جـوانحنّا

سألوني عن الغزاة

حركت نكسة ه حزيران سنة ١٩٦٧ - عقب
العدوان الإسرائيلي على الأقطار العربية - آلام الشاعر
وهو في المستشفى يعاني المرض ، فأوحت إليه بقصيدة
تتجاوز المائة والعشرين بيتاً ، وهى « أحدث قصائده »
اخترنا منها الأبيات الآتية :

أقصى مكان من أهله مهجور
مهد « وبيت مقدس معمر ؟
ويزار « المبكى » ويتلى الزبور
تتشاكى آياته والسطور
أين أين الرشيد والمنصور

هل درت عدان أن مسجدها الد
أين مسرى « البراق » والقدس و « ال
لم يرتل قرآن أحمد فيه
طوى المصحف الكريم وراحت
تستبي المدن والقرى هاتفات

وهفت للثرى الحبيب ثغور
حفص بديد مضيق مغمور
هراء نعمى ولا الأذان جهير
حات وويل لأهلها وثبور
وحبيب إلى الأسير الأسير
أفلاك والدائرات كيف تدور
مشهد المرتضى ودك الطور
حاه إلى المسجد الحزين يطير
سدره المنتهى وظل طهور
ع وأين التهليل والتكبير
إنجيل عطر وضوء الكون نور
مهد عيسى يشكو ويشكو البخور
وجدت بعد الأمور أمور
هتكت حرمة فأين الغيور
ويضم الأجداد يوم قصير

كحلت بالثرى الغريب جفون
يا لذل الإسلام . إرث أبى
يا لذل الإسلام . لا الجمعة الز
كل دنيا للمسلمين منا
النصارى والمسلمون أسارى
ومع الأسر . نحن نستشرف ال
لبست مكة السواد فأبكت
هل درى جعفر فرف جنا
ناجت المسجد الطهور وحن
أين آى القرآن تتلى على الجم
أين آى الإنجيل ، فاح من ال
أين روما - وجل حبر بروما -
صلب «الروح» مرتين من الغازى
يا لذل الأباة - والقدس نهب -
قد تطول الأعمار لا مجد فيها

* * *

حررة والركن والصفاء عذير
أدمعى ثورة وشعرى شعور
غنيت فهو المدله المحمور
لم ينلها التبديل والتغير
- كعهود الصبا - برىء غريب
ر بقلبي وأن يلم السرور
س ولكنها تشق الصدور
ذل ويبكى الشدا وتبكي الطيور

من عذولى على الدموع وفى ال
وجراحى ينطفن حقداً وثأراً
يرشف النور من بيانى فإن
وطباعى على ازدحام الرزايا
ومع الشيب والكهولة قلبى
وحرام على أن ينزل البش
لا تشق البرود فى محنة القد
حبست أدمع الأباة من ال

* * *

أنا حزن .. شخص يروح ويغدو
ومسائى مع الأسى والبكور

سائل مثقل الخطى منهور
وتعالت على شقائى القصور
يرحم أسمال فقرى الزمهرير
فى دروى أسير ثم أسير
حملتنى إلى الشعوب البحور
مى ويومى سمح الغمام مطير
خ والدهر ، محنتى الإكسير
فهدير البركان والتدمير
وجوه عنى وتغلق دور
فى الزوايا وكسرة وحصير
ع ويلهو بالرمل طفل صغير
خجل القصر والفراش الوثير
ورئيس مسيطر ووزير
ب ولا توبة ولا تكفير
ومن القوم غيب وحضور
م ومنها التغريب والتهجير
وجراح الضعيف مين وزور
يتهادى وبعضهن نذير
حمدت ربها ونعمى كفور
كل شعب - مهما استكان - قدير
م - يومان : أول وأخير
إذا أن أو شكا المقهور
فيوم الحساب يوم عسير

أنا حزن يمر فى كل باب
طردتنى الأكوخ - والبؤس قربى -
يحتوينى الهجير حيناً ، ولا
وعلى الجوع والغنى والبلايا
نقلتنى الصحراء حيناً وحيناً
حاملا محنتى أجرر أقدا
محنتى الكنز ، محنتى عبدة النار
محنتى العطر إن أرادوا وإلا
حاملا محنة الخيام فتزور
الخيام الممزقات . وأم
وفتاة أذها العرى والجو
كلما أن فى الخيام شريد
خجل الحاكوم شرقاً وغرباً
هيثة للشعوب تمعن فى الذئ
شارك القوم كلهم فى أذانا
من قوانينها المدارة للظلم
باطل الأقوياء حق صُراح
والحضارات بعضهن بشير
نعميات الشعوب شتى فنعمى
كل طاغ - مهما استبد - ضعيف
كل ظلم له - وإن طالت الأيا
يغضب القاهر المسلح بالنار
فاتة وساعة الحساب إذا دقت



رياح هبت ونحن ثبير
رمال تسقى ونحن الصمخور

سألونى عن الغزاة فجوابت
سألونى عن الغزاة فجوابت

سألوني عن الغزاة فجاوبت
 لن يعيش الغازي وفي الأنفس
 من طباع الحروب كروفر
 ليس يبنى على الفجاءات فتح
 تنتضي للوغى سيوف معد
 تأرنا تأرنا وتدرى اللىالى
 عربى. فلا حمای مضاع

ليال تمضى ونحن الدهور
 الحقد عليه وفي القلوب السعير
 والمجلى فيها الشجاع الصبور
 علمى فى غد هو المنشور
 ويقوم الموتى وتمشى القبور
 فى غد أينا هو المدحور
 عند حقدي ولا دى مهدور

خليل الهنداوى

١٩٠٦

لبنانى المولد . عاش الشطر الأكبر من حياته فى سورية ، وفى مدينة حلب بالذات يدرس الأدب العربى فى الثانويات فلم يصرفه التدريس وتقويم السنة تلامذته وطبعهم على حب الأدب قديمه وحديثه — لم تصرفه هذه المهنة الشائقة والشائكة معاً عن كتابة المقال الأدبى والمسرحية والقصة القصيرة وحتى نظم الشعر فعرف فى البيئات الأدبية أكثر مما عرف فى عالم التدريس . وقد أغرق الصحف والمجلات والإذاعات خلال ثلاثين عاماً ولا يزال يفيض من مقالاته وأحاديثه التى تناولت شتى شؤون الفكر والحياة . .

دؤوب على العمل ، جهم النشاط ، ما رأيته مرة فى ناد أوفى مقهى إلا والكتاب أمامه والقلم بيده ، وبزّ الناركيلة فى فمه — يقرأ ويكتب ، يدخن ويدوّن ، فما يكاد ينتهى « التنفّس » حتى يكون قد أتمّ المقال أو فرغ من كتابة القصة أو المسرحية لتأخذ طريقها إلى النشر . .

قصّ على ملامح من سيرته أجزها فيما يلى :

قال : « ولدت سنة ١٩٠٦ فى مدينة صيدا — بلبنان — وفى مدارسها الابتدائية والإعدادية تلقيت علومى ومعارفى الأولى .

كنت منذ الصغر مولعاً بقراءة الشعر ومطالعة القصص والكتب الأدبية . فى أيام الحرب الأولى ، ذقنا شظف العيش لالتحاق والدى بالجنديّة ، وقد أبلجنا الضيق إلى دمشق حيث قضينا فيها أيام الحرب ، بجانب والدى ... وبعد الحرب ، عدنا إلى صيدا ، حيث تابعت الدراسة فى معهد المقاصد الخيرية .

خرجت من الدراسة . وانتدبت للتدريس صغيراً فى المعهد . وبعد سنة انتدبت للتدريس فى قرية من قرى لبنان . وفى هذه القرية كان زواجى الأول المبكر . .

وفى عام ١٩٢٧ تقدمت لإحدى الوظائف الرسمية فى لبنان ، ونجحت فى المسابقة ، ولكن القدر أراد أن يعاكسنى ، ويقلب مجرى حياتى كلها بعوامل

سياسية وطنية .

لقد كنت مؤمناً بالعروبة، والوطن العربي الشامل ، وطالما ترنمت بهذا على المنابر !

في يوم من أيام ١٩٢٧ هبط الزعيم الفقيد رياض الصلح لبنان ، بعد النفي ، وبعد انتهاء الثورة السورية . فأقامت له مدينة — صيداء — الحفلة الأولى التي حضرها وفود مختلفة من رجال الوطنية في سورية ولبنان ، ودعيت لإلقاء قصيدة . . كانت السبب لإخراجي من لبنان إلى سورية .

في دمشق أقمت . أدرس وأكتب في جريدة « الشعب » : « مفكرات » و « مقالات » .

ثم دخلت عالم التدريس مرة ثانية . . في ثانوية دير الزور . . وفي هذا البلد الطيب استفدت من فراغي للمطالعة والكتابة ، حيث أخرجت الكثير من مقالاتي ودراساتي الأدبية ، ومسرحياتي ، طوال عشرة أعوام ، كانت ملأى بالجلد والعمل والكتابة .

وفي مطلع الحرب العالمية الثانية انتقلت إلى حلب لتدريس الأدب العربي في ثانوياتها — حتى انتهت مدة خدمتي سنة ١٩٦٥ .

هذه الفترات الطويلة التي قضتها في التدريس وقراءة كتب الأقدمين واختيار الجيد من كلام فحول أئمة الترسل وعمالقة الشعر — كل ذلك أضفى على أسلوبه القوة والنصاعة والوضوح .

واستطاع ، إلى عمله في التدريس ، أن يؤلف عدة رسائل وكتب ، منها مطبوع ، ومنها لا يزال قيد الطبع .

فالمطبوع منها :

١ — صفحة من حياة باريس .

٢ — هاروت وماروت — مسرحية .

٣ — إرم ذات العماد — قصة خيالية .

٤ — سارق النار — مجموعة مسرحيات فنية قصيرة .

٥ — فرانز ليست — دراسة فنية من منشورات « اقرأ »

٦ - فلسفة نيتشه - دراسة فلسفية .

٧ - شوبان - دراسة فنية .

٨ - دمعة صلاح الدين - مجموعة قصص قصيرة .

٩ - الحب الأول .

١٠ - نصوص مدروسة في الأدب العربي .

١١ - تيسير الإنشاء - كتاب مدرسى .

١٢ - زهرة البركان - مجموعة مسرحيات قصيرة .

١٣ - منافثا - مسرحية مترجمة .

١٤ - تجديد رسالة الغفران .

١٥ - الإمام على من خلال نهج البلاغة .

وآثاره غير المطبوعة :

مراحل النقد في الأدب الإفرنسى ، بين الشك والإيمان - دراسة فلسفية -
في مدينة الجياح - مسرحية - مسرحيات اجتماعية وفنية وقومية قصيرة :
« سرّ أبي الهول » - مترجمة - نشرت في مجلة « الرواية » القاهرة ، « السمفونية
الريفية » ، مسرحية مترجمة . نشرت في مجلة « الحديث » حلب « رأس
المال » مسرحية مترجمة بثلاثة فصول « سميراميس » مسرحية مترجمة لبول
فاليرى . نشرت في « المقتطف » « أمفيون » مسرحية مترجمة لبول فاليرى .
نشرت في « المقتطف » ، أغاني بيليتس ، صرخة ضائعة - مجموعة شعرية -
ألحان الجماجم ، موجز فلسفة الفن للمناقد الإفرنسى « تين » ، رباعيات الغزالي
مترجمة ، للشاعر جان لاهور ، تطور الحركة الأدبية الحديثة في فرنسا ، مجموعة
قصصية قصيرة .

وما يزال . وقد دلج إلى الشيخوخة ، يتمتع بنشاط الشباب ، يكتب
ويؤلف دون ضجر أو ملل ، بل تكاد تكون الكتابة هوايته المفضلة .

لقد تأثر بالأدب القديم ، بحكم تدريسه له ، وحياته معه ، وعنى بمطالعة
الآداب الفرنسية بلغتها أو مترجمة ، وهذا الذي جعله يتناول مختلف الفنون
الأدبية ولا سيما المسرحية الحوارية . يقول : « إن فقدان المسرح جعلني أبتعد
عن المسرحية الواقعية التمثيلية ، وألجأ إلى المسرحية الذهنية ، وكثيراً ما عدت

إلى الأساطير اليونانية أو العربية ، أستمّد مغزاها الإنساني ، وأعيد كتابتها ، لا باعتبار أبطالها من الأساطير بل باعتبارهم إنسانيين وإن كانوا في مصاف الآلهة . . . ويقول : « إننا لا نزال ، في الفنون الأدبية الحديثة ، عالة على الغربيين ، بحكم سبقهم إلى هذه الفنون ونضجهم ، وتطور بيئتهم ، وعندما يتيسر للأديب العربي ما يتيسر للأديب الغربي من ثقافة شاملة ، وإبداع خلاق ، وحرية مطلقة لا يقيدتها شيء من التقاليد ، يستطيع أن يعطى نفسه كما هي ويكشف عن الحقيقة التي يراها ، ويحس بالحياة ومشاكلها على الصعيد الإنساني ، فكل أدب بدون حظ إنساني لا يخلد .

هذا ، وكما بدأ حياته في لبنان ، قرر بعد أن أحيل على المعاش ، أن يعود إلى لبنان - مسقط رأسه - حيث مجال العمل أوسع ، ويعمل الآن في إحدى دور النشر لانتقاء الشوامخ الأدبية ونشرها ، وقد أنهى كتاب الأغاني والبغلاء ورحلة ابن جبير وإحياء علوم الدين ؛ ولا أعلم ، وهذه الكتب محققة ومنشورة ، ما جدوى هذا العمل . وحبذا لو ظلّ في ميدان التأليف والترجمة ، إذ العمل تحت إشراف دور النشر لتحقيق الكتب ، سيصرفه عن الإنتاج والإبداع ، وإن كان من القائلين إن الأدب لم يستطع بعد أن يكفل لصاحبه الحياة الكريمة ، الكافية ، ولهذا ، لا بدّ له من مهنة تؤمن له لقمة العيش . وهذه المهنة التي تشغله عن موهبته لا تزال إحدى العوائق في تقدمنا الأدبي .

فإنتاجه الذي يدرّ عليه بعض المال يكفيه ، على ما أعتقد، ويوفر له العيش الهنيء والحياة الكريمة ، ولا سيما وقد مضى الزمن الذي كان يكتب فيه الكاتب حبّاً بالنشر وبدون جزاء ولا شكور !

ومن شعره الإنساني :

أنت وأنا

أنت إنسان ، وإنسان أنا فلماذا نحن خصمان هنا ؟
ولنا في هذه الأرض صدّي أتراها غصت الأرض بنا ؟

ثم لا ننبئها إلا قنا ؟
 وإذا شئت استحالت مدفنا
 قلبنا المسعور بالحقد جنى
 ونصبنا البغض فينا وثنا
 همها أن تستثير الفتنا
 ثم نروى بدمانا الدمنا
 أكثر أن ترى الكوخ لنا ؟ !
 وهوى - بالرغم منا - ضمنا
 أنا ذوب الحب طيباً وجنى
 يرحم القبح ويهوى الحسننا
 وأدق الباب حتى تأذنا
 لن تراني حاقداً مضطغنا
 لا غنى كالحب في دنيا الفنا
 كنت في شرعى إلا مؤمننا
 فاجعل الإنسان مثلى موطننا
 لا حدود ، لا قيود بيننا
 هل غرسنا الدرب إلا سوسنا
 ما أردنا لهوانا ثمنا
 وحده يجمع يوماً شملنا
 نحن للأرض رماد كلنا
 فإذا نحن نحن نعين الحنا
 إننا أصل الرزايا ... إننا
 أنت في قلبي مسيئاً ، محسنا
 إن غرسنا الحب يزهر حولنا
 فإذا أنت ، مع الحب ، أنا
 نتحدى . . نتحدى الزمنا

تنبت الأرض لنا أزهارها
 أرضنا - إن شئت - تغدو مسكنا
 ماجنت أرض علينا إنما
 قد فقدنا الحب في مهجرنا
 نحن في دنيا الأمانى شيع
 تزدهينا دمن فاسدة
 يا أخى ! قصرك قصر شامخ !
 يا أخى ! من أنت لولا ساعدى ؟
 أيها السائل غنى من أنا
 أنا من أرسلت قلبي عاشقاً
 سأناديك ولو ضاع الصدى
 كن كما شئت ، وخالف مذهبي
 مذهبي الحب وإيماني الهوى
 لو رعيت الحب للحب لما
 موطنى الإنسان لا لون له
 وأخى الإنسان لا جنس له
 في دروب الحب سل عنا الشذا
 كم بذلنا للهوى من قلبنا ! !
 قد كفانا غربة أن الردى
 يا أخى ما لونتنا ؟ ما جنسنا ؟
 نحن أرصدها الدهر لنا
 بورك الدهر ، فما أرحمه !
 لا تحاول وخز قلبي ناقماً
 إن زرنا البغض يأكلنا معاً
 ادن منى ! ! سترانى دانيأ
 وإذا نحن على هام الدنا

قسطنطين زريق

١٩٠٩

من رجال الفكر المرموقين في العالم العربي . ولد في دمشق في ١٨ نيسان (أبريل) سنة ١٩٠٩ فاكاد يترعرع ويتم دراسته الابتدائية ثم الثانوية في مدرسة التجهيز الأرثوذكسية حتى انتقل إلى الجامعة الأمريكية في بيروت فانتسب إلى كلية الآداب والعلوم وظل أربعة أعوام يدرس في ذلك الجو الجامعي من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٨ ، وحين ظفر بشهادة البكالوريوس في الآداب سافر إلى شيكاغو فانتسب إلى جامعته ونال في سنة ١٩٢٩ درجة أستاذ في الآداب . ومنها إلى جامعة برنستون فنجح سنة ١٩٣٠ درجة دكتوراه في الفلسفة .

ولم يكد يرجع إلى وطنه بعد أن استوفى دراسته الجامعية حتى دعى للتعليم في الجامعة الأمريكية في بيروت حيث نيط به تدريس مادة التاريخ . وظل يدرس هذه المادة من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٤٥ فعاش خلال هذه الفترة حياة الجامعيين يستهويهم البحث المجرد عن الهوى والذي يطمئن النزعة العلمية الخالصة .

مادة التاريخ التي نيط به تدريسها جعلته ، إلى دراسة تاريخ الأمم ، يدرس تاريخ الأمة العربية : عوامل نهوضها ، بواعث انهيارها ، وثباتها المحيرة للعقول ، ثم ركودها وجمود تفكيرها ، ما أبدعته من تراث حتى للإنسانية ، وما تركه الطغاة في ربوعها وممالكها من أشلاء ودماء ، ومن تدمير وخراب .. وقد خرج من دراساته بآراء حصيفة تفرق واضحة في مختلف مقالاته ومحاضراته . . وهي مقالات ومحاضرات جمعت سنة ١٩٣٩ في كتاب بعنوان « الوعي القومي » وقد عرض فيه الوسائل التي تعزز نهضتنا القومية فرأى أنها لا تستكمل شروطها وتؤتي ثمارها إلا إذا نهجت ثلاثة مناهج :

الأول : بناء الأساس الفكري الذي تقوم عليه نهضتنا القومية ، أي بدرس

غاياتها ووسائلها ، وتحديد معنى الأمة والقومية ، وإثبات خصائص الأمة العربية ومميزاتها ، وإظهار مقامها الفريد بين الأمم ، والنصيب الذى كان لها فى الماضى والذى يرجى لها فى المستقبل فى تقدم التمدن والحضارة البشرية ، أو بكلمة أخرى : إنشاء « فلسفة قومية » شاملة واضحة منتظمة .

الثانى : أن تعصر هذه الفلسفة فى فكرة مقطرة ، نقية ، صافية ، يبشر بها أبناء الأمة ، وتتحد بعاطفتهم المتوثبة وشعورهم الفياض ، فيحصل من هذا المزيج المبارك « عقيدة قومية » ، وأخيراً يتحد العاملون فى الحقل القومى .
الخطوة الثالثة : المجاهدة لتنظيم الأمة العربية وضبط نوازعها وإخضاع شهواتها للإرادة الوحيدة المنبثقة من « العقيدة الواحدة » .

على هذه الأركان الثلاثة ؛ الفلسفة القومية ، والعقيدة القومية ، والتنظيم القومى - تقوم كل نهضة صحيحة ، وإليها يجب أن يوجه العرب جهودهم فى هذا الدور التأسيسى من حياتهم الجديدة .

* * *

فى نطاق هذه المناهج وإطاراتها الواسعة المدى كتب كثيراً عن الأمة العربية - عن ماضيها وحاضرها المحفوف بالمكاره ، موجهاً الجليل الحديد توجيهاً قومياً يركز على أسس علمية وفلسفة واقعية لبناء مستقبل مشرق .

وإلى أعماله الدراسية كان وما يزال وافر النشاط فى اعتلاء منابر النوادى والجمعيات يحاضر فى القضايا التى تواجه العرب فى مشاكلهم . وهو شديد الحرص على تأريخ مظاهر الوعى القومى . أريد مراحل تطور الأمة العربية منذ بداية القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا ، ولا سيما فى هذه الفترات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية .

ولآرائه صدهاها القوى فى الأوساط الثقافية لأنها صادرة عن إنسان حر الفكر ، يريد لأمته أن لا تكون مغمضة العينين فى مواجهة الواقع ، وأن تسير على أسس صحيحة وقواعد سليمة لئلا تتعثر وتقع فى المزالق .

* * *

ومن الوسط العلمى إلى المحيط الدبلوماسى : فحين جلا الإفرنسيون عن

سورية وتألفت حكومة وطنية اختير الدكتور زريق مستشاراً أول للمفوضية السورية في واشنطن ، فترك عمله الجامعي للقيام بمهمة وطنية ، وقد أعطى الأمريكيين وغير الأمريكيين أجمل صورة عن مواهب السوريين حين يمارسون تبعات الاستقلال ولا سيما حين مثل سورية في هيئة الأمم المتحدة وفي مجلس الأمن مندوباً مناوباً خلال سنتي ١٩٤٦ - ١٩٤٧ .

لا شك أن هذه الفترة التي قضاها في ذلك الجو السياسي المحموم تارة ، والهادئ هدوءاً مشوباً بالانفجار تارة أخرى ، قد أفادته كمفكر مادته الأساسية تدريس التاريخ . .

وكانت هيئة الأمم وما تزال مسرحاً لشتى التيارات والمذاهب المصطرعة حول مصير الأمم - ولا سيما الصغيرة منها الخاضعة لسيطرة الأمم المستقرة . . نعم ، لقد أفادته هذه التيارات المصطرعة التي توقظ ضمير أى مؤرخ وهو يقرأ صفحات الماضي فتجعله كثير الحذر والحيطه ، فلا ينساق مع الأهواء ، ويجعل للواقع وللحقيقة نصيبهما الأوفى من الدرس والبحث .

من البيئة العلمية يبحث في دياميس القرون الغابرة عن حقائق التاريخ المسرلة بالحكايات والقصص والأساطير إلى أروقة هيئة الأمم وملتويات السياسة التي قد تبطن غير ما تظهر . . وقد تظهر غير ما تبطن !

ولم تطل إقامته في السلك الدبلوماسي فقد عاد إلى جوه الجامعي حيث عين نائباً لرئيس الجامعة الأمريكية في بيروت ، إلى احتفاظه بأستاذية التاريخ . وكان منصب رئاسة الجامعة الأمريكية لا يشغله غير الأمريكيين فدل اختياره لهذا المنصب الرفيع ، على الثقة التي يتمتع بها ، وقد برهن خلال هذه الفترة ، على كفاءة ممتازة جعلت الأمريكيين يقدرونها كل التقدير .

وحين فكرت الجمهورية السورية في تنظيم جامعتها على أسس ومناهج صحيحة استدعته وعينه رئيساً لها فتسلم مقدراتها سنة ١٩٤٩ وظل يدير شؤونها حتى سنة ١٩٥٢ واستطاع خلال هذه الفترة القصيرة أن يغير الكثير من المناهج ، وأن يسير بها خطوات سليمة . . ثم عاد إلى « الجامعة الأمريكية » ليتولى رياستها بالوكالة فشغلته الشؤون الإدارية عن البحث العلمي . وما كاد يطل

عام ١٩٥٧ حتى عاد إلى الناحية التي اجتذبتة وتخصص فيها وهي دراسة التاريخ : يقرأ ويكتب ويحاضر وينشر أبحاثه ودراساته في المجالات العربية والأجنبية فأصدر - خلال هذه الفترات - بعد كتابه « الوعي القومي » - كتاب « معنى النكبة » حلل فيه تحليلًا بسلوكيًّا عوامل نكبة فلسطين فراج رواجاً كبيراً وطبع أكثر من مرة . ونقل إلى اللغة الإنكليزية بقلم الأستاذ ببلي رانيدر . كما أصدر كتاب « أي غد » . وهو مجموعة أبحاث تدور حول تبعات المفكر العربي والمجتمع التقدمي وموقف العرب من الثقافة الحديثة ، إلى خطوط واضحة نحو ثقافة عربية أفضل ، تنبثق من صميم الشعب وتتجاوب مع حاجات المجتمع وتقوم على احترام الحقيقة - ثقافة متأصلة في ماضيها الإيجابي ، مشاركة في الحضارة والإنسانية - بهذا النوع من الثقافة الحية الفعالة - يقول الدكتور زريق - يتكون المجتمع العربي الفعال ، المجتمع العربي القادر على البقاء ، الباقي فعلا في الإرث الإنساني المشترك - المجتمع العربي الأفضل . . .

ولم يهدأ نشاطه العلمي فلا يمر عام أو عامان إلا ويتجمع لديه الكثير من مقالاته ومحاضراته ودروسه فينظمها كتاب لا تنأى بحوثه عن الواقع العربي على ضوء التطورات العالمية ومدى الأبعاد التي تفصلنا عن هذه التطورات ، فيغمز ويلمز ، ويوضح ويصرح ، ويضع النقاط على الحروف ، وتتضح آرائه أكثر فأكثر في كتبه الثلاثة : « نحن والتاريخ » و « في هذا العصر المتفجر » و « في معركة الحضارة » فهو يتابع التطورات بنزعة المؤرخ وحس المفكر المؤمن الذي يريد لأمته أن تستكمل جميع عناصر حياتها لتجاري الأمم المتطورة في سيرها . .

ففي كتاب « أي غد ؟ » يضع القضية العربية على أساس مصري . وفي كتاب « نحن والتاريخ » يحلل موقف الأمة العربية من ماضيها وتاريخها وأثر هذا الموقف في حاضرها ومستقبلها . فهو يهدف إلى أن تكون علاقتنا بالتاريخ علاقة تفاعل إيجابي مستمر ، وأن تكون تحدياته لنا حافزاً مستثيراً ، وردنا عليه رفيعاً مبدعاً . وأن يتمكن العرب في هذا الظرف الرهيب من حياتهم

أن يردوا على تحديه الضخم الخطير بأصفي ما نمتلك من فكر ، وأنفذ ما نقدر عليه من عمل ، وأروع ما نحن أهل له من خلق وإبداع .

وفي كتاب « في معركة الحضارة » يتكلم عن ماهية الحضارة وشروطها وصورها ومظاهرها ومقوماتها ، وعن مقاييس التحضر وصور التقدم ، والوضع الحضارى المعاصر من جهة سماته البارزة ومنجزاته وإمكاناته ومفارقاته ونقائصه ، ويخرج من كل هذه الأبحاث ليحدد موقف الأمة العربية من الركب الحضارى موقفاً يجعلها وثيقة الارتباط شخصياً وقومياً وإنسانياً بمركب الحضارة . .

إنه يريد من الأمة العربية أن تثور ثورة عقلية تجتث كل ما يعوق سيرها « ثورة تختلف كل الاختلاف عن أية ثورة أخرى بصفات وميزات مستمدة من طبيعة العقل ذاته ؛ فهي تبغى الحقيقة أولاً وتوقن أن أى كسب منها يفوق كل كسب آخر » وأن أى بناء يقام على غير أساسها لا بد من أن يعثر به الوهن والفساد فيتخلخل وينهار . « الثورة العقلية » فى نظره ، الضمانة الضابطة لأية ثورة أخرى ، وبها تدرك أن مشكلتها الأولى هى التخلف الحضارى ، وبها تقدم على محاسبة ذاتها ، وتحن إلى التحضر ، وتؤمن بالحقيقة والعقل ، وتتطلع إلى المستقبل ، وتفتتح للخير من حيثما أتى ، وتولد قدراتها الإنتاجية ، وتحقق إمكاناتها البشرية ، وتضبط ثورتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . إنها إن سلكت هذا الطريق بلغت ، فى اعتقاده ، سبيل السلامة والنصر فى المعركة الأم : فى معركة الحضارة . .

* * *

وجميع أبحاثه تدور حول معالجة مشاكلنا القومية والخليقية والاجتماعية ، وهو صريح فى معالجة هذه المشاكل ، يدرس الأسباب والعلل ، ويقترح الحلول العملية لبيصّر النشء العربى بالواجبات الملقة على عاتقهم فى غدهم الملىء بالخاوف والأخطار .

وقد أهله روحه الجامعية وتفكيره المتزن ودراساته المتتابعة فى شتى قضايا الفكر — أن يكون عضواً فى عدة مجامع علمية وهيئات فكرية ؛ فانتخب عضواً مراسلاً للمجمع العلمى العربى بدمشق والمجمع العلمى فى بغداد ، والجمعية

التاريخية الدولية ، وعضواً للجنة الدولية لوضع تاريخ تطور العلم والثقافة برعاية الأونسكو . وعضو المجلس التنفيذي لمنظمة الجامعة الدولية ، ورئيس لجنة الخبراء الدولية لدراسة قضية القبول في الجامعات برعاية الأونسكو ومنظمات الجامعة الدولية .

هذا ، وقد ترجم ونشر عدة كتب : ترجم عن الألمانية بالاشتراك مع بندلى جوزى كتاب « أمراء غسان من آل جفنة » لتيودور نولدك . ونشر كتاب « الزيدية قديماً وحديثاً » لإسماعيل جول بك . كما نشر المجلدات السابع والثامن والتاسع من تاريخ الدول والملوك لابن الفرات ^(١) .

* * *

هذه خطوط سريعة من حياة الدكتور قسطنطين زريق وما زال في اكتمال كهولته ، لم ينقطع عن البحث والدرس ، وهو في جميع كتاباته واضح الأسلوب ، بعيد عن التّعسر ، قد لا تلمس في كتبه أساليب أئمة البيان ولكنك تلمس أسلوب المؤرخين الذين يلبسون الفكرة والأحداث القوالب التي تلائمها لتكون واضحة العبارة ، سهلة الفهم ، بعيدة عن الغموض ، تنثال الأفكار انشياً لا يؤدي إلى الفهم والاقتناع ثم إلى التحفز فالعمل . . وهذا في اعتقادي من أبلغ الأساليب التي تصل بين الكاتب وقرائه .

(١) وقد اشتركت الدكتورة نجلا عز الدين معه بنشر المجلد الثامن والجزء الثاني من المجلد التاسع .

عمر أبوريشة

١٩١٠

شاعر الشباب السوري أو شارع الحب والجمال كما كانت تنعته الصحافة السورية^(١)، عرف بوقدة الحس ، ودفق العاطفة ، وجموح الخيال ، ووفرة التلاوين .

ولد سنة ١٩١٠ في قضاء منبج - مدينة البحتری وأبي فراس الحمداني ، حيث كان أبوه قائممقاماً .

وقد قضى طفولته في حلب يدرس في مدارسها الابتدائية ، ثم انتقل إلى بيروت لإتمام دراسته الثانوية في الجامعة الأمريكية ، وفي سنة ١٩٣٠ أرسله أبوه إلى مانشستر ليدرس صناعة النسيج . ولكن الشعر كان أغلب في نفسه من دراسة صناعة النسيج ، فقد نشأ في بيت يقول أكثر أفراد الشعر . . كان أبوه شاعراً أشرب قلبه بالشعر الصوفي ، وكذلك كان جده ، وإذا كان للورثة أثرها في نشأة الإنسان ، ففي وسعنا أن نقول إن الملكة الشعرية قد انتقلت إليه بالورثة ، وقد مست جذوة هذه الورثة أكثر أفراد العائلة ، فأخوه شاعر ، وأخته شاعرة ، وأمه تتذوق الشعر وتحفظ عشرات القصائد لأكابر الشعراء المتصوفين ، فنشأ عمر وهو أبرز أفراد العائلة في رفع راية الشعر . . وهذا الذي دفعه أن يهجر دراسة صناعة النسيج ليعيش في جواء الأدب الإنكليزي خلال إقامته في مانشستر - تلك الأجواء التي فتحت أمامه آفاقاً جديدة في تفهم الأدب .

نظم عمر أبوريشة الشعر في سن مبكرة . . وكان يعتمد حسه الذاتي في تصوير الكثير من مظاهر الحياة ، وعكف يدرس الأدب على أساتذته المدرسين ويصف لنا هذه الأدوار التي مرت من حياته بقوله :

« هنالك أدوار متباينة النزعات مرت على وتركت في حياتي الأدبية أثرها

(١) كان ذلك سنة ١٩٣٥ .

العميق . أحببت في أول نشأتي شعر البحترى وأبى تمام وشوقي وأضرابهم لأن أساتذتي - ساحمهم الله - كانوا يغرقون في امتداحهم ولا يشحذون لسانی إلا بشعرهم ، فكم رقصت طرباً عند سماعي :

ريم على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرم

ولما أخذ المعلم يشرح ما بهذه القصيدة وبأمثالها من جناس وطباق واستعارة إلى آخر ما هنالك من « الأعيب » بيانية خيل إلى أن القصيدة التي لا تضم شيئاً من هذه الألاعيب ليس لها قيمة ، وتحت تأثير هذا الرأي أخذت أنظم ، وإني أذكر مطلع قصيدة قلتها في هذا النحو .

« سلاها » ما الذي غنى ثناها وقلبي في التنائى ما « سلاها »

ولم أكتف بهذا بل تعديته وأخذت أعارض « بائية » أبى تمام و« سينية » البحترى ، وإني وإن استفدت شيئاً من هؤلاء فإنما استفدت اللغة والتركيب أما الفكرة الشعرية فقد كبا دونها خيالهم الكسيح !

سئمت هذا الشعر وهذه الزمرة من الشعراء فعدت أبحث في كتب الأدب على أجد ما أروى به ظمئى فعثرت على شعر جيد مبثّر هنا وهناك كأبيات لأبي صخر الهذلي وأبيات لعبدة بن الطبيب وابن زريق البغدادي والوليد الأُموي والأسدي صاحب القصيدة الرائعة :

نأت دار ليلي وشط المزار فعيناك ما تطعمان السكرى

ثم ساعدني الحظ فسافرت إلى إنكلترا لإتمام دراستي فشغفت بشعراء كثير : كشكسبير ، شلي ، كيتس ، بودلير ، بو ، موريس ، هودملتون ، تنسون ، براونينغ ؛ وأحب الشعراء إلىّ اثنان : هما بو وبودلير ؛ اللذان صرفت الساعات الطوال في مطالعة آثارهما ، فهما أشبه بلولب صور في حانوت رسام ، كيفما حركته وجدت صوراً جديدة تختلف كل صورة عن أختها ، وفي كل منها رمز ينقلك من أفق إلى أفق فلا تشعر بممل ولا تحس بتعب « (١) » .

على أنه بعد أن تنقل من أفق إلى أفق في آفاق الشعر العربي والغربي قال :

« إننى أخاف أن يأتى ذلك اليوم الذى لم تعد تحب فيه نفسى غير شعر الحياة الصامت » .

* * *

لقد شب عمر ، وسورية فى نضال دام مع الإفرنسيين ، والشرق فى ثورة لاهبة ضد المستعمرين فكان لذلك أثره فى نفسه ، فاتجه بشعره الوطنى إلى تصوير كفاح الأمة وكفاح الشعب السورى بصورة خاصة ، وكان له فى كل مناسبة قومية قصيدة لفتت إليه الأنظار .

ولم يكن الشعر القومى هو الذى ميّزه على الشعراء الشباب بل هذه الجلدة التى يتميز بها شعره فى تصوير خلجات النفس ونبضات القلب ، فهو مصور بارع ، يضيف على الفكرة ثوباً جميلاً من ألفاظ مختارة ذات أضواء وتلاوين ، وقد برع فى شعره الغزلى حتى كاد يبرز صنوه عمر بن أبى ربيعة ، وما نشره من شعره الغزلى قليل قليل ، لا يكاد يتلمس جماله إلا الصفوة المختارة من أصدقائه الذين يحسون إحساسه العميق فى تذوق حلاوة الشعر .

يأخذ عليه بعض النقاد ضعف لغته وحاجتها إلى المتانة والصقل ويقولون إن له لغة خاصة به « ما يفتأ يكررها فى كل قصيدة ، وهو يصب ألفاظه فى قوالب لفظية تغلب على شعره وتطبعه بطابع خاص ، ونستطيع أن نرسم حدود لغته الشعرية ونخصى قوالبه اللفظية ، ولغته ، وإن رفعها الخيال إلى سماء عالية ، تحتاج إلى متانة وصقل ، ومصدر هذا أن الشاعر لا يديم النظر فى دواوين الشعر وكتب الأدب القديمة ، ولو أنه درس اللغة على أساتذة فحول لاستطاع أن يكون أكثر إجادة فى الشعر الحديث بما أوتي من دقة الشعور وعمق الإحساس وقوة الخيال ، ويظهر أنه يرى نفسه غنياً عن مثل هذه الدراسة التى تقوّى لغته وتصلقها وتجعلها جزلة تؤاتيه بالألفاظ القوية » (١) .

وذهب ناقد مذهباً فيه الكثير من التجنى حين قال :

« إن كل قصيدة من قصائده تذكرنى بروعة الجمال الأسرى فى « جاليتا » تمثال « بجماليون » . لقد أدرك بجماليون الفنان أن تمثاله الجميل تنقصه الحركة ،

تنقصه الروح ، تنقصه الحياة ، ومن هنا راح يتوسل إلى الآلهة أن تحيل الرخام الصامت إلى كيان ناطق ، أو الجسد الهامد إلى حياة نابضة ، واستجابات الآلهة لبعجامليون المثال ولكنها حتى الآن لم تستجب لأبي ريشة الشاعر . إن شعره يزخر بالجمال والخيال ، ولكنه يفتقر إلى الروح والعاطفة » (١) .

ونوقن أن الناقد حين أطلق هذا الرأي لم يطلع على كل ما كتبه عمر ولا سيما مسرحيته «سميراميس» التي تجلت في فصولها قوة الشاعر وعمق تخيله ورهافة حسه وقدرته على عرض الماضي بصورة الحية وأسراره الغامضة ، ولا على تمثيليته «محكمة الشعراء» . وقد بلغ الأوج في تصوير هواجس شعرائنا المعاصرين وما يؤخذ على كل شاعر من هنات ، وما تفيض به قلوبهم ونفوسهم من لمحات ونزوات . . فالواقع ، أن قصائد عمر أبو ريشة مفعمة بدقة الحس ، وقوة الخيال ، وروعة الفن « فقد أوتي صاحبها من قوة الخيال وبراعة التصوير ما جعله يبدل المراثيات ويقلبها إلى صور رمزية يفوح منها شذا الحب والحنين ، فكأنما الطبيعة عنده صور متحركة أو رمز سحري لرؤى أحلامه العذبة ، فهو لا يرى في الأشياء إلا نفسه ، ولا يجد في حياة الأكوان إلا ما يجده في نفسه من الفرح والحزن والرغبة والأمل والقلق والشك واليأس ، لقد عرف نضارة الحياة وذاق حلاوتها ومرارتها ، ولكن بشفتيه لا بشفتي غيره ، وأدرك مصير البشرية وعرف بؤسها وشقاءها ولكن بشعوره وعاطفته لا بعقله ، الطبيعة بأسرها رمز لما يشعر به ، وهي صورة محسوسة للتعبير عما في نفسه من الآمال والأحلام » (٢) .

من تأليفه مسرحية « ذى قار » ومسرحية « الطوفان » و « محكمة الشعراء » والأخيرتان لم تنشرا ، وقد نشر بعض فصولها في مجلة « الحديث » (٣) . ونشر عام ١٩٤٨ ديوانه الذي ضم الكثير من قصائده القومية والوجدية بعنوان « شعر » ، ومن تصاميمه نظم ملاحم البطولة في التاريخ العربي ، وهي ، كما أفضى إلى ،

(١) أنور المعداوي الناقد الأدبي لمجلة « الرسالة » العدد ٩١٥ السنة ١٩ ص ٨٧ .

(٢) الدكتور جميل صليبا « مجلة المجمع العلمي » المجلد ٢٣ ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٣) « الحديث » السنة ٨ العدد ٤ - ٨ .

فى اثنى عشر ألف بيت ، نظم بعض المواقع ثم توقف . . وإذا استطاع أن يكمل نظمها فسوف تكون أعظم ملحمة فى تاريخ العرب . ومن المسرحيات التى كتبها ولم ينشر منها سوى فصل واحد مسرحية « سميراميس » (١) .

هذا ، وقد قدر الحىمع العلمى العربى موهبته الشعرية فانتخبه سنة ١٩٤٨ عضواً مراسلاً ، وفى ٢١ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩٥٠ عين وزيراً مفوضاً فى البرازيل ، ثم انتقل إلى الأرجنتين فالهند ، وكان قبل انتسابه للسلك السياسى مديراً لدار الكتب الوطنية بىلب ، وينتظره مستقبل لامع فى عالم الأدب بعد رحلاته إلى شتى أقطار الدنيا وإطلاعاه المستمر على نماذج آداب الأمم شرقها وغربها ، ولديه محصول كبير من الشعر الذاتى ما يزال غير مطبوع ، وهو يؤلف ثروة فى الأدب المعاصر .

ومن المسرحيات التى وضعها مسرحية عنوانها « تاج محل » ، وتاج محل : هو أضخم بناء فى العالم ، بناه جيهان تخليداً للذكرى زوجته « ممتاز » فى الهند ، وموضوع المسرحية : الفن هو الذى يخلق الحياة ، فلا حياة بدون فن ! إنها كالجيفة ! والثانية « سميراميس » ملكة آشور وبابل : الأسطورة التى كونت منها جسد امرأة وروح إله ، تشعر كما تشعر كل امرأة دون أن يطمئن حسها العلوى شىء ، لأنها تحمل فى أعماقها الروح الإلهى الذى يحس دائماً هذا الظماً الشديد إلى الملاء الأعلى ، وقد تزوجها القائد نينوى ، فكانت تمنحه كل شىء إلا روحها ، ففتح الهند ، وقهر الحيثيين ، وملك مصر وجلب لها تاج الفراعنة لإرضائها ، ولكنها ظلت فى شغل عنه وما زالت حتى قتلتها لتتخلص منه ، وقد كان لهذا الحادث أثره السيئ فى نفوس الشعب وفى نفوس قادة الجند ؛ فتحمسوا للمليكههم وثار الشعب يريد أن ينتقم للمليكه من سميراميس ، وبالفعل لقد هجم على قصرها ولكنه ما كاد يصل إلى ردهة القصر حتى وقفت أمامه عريانة ! . .

بهت الشعب أمام هذا المنظر فسجد لها ووقف خائر القوى ، فلما رأت سميراميس أن شعبها قد وصل إلى هذه الدرجة الرفيعة من التحسّس بالجمال

والإيمان به ، اقتنعت أنها أدّت رسالتها على الأرض . وأية خدمة أسمى من أن تدرّب الشعب الذى تحكمه على عبادة الجمال ، عندئذ انسحبت وارتفعت إلى الملأ الأعلى - إلى عالم الطيوف والأحلام .

على هذه الخطوط من الأسطورة قامت مسرحية «أبوريشة» التى كتبها سنة ١٩٤٣ وانتهى منها سنة ١٩٥٨ بعد سبع عشرة سنة من العمل الفنى المتواصل . ويعتزّ بهذا الأثر الفنى الذى لم يقذف إلى المطبعة فيقول :

« مسرحية سميراميس مؤلفة من ١٤٠٠ بيت صيبت فيها كل جوانحي .. أسلوب جديد فى العرض ، تفكير جديد وأجواء غريبة فى دنيا المسرحيات ، نظمها ست مرات فى ١٧ سنة ! ومزقتها خمس مرات ، ثم استقرت على السادسة » .

ويقول : « هى شىء جديد فى دنيا الخلق » على كل فحكم النقاد عليها يكون بعد نشرها ، ويأمل الكثيرون ألا يطول سجنها أكثر من هذه السنوات الطويلة . وقد بدأها هكذا ..

| | |
|-------------------------------------|-------------------------|
| سميراميس : عبيرك ياليل ، وهج الحياة | فلا تتنفس على مضجعى ! |
| بعثت بآخر ما تمتعت | شفاه الربيع على مسمعى |
| أحسّ به رعشة فى دمي | وحلماً جريحاً على مدمعى |
| ألا أين بدعة حلمي إذا | ترنحت بالقدرح المترع |
| وأين الصلدى لنداء الحنين | إذا عربد القلب فى أضلعي |
| أريد .. ودوني انهيار الفتون | على كل ذى هيف ممتع |
| حنانك : هيرام ! .. | |

| | | |
|--------------------------------------|---------|-------------------------|
| هيرام : | يا روعة | الألوهة فى جسد ريتق |
| فذاك الظما ، لا تبثى السراب | | ولا ترتجى منه أن نستقى |
| فأنت نثرت الأمانى الحرار | | على مغرب الشمس والمشرق |
| أصبيخى فكهم زفرة فى الدجى | | تموت على خدرك المخلوق ! |
| خلقت إلى الأرض فامشى على | | أزاهرها مشية المشفق ! |
| سميراميس : إلى الأرض؟ مدى بساط الرضا | | على كبوات الهوى المطلق |

وردى خيالى كسيح الجناح
وهزى لازارى ، فكىم نجمة
كفى لاثيرى رؤى الشاطىء اللعوب
دعنى إلى وحدتى أنطوى
يصفق فى أفق ضيق
ترامت عليه ، ولم تعلق !
على جهة المفرق
على نبرة فى لم تدفق
(تفكر قليلا)

بل امضى إلى ندوتى وارجعى
ومرغ عليه هواى الشقى
وأنفاس خدسى على مرفقى !
(تعود هيرام)
بعودى وكأسى والزنبق
وتخرج هيرام)

أراك رجعت ؟

هيرام : فراخ الندى
فضضت نداء فى سمعها
فماجت على اسمك فى غمرة
تسائلنى واختلاج الشفاه
فما حسبت أن تعيدى المنى
عطاش إلى وردك الخير
كأنى فضضت لها عبقر !!
من الشوق والعبق المسكر
يردّ السؤال إلى مضمر !
دوافق فى عودها الأخضر
(يدخل الندمان)

إلخ . . إلخ

ومن شعره :

طلل

مر بصرح رومانى قديم ، لا يستطيع غير الفن أن يتحدث
عن ماضيه ، واسترعى انتباهه خلوه من الشوك وتآلق ترابه النظيف .
فقال فى نفسه : إن الموت يقف أمام ضحيته ، مجروح الكبرياء ،
لأنه لا يستطيع أن يفتك بها أكثر مما فتك :

قنى قدى إن هذا المكان يغيب به المرء عن حسه
رمال وأنقاض صرح هوت أعالیه تبحت عن أسه

أقلب طرفي به ذاهلاً وأسأل يومي عن أمسه
 أكانت تسيل عليه الحياة وتغفو الجفون على أنسه
 وتشدو البلباب في سعده وتجرى المقادير في نحسه
 حوافر خيل الزمان المشتّ تكاد تحدث عن بؤسه
 فما يرضع الشوك من صدره ولا ينبع اليوم في رأسه
 وتلك العناكب مذعورة تريد التفلت من حبسه
 لقد تعبت منه كف الدمار وباتت تخاف أذى لمسه
 هنا ينفض الوهم أشباحه وينتحر الموت في يأسه

سراب

رأى الشاعر في الصحراء ماء يتموج من بعيد فقبل له إنه السراب ،
 فتأمل طويلاً ، وأحس بالرمل الملتهب ظمأً تحت أشعة الشمس ينام ليحلم
 بالماء ، وما هذا الذي يسمونه سراباً إلا أطياف حلمه اللذيذ ، وكان الشاعر
 على حال عاطفية قلقة فوجد في إحساسه هذا منفذاً له :

كم جئت أحمل من جراحات الهوى نجوى ، يرددوها الضمير ترنما
 سألت مع الأمل الشهي لترتمي في مسمعيك ، فما غمرت لها فما
 فخنقتها في خاطري فتساقطت في أدمعي فشربتها متلعثما
 ورجعت أدراجي أصيد من المنى حلماً أنام بأفقه متوهما
 أخطاه قد أزف الذوى فتنعمي بعدى ، فإن الحب لن يتكلما
 لا تحسبيني سالياً أن تلمحي في ناظري ، هذا الدهول المهمما
 إن تهتكى سر السراب وجدته حلم الرمال الهاجعات على الظما

الدكتور جميل سلطان

١٩٠٩

... من رجال التعليم في دمشق ، عاش أنصر أيامه . بين الدرس والتدريس ، وكان ميله إلى الأدب أغلب . فنظم الشعر وكتب المقال ، وكان لتطور الحياة الفكرية ، ولا سيما في مصر ، أثرها في نهجه الأدبي ، كما كان للأيام الدراسية التي قضاها في باريس أثرها إلى حد ما ، في تلوين ثقافته ، فقد ظلّ منجذباً إلى القديم أكثر من تجاوبه مع التيارات الحديثة في الغرب . وسرّ ذلك أنه نشأ نشأة محافظة في جو ديني حرص كل الحرص على التمسك بالخصائص التي امتاز بها السلف ، وقد أشار هو إلى ذلك بكلمة أرخ هذه النشأة بقوله :

« . . . نشأت في بيئة عرفت بالجد والعلم والتقوى . فقد كان والدي في غاية الصلاح . . . ولقد تأثرت بهذه البيئة كل التأثير فسلكت في طلب العلم سبيلاً منظماً في جميع مراحل التعليم . . . »

ويقول :

« . . . على أن الدراسة المنتظمة وحدها في المدارس الرسمية لم تكن لترضى والدي ، رحمه الله ، فتخيرتلى من علماء دمشق من درست عليهم البيان والعروض ، ورسائل التوحيد والعقيدة ، وأحسني في هذا حلقة تجمع بين الحديث والقديم »^(١)

* * *

هذا الازدواج في العبّ من الثقافتين جعلته يتابع التيارات الأدبية باهتمام ،

(١) في رسالته الخاصة لي يقول بعد أن قطع مراحل التعليم من الابتدائي إلى الثانوي فجامعة في الحقوق ثم في الآداب ألزم نفسه أن يختصر بعض السنين بتأثير ذلك الحزم فقطع في سنة واحدة البكالوريا الثانية في الفلسفة ، والسنة الأولى في الحقوق ، وجمع في سنة واحدة السنة الأخيرة من الحقوق مع السنة الأولى في الآداب ، ثم تمرن في المحاماة ونال شهادة الأستاذية ، ثم تهيأت له أسباب الدراسة في باريس فنال شهادة الآداب - غير التي نالها في دمشق - ثم أعقب ذلك بالدكتوراه من درجة مشرف جداً وأنهى مرحلة طلب العلم سنة ١٩٤٠ وعاد مدرساً للعربية وآدابها في ثانويات دمشق وفي الكلية الشرعية .

والمدرسية منها بصورة خاصة ، فأنتج غير كتاب واحد عن سير القدماء من الشعراء والأدباء فمن دراسة عن «جربير إلى أخرى عن . صريع الغواني» ... إلى ثالث عن «أبي تمام» فالخطيئة والنابعة الذبياني وعبد الله بن رواحة ، والموشحات ، إلى دراسة عن «حقوق الطفولة في تشريع الأمم المتحدة والتشريع الإسلامى» و «لمح من أسرار لغتنا» ودراسة نهج البلاغة بالإفريقية ، و «فن القصة والمقامة» و «تحقيق عن رسالة الشعر في الإسلام» ومؤلفات بلاغية وأدبية تدرس في البكالوريا ... وقد أنتج هذا الإنتاج وهو في عمله الرسمي في وزارة التربية والتعليم—من التدريس في الثانويات إلى الأعمال الإدارية في الوزارة—كان آخرها توليه مديرية التعليم الابتدائى والريف سنة ١٩٥٦ وما زال إلى أن قدم استقالته سنة ١٩٦٦ بعد خدمة تجاوزت ثلاثين عاماً لينصرف ، كما يقول ، للعمل الأدبى . .

وكان أول عمل قام به أن أعاد النظر في رسالته «فن القصة والمقامة» فصدرت الطبعة الثانية بعد أن أثبت بعض ما حذف من قبل ، وأضاف ما كان يجب أن يضاف . . فكانت هذه الطبعة المزينة المنقحة ، وهو في سبيل إعادة النظر بالكثير مما كتبه وهو في زحمة العمل الرسمي . . .

ويحرص الدكتور سلطان في جميع ما يكتبه على نصاعة البيان إلى دقة التحقيق ليأتى العمل كاملاً .

وهو أبعد ما يكون في نهجه الأدبى عن الأدب الذى لا يكون ملتزماً وفي مجال الآراء التى تدور حول فكرة «الأدب للأدب أو الفن للفن» يقول :

«لى عند هذه الفكرة وقفة لأبى أعتقد أن الأدب المجرد من كل غاية ، المبرأ من كل التزام ، الذى لا يستهدف غرضاً ، ولا يعمل لخدمة الأمة والمجتمع ، إنما هو أدب تسلية وممتعة لا أدب تقويم وتوجيه .

وفي مجال لغة القصة والمسرح يقول :

« . إن الأدباء اليوم أمام أفق جديد من الأدب يختلفون في "عامية" لغته أو "فصيحها" وهو أفق القصة والمسرح ، وهما نوعان من الأدب يعالجان مشاكل اجتماعية أو نفسية أو وصفية ويتوخيان أهدافاً خاصة ، فإذا تبين هذا وجب أن

ننتبه إلى أن إيصالهما إلى النفوس يجب أن يكون عن طريق الأسلوب الذى لا تمججه الطباع ولا يثقل على القلوب ولا تتعب فى استيعابه الأفكار ، فكونهما أدباً - يستلزم الصحة فى اللغة وعدم الإسفاف إلى العامة . ولا أقول الإغراق والتفاحش فقد يكون هذا مما يتعب أذهان العامة ، وإذن فلا بدّ - فى رأيي - من أن يكون الحوار فصيحاً صحيحاً لا تكلف فيه ولا إغراق ولا تشدّق ولا تفاحش ، وهذا يكفل له أن يكون مقبولا عند الخاصة والعامة فى نطاق شامل . أما الحوار بالعامة المحلية فتمججه أذواق الخاصة . ولا يكفل له الشمول فى أقطار أخرى ، إذ كثيراً ما يلتبس المفهوم العامى فى بلد على سكان بلد أو قطر آخر . . . وكذلك الشأن إن كان أسلوب الحوار متفاصلاً مرفعاً ، فإن العامة تستقله والشمول يكون فيه أضيق وتقل الفائدة المتوخاة من الحوار . . . وسواء أكان هذا أم ذاك فإن كلنا الفئتين ما تزال محتاجة إلى دأب الأدباء ودراستهم ، وكثرة ممارستهم لأن كل فن أدبى يبدأ ضعيفاً ويقوى بكثرة الممارسة والتفرغ له ، وكذلك الشأن فى القصة السورية ، عاجلها شيوخ فى مطاع أمرها ، ولعل قصة « أم القرى » للكواكبي أول محاولة لذلك ثم تفرغ لها طائفة من الشباب ومن اكتهلوا ، فإذا هى اليوم فى تقدم وازدهار . ولعل أكثر ما تنتج المطابع اليوم فى سورية ، من هذا النوع ، وفيه كل رائع جذاب .

وليست القصة السورية اليوم وقفاً على الرجال فإن فى الأدبيات من كتبت فأبدعت . على أنى لا أزال أرجو أن تقوى لغة القصة كما قويت أخيلتها وعقدها ومفاجآتها وتحليلاتها . . . ومثل هذا يقال فى المسرحيات العربية المبتكرة . . .

* * *

وفى نطاق المعارك القلمية التى قامت بين المجددين والمحافظين حول القديم والحديث يقول الدكتور سلطان :

« . . . أما المعركة بين القديم والحديث فى الشعر فهى قائمة على قدم وساق فى جميع دول المنطقة العربية وهى موجودة منذ القدم ، فن عهد جرير والفرزدق فنتان فى النظر إلى القديم والجديد ، وعلى تراخى الأيام نجد الجديد قد صار قد يماً حين يحىء جديد آخر . وعندى أن القصة قائمة من أساسها على الشكل والمضمون ، أو على المبنى والمعنى ، فالذين يعرفون عذوبة الأسلوب وحلاوة الكلم المصنئ ،

وطلاوة العبارة المثينة لا تروقهم هلهلة الألفاظ والمباني ، وركاكة الأسلوب ولو كان فيه أجمل المعاني . أما الذين يهتمون بالمضمون دون الشكل ، وبالمعاني دون الألفاظ فأولئك في يقيني الذين يعجزون عن رص الكلام ومتانة العبارة فيتسترون وراء المعاني ، ويهدرون جمال العبارات ، وإنما يقوم الأدب على ركنيه العظيمين : الأسلوب اللفظي والمعاني الرائعة ، ومتى انهار جانب من هذين لم يبق للبناء شأن كبير .

والذين يهاجمون الأدب الحديث من أرباب العبارة المثينة تنقصهم الثقافة الواسعة ، والاطلاع على مختلف الآفاق ، والذين يهاجمون الأدب القديم يعجزهم الأسلوب الرصين والعبارة الجيدة ، وفي ضوء هذين العاملين في الأدب ترأى أكبر كل جديد من الآراء والاتجاهات والأفكار إن كان في أسلوب جيد ، وترأى أكبر كل قديم من الأساليب والعبارات إن خلا من ترديد المعاني السالفة وجاء بأفكار جديدة ، كل ذلك فيما لا يخالف إرثنا الحضارى في الخلق والتوجيه الكريم .

* * *

من شعره :

من غرائب التجارب

| | |
|---------------------|------------------|
| عاشتُ خلقاً كثيراً | وعلمتني السنون |
| وشمت في الناس ما قد | يكون أو لا يكون |
| فربّ عالٍ تعالى | عليه أحقق دونُ |
| وخائنٍ قيل عنه | هو القوى الأمينُ |
| ومخلص قاتلوه | لأنه لا يلين |
| وكم حصيف تولى | شؤونه مأفون |
| وحادثات الليالي | يحار فيها الفطين |
| البعض يحيا حياة | أجل منها السكون |
| فها هنا الشرّ يطغى | وثم خيرٌ دفين |

وكم دهنتي أمور غريبة وشؤون
 فلم أجد قط شيئاً في الكون ليس يهون
 كمعشر عقلاء يسوسهم مجنون

الطيف اللعوب

كنتَ طول الرقاد شغلي وأنسى أيها النافر المعذب نفسي
 أمس جاذبتني هدوء وسادي وتفننت في هناة حسني
 ثم وليت في الصباح كأن لم يك ما بيننا علاقة خائس
 فتنة ما رأيت أعذب منها في طيوف أضأن ظلمة أمسي

* * *

أنت أسكرتني بخمر ثنايا ك فأنى نضيع في النور كأسى
 أتراني أهوى الظلام وقلبي أبداً مولعٌ ببدر وشمس
 لا تدعني للطيف أمرح منه بلقاء من غير قرب ومسي
 واجعل الطيف فتنة تهادي بين زندي مثلما شاء حدسي

نجوى

لاهمّ أوشك أن أزل وأن أضلّ عن الرشاد
 فاجعل سبيلي في رضاك وقد خطأت إلى السداد
 لاهمّ حار اللب في شبه يطيش بها فؤادي
 وأرى نهاية دربي المو صول معتكر السواد
 في كل مرحلة تقوم رغائب توري زنادي
 حتى أظن الدرب مأ مون الخوافي والبوادي
 لكنها لمع تفرّ وما على الضلّات هادي
 لا همّ إن نهاية الد رب المروّع للفساد
 لا همّ إن القلب يفرّق من رغائبه الشداد
 وإليك أمري فاقض ما ترضاه لي يوم المعاد

زكى المحاسنى

١٩١١

أنبتت نمشوق ، فى الفترة التى انقضت بين الحربين العالميتين — غير واحد من أدباء الشباب الذين وهبوا ذواتهم للحياة الأدبية بشتى نوازعها وتياراتها ، قديمها وحديثها ، وما زالوا إلى أن ملكوا ناصية القول فأخذوا يكتبون المقال . وينظمون الشعر ، ويعالجون القصة ، ويؤلفون الكتب ، وإذا هم يتابعون نفس الخُطى التى سار عليها عمالقة الأدب الذين قادوا حركة البناء والتجديد فى حياتنا العقلية . . .

من هذه العصابة الطيبة زكى المحاسنى . . .

وقد عرفته منذ إصدارى مجلة « الحديث » عام ١٩٢٧ . . . فما هى سنوات حتى أخذ يوافيها بشعره ومقالاته ، وإذا هو صورة حية من الأديب المجدِّ الذى جعل « الأدب » أجمل هواياته ، بل جعله شغله الشاغل ، فلا تمرّ دقيقة من وقته دون الإفادة من كتب الأدب ومما يكتبه أعلام الفكر ، يتابع الحركة الأدبية المتطورة باهتمام ، وقد عاش زهرة شباب وفجر كهولته يدرس ويدرس ، وما يزال يدرس ويكتب وينظم ويؤلف ، وأصبحنا لا نفتح مجلة إلا ونقرأ له مقالة أو قصيدة هما عصارة الدأب والدرس ، وصورة مشرقة من نفسه المنطوية على صور شتى من حياتنا الفكرية يغرف منها ويرسلها نفحات عبقة .

وقد أشار هو إلى صورة من مراحل حياته الأدبية التى مرّ بها هو وأنداده فى كتابه عن « أحمد أمين » فقال :

« . . . فكنا على الحداثة ومستهلّ الشباب نتصل بأدباء بلادنا وشعرائها الغابرين والمعاصرين ، ثم نلقت إلى حركات التجديد والتطور التى كانت تتوالى على ضفاف النيل عنيقة صاخبة أو هادئة متزنة ، وكان من دأب صحافتنا العربية السورية أن تنقل للقراء والشباب المثقف والمتعلم صور هذه الحركات

وصدى ما تضمنت من أفكار وآراء . فكان اسم الدكتور طه حسين يدوى في المسامع والمخافل لما أثارت بحوثه الثورية في الأدب ، وفي الحياة السياسية والقومية ، ولم تمض الأعوام طويلاً حتى طلع اسم أحمد أمين العالم العربى والإسلامى بجديد مرتقب في دراسة الحياة العقلية خلال العصور الأولى ، فشاقى تتبّعى لهذين العلمين الخفاقين أن أقف على نتاج كل منهما ، وأنا في بلدى وجامعتى أئدارس مع أترابى مقالات كانت تنشر لطفه حسين وأحمد أمين فنتبين فيها ملامحهما وشخصية كل منهما بمقدار ما أوتينا من وعى وثقافة « (١) .

إنه يذكر هذه الفترة من أيام الحداثة والشباب وما تركته مصر وما تركه عمالقة أدبائها من أثر في نفسه وفي نفس أئداده . . . ونرجع قليلاً إلى الوراء . . .

فقد مرّت طفولته كما مرّ بها الكثير ون من أدباء دمشق :

ولد عام ١٩١١ فما كاد يتم دراسته الابتدائية والثانوية حتى انتسب إلى الجامعة السورية لدراسة الحقوق والآداب معاً . وحين ظفر بالليسانس أخذ يمارس التدريس في تجهيز دمشق ويحاضر في كلية الآداب ، وكان مشدوداً بكل جوارحه إلى الحياة الأدبية يتطلّع إلى ما هو أسمى فجعل الفوز بشهادة الدكتوراه بعض أمنيائه ، فاغتم فرصة وجوده في القاهرة مراقباً للبعثات في السفارة السورية ، يرعى شئون الطلاب ، ويحلّ مشاكلهم ويوجههم التوجيه الذى ينمى ثقافتهم ويعدّهم للمستقبل - اغتم هذه الفرصة . فانتسب إلى جامعة القاهرة وأخذ يعدّ دراسة للحصول على الماجستير ، وكان موضوع الرسالة : « أبو العلاء : ناقد المجتمع » وبعد سنتين ، أى في سنة ١٩٤٧ ، قدّم رسالة الدكتوراه عن « شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة الحمدانى » فظفر بالشهادتين .

وفي تقديم المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام لرسالة شعر الحرب أشار إلى نزعته في التحقيق ، فقال : « وقد عكف فيها عكوف الباحث المخلص المثبت ، الذى لا يقنع بما دون الغاية . ولا يسكن إلى الدعة ، ولا ينوء به النصب والدأب » .

وأشار الأستاذ محمد عبد الغنى حسن إلى هذه النزعة بقوله : « وحين يسلك الدكتور زكى المحاسنى المسالك الوعة فى التأليف ، يذهب مذهب الاعتدال والنزاهة فى الأحكام ، فلا يجور أو يبتسر الأحكام ، أو يتابع فى الآراء على غير تحقيق ، ولكنه يقرأ ، ويحقق ، ويوازن ، ويزن ، ويحكم بعد اقتناع واعتقاد » .

* * *

وظلّ الأدب وكتابة المقال ونظم الشعر وتأليف الكتب ومتابعته الحركات الفكرية المتطورة شغله الشاغل كما قلت
وقد أنتج خلال هذه الفترة من حياته الأدبية عدة كتب ، وهى ليست كل تأليفه ، بل تضم خزانته أكثر من كتاب واحد ، عدا شعره الذى لم ينتظم فى ديوان ، وعدا مقالاته ومحاضراته .

فمن المؤلفات المطبوعة :

- ١ — النواسى : شاعر من عبقر . دمشق ١٩٣٩ .
- ٢ — أبو العلاء : ناقد المجتمع . القاهرة ١٩٤٥ .
- ٣ — شعر الحرب فى أدب العرب فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة .
- ٤ — المتنبي : القاهرة ١٩٥٦ والطبعة الثانية ١٩٦٢ .
- ٥ — دراسات تاريخية فى النهضة العربية المعاصرة مع الأستاذ شفيق غربال والدكتورين أحمد عزت عبد الكريم ومحمد بدیع الشریف ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٦ — دراسة لحياة الشریف العقيلي وشعره ، ونشر مخطوط ديوانه وتحقيقه . القاهرة ١٩٥٨ .
- ٧ — ٩ ثلاثة كتب لصف الشهادة الثانوية بتكليف من وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٨ .

الأول : الأدب العربى الحديث .

الثانى : النقد والتراجم والبلاغة .

الثالث : القراءة للنصوص الأدبية الحديثة مع الدراسة والتحليل .

- ١٠ - أحمد أمين - محاضرات في معهد الدراسات العليا سنة ١٩٦٣ .
 ١١ - نظرات في أدبنا المعاصر . نشرته وزارة الثقافة في القاهرة عام ١٩٦٢ .

* * *

ويجمع الدكتور المحاسنى بين فى المنظوم والمنثور، ومجاله فى النثر ، وفى الدراسات الأدبية أوسع وأرحب ، وينفحننا من حين لآخر ، بمقطوعات وقصائد من الشعر الوصنى والذائقى ، يغلب على بعضها الصنعة أكثر من الطبع ، ولا سيما حين يتصدى لنظم أسطورة من أساطير الإغريق ، أو حادث تاريخى موغل فى القدم ، وقد شغل نفسه أخيراً بنظم صور من البطولات الإسلامية ذات أناشيد متتابعة يتجاوز كل نشيد الستين أو الثمانين بيتاً أطلق عليها « الملحمة العربية » وإذا أتيح له أن يصوغ هذه الملحمة ، ونرجو ذلك ، يكون قد نفح العربية بعمل أدبى فذّ طالما ارتقبناه ، ووقف الشعراء المعاصرون ، وأستثنى الشاعرين أحمد محرم وبولس سلامة - وقفوا دون الولوج إلى بابيه متهيئين !

وللأستاذ المحاسنى رأى فى الملحمة يلخص فيما يلى :

يقول : « عندى أن كل شعر طال أو قصر ، وقد وصف فيه المعارك ، وسردت فيه أخبار البطولة ورويت فيه ملاحمات الجلال ، هو من شعر الملاحم » .

ويقول : « إني أعدّ الشعر الجاهلى الذى قاله أصحابه فى أيام العرب «ملحمة كبرى» ، ولكنها مقطعة الأوصال قد اشترك فى وصفها نفر لا يحصى عددهم من الشعراء ، وكفى بحرب «داحس والغبراء» أن تكون ملحمة كبرى ، إذ دامت أربعين عاماً بين عبس وذبيان » .

وضرب مثلاً من الشعر الأندلسى فقال :

« . . . لقد حاول الأندلسيون صنع الملحمة على طريقة الشاعر الإغريقى هوميروس صاحب الإلياذة محاولة موفقة . وكانت تجاربهم هذه الأولى فى شعر الملحمة تحتوى تاريخ العرب فى الأندلس وحوادث ملوكهم ومنازعاتهم مع الإسبان ، وقد سجلوا فيها فتوحهم للبلدان الإسبانية ، والغريب أن بعض هذه القصائد المطولة كان يبدأ بالكلام على خلق العالم . ثم يتدرج فى الخليفة حتى يصل إلى العصر

الأندلسى الذى فيه الملك المبجل . إذ تنتهى القصيدة إلى عصر الشاعر الذى نظمها ، ولم يسمها أحد منهم « ملحمة » وإنما كانت عندهم أراجيز مطولة ، وبذلك ركبوا الأرجوزة فخلصتهم من القصيدة ذات الروى الواحد ، إذ كانت أراجيزهم الملحمية كل بيت بقافية تخالف الثانية » .

واعتبر الأرجوزة الكبرى التى نظمها ابن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » فى عبد الرحمن الناصر والتى وصف فيها مواقف بطولته وحروبه والتى جاءت فى قرابة خمسمائة وخمسين بيتاً — اعتبرها ملحمة ، كما اعتبر منظومة أبى طالب عبد الجار أحد شعراء الأندلس الذى عرض إلى التنازع بين ملوك الطوائف (١) هذا التنازع الذى سبب اندحار الأمة العربية — اعتبرها من الملاحم (٢) .

وهو تخريج قد لا يقره عليه نقاد الأدب ، وهو يعلم أن الملحمة عمل قصصى له قواعد وأصول يشاد فيه بذكر الأبطال والملوك وآلهة الوثنيين . ويتألف من أناشيد عديدة نظمت فى وصف حرب من الحروب ، ووصف جيوشها وأبطالها والأمكنة التى دارت فيها ، تشترك الآلهة فى وقائعها وتقوم على الخوارق والأساطير . وقد تكون شعراً كالإلياذة عند الإغريق والشاهنامه عند الفرس . وقد تكون نثرأ كسيرة عنترة .

وما أظن أرجوزة من بضع مئات من الأبيات ، مهما كان لونها ، تعد من الملاحم !

من شعره :

دنيانا

سعدت لأنى جئت فى هذه الدنى كأتى عرفت العمر من قبل أن أحيأ
ألم أك فى طى التراب غذاءه فأصلى فى نسل تقادم فى الهلكى

(١) « الأدب والقومية » محاضرة للدكتور المحاسنى نشرت فى الجزء الخامس من محاضرات الموسم الثقافى التى تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد بدمشق ص ١٤٥ - ١٤٧ .

(٢) وقد اختارهما هو من شعره .

سلكت سبيلي في الهواء مرققاً
وفي الماء في أوج الفيوم وربما
فما انعكس الخيام في بَرَحٍ خاطري
ولا كان لي عند المعرى وسيلة
تسمت في الدنيا نسيم معيشتي
أرى أمنا الأرض التي جاد بطنها
ألم يكفنا أنا ندور بجوها
تطل علينا في الليالي نجومها
أكانت رعائياً فصارت كواكباً
وفي الشمس سر الكون ضاعت على الحجى
إذا رحت تبغى كنهه متوغلاً
وردت الدنى كالضيف ملء تحيتي
إذا قيل أعدائي فأين عداوتي
ألملم أكناف الصداقات إنها
إذا فتر غيري من أليم وجدتي
فمن حقنا في العيش بؤس ونعمة
وما قيمة اللذات إن لم يكن لها
وفي الحب غصبات على غمراتها

• • •

وفي عاصف منه تعسف واستعلي
بمستنقع أوردت كد رتته الحدى
يوسوس في فكري بحيرته السكرى
لألبس فيها الزهد لبسته الكبرى
كنت نما يبغى الحياة ولو يشقى
بمولودها عادت لتشملة أحنى
مدى العام كالأطياف في الأفق الأعلى
غوامز بالألحاظ في دلها الأحلى
قناديل في الأفلاك تلمع في السمسى
مفاتيحه لا تلمس عنده جدوى
بمعناه لم ترشد وأحرقك المعنى
سلام لأهلها الأحيّة في القيا
تنازلت عنها لا أريد لها بقيا
بلاسم للجرح الذي أبداً يدوى
ألازمه حتى أجنبه السلى
ومن دأبنا أن نستطيب وأن نأسى
كؤوس من الأحزان نملؤها زجوى
رغائب يؤليها الفؤاد لمن يهوى

تَقَبَّلْتُ دُنْيَا لَا بِجَبَرٍ وَلَا رِضَى
أَعِشْ بِهَا لَا أَبْتَغِ عَنْدهَا شَكْوَى

فؤاد الشايب

١٩١١

قروى النشأة . صقلته دمشق فكان من أبرز شبابها المفكرين .
ولد في معلولا إحدى قرى القلمون ، ولم يكد يحسنّ بنض الحياة ويأخذ
حظه من مبادئ التعليم حتى انتقل إلى دمشق يتابع دراسته الثانوية . . .
وفي الجو المدرسى بدأت مواهبه تشع . فلم يشأ أن يظلّ محدود الأفق
فانتسب إلى كلية الحقوق في دمشق .
وكان الأدب العربي أحد مقومات ثقافته فحفظ الكثير من الشعر القديم
ومن شعر كبار الشعراء المعاصرين : شوقي وحافظ والمطران والرصافي والزهاوي .
وعكف على تلاوة ما كتبه أئمة البلاغة وأساطين البيان . . .
وإذ أخذ زملاؤه طريقهم إلى الغرب لمتابعة دراساتهم الجامعية ، سافر
هو أيضاً إلى باريس يعب من معاهدها الثقافية ويتزوّد من اللغة الفرنسية
فمكث مدة سنتين « ١٩٣٢ - ١٩٣٤ » رجع بعدها وقد اعتنق الكثير من المبادئ
الحرّة والنظريات الاشتراكية . . .
وحين رجع إلى دمشق كان الصراع على أشده بين التيارات القومية ممثلة
بالكتلة الوطنية وبين الانتداب الإفرنسي .
وكان لا بدّ له أن يسير مع الشباب في نزعاتهم الوطنية .
وإذ كان محموله الثقافي قد أخذ يتبلور في التعبير عن آرائه بدأ يكتب في
الصحف والمجلات - كتب المقال الأدبي والمقال السياسي .
كما كتب القصة حتى اعتبر من أوائل الشباب الذين عالجوها بمضمونها
القومي والاجتماعي . وسرعان ما اجتذبه الصحافة إلى رحابها فبدأ يترجم عن
الصحف الإفرنسية ، ويعلّق على الأحداث السياسية ولا سيما ذات الاتصال
الوثيق بالقضية الوطنية . وظلّ يحرر في جريدتي « فتى العرب » ، و « الاستقلال »
من سنة ١٩٣٥ إلى سنة ١٩٣٩ ، كما كتب في جريدة « النداء » البيروتية التي

كان يصدرها كاظم الصلح - وهي جريدة كبرى كانت تعبر عن الأهداف العربية وعن القومية العربية بصدق وإخلاص .

وقد ارتاح للعمل في جريدة « فتي العرب » لصاحبها المرحوم معروف الأرنؤوط الذي كان يضمني على مقالاته السياسية ظلال الأدب بأسلوب رومانطيق ويشترط على محرري جريدته أن يعنوا بالأسلوب .

ولإذ كان فؤاد الشايب لم يتأثر بأسلوب مؤلف « سيد قريش » إلا أن اهتمامه بالشئون الأدبية وحرصه على رونق الأسلوب جعلت الشايب يعني بأسلوبه ، فكانت مقالاته ، المترجم منها والموضوعة ، لا تنأى عن صفاء الأسلوب وجمال الدباجة . . .

هذا . وقد زودته الصحافة السياسية بالكثير من الخصائص فخلقت في « ذاته » المناعة ليواجه الأحداث بروح رياضية ، إلى قلب لا يعرف الحقد حتى للمناوئيه !

* * *

وحين صدرت مجلة « الطليعة » التي أسسها ميشيل عفلق وكامل عياد وسليم خياطه لتكون لسان حال المثقفين الاشتراكيين كان الشايب معهم بين المؤسسين . وقد كتب فيها كثيراً . ثم وقع خلاف بين المؤسسين أنفسهم ، فقد أرادها بعضهم أن تكون صحيفة حرة للثقافة العامة . وأرادها البعض أن تكون « صوت الشيوعيين » في عاصمة الأمويين . فانفصل ميشيل عفلق والشايب عنهم ، وبقيت لسان حال الشيوعيين .

وما كاد يطلّ عام ١٩٣٩ على أحداث الحرب العالمية الثانية وتتأزم الأمور في سورية حيث لم يعد أي مجال للعمل الصحفي - حتى سافر إلى العراق للتدريس فكث هناك قرابة سنتين يدرّس الأدب العربي في ثانويات العراق . وتولى إلى جانب التدريس رئاسة تحرير جريدة « البلاد » بعد أن فرّ صاحبها رفائيل بطي إثر ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١ .

وحين عاد إلى سورية سنة ١٩٤٢ التحق بوظائف الدولة فشغل رئاسة قلم المطبوعات وظلّ يشغل هذا المنصب من سنة ١٩٤٣ حتى عام سنة ١٩٥٨ ،

وكان ينتقل من المطبوعات إلى مديرية الأنباء ، إلى الإذاعة . وكثيراً ما واجهته الأعباء المرهقة والأزمات العصبية فكان يتحملها بصبر وجلد وبرجولة باسمه – رجولة الأديب العفّ اللسان ، الواثق من نفسه ، المؤمن بقداسة العمل .

وفى عهد الوحدة بين مصر وسورية انتدب للقاهرة بوظيفة مدير عام فى ملاك رئاسة الجمهورية وظلّ فى هذا المنصب حتى عهد الانفصال فى ٢٨ أيلول سنة ١٩٦١ .

وعاد بعد الوحدة إلى دمشق فشغل وظيفة مدير الإرشاد القومى وقد نيط به رئاسة تحرير مجلة « المعرفة » التى تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومى باعتباره أحد موظفيها . . .

وقد كان إنتاجه الأدبى خلال هذه الفترات ، محدوداً غير متكافئ مع ما ينبض به فؤاده من أحاسيس وما يرتسم فى ذهنه من آراء وأفكار ، بسبب ذلك طغيان عمله الرسمى على نزعاته الأدبية ، ولوانصرف انصرافاً كلياً إلى عالم الأدب لكان إنتاجه أغزر وأكثر قيمة . . . ومع ذلك فقد استطاع أن يجارى التيارات الأدبية فى شتى المجالات ، ولا سيما مشاركته فى المؤتمرات – ومؤتمرات أدباء العرب بصورة خاصة . . .

وكلماته ومحاضراته . فى هذه المؤتمرات . ذات أهداف قومية لا تنأى عن الإنسانية التى هى بعض عناصر الحضارة العربية .
وليس بين أيدينا من إنتاجه الأدبى سوى :

١ – « تاريخ جرح » وهى مجموعة قصصية صدرت عن دار المكشوف فى بيروت سنة ١٩٤٤ تضمّ عشر قصص ومسرحية حوارية واحدة ، وهى مولوده الوحيد فى عالم القصة ، وهو يحب هذا المولود ويعتزّ بذكره ويقول : « وكم يحب الآباء ولدهم الوحيد ولو كان مشوهاً » والقصص مستمدة من واقع المجتمع والحياة ولا سيما فى الفترات التى عاش فى ظلّها وقد أشار إلى هذا بقوله : « هذه صور ما كنت أرجو لها الظهور مجتمعة فى كتاب ، فهى وليدة ظروف زمنية وأحوال نفسية لا تجمعها جامعة ولا تربطها قرابة ، إن أكثرها جرى فى روعى . وحياتى . وتحت قلمي بين أعوام ١٩٣٠ و ١٩٤٠ وليس إلّا ” العانس ”

و "ربيع يتصور" و "المعركة" من نتاج الأعوام الثلاثة الأخيرة (١٩٤٠ - ١٩٤٣) ، ومن هذه القصص كلها ، قديماً وحديثاً ، ما كتب مرتين ، حقتين متباعدتين . كأن تمرّ الحادثة أو الفكرة في باريس مثلاً سنة ١٩٣٣ فتضرب حامية على الفور ثم تضرب مرة ثانية سنة ١٩٣٧ وهكذا . . . ويقول : « إنى لم أجتراح أية محاولة في "اصطناع فن" فيها وإنما هى من عمل الساعات التى يشعر فيها المرء بالحاجة القصوى إلى إرضاء نفسه فحسب . . . وما أشقّ سخرة لإرضاء النفس ! . . . » .

وقد لخص الأستاذ شاكر مصطفى قصصه في كتابه « محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية » . ثم علّق عليها بقوله :

« ويعدّ الشائب بين الكتّاب الواقعيين ، فصوره وأحداثه . وثيقة الصلة بالواقع الحى وبرود الفعل الإنسانية المحتملة ولكن يظل بين "واقعيته" وبين "التعبير عن الجوّ الحلى" مسافة بعيدة ، إنه يكتب تحت عنوان "قبل المدفع" إنها "قصة دمشق" ولكن لانحسّ - برغم واقعيته - بنكهة دمشق فيها ، ويمكن أن يكون حميدان صاحبها بغدادياً أو قاهريّاً دون أن يجد نفسه غريباً هنا أو هناك . و "جموح القطيع" برغم الاسم العربى للزعيم قد تجرّى في الأوراع أو طهران على السواء ، وبطلة "ملاك الموت" تنصرف كأى امرأة في الناس . يمزقها خوف الموت على زوجها وابنها في وقت معاً . و "العانس" هى عانس كل زمان ومكان . . . إن فكر الشائب مغترب ولهذا ظلّ بينه وبين التحسّس المباشر بوسطه الحلى . سواء في القرية أم في دمشق - بعض الحجاب . والواقعية التى تنعكس في قصصه هى الواقعية الفكرية . لا واقع الأرض والأهل . هى واقع العقل لا الواقع الحى المعاش » (١) .

ويقول الأستاذ شاكر مصطفى :

« إن اسم فؤاد الشائب . ما يزال إلى اليوم (٢) يذكر في مقدمة الأدباء وأصحاب القصة . برغم صحته منذ أربع عشرة سنة على الأقل ، وبرغم أنه

(١) الصفحة ٣٤١ من الكتاب .

(٢) أى إلى سنة ١٩٥٨ .

لم ينتج من القصص حين أنتج ، إلا العدد القليل ، ولو قسمنا قصصه على سنوات إنتاجه لما أصاب كل سنة قصة وحدة ، ومع ذلك فيرى أنه كان من أبرز من وضع القصة في سورية على الصراط الفني الصحيح . ومن أعطاها شكلها الذى يجب أن تأخذه . كنوع أدبى راق . كان قد تمثل بعمق روح التجربة القصصية . فاستطاع بتمكنه من عناصر الخلق الفنى ، أن يفرغ تلك التجربة فى قالب الفنى ، فجاءت القصة لديه متحررة من كل ماضيتها القديم فى سورية - نوعاً أدبياً جديداً . . .

وكانت قصصه خطوة كبرى فى تطور المفهوم القصصى فى سورية ^(١) . هذا . وقد حاول أن يكتب الرواية الطويلة . وكانت « سيرة نفس » مادة لهذه الرواية التى نشر بعض فصولها فى « الحديث » سنة ١٩٤١ . ولكن المحاولة فشلت بسبب أعماله الرسمية المرهقة . ولعلّ هذه الرواية هى التى حملها فيما بعد اسم « أوراق موظف » وهى « انتقام من واقعه ، وثورة على الجذب الذى اجتاحه فى سنوات الصمت الأربع عشرة ، هى قصة عبودية « الكرسي » ورتابته القاتلة . . . يريد أن يفرغ فيها الشايب أكثر تجاربه مرارة ، لم تخدعه كتابة الخطب الرسمية والمحاضرات المفروضة والأحاديث الإذاعية العاجلة - عن واقعه . . . فهو يحاول أن ينتزع صورة هذا الواقع الجديب ليصنع به جذبه وينتصر عليه . . . ولكنه لا يزال إلى الآن مكسوراً . . . مغلوباً على أمره . . . وعلى وقته وقلمه » ^(٢) .

* * *

هذا . وقد نشر النادى العربى فى دمشق محاضراته القومية والثقافية فى كتيب . كما نشرت فى القاهرة مجموعة من محاضراته وأحاديثه القومية .

ومن كتبه غير المطبوعة :

١ - كتاب عن « تاريخ الحريات » نشر بعض فصوله فى المجالات الفكرية وأكثرها فى مجلة « الحديث » .

(١) نفس المصدر ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٥ .

- ٢ - « التحولات الجديدة في النطاق الرأسمالي والاشتراكي » . وهو دراسات نشرت تباعاً في مجلة « المعرفة » الدمشقية . وستصدر في كتاب .
- ٣ - ثمة عدة مقالات ودراسات وقصص نشرت في مجلات ثقافية مختلفة ، وهي محصول فترة الشباب وبداية الكهولة - لو انتظمت في كتاب لأعطينا صورة واضحة عن أدبه الذي كتبه في زحمة الأعمال الحكومية .
- ولو انصرف ، كما قلت ، إلى العمل الأدبي . ولم تتقاذفه التيارات التي تفرضها قيود الوظيفة وعنّت السياسات المتقلبة - لأعطى الفكر العربي الكثير من النفحات والكثير من الدراسات التي تتسم بروح منطلقة وفكر مبدع خلاق .

عبد الله يوركي حلاق

١٩١١

أديب سلس الأسلوب ، وشاعر تثيره المناسبات الاجتماعية والقومية والإخوانية
 فيصورها بشعر دافق وعاطفة جياشة ، وله قطع غنائية غاية في العذوبة ، ولا سيما
 حين يصف مفاتن الطبيعة وجمال الحسان .
 ولغة الضاد في نفس صاحب « الضاد »^(١) الأثر الأكبر في تكوين ذوقه
 الأدبي :

سأبذل في سبيل الضاد جهدي لتسمو الضاد بالأدب الرفيع
 فحب الضاد ينمو في فؤادي نمو الزهر في فصل الربيع

* * *

أنا صبّ تيمّنى لغةً صانها القرآن أسنى الكتب

* * *

ولى لغة أعلى الكتاب مقامها فسارت مسير النور شرقاً ومغرباً
 بها نزل القرآن هدياً ورحمة فردّ غليظ الأصغرين مهذباً
 وإن كلام الله آيات حكمه فرحى لأى وعاء ليكتبها

وقد زاول الأستاذ حلاق تعليم العربية مدة طويلة في المدارس الأجنبية، وبالرغم
 من مشاغله والأعباء التي تثقل كاهله فهو يتابع إصدار مجلته التي تعنى بالحياة
 الاجتماعية عنايتها بشئون الأدب . وبالأدب المهجرى بصورة خاصة . . .

* * *

صدر له ديوان « خيوط الغمام » سنة ١٩٤٢ . وأتبعه سنة ١٩٦٦ ديوان ثان
 أطلق عليه اسم « حصاد الذكريات » جمع فيه قصائده التي نظمها في عدة

(١) صدرت مجلة « الضاد » منذ نيف وثلاثين سنة وما تزال ، أصدرها في حلب سنة ١٩٢٩
 الأستاذ يوسف شلمت ، ثم تولى عنها للأستاذ حلاق .

مناسبات ، وفي أغراض مختلفة .. فن أماديج لأصدقاء إلى رثاء لأعزاء إلى إشادة بأجماد وبطولات . إلى وصف للطبيعة ، إلى التغنى بجمال الحسنات .

وقد خصّ مدينة حلب وما امتازت به طبيعتها وخيراتها ومجتمعاتها بالكثير من شعره .

وكتب الأستاذ محمد عبد الغنى حسن مقدمة مسهبة للديوان أشار فيها إلى نبرات شعره وما امتاز به من رقة وجزالة ، وحين أشار إلى لونة الشعر الجليد ومدرسة الديباجة والصياغة قال :

.. ومتى كانت الديباجة المشرقة ، والصياغة الأنيقة المونقة عيباً في الشعر ، أو نقصاً في الشاعر ، إلا في زمان احتفل الناس فيه بالركاكة ، وانشغلوا بالتفاهة ، وهبطوا إلى درك العجز عن التعبير . .

« إننا نقرأ في الشعر الذي يسمونه جديداً أو ”مجدداً“ كلاماً مرصوفاً على غير طريقة ، مخطوطاً على غير خطة ، لا تجد له النفس طعماً سائغاً ، ولا معنى واضحاً ، ولا بيتاً يؤثر ، ولا شطرة تحفظ ، ولا مثلاً يسير ، كأنه ولد ليكون ميتاً ، أو قذف به من بطن قائله ليكون موءوداً . ولو أنك تساءلت : بأى ذنب قتل هذا الموءود ، لجاءك الجواب حاضراً بأنه قتل بيد صاحبه !

« فلا مرحباً بشعر لا ندرى إذا كان نظماً أو نثراً ، ولا يُعرف — على سبيل اليقين — إذا كان غناء نفس ، أم هذيان حس .

ومرحباً — وألف مرحب — بشعر تقرأه فتجده سوى الطبع ، مستقيم البناء ، شريف المعنى ، وضىء العبارة ، دفاق الشعور » .

ثم أشار إلى المدرسة التي تجمعه بالشاعر فقال :

« .. هي المدرسة التي لا أرضى في الشعر عنها بديلاً وهي المدرسة التي وصلت ما بين ماضى الشعر العربى وحاضره ، لأنها تأخذ أروع ما في القديم ، وأصح ما في الحديث وأعقله وأرصنه ، وتخرج من ذلك شعراً لا هو بالقديم المقلد ، ولا هو بالجديد المتهور ، ولكنه مزاج معتدل ، فيه الفكر الجديد بطرافته ، وفيه الطبع القديم بعراقته » .

وبهذه الكلمة عبّر أصدق تعبير عن نهج الأستاذ حلاق في منظوماته ومقطوعاته .

وفيما يلي نماذج من شعره :

أسعد الله صباحك

أسعد الله صباحك أيها الطير الجميل
هاتِ أسمعني صداحك سئمت نفسي العويل

* * *

غنّ في الوادي الأغنّ غنّ فالشعر غناء
واجلُ غيمٍ الغيم غنى ثم حلق في السماء
واحمل الأشواق مني لرفاقى الشعراء
إن في قيثار فني كل أنغام الوفاء

* * *

واكب الحظ رياحك فاسلك الدرب الطويل
واجعل الأنداء راحك والشذا والساسيل

* * *

وتنقل في الأعلى واسترح بين الغصون
لا تسلى كيف حالى لا تسلى من أكون
لم أعد غير خيالٍ يتهادى في الظنون
ضعت في درب الجمال وكثير ضائعون

* * *

غسل الزهر جناحك بندى الفجر البليل
وشقى العطفُ جراحك وجراحاتى تسيل

* * *

ليت لي هذا المكان ليت لي هذا الجناح
لأغنى في الجنان وعلى متن الرياح

من زمان من زمان كل آمالي جراح
فاسقنى ذوب الحنان واشف قلبي بالصداح

* * *

آه ما أحلى مراحك فوق أشجار النخيل
نسج الحسن وشاحك من سنى شمس الأصيل

* * *

ليتنى مثل الطيور هائم بين الشجر
تتصبأنى الزهور ويناجينى القمر
غن لا تخشى النور فهى ليست كالبشر
غن فالعمر سطور سوف يحوها القدر

* * *

أسعد الله صباحك أيها الطير الجميل
إن فى الشدو ارتياحك فاشد لا عاش البخيل

أخ عربى

أسرجى مهرى وهاتى علمى إنه يزهو بخضر الأنجم
بثلاث قطفت من أوجها وثوت فى شملنا الملتئم
كل فطر عربى وطنى رغم ما يفصلنا من تخم
كل حر وحدوى مُخلص هو من روحى وإن لم يعلم
لا تسلم عن أرضه فهو أخ عربى دمه مثل دمي

فيجر الخلاص

ذوبى السحر واسكبيه نشيداً أذن الخلد تشمى التجديدا
واغزلى النور والزهور خيوطاً وانسجها للمصلحين برودا

* * *

صاح هذى مواكبُ العرب عادت
وتعيد التاريخ تاريخ قوى
جمعنا الأحداث فى زحمة الخطب
ويسرون للأمام قلاعاً
عربٌ نحن ما خففنا جناحاً
قم نعانق آمالنا الغرب إنا
وظلعنا على البطولات فجراً
وانبجسنا من المروءات نبغاً
وعقدنا على الإخاء الأيادى
واضطجعنا على زنود الثريا
وخلقنا أعزة وأبابة
وحملنا على الأكف قلوباً

من جديد تشيد عهداً
وثبة حرة وعزاً وطيدا
أبابة يكسرون القيودا
من حديد يحطمون السدودا
لقوى ولا نكثنا عهدوا
قد خففنا على الزمان بنودا
ذهبي الرؤى ونصرأ مجيدا
من خلال يفيض عدلا وجودا
وضممنا إلى الطريف التليدا
ونسجنا من النجوم برودا
لم نصادق ولم نحالف عبيدا
لم تخف فى الوغى لظى وحديدا

* * *

يا أخا العرب قم معى . قم نحرر
أنت حر وفى الشكاية ذل
فى عمان وفى الجنوب أبابة
وتحدوا كل العداة وألقوا
لا تسلى وسل إذا شئت بحراً
فى غد نلتقى فيافجرُ أشرق
لن يظل المستعمرون بأرض
كل من سار فى ركاب الضحايا

من تعصّ القيودُ منه الزنودا
قم نناضل فقد سئمنا القعودا
ناهضوا الظلم والظلوم التنيدا
فى قلوب الطغاة ذعراً شديدا
صار للبغى والبغاة لحدودا
إن فجر الخلاص ليس بعيدا
تنجبُ العرب أنمراً وأسودا
عدّ فى موكب الخلود شهيدا

شعر

ثغرُ بحجم الفستقه سبحة رب نسقه
هو برعم متفتق أو وردة مغرورة

ضحكاته ألحان طير في الشفاه مزقزقه
 قبلته فإذا الشفاه على الشفاه معلقه
 ورشفت خمرة ريقه مسكية ومعتقه
 فنأيت عن أفق الجمود وعن حدود ضيقه
 وقضيت في ملكوته لحظات حب شيقه

* * *

وقد اشربَ معربدا ن إلى العيون المحدقه
 في رأس كل منهما كرة بقدر البندقه

سامى الدهان

١٩١٢

أنبتته مدينة حلب فدرس في مدارسها وشغف منذ حداثة بالأدب فحفظ الكثير من الشعر العربى ، قديمه وحديثه ، وما كاد يعى « ذاته » حتى أخذ ينقل عن الأدب الإفرنسى مقطوعات من هوغو ولامارتين وبورجيه ، وأصدر ، وهو يدرس ، كتابين فى « قواعد الإملاء » و « أصول التدريس الحديث » . وكان منذ عهد تلمذته ، شعلة ذكاء ونشاط ، إلى طموح وانطلاق . . .

وإذ رأى زملاءه يتجهون إلى الغرب لمتابعة دراساتهم الجامعية لحق بهم ، وكان قد علق بأبى فراس الحمدانى ، فجعل « شعره وحياته » مادة أطروحته ، وأخذ ، بعد أن وصل باريس وبعد أن اتصل ببعض المستشرقين من أساتذة السربون ، أخذ ينتقل من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى آخر ، يبحث عن مخطوطات للديوان الذى كانت طبعاته المتداولة مشوّهة ، ومصحّقة ، ومليئة بالأغاليط والأخطاء ، وقد ظفر ، خلال سفراته وبحثه ، بنيف وأربعين نسخة مخطوطة أخذ يقابلها وينخل الزيف منها ويعيد اضطرابها وتصحيفها وأغلاطها إلى أصلها الصحيح . . . حتى إذا فرغ من عمله المضنى — وكان ذلك أولى تجاربه فى نشر المخطوطات — تقدّم إلى أساتذته فنحوه شهادة الدكتوراه فى الأدب تقديراً لجهوده وبحثه . وما كاد يظفر بهذا اللقب العلمى ، وهو فى طراوة العمر ، حتى عاد إلى بلده معتزاً فخوراً . . . ولكنه لم يلبث فيها طويلاً . . . إذ سرعان ما ضاق بحلب ، عقيدة منه أن « بنت الدار عوراء » كما يقول المثل ، وأن نجمه ، وهو ذو موهبة وطموح ، لن يسطع إذا ظلّ فى بيئته ومحيطه . فانتقل إلى دمشق حيث مجال العمل أوسع ، وحيث « المعهد الإفرنسى » الذى وثق صلته به وأخذ يعمل تحت إشراف رجالاته الذين غمروه بعطفهم وعنايتهم . وحقة وا له . بعد أن نشر وأطروحته ، الكثير من طموحه ورغباته . . .

وقد كان نشر الديوان — بالرغم من اعترافه بعدم خلوه من العيوب والسقطات —

كان بداية شهرته في الأوساط الأدبية التي قابلت عمله بالترحيب^(١)، وقد أثار هذا التقدير في نفسه لذة البحث عن كنوزنا المدفونة فأنجذب إليها بشوق ولا سيما ما له صلة بآثار حلب القديم . . .

* * *

وبعد أبي فراس اهتم بابن العديم فنشر ثلاثة أجزاء من تاريخه « زبدة الحماكب من تاريخ حلب » . وهو عمل أخذ من وقته وجهده الكثير الكثير ، ولا سيما وتاريخ ابن العديم لا يقتصر على مدينة حلب بل على تاريخ سورية أو بلاد الشام في الكثير من أجزائها وملحقاتها ، وهو مرجع ثبت للكثير من الأحداث . « أدرك الغربيون خطره » فأخذ منه المستشرقون فصولاً معينة حين أرادوا أن يظهروا تاريخ الشام في عهد الأمويين والعباسيين والحمدانيين ، وترجموا منه فصولاً في المرداسيين والصليبيين . حين رأوا أنه على اختصاره وإيجازه ، أوسع مصدر في تاريخ الشام . وأجمع تاريخ لحوادث الدول التي تعاقبت فيه^(٢) .

وقد خدم الأستاذ الدهان الدراسات التاريخية المتعلقة بتاريخ الشام أجلّ خدمة . ولكي يبرهن على ارتباطه بمدينة التي هجرها أهدى الكتاب إلى « أرواح العباقر من حلب الشهباء : تحية البنوة وتحية الوفاء » . وأكد هذا . في نهاية المقدمة الممتعة التي بلغت ثمانين صفحة وتنازلت حياة ابن العديم وأسرته وعلمه وأدبه وآثاره ومؤلفاته وتاريخه . والتي ختمها بقوله :

« وما نريد من وراء هذا العمل إلا خدمة الوطن واللغة والتاريخ فنؤدى زكاة

(١) يقول في التوطئة : « . . لا أدعى أني أقدم الديوان كاملاً مضبوطاً خالصاً من كل شين أو نقیصة فقد كنت أعود أحياناً من مقابلة المخطوطات بوجه صحيح تقر به نفسي وتفرح ، وأعود أحياناً وملء قلبي حسرة وأسف . لهذا فأنا أول المؤمنين بسقطاته وعيوبه وأخطائه ، فالنسخ كلها على كثرتها مشوهة مصحفة متأخرة ، ليس من السهل استخراج صورة صحيحة كاملة منها . ولعل أخطاءها تظهر للقارئ في هذه الحلة الجديدة ، بعد الضبط والطبع ، فإذا وقع هذا ، فأكبر سعادتي أن أعرف وجه الصحة فأفرح لها كما كنت أفرح لاكتشاف مخطوطة جديدة أو رواية جديدة ، فالناقد الصادق خير صديق للمؤلف الناشر » .

العلم ، ونردّ إلى حلب فضل ما أهدت حلب إلينا ، ونقوم لها بما وجب علينا»^(١) .

* * *

واستمرّ في هذه الطريق الحلوة الشائكة يبحث عن المخطوطات النفيسة ، في الشرق وفي الغرب . فنشر أكثر من كتاب ورسالة مما يتصل بتاريخنا وثقافتنا وميراثنا الروحي كلها محققة أوفى تحقيق . ومفهرسة أدق فهرسة . مع مقدمات وافية تتسم بروح البحث : إلى طباعة غاية في جدال الشكل . فنشر بعد ديوان أبي فراس و « زبدة الحسّاب في تاريخ حلب » لابن العديم ، ونشر « الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة » لابن شدّاد . وهو مخطوط نفيس « يضمّ بين دفتيه جغرافية البلاد ، ووصف دروبها ومسالكها . ورسم المدن والقرى والكور والجبال ، إلى تاريخ الأحداث التي تقلبت على هذه الربوع ، وما أصابها من انتصار وانكسار . فهو تاريخ وجغرافيا . وهو أدب وفن . يصور أرضنا العزيزة خلال سبعة قرون . يجمع فيه دور العلم والعبادة . والنسك والزهد ، إلى أبواب المدن وأسوارها . ومنابع الأنهار وفروعها ، في تأليف طريف ، لا تفوته الدقة والإحكام . ولا ينقصه الوضوح والترتيب . كأنه دليل لهذه البلاد ، تقلّب صفحاته . فتعجب للماضي كيف يتقلّب . وللتاريخ كيف يلعب ، ولللأمم كيف تتطور . فهو من أجمل تراثنا ، وأطيب كتبنا ، وأمتع أسفارنا .

ألفه ابن شدّاد^(٢) . وهو كاتب منشئ بليغ . وسفير وزير سياسي ، شارك في الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية . فتقدم إلى مليكه . وإلى الشعب العربي بوصف وطنه وربوعه المحبوبة . فكان أوسع ما كتب العرب في الموضوع وأجمع ما تركوا في هذا الباب »^(٣) .

* * *

(١) نفس المصدر ص ٧٩ .

(٢) وابن شداد عز الدين هذا غير ابن شداد بهاء الدين الذي عاش في كنف صلاح الدين الأيوبي وألف فيه « النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية » . وكلاهما مؤرخان حلييان ، عاش عز الدين بعد خمسين سنة من بهاء الدين . وفي كنف الظاهر بيبرس وقد ولد بحلب سنة ٦١٣ هـ وتوفي بالقاهرة سنة ٦٨٤ هـ أما بهاء الدين ابن شداد فقد ولد بحلب سنة ٥٣٩ هـ وتوفي بها سنة ٦٣٢ هـ .

(٣) مقدمة الناشر ص ١٠ .

ولم يقف عمل الأستاذ الدهان في حدود المخطوطات بل كتب وألف عدة رسائل وكتب : منها ماله صلة بالسيّر والتراجم ، ومنها ماله صلة بفنون الأدب .
فن الكتب التي نشرها :

١ - ديوان أبي فراس الحمداني ، ثلاثة أجزاء .

٢ - زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم في ثلاثة أجزاء .

٣ - الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد .
جزءان . أحدهما في تاريخ مدينة دمشق ، وثانيهما تاريخ لبنان والأردن وفلسطين .

٤ - ديوان الوأواء الدمشقي .

٥ - شرح ديوان صريع الغواني .

٦ - التحف والهدايا للخالدين .

٧ - الذيل على طبقات الحنابلة لابن أحمد بن رجب البغدادي بالاشتراك مع المستشرق الإفرنسي هنري لاوست مدير المعهد الإفرنسي بدمشق .

٨ - رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩ هـ ، لأحمد بن فضلان بن راشد بن حمّاد .

٩ - في السياسة لأبي القاسم الحسين بن علي المغربي .

اثنان من أدباء سورية هويا العمل في المخطوطات وهما في فجر الشباب :
صلاح المنجد الذي انجذب إلى كل ماله صلة بتاريخ دمشق ، وسامي الدهان الذي انجذب إلى كل ماله صلة بتاريخ حلب .

ولعلّ هذه الهواية التي حفزتهما إلى نشر بعض مخطوطاتنا نشرًا علميًا هي التي حفزت محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي إلى ضمهما إلى أسرة المجمع ، فكانا أصغر أديبين سوريين ظفرا بهذه العضوية . . .

ويمتاز سامي الدهان ، كزميله اللود ! - إن صحّ هذا التعبير - بالدأب على العمل المضني الشاق ، إلى حيوية مفرطة كادت تهدّ من صحته .

ومن تأليفه :

- ١ - الشعر الحديث في الإقليم السوري : سلسلة محاضرات أُلقيت في معهد الدراسات العربية العالية بمصر .
- ٢ - الأمير شكيب أرسلان : حياته وآثاره : سلسلة محاضرات أُلقيت في معهد الدراسات العربية العالية بمصر .
- ٣ - محمد كرد علي .
- ٤ - عبد الرحمن الكواكبي في سلسلة « اقرأ » . حياته وآثاره .
- ٥ - شاعر الشعب .
- ٦ - كتب مدرسية في الفن الغنائي « تناولت : الغزل . الوصف ، المديح ، الهجاء . حافظ إبراهيم في سلسلة « اقرأ » .
- ٧ - قدماء ومعاصرون . . .

وكان خلال هذه الفترات يتابع الدراسات الأدبية ويتمجّب مع الحركات الفكرية ، يكتب ويدرس ، يحضر المؤتمرات ويلقي المحاضرات . يعيش فترات مع القديم بين طلاس الخطوط واضطراب النصوص . وأخرى مع أعلام المعاصرين يقرأ لهم ويفيد من أدبهم ومناهجهم . وما يزال يجمع بين الارتباط بترائثنا القديم والتجاوب مع الفكر الحديث دون إفراط أو تفريط . ودون أن يفقد توازنه في المزاوجة بين النزعتين .

وأسلوبه جزل يفيض بالحركة التي تميزت بها حياته . ولغته قوية السبك يزينها الوضوح والإشراق . . .

وإلى نهجه الدراسي كمحاضر في كلية آداب دمشق انجذب إلى الصحافة فترة من الزمن ، جرت عليه الكثير من المتاعب ثم عاد إلى جوفه الدراسي فسافر إلى المغرب حيث حاضر في كلية آداب الرباط . ولم يلبث طويلا . كما انتدب للتدريس في كلية آداب عمان . ويعيش الآن في جوف الكتب ، يقرأ ويدون في عزلة عن المجتمع .

وفي خزانته أكثر من كتاب مخطوط محقق . إلى عدة تأليف لما تنشر بعد ، وقد تأخذ طريقها إلى المطبعة قريباً .

أنور العطار

١٩١٣

شاعر رومانطيقى ، جزل الأسلوب ، أحب جمال الطبيعة فاندمج بروائعها ، وغناها أعذب الشعر . وهو طويل النَّفَس ، يعنى بالكلمة عنايته بالفكرة . . . وقد تطفئ عنايته بسحر الكلمة على جمال الفكرة ، لذلك جاء شعره موسيقى الإيقاع .

وللمدن أثرها فى نفسه ، فدمشق - موطن الشاعر - هى ائتلاق الربيع ، وإشراقة الفجر ، وكتاب البقاء ، ومطاف الجلال ، فى تربها مسك الخلود ، وفى جوها عطر الشَّمَم :

| | | |
|-----------------|--------|---------|
| دمشق أنت مأوى | للحسن | والفنون |
| عشت الدهور نجوى | للشاعر | المفتون |

وغوطة دمشق :

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| عالمٌ من نصارة واخضرار | فاتن الوشى عبقرى الإطار - |
| ضم دنيا من البشاشة والبش | ر وما تشهى من الأوطار |
| وحقول بالزهر مؤتلفات | من أفاح ونرجس وبهار |
| وثمار كأنها عبق الخلد | عذاب أحجب بها من ثمار |
| وصبايا من الغراس ندايا | قد نمتها عجائز الأشجار |
| معبد للجمال أبدعه السح | ر ووشته قدرة الأقدار |

وكما وصف غوطة دمشق وبرداها ، خريفها وربيعها . بساينها وحقوقها ، أزهارها وأثمارها ، جداولها وينابيعها ، ماضيها وحاضرها . وصف جبال لبنان وهاده ، أرزه وصنوبره ، قممه وأوديته ، سماءه وبحره ، فتياته وحسناته :

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| غاب لبنان فى رقيق من الغيم | كما غاب فى مدى اليم زورق |
| ضفر الثلج والسحاب تاجاً | واختفى فى الضباب ثم تعلق |
| والروابي توسدت راحة السح | ب ونامت على وشاح مرقق |

والقرى غلغلت بأخبية الغي ب وضاعت بين الغمام المنمق
إيه لبنان يا نشيد الأناشيء د ويا صورة النعيم المحقق
وفى طريقه إلى بغداد حيث انتدب للتعليم في مدارسها وصف الصحراء
وصفياً يريك الكثير من صور وحشتها المربدة القائمة :

دائرة للعواصف الهوج تلهو في حماها الخطوب والأهوال
تتلظى الرمضاء في ساحتيها ولها في دم الشموس اغتسال
تندجى الدنيا وتصطبخب الأثر ض وترعى فيها الشجون الثقال
وهى غلفاء ما يعاودها الرء ب وليست تروعها الأرواح
لا تنال النكباء من عزمها الثب ت وليست تروعها الأحوال
جثمت في فضاء ربى شما ء وتاهت كأنها الرئبال

ولبغداد ، وليلها الرهيب المهيب . . . ولدجلة . . . ونهرها العظيم . . .
وللبصرة - بندقية العرب - لقد كان لهذه الأماكن والبلدان التي عاش فترات من
حياته في ظلها الأثر العميق في نفسه . . . وهكذا . فلا يكاد ينزل الشاعر مدينة
من المدن حتى يندمج بحياتها - بماضيها وحاضرها . وإذا بالشعر يفيض في قلبه
فيكتب تأملاته . . . وهى أنغام وتسابيح . آلام وآمال . هجسات ونبضات .
نغمات وحسرات . . . وحين تقرأ هذه الأنغام والتسابيح تقرأ ألواناً من الأدب
الرومانطيقى الذى تقوم مادته على الحس والنغم . وربما كان للشعراء الحسين من
عرب وإفرنج ، من العباس بن الأحنف إلى لامارتين . . . ومن الصنوبرى إلى
دى موسيه أثرهم في شعره .

كما أن للأسلوب المشرق ذى الإيقاع الموسيقى ، واللفظ الأنيق المنغم ،
أثرهما في أدبه .

وقد أحب أنور العطار اثنين من الأدباء المعاصرين رأى في نثرهما صوراً
حية من الشاعرية فاحتذاهما ونهج نهجهما - أريد بهما معروف الأرنؤوط
صاحب « سيد قريش » وأحمد حسن الزيات مترجم آلام فزتر وصاحب
« الرسالة » . . .

ففى شعره نفحات من أسلوب هذين الأدبيين العظيمين .

وصف معروف الأرناؤوط شعره بقوله : أنور العطار ، هو ، كما يقول ألفريد دى موسيه ، شاعر الحياة التي نعرفها في الآلام والمسرات ، في الحظوظ اللامعة والحظوظ الكابية ، بل هو ، كما يقول لورد بيرون ، قيثارة بعض أوتارها للغناء ، وبعضها للبكاء .

ويقول عن شعره : « هذه القطع الفريدة من الشعر قبس أنور العطار ألوانها وأصبغتها من إحساس رقيق يجيش في روحه ، فإذا هي تطلع على الناس بالألوان والشذا كما يطلع الربيع بألوانه وعطوره » .

وهو اليوم في كهولته الناضجة . وقد قضى شطراً طويلاً من حياة الشباب في التدريس .

فحين أتم دراسته الثانوية في مدارس دمشق مارس التعليم . ويحدثنا الأستاذ على الطنطاوى وهو زميله في الدراسة — عن نشأته بقوله :

« . . . وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى عند ما أبصرت أنور العطار أول مرة أبصرت تلميذاً رقيق العود ، دقيق الملامح ، أنيق المظهر من غير أن يبدو عليه أثر الغنى ، شارد النظرات ، يمرّ في ظلال الجدران . خفيف الوطاء ، حالم الخطى كأنه طيف يمر على خيال نائم ، يعتزل التلاميذ . يثب وثبهم ، ولا يلعب لعبهم . فسألت عنه من يعرفه فقال : ” هذا تلميذ شاعر اسمه أنور العطار “ » .

وحين أنهى دراسته الثانوية عيّن مديراً لمدرسة « منين » الابتدائية ثم انتقل إلى التعليم في مدارس دمشق . . . ثم في مدارس بغداد . . . وكانت أيام بغداد أجدى الأيام على أنور . ففيها اختزن في نفسه أجمل الصور . وفيها نظم أروع القصائد ، وفيها ابتدأ في حياة الشاعر عهد جديد هو عهد الشعر القومى ، شعر الحماسة الوطنية . فازدادت بذلك هذه القيثارة السحرية وترّاً جديداً خرجت منه أطيب النغمات (١) . . .

وحين عاد من بغداد زاول التدريس في مدارس دمشق وما يزال . وظل الأدب هوايته المفضلة .

والشعر أثيره الذى استبد بكل جوارحه . وأكثر شعره : إلى هذه النفحات التى تعبر عن خواجه النفسية ، تصوير لجمال الطبيعة ، وللبطولة العربية فى أسمى معانيها .

وهو « بحترى » الأسلوب فى الكثير من شعره الذى يضفى عليه نفحات تنبع من أعماق نفسه . صدر له عام ١٩٤٨ ديوان « ظلال الأيام » ضم قصائد فى الوصف والتأمل والمناجاة والبطولات .

وله عدة دواوين لم تطبع وهى :

« البواكير » ، « أشواق » ، « منعطف النهر » ، « الليل المسحور » ، « وادى الأحلام » .

وله كتاب « الوصف والتزيق عند البحترى » ، « أسرة الغزل فى العصر الأموى » ، إلى بعض كتب مدرسية .

وله أيضاً دراسة كاملة لنثر أحمد شوقي وإكتابه « أسواق الذهب » مذيلة بمجموعة من نثره لما تطبع بعد . . . إلى دراسة شاملة عن خير الدين الزركلى .

وقد وصف أحمد حسن الزيات أدبه بقوله :

« وأدب العطار مثل صادق للأدب السورى الحديث . وأكثر الصفات البلاغية انطباقاً عليه الجزالة والسلاسة والوضوح ، فلم يخف خفة الأدب فى مصر ولم يمع ميعة الأدب فى لبنان ، وإنما ظل محافظاً كأهله يسفر ولا يغيم ، ويجدد ولا يشتط ، ويستقيم ولا ينحرف » . . .

ومن شعره :

بنيى

بنيى عصفورة شاديه تلعب فى عش الصبا لاهيه
بنيى لحن رقيق سرت فى مهجتي أفراحه صافيه

* * *

يهفو إليها القلب من وجوده فتتنشى أحلامه بالماضيه
بنيى شعر تغنت به روحى فى عزلتها الساجيه

بنيتى وحى تلقيته من عقب الزهر سقاه الندى
 ومن نشيد النبع فى حقله ومن صفاء الجدول المنتشى
 ومن روى الأمسية الحاليه تصغى إلى شبابة الراعيه
 يسبح فى الأنشودة الشاكيه مطله من شوقها رانيه
 والقريه السجواء فى ضمنها

* * *

بنيتى أمنيى فى الدنا سريرها يهتز فى أضلعي
 ومأملى والبغية الغاليه تنام فى أعطافه هانيه
 أيامها مشرقه بالمنى صاحكه بالبشر والعافيه

* * *

بنيتى طيف تعلقت به من صغرى والفينة النائيه
 صورة أوى سربت فى دمي وانبثقت من طفلى باديه
 بغامها رشوش فى مسمعى وطاف فى مهجتي الصابييه
 إذا تطلعت إلى وجهها رأيت أوى مرة ثانيه

الربيع

يا حبيبي أفق فقد ضحكك الرو واستعاد الوادى الأنيس سنه
 ض وأبدى جماله المحجوبا وطرب القلب فانتشى وتغنى
 وبني الطير عشه المخروبا وأنا الشاعر الذى يغمر الأر
 ومن الحب أن أعيش طروبا وفى جرح يعضنى تعذبا
 واح ضحكك وما يريم كئيبا فى فؤادى اللهيف داء قد استع

* * *

ومنها :

يا حبيبي أفق فيها ذاك طير ال
تترأى له السموات ألحا
يا حبيبي طاب الهوى فاغتنمه
لك من هذه الدغال أليف
غنّ في مسمعي نشيداً رقيقاً
ودع الحب يأتلق في خيالي
اطعن القلب ينفجر بالأغار
لا تضمده يذك شوقاً وشجواً
أوقد الحب بالمدماع تنهل
لا تخف أن يضحج بالحب مأوى
صاغه الله للعذاب وللحب م

حب قد أسكر الربا تطربا
ظاً وتبدو الأرض الفضاء قلوبا
لست عن جرحه الندى غريبا
يتصباك مؤنساً ورقيبا
واسر في مهجتي شعاعاً رطيبا
أفقاً ساحراً وكوناً رحيباً
د ويملاً هذا الفضاء طيوباً
واترك ناره تشب شبوباً
وبالوجد صارخاً ومهيباً
واخش إما أحسست منه نضوباً
وأحياء بالدماء خضيباً

* * *

وررياض فيها العاشق تغنى
إن هذا الجمال يا قلب نهب
أخى للنور : للمسرة : للشد

فيذوب الغناء خمراً صبيبا
فابتدر نخطف السنا المنهوبا
و . وخلّ الأسى وخلّ النحيبا

وداد سكاكيني

١٩١٥

لبنانية المولدة^(١).

ففي لبنان نشأت وتعلّمت . ثم مارست التعليم فاجتذبتها كتب الأدب وأخذت تطالعها بنهم وشوق . وسرعان ما أخذت تعبر عن خواجلها بمقالات ترسلها إلى الصحف والمجلات - تلك المقالات التي جُمِعت في كتابها «الخطرات» وهو باكورة إنتاجها الأدبي .

وكانت المرأة في لبنان قد سبقَتْ أختها في سورية . فمارست التعليم وأصدرت المجلات الأدبية ، وشاركت في المؤتمرات النسائية - وكان لذلك أثره في اتجاه «وداد» وتكوينها الثقافي .

وظلّ الأدب هوايتها المفضلة . ولعلّ هذه الهواية هي التي جمعت بينها وبين الأستاذ زكي المحاسني في زواج قام على الألفة والمحبة - ومحبة الأدب بصورة خاصة . . .

ومن بيروت انتقلت إلى دمشق . . .

وسار الزوجان في طريق مقاربة . . . هو في التدريس والدراسة . وهي في البيت والكتابة . . . وإلى عنايتها ببيتها وبتربية أولادها وإعدادهم للحياة كانت مطالعة كتب الأدب ومتابعة الحركة الأدبية المتطورة هي التي احتلّت المكان الأوفى من نفسها . . .

وزاداد هذا الهوى بعد أن انتقلت مع زوجها إلى مصر حيث مكثا أحد عشر عاماً أتيح لها أن تتصل بأدبائها وأعلام مفكرها . وأن تحضر الندوات والمؤتمرات وأن تكتب القصص والروايات فنال المجتمع العربي بشقّي صورته ومختلف ألوانه الكثير من اهتمامها فوصفته ووصفت مفارقاته ومظاهر حياته بنزعة الأديب وروح القاصّ .

(١) لم تفصح لي في رسالتها عن العام الذي ولدت فيه ، وهذا ما تتحاشاه أكثر النساء ، على أنها ذكرت أنها ولدت في ملحمة الحرب العالمية الأولى - ١٩١٤

نلمس هذا واضحاً في الكتب والقصص التي أصدرتها . وبالرغم من استجابتها لنزعات التطور في الأدب الحديث ظَلَّتْ مشدودة إلى الأدب القديم تعباً من روائعه وتستلهم صوره . وهذا الذي أضفى على ديباجتها النصاعة وعلى أسلوبها القوة والإشراق .

وتكاد تكون الأدبية الدمشقية الأولى التي تقف إلى جانب أدبيات مصر الجامعيات . ولو واتتها الظروف للدراسة الجامعية لما قلَّتْ عن المبرزات منهن - عن الدكتورة سهير القلماوى والدكتورة بنت الشاطئ « عائشة عبد الرحمن » - وعن غيرهن ممن أخذن يزيّن الحياة الأدبية بالكتب القيمة والدراسات المنهجية .

ولم تقصّر في مضمار التأليف وإن كان أكثره نتاج مقالات وقصص . . . فقد صدر لها حتى عام ١٩٦٧ الكتب الآتية :

- ١ - مرايا الناس .
- ٢ - أمهات المؤمنين .
- ٣ - بين النيل والنخيل .
- ٤ - أروى بنت الخطوب .
- ٥ - الحب المحرم .
- ٦ - إنصاف المرأة .
- ٧ - سواد في بياض .
- ٨ - الستار المرفوع .
- ٩ - العاشقة المتصوفة .
- ١٠ - نفوس تتكلم .
- ١١ - شهيرات من الشرق والغرب . . . بالاشتراك مع السيدة تماضر توفيق .
- ١٢ - نقاط على الحروف .
- ١٣ - قاسم أمين .
- ١٤ - مى - في حياتها وآثارها ، تحت الطبع .

ففي « مرايا الناس » وهو أول مجموعة قصصية لها استوحت صور أبطالها

من ملامح المجتمع الدمشقي وعاداته وتقاليده . ضمّ عدة قصص غاية في الروعة والتحليل النفسى كقصة « هاجر العانس » و « أبو تراب » و « الضّرتين » و « الشيخ حملى » وهى القصة التى فازت بمسابقة مجلة « المكشوف » البيروتية عام ١٩٣٨ .

وكتاب « أمهات المؤمنين » يروى سيرة أربع عشرة واحدة فى طبيعتهن : أم الزهراء ، وأم الحسين ، وأم المؤمنين وغيرهن من المبرزات فى الفضائل والمكرّمات .

وهى فى رسم هذه الصور تقدم للفتاة العربية نماذج حية من بطولات جداتهن اللواتى كن رمز الحب والوفاء والكرامة : ورمز البطولة والتضحية والاستشهاد .

وكتاب « بين النيل والنخيل » يروى صورة من أيامها فى مصر . وقد ألفت فى المقدمة إلى العوامل التى دفعته لتأليف هذا الكتاب فقالت :

« . . . لقد عرفت مصر بتاريخها الضخم المحجّل . عليها مطارف المجد من أزمانها التى عزّت بالآثار ، ونحتت خلودها فى الأحجار . وتشوّفتُ بالخيال إلى مباسمها الباقية على الأيام : بنيلها ونخيلها ، بأهرامها ومعالمها . حتى جثت الكنانة فى عزة بالعروبة وشرف الزعامة . فقرّت عيناي بمباهجها ومغانيتها . وانطبع فى الفؤاد وجهها الأغر . رحين طال مقامى بها وإلمامى بأهلها . تمرست بخصائصها ومعاشها . وعرفت ريفها وصعيدها ففتنتنى طبيعتها وخليبتنى معاهدها » .

إلى أن قالت :

« وكان الأدب صدى النفس وصورة الحس . فاهتز القلم ولا طاقة لى بكبت مرماه . وماج الشعور فما استطعت أن أصرفه عن السطور لأتخفّف مما زحم نظرى كل يوم ووقع عليه إحساسى ، فإذا مصر دواتى ، والبراعة أداتى ، ومن فاته الرسم بالألوان . كفاه التصوير بالبيان . وقديماً قيل الحياة قصة . فصولها لا تنفد . وقد توافر فيها المواليد وتعاور عليها التقليد والتجديد ، فلا علىّ

إذا قصصت عن مصر في حياتها التي تحياها كل يوم . وجلوت صوراً منها قد انطبعت في خيالي وتمثّلت لعيني وذهنى . . . وما أحب إلى النظارة أن يشهدوا الرواية الراهنة فإنهم يرون في ملاعبهم شخوصهم ويكادون يسمعون رجح أقوالها وتمثيلها في قرارة نفوسهم»^(١) .

ثم مضت . بهذا الأسلوب الذي يستمدّ قوته من الواقع تصف حياة مصر في شتى صورها : ترف الأغنياء وبؤس الفقراء . ومن الزار إلى القمار ، إلى بركة « السيدة » إلى « مصابيح رمضان » إلى « شم النسيم » إلى « فيلسوف بولاق » إلى الكثير من الصور التي تريك مصر في ماضيها وحاضرها ، في جدها وهزلها ، في بؤسها ونعيمها . وفي شتى أنماط حياتها .

ومن كتبها التي دافعت فيها دفاعاً حاراً عن بنات جنسها كتاب « إنصاف المرأة » وقد أرادت أن تنصفها من تهجّم بعض الأدباء الذين قسوا عليها بدون رحمة . ونالوها بالهزء والسخرية وبالظلم والتجريح . . .

والكتاب مجموعة مقالات كتبت في أوقات متفاوتة عن « أدب النسوة » و « سحر المرأة » و « أعداء المرأة » و « فتش عن الرجل » وقد أخذت على العقاد والمازني ومحمد كرد على وتوفيق الحكيم وزكى مبارك زرايتهم بمواهب المرأة ، وهزأت أكثر بالدكتور زكى مبارك حين كتب مرة يقول : « كان أبوه يجرب متانة حذائه الحديد برأس زوجته . وأن المرأة لا يليق بها إلا العنف والازدراء » ! . كما أخذت على كرد على قوله : « إن المرأة لم تنبغ ولم تبدع في علم أو أدب ، ولا تحسن أمراً ولو كان من خصائصها الطبيعية كالزينة والطهي والخياطة ! » .

وتتابعت كتبها فصدر لها كتاب « سواد في بياض » و « الستار المرفوع » و « العاشقة المتصوفة » . . . وهو دراسة عن رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي التي اعتبرتها النجم الذي طلع في سماء البصرة آخر القرن الأول للهجرة ، فتسلّل نوره إلى المجالس والبيوت ، وسطع فيها كالثريات ، وبقي مرموق الضياء حتى هوى في أعقاب العصر الثاني للهجرة ، متحولاً إلى أحدثة لا تنسى ، خلّدتها العصور ،

ولمجت بها الألسنة . وتداولتها بالذكر والتأليف طائفة من الباحثين في القديم والحديث . . .

وما تزال في صميم الحياة الأدبية تكتب قصصاً ومقالات . ويتسم بعضها بالنقد الذاتي ، وهي إلى الإنصاف أقرب منها إلى التجريح مهما ثارت عاطفتها . وقصصها ذات ألوان وطابع سورية تارة ، ومصرية تارة أخرى . وذلك نتاج الحياة التي عاشتها في لبنان وسورية ومصر ، وقد صدقت السيدة أمينة السعيد حين وصفت وداد بقولها :

« حين يرد ذكر وداد يعتبرها كل شعب عربي واحدة منه . فاللبنانيون يعتزون بمنبتتها . والسوريون يتحسكون بتوطنها وجنسياتها . والمصريون يرون في إنتاجها أصدق صورة للعقلية الأدبية المصرية . والحقيقة أنهم جميعاً مصيبون ، ففي وداد نفحة من لبنان ، وعمق من سورية . وحساسية من مصر . . . وهي إذ تكتب تحملك على أجنحة الأدب إلى آفاق هذه المجموعة من الصفات الشمية التي أكسبتها توسعاً فنياً ملموساً . وطعمت إنتاجها الفكري بشتى عناصر الأدب العربي » .

هذا ، ولا يزال إنتاجها خصباً يتميز بالروح العربية والنزعة الإنسانية والنقد الذاتي .

عدنان مردم بك

١٩١٧

من شعراء دمشق . ورث عن أبيه الأستاذ خليل مردم بك الكثير من خصائصه فنشأ وفي نفسه حب الأدب منذ الصغر . . .

تعلّق بالشعر وما زال يلوكه حتى أصبح من شعراء الشباب المرموقين .
انتسب إلى القضاء بعد أن أتمّ دراسته . وظلّ نظم الشعر أجمل هواياته الحبيبة .

يرقب ظواهر الحياة وأحداث المجتمع بمزاج شاعري ، حتى إذا أثارت أخذ ينظم تجاربها بواقعية ممزوجة بخيال منمّق ، وما يزال حتى يعطينا قصيدة مسبوكة أحسن سبك ، فيها ظلال ، وفيها تأملات ، وفيها جهد أى جهد . . .

ونهج في شعره الجمع بين النزعتين اللتين تتصارعان في هذه الفترة من حياتنا الأدبية - بين القدماء والحديثين - قديم في أسلوبه ، حديث في معانيه . . .
يحرص أن لا ينأى عن شعراء دمشق الذين حملوا لواء نهضتها - البزم وجبري ومردم بك ومنّ إليهم ممن صانوا اللغة العربية من التبذل والميوعة وحافظوا في شعرهم الرصين على جمال رونقها . وهو ، إلى اصطفائه أسلوبهم ، ينزع في تصوير هواجسه نزعة أدباء الشباب الذين أوغلوا في وصف كل ظاهرة من ظواهر الحياة . وقد سار معهم سيره المتشد الذي يخشى أن ينأى عن نهج أبيه وصحبه الكرام .

عبّ من رحيق الحياة أصنى مواردها . واختلجت نفسه بالهواجس . وحين حاول أن يصف هذه الاختلاجات بصور عريانة كما يصفها شعراء جيله حالت دونها التقاليد التي عاش في كنفها . فالجواء التي غمرت شعر من نهج نهجهم اضطرت أن يكون حذراً كل الحذر في البوح عما في نفسه . إنه شاعر حاول الانطلاق فلم يستطع وأصبحت « القصيدة العربية » جزءاً من نفسه ، ومهما حاول التخلص من قيودها المحكّمة فإن جرسها العذب يشدّه إلى إطارها ، وهذا

الذى جعله أن يكون كأبيه في السير على نفس النهج الذى سلكه مثات الشعراء القدامى في التعبير عن أحاسيسهم وهواجسهم . وهو إلى هذه الملبسات التى غمرت شعره فقد عبر عن ذاته ، وعن طبيعة أرضه بأسلوب شاعرى جزل .

صدر له ديوان بعنوان « نجوى » جمع فيه القصائد التى نظمها حتى عام ١٩٥٦ ويضم قصائد فى الوصف والوجد والقوميات والإنسانيات ، وأصدر سنة ١٩٦١ ديوانه « صفحة ذكرى » وقد حاول الشعر المسرحى فكانت باكورة مسرحياته « المعتصم بالله » . وأتبعها بمسرحية « عبد الرحمن الداخل » ، ثم بمسرحية « مصرع الحسين » . وكان قد نظم سنة ١٩٣٦ مسرحية « جميل بثينة » وآخر ما نظمته مسرحية « آفاميا » وقد علل الأسباب التى حفزته لوضعها فى قوله : « أخذت مدينة " آفاميا " مسرحاً لأبطالها ، لأن آفاميا قطعة من البلاد الشامية . التى لى شرف الانتساب إليها . يضاف إلى ذلك . أن فيها تصويراً لمشاهد طالما شاهدتها أيام طفولتى فى دمشق . وعشت معها حقبة طويلة . حين كان الشعب السورى . . . بمجموع طبقاته حرباً على المستعمر . فحاولت تسجيل هذه الحقبة التى عشتها تمجيداً لها وبعثاً لماضيها المشرق الذى جمع أسمى المعانى الخيرة . إن نضال الشعب السورى يختلف عن كل نضال سبقه فى البلدان الأخرى . لأنه نضال شعب بكامله . وشتى طبقاته وأفراده . وكل قام على الوجه الأكمل .

« إن مسرحيتى " غادة آفاميا " وأخواتها وسيلة للدراسة جدية . وتمعن عميق للمسرحية الأوروبية والمسرحية العربية . وإن دراستى هذه جعلتنى أختار الأبحر الشعرية القصيرة ليسهل الحوار بها ، وكنت أنحو فى مسرحياتى الشعرية منحنى التحليل النفسى . وأحلّ الفكرة محل الصدارة . . . » .

وفيا يلى نبذة عن تاريخ حياته كتبها بقلمه :

« ولدت عام ١٩١٧ وكانت طفولتى مفعمة بالترف يتعهد بها والد شاعر وأم تقية ، وقد عهد برعايتى وأنا ابن سنتين إلى مربية فرنسية تركت فى نفسى ذكريات طيبة ، ولما قاربت الخامسة أرسلنى والدى إلى المدرسة العازارية بدمشق . وبعد مدة من الزمن التحقت بمدرسة ملك الظاهر الابتدائية التى تخرجت منها

ونلت شهادة السرتفيكا ، ثم دخلت الكلية العلمية ونلت شهادة بكالوريوس آداب ، ومن ثم التحقت بقسم الفلسفة ونلت البكالوريا القسم الثانى .
 أتممت تحصيلي العالى فى كلية الحقوق بدمشق ، ونلت منها شهادة الليسانس عام ١٩٤٠ حيث كانت الحرب العالمية مندلعة نيرانها، وتعاطيت مهنة المحاماة مدة من الزمن ، ثم انتسبت إلى القضاء .
 الوسط الذى أثر فى نشأتى الأدبية :

إن الأثر البارز فى نشأتى الشعرية يعود إلى عوامل إرثية مباشرة جعلت طفولتى تتفتح براعمها على ميل فطرى لقول الشعر حتى إنى حينما بدأت فى نشر قصائدى بجريدة ”البرق“ البيروتية ، لصاحبها الأستاذ بشاره الخورى لم تكن سنى تتجاوز الخامسة عشرة .

وللوسط الأدبى الذى عشت به تأثيره الكبير ، فقد فتحت جفنى على والد من كبار الشعراء ، وكان جميع من يتردد عليه لا يخرج عن كونه واحداً من ثلاثة ”كاتباً أو عالماً أو شاعراً“ ، وكانت دارنا ندوة أدبية يؤمها رجال الأدب : وكنت على صغر سنى أجلس معهم وأستمع لأحاديثهم ، يضاف إلى ذلك حب عميق فى نفسى للطبيعة وتقديس للجمال بمعناه الواسع فى شتى مظاهره . سواء أكان ذلك فى مظهر الطفولة أم فى الأثر الفنى أم فى الآثار القديمة .

ولا أشك أن دراستى للعربية على والدى مدة أربع سنوات فتحت أمامى آفاقاً جديدة . أما الطابع الحزين الذى يشوب شعرى مؤخراً فرجعه إلى وفاة شقيقى المرحوم هيثم ، حيث تركت وفاته فى قلبى جرحاً لا يندمل .

ومن شعره :

ولدى

| | | | | | | |
|-------|----------|--------|-----|--------|-------|------|
| أرعاك | بالقلب | الذى | لك | عنده | ما | يؤثر |
| وأراك | بالعين | التي | بك | تستير | وتبصر | |
| وأفيك | عادية | الأذى | مما | تخاف | وتحذر | |
| ولدى | وأنت على | الزمان | لى | السراج | النير | |

لك من حنانى ما يضيق الوصف عنه ويقصر
 أخفى هواك محاولا كتمان ما أنا أستر
 فينم دمعى بالذى كتم اللسان ويخبر
 أيعينى ما رحت أبدي من هواك وأظهر
 وبك المنى صافحتها وبلغت ما أتصور

* * *

لما هشت مصفقا وعطفت نحوى تنظر
 أيقظت ملء أضالعى فتن المنى تتسعر
 وهزرت منى خافقا من رحمة يتفطر
 وأسلت من عيني الحنان مدامعا تتحدر
 أجد الحياة على القذى بك تستطاب وتؤثر
 ومعاتب متطفل فيما يشير ويأمر
 تحذ النصيحة للأذى سبيبا فراح يشهر
 فعذرته من رحمة إن الأبوة تعذر

* * *

ولدى وهل شيء أعز على منك وأكثر ؟
 والكون أنت وما سواك زيادة لا تذكر
 يصفو الزمان إذا ابتسمت بناظري ويثمر
 وإذا شكوت فكل ما حولي جديب مقفر

* * *

تحلو السماء ببدرها للناظرين وتسحر
 ولأنت من بدر الدجى أبهى وعندى أنور

* * *

عبد السلام العجيلي

١٩١٧

من كتاب القصة في سورية ، تأثر بمحمود تيمور ، فنهج نهجه ، وسار على طريقته .

ولد في بلدة الرقة سنة ١٩١٧ .

وأتمّ دراسته في بلدته ، والثانوية في تجهيز حلب ، وتخرج طبيباً من الجامعة السورية عام ١٩٤٥ .

وهو ، إلى مزاولته الطب ، مهتمّ بالأدب .

نظم الشعر وكتب القصة ، وقد طغت النزعة القصصية عنده على هواية نظم الشعر . . .

وقد جمع أقاصيصه في أكثر من مجموعة واحدة . وعناصرها مستمدة من الحياة بشتى ظواهرها . ومن المجتمع بمختلف ألوانه ، ويحاول أن يبتعد ، ما أمكنه عن التهويل ، يمتزج خياله الشعري بالواقع الملموس فيحمل قارئه إلى دنيات من واقع الحياة .

ولا يحدّ إطار قصصه أفق ، فبينما تراه يقصّ قصة راع في صحراء الجزيرة أو بادية الشام ، إذ به ينقلك ، في قصة أخرى ، إلى كهف في مونتارتر ، وقد يصعد بك إلى أعلى جبال الألب في سويسرة ، ثم تلقى نفسك معه في منعطفات شوارع إشبيلية وفي نواديها الليلية تعيش في جوّ أندلسي ساحر .

إن نزعتين قويتين تظهران بارزتين في أقاصيصه :

النزعة القومية والنزعة الإنسانية ، إلى الوصف الدقيق للأنماذج البشرية .
والنزعة القومية في قصصه أغلب ، وسرّ ذلك أنه من أدبائنا الذين تفاعل أدبهم مع مجتمعاتهم الذائر الذي ينشد الحرية ويصارع العبودية .

ويعتمد في قصصه إلى السرد الشائق والتصوير الدقيق للكثير من العادات والتقاليد وخصائص البيئة السورية .

وإذ اطمأن إلى قيمة هذه الأفاصيص أخذ يجمعها في كتب متلاحقة .
 فأصدر سنة ١٩٤٨ أولى هذه المجموعات بعنوان « بنت الساحرة » ، ثم أتبعها
 سنة ١٩٥١ بمجموعة بعنوان « ساعة الملازم » ، ثم في عام ١٩٥٤ بـ « قناديل
 إشبيلية » . وهذه أقوى مجموعاته القصصية . ثم توالى قصصه على مرّ السنين ،
 فلا ينصرم عام إلّا ويقذف إلى المطبعة مجموعة جديدة مما نشره في الصحف
 والمجلات ، وهو حريص على نشر إنتاجه سنة فسنة ، وقد حاول أن يكتب القصة
 الطويلة فأخفق في روايته « باسمه بين الدموع » التي صدرت سنة ١٩٥٨ ، ولم
 تكن رواية « رصيف العذراء السوداء » التي نشرها سنة ١٩٦٠ بأوفر نجاحاً من
 أختها باسمه . . . ومن أفاصيصه التي جمعت في كتب : « الخائن » و « الخيل
 والنساء » التي صدرت سنة ١٩٦٥ . . .

وإذ حاول الشعر في بداية حياته الأدبية فقد أصدر ديواناً صغيراً سنة ١٩٥١
 بعنوان « اليايى والنجوم » ، كما أصدر سنة ١٩٥٤ كتاب « حكايات من
 الرحلات » صور انطباعاته الذاتية في أكثر مدن الغرب وفي أمريكا الجنوبية . . .
 وآخر كتبه أحاديث العشيات . . . وهو مجموع أحاديث ومحاضرات ألقى في
 نوادي حلب ودمشق واللاذقية . ضمّتها هذا الكتاب الذى يؤرخ فترة من اتجاهه
 الأدبي في الكثير من مظاهر الحياة وأحداث المجتمع .

صلاح الدين المنجد

١٩٢٠

بدأ حياته بكتابة المقال الأدبي وبكتابة المسرحية القصيرة المستمدة من حوادثها من الأدب العربي القديم ، وقد حاول النقد ، وهو في طراوة العمر ، فنقد من تقدمه من أدباء الشيوخ ، يغمز ويلمز دون أن يسفر عن اسمه ، وكأني به أراد أن يخطئ الزمن وأن يأخذ مكانه إلى جانب الذين كانت لهم الصدارة في الحياة الأدبية ، فدفعه طموحه ، ولا أقول غروره ، إلى النقد وتحطيم الأصنام الحاوية .

يقول : « كان عندنا في دمشق ، قبيل الحرب الثانية وإبانها . فثتان تصدرتا للأدب : شيوخ الحِجَمِ العلمي . ومعظمهم قد توفي اليوم ، وكان بعضهم يسوؤهم أن ينطلق شاب في الميدان الذي يحولون فيه ، وشباب لم يؤثروا ثقافة أدبية عميقة ، ولا عرفوا الأدب في مصادره وينابيعه ، ولا صاحبوا أعلامه في آثارهم . بل درسوا العربية في بلد أجنبي ، دراسة غير عميقة ، ليكونوا أساتذة للأدب ، فكانوا لا يرضون إلاّ بمن كان على شاكلتهم . . . » .

ويقول : « ... أحسست أن الذين يحتكرون الأدب لم يعترفوا بأني موجود . وفي ثورة نفسية عارمة رأيت أن أنقدهم جميعاً ، وهكذا يكون النقد والهجوم عند المبتدئين وسيلة لإثبات الذات ، ولو أن الكبار يغمرون الشادين المبتدئين بالحب والعطف والتشجيع والتوجيه ، لما أضع هؤلاء جهوداً فكرية سدى .

ونشرت عشر مقالات ، بتوقيع مستعار بعنوان : « أعضاء مجمع لكنهم مفلسون » .

وكانت مقالتي عنيفة : نائرة .

لقد كتبته بعد عواصف ثارت في رأسي ، وأقنعت نفسي بعدها أنني على حق . وأنه لا ينبغي أن نخاف نقد الكبار لأن الأدب والفن والعلم لا يعرف كباراً وصغاراً . بل ينبغي النظر إلى ما ينتجه هؤلاء وهؤلاء ، فإذا أخرجوا آثارهم

فقد أصبحت ملكاً للناس ، لأنهم أخرجوها للناس « (١) .

وظلّ في جدّة وكدّة ، يدرس ويكتب في الصحف والمجلات ، يختار اللفظ الموشى لينلبسه الفكرة التي يهجس بها ضميره ، وما زال في هذه الطريق إلى أن أخذ مكانه في المجمع العلمي العربي بدمشق إلى جانب من كان يتهم عليهم وينقدهم بالأمس !

ولم يقف به طموحه عند عضوية المجمع بل سار في طريق شائك من الدراسة والبحث ، يقرأ ويبحث ويكتب ويؤلف ويحقق وينشر ، إلى أن استطاع في فترة قصيرة ، أن يحقق وينشر الكثير من المخطوطات بنفس المنهج الذي سار عليه المستشرقون ، فكان بحق من أئمة شباب دمشق الذين اضطلعوا بهذه المهمة الشاقة ! فقد حقق قرابة الخمسين مخطوطة بين رسالة صغيرة في صفحات ، وكتاب ضخّم كبير ، عدا تأليفه التي بلغت الثلاثين رسالة وكتاباً . وهذا ، بدون ريب ، جهد عظيم .

على أن الظاهرة الملموسة في الكتب التي حققها ونشرها هذه « الإقليمية » التي دفعته لنشر كل ماله صلة بتاريخ الشام وبتاريخ دمشق بصورة خاصة ، و « الإقليمية » محمودة حين تميّط التراب عن الفضائل الخبوءة (٢) .

(١) « لمحات عن تجارب الفكرية » : صلاح الدين المنجد ، الندوة اللبنانية ص ١٥ .

(٢) فقد نشر ١ - « دور القرآن بدمشق » لعبد القادر بن محمد النعمي (٩٢٧ هـ) ٢ - « حكام دمشق » نصوص من تاريخ دمشق لابن عساكر - ٥٧١ هـ . . مع « رسالة عدة الملمات في تعداد الحكام » ليويسف بن عبد الهادي (٩٠٩ هـ) ٣ - « تاريخ مسجد دمشق » لمؤلف لعله البرزالي - ذكر ما استقر عليه الجامع الأموي عام ٧٣٠ هـ - ٤ - « ولاية دمشق في العهد العثماني » ٥ - « ولاية دمشق في العهد السلجوقي » ٦ - « فضائل الشام ودمشق للرّبعي » (٤٤٤ هـ) . ٧ - تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر . المجلد الأول (٥٧١ هـ) ٩٦٠ ص قطع كبير . ٨ - أرجوزة في محاسن دمشق لابن خداوردي (- ١١٩٥) . ٩ - « تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر » القسم الأول من المجلد الثاني ٣٥٠ ص ١٠ - أمراء دمشق في الإسلام لصلاح الصفدي (- ٧٦٤ هـ) . ١١ - « الزيارات بدمشق » للقاضي محمود العدوي (١٠٣٢ هـ) . ١٢ - « قضاة دمشق » لابن طولون (- ٩٥٣ هـ) . ١٣ - « كناش إسمايل الحاسني » المؤرخ الدمشقي (١١٠٢ هـ) . صفحات من تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر الهجري . ١٤ - « حلول التعب والآلام بوصول في الذهب إلى دمشق الشام » لسليمان بن أحمد الحاسني « ١١٨٧ هـ » =

لقد قام بهذا العمل الضخم ولما يتخط الخمسين من عمره ، وما زال جمّ النشاط يكتب ويحقق ويؤلف وينشر كل ماله صلة بميراثنا الثقافي وبتاريخنا الحضارى .

ونعتمد فى سرد سيرته على محاضراته فى الندوة التى تضمنت الكثير من الظواهر التى دفعته إلى رحاب الحياة الفكرية :

قال : « ولدت فى عام ١٩٢٠ فى أسرة دمشقية قديمة جمعت فروعها بين التجارة والعلم ، وكنت من الفرع الذى مال إلى العلم ، وبينما كنت أتابع دراستى ، وأنا صبي ، فى المدارس ، كنت أحفظ القرآن ، دون أن أفهم ما فيه ، ولما بلغت البكالوريا ، وبدأت دراسة الأدب العربى ، استهوانى وشغلنى ، فرحت أحفظ الشعر . لقد حفظت منه كثيراً ، وكان لى فى قراءتى الطويلة ما ييسر لى تكوينى الأدبى ، واليوم أشعر من أعماقى كم كان لما حفظت فى أيام صباى من القرآن والشعر من فضل على تكوينى الأدبى واللغوى ، كنت دائماً فى جوّ عابق بالفصاحة والبلاغة يافّتنى ويسدّ خطاى فى تطلعى إليه .

« وكان علىّ أن أختار وجهة أتجه إليها فى تعليمى العالى ، فاخترت أن أدخل دار المعلمين العليا . ولعلّ مجالس العلم التى طبعت صورها فى أعماقى ، هى التى وجهتنى ، وأحسست فى هذه الفترة ، بميل إلى النظم والكتابة ، فنظمت غزلاً وهجاء ، وبدأت أكتب » .

وبعد أن أشار إلى تجربته الذاتية فى الكتابة . وأثر عمالقة أدباء مصر المجددين فى نفسه وعلى رأسهم طه حسين والعقاد وأحمد أمين وهيكى والزيات والحكيم ، قال :

« ومع ولعى بالنقد مات بعد إنهاى دار المعلمين إلى دراسة الحقوق ففتحت لى آفاق جديدة من الثقافة ، ومضيت أنشر المقالات فى صحف بيروت والقاهرة

= ١٥ - « رسائل للعاد الأصهبانى (٥٧٦هـ) والقاضى الفاضل فى مدح دمشق ، ١٦ - « قرة العيون فى أخبار باب جبرون بدمشق » لابن طولون الصالحى (٩٥٣هـ) ، ١٧ - « الورهانى ورقعته عن مساجد دمشق » ، ١٩ - دمشق القديمة : أسوارها ، أبراجها ، أبوابها ، ٢٠ - بمارستان نور الدين بدمشق ٢١ - قصر أسعد باشا العظم بدمشق ، ٢٢ - خطط دمشق : أبحاث مختلفة عن آثار دمشق وخطتها .

ودمشق ، وكان همى فيما أنتج ، بتأثير قراءاتى فى كتب الأدب العربى - كان همى صحة اللغة وحلاوة الأسلوب وحسن الصوغ ، بل مرتت بفترة كنت لا أرى فى الأدب إلا اللفظ ، فالمعاني وحدها لا تكسب الأثر الأدبى الحلاوة والرونق والبهاء . وتجعله يدخل إلى قلب السامع ، وإنما الألفاظ .

« على أن مطالعاتى فى الأدب الفرنسى ، وخاصة الكلاسيكى ، دفعتنى إلى أن أنهج نهج شعرائهم وكتّابهم فى الرجوع إلى الأدب القديم وإحيائه بشكل جديد فقامت بمحاولتين فى هذا الشأن ، أصدرت فى عام ١٩٤٣ ثلاث مسرحيات صغيرة بعنوان : "إبليس يغنى" وأبنت عن هدفى من المحاولة فى مقدمتى بقولى : هذه صفحات من أدبنا القديم حوت أطاريف تعجب وترقص وتلد ، غير أنها كتبت فى عصر يباين عصرنا . فأصبح يعوزها أن تعرض برشاقة ، وتهذب بذوق ، وتصيل بفن . فثلها كمثل الدرّ النوارى علاها غبار القرون ، فغابت وضاعتها ، ونجا بريقها ، فلا بد لها من صقل لترف فتخطف الأبصار وتفتن العقول .

« ولقد حاولت . بعد "إبليس يغنى" أن أطبق هذا المفهوم فى تجربة جديدة فنشرت قطعاً أدبية سماها بعضهم شعراً منشوراً ، أو نثراً شعرياً ، أو شعراً مرسلًا ، أو شيئاً جديداً لكنه حلوا ، وقد فتح الزيات المحافظ الرسالة لبعضها » .

* * *

ثم تحدث عن اتجاهه الجديد منذ عام ١٩٤٤ ، وكيف ترك الأدب إلى حين ، وانصرف إلى التاريخ حين عيّن رئيساً لديوان مديرية الآثار ، فلم يمض شهر على عمله حتى استهوته الأعمدة والأحجار والنقوش والكتابات القديمة فاستطاع خلال سنتين أن يكون لنفسه ثقافة عميقة فى الفن الإسلامى وتاريخ العرب . وقد اضطره عمله الجديد إلى الرجوع إلى المخطوطات القديمة التى غاص فى محيطاتها يبحث وينقب ، وكانت أول تجربة له فى هذا الميدان « تاريخ دمشق » لابن عساكر حين عهد إليه المجمع العلمى العربى فى إخراج المجلد الأول منه .

يقول : « لقد قطعت سنة أو تزيد في تحقيق النص وتصحيحه والتعليق عليه . وأذكر أنى وضعت بطاقات لآلاف من الأسماء وردت في المجلدة من رجال الأسانيد . كان عملي هذا أكبر تجربة فكرية مرت بها ، علمتني الصبر الطويل والأناة والتريث والبعد عن السرعة والانفعال ، وما زلت أذكر كيف كنت أقضى اليوم كله ، والأسبوع كله ، في البحث عن كلمة أو جملة حُرِّفَها الناسخ أو صحفها أو مسخها . . .

كان اتصالى بالمخطوطات خطراً على . . . المخطوطات القديمة كالمخدرات إذا اعتادها الإنسان هيهات أن ينجو منها - القول هذا لطفه حسين - لذلك لم أَدع فرصة منذ ذلك الحين إلاّ اغتنمتها للاطلاع على المخطوطات . ولعل الظروف نفسها هي التي ساعدت على ذلك ، كان همى عندما ذهبت إلى باريس إثر إصدارى تاريخ ابن عساكر ، أن أقرأ الآلاف الخمسة من المخطوطات العربية المحفوظة في الناسيونال ، برغم تحضيري الدكتوراه في الآداب والحقوق ، وما كدت أعود حتى أرسلتني الحكومة في عام ١٩٥٤ إلى إسبانيا لأكشف مخطوطات الأسكوريال والأديرة الأخرى ، فقبضت فيها شهوراً ، وطففت في تلك البلاد التي نقلت يوماً ثقافة العرب إلى أوروبا ، فما كدت أعود حتى رشحتني الحكومة لأن أكون مديراً لمعهد المخطوطات في جامعة الدول العربية . وبعد أن انقضت مهمته في معهد المخطوطات الذي عمل فيه بضع سنوات أسس داراً للنشر في بيروت باسم « دار الكتاب الجديد » ، أى ما يزال في البيئة الفكرية يؤلف ويحقق وينشر ، وفيما يلي نشير إلى ما حققه من مخطوطات وما ألفه من كتب .

المخطوطات المنشورة :

١ - كتاب اللغات في القرآن ، رواية عبد الله بن الحسين بن حسون (- ٣٨٦ هـ) .

٢ - رسالة الألفاظ المهموزة ، لابن جني (٣١٢ هـ) .

٣ - كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، لابن الفراء .

القسم الأول : نص ابن الفراء .

القسم الثاني : مباحث في الرسل والسفراء عند العرب في الإسلام .

٤ - مختصر تنبيه الطالب وإرشاد المدارس للنعمي ، اختصره عبد الباسط (العلمي / ٩٨٢ هـ) .

٥ - كتاب وقف القاضي عثمان بن المنجا الحنبلي (- ٦٤١) .

٦ - التمهيد فيما يجب فيه التحديد . لقاضي القضاة تقي الدين السبكي (- ٥٧٦) .

٧ - أسماء مؤلفات ابن تيمية لابن قيم الجوزية ، نصّ ذو شأن لمعرفة مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية كتبه تلميذه ابن قيم الجوزية .

٨ - سير أعلام النبلاء ، للمحافظ الذهبي (٧٤٨ هـ) الجزء الأول .

٩ - المنتقى من كتاب الرهبان « لابن أبي الدنيا » (٢٨١ هـ) .

١٠ - فتوح البلدان للبلاذري (- ٢٧٩) القسم الأول والثاني والثالث .

١١ - وفيات المصريين في العهد الفاطمي ، للحبّال (٤٨٢ هـ) .

١٢ - شرح السير الكبير للشيباني ، إملأ السرخسي - الجزء الأول والثاني والثالث .

١٣ - الأئمة الاثنا عشر ، لابن طولون الصالحى (- ٩٥٣ هـ) .

١٤ - نزهة الجلساء في أشعار النساء ، للمحافظ السيوطي (- ٩١١ هـ) .

١٥ - تراجم الأعيان من أبناء الزمان للمحسن البوريني (١٠٤٣ هـ) الجزء الأول والثاني .

١٦ - مناقب ابن عربي ، لابن القارى البغدادي .

١٧ - العيبر في خبر من عيبر ، للمحافظ الذهبي (٧٤٨ هـ) الجزء الأول والرابع .

١٨ - حذّف من نسب قُريش لمؤرّج بن عمرو السدوسي (١٩٥ هـ) .

١٩ - الدرّة المضيّة في تاريخ الدولة الفاطمية ، لابن أيبك الدوادري (بعد ٧٣٦ هـ) .

٢٠ - مولد رسول الله ، للمحافظ ابن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ) .

٢١ - مختصر من الكلام في الفرق بين من اسم أبيه سلام وسلام لمحمد بن

أسعد الشريف الجوّاني (٥٨٨ هـ) .

٢٢ - شرح خطبة عائشة أم المؤمنين من أبيها محمد بن القاسم الأنباري (٣٢٨ هـ) .

٢٣ - كيف دخل الفرنسيون الجزائر لأحمد الجزائري « القرن الثالث عشر » .

٢٤ - أمراء مصر في الإسلام لابن طولون الصالحى (١٥٣٠ هـ) .

٢٥ - المستظرف من أخبار الجوارى للسيوطى (٩١١ هـ) .

٢٦ - كتاب تنزيل القرآن لابن شهاب الزهرى (١٢٤ هـ) .

٢٧ - معارضة ابن الأبار (٦٥٨ هـ) لكتاب ملقى السبيل للمعري ، المسماة « مظاهرة المسعى الجميل » .

٢٨ - مقدمة كتاب الحشائش والأدوية لديسقوريدس بترجمة مهران بن منصور بن مهران .

المؤلفات :

١ - إبليس يغنى .

٢ - فى قصور الخلفاء - قصص تاريخية عربية .

٣ - نساء عاشقات : تحليل لروائع الحب فى الأدب الغربى .

٤ - الظرفاء والشحاذون فى بغداد وباريس - دراسات فى الطبقات الاجتماعية فى العصر العباسى .

٥ - تدمير عروس الصحراء ، بالاشتراك مع جان ستاركى عضو المعهد الإفرنسى للآثار بيروت .

٦ - تاريخ الأنساب عند العرب - دراسة فى شأن النسب عند العرب ، ومفهوم كلمة الشرف وتطورها وأشهر الكتب التى ألفت فى الأنساب .

٧ - قواعد تحقيق النصوص القديمة .

٨ - المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة - من القرن الثالث الهجرى إلى نهاية القرن العاشر .

- ٩ - الخلفاء والخلفاء في العصر العباسي .
- ١٠ - جمال المرأة عند العرب - دراسة لتطور معنى الجمال عند العرب مع ديوان لأجمل ما قالته العرب في جمال المرأة .
- ١١ - الحياة الجنسية عند العرب .
- ١٢ - أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب - الجزء الأول والثاني والثالث .
- ١٣ - عروس العرائس - أروع القصص الشعبي القديم . مأخوذة من « أسمار » الجهشيارى ، وهى أقدم من « ألف ليلة وليلة » .
- ١٤ - فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأمبروزيانا في ميلانو .
- ١٥ - الكتاب العربى المخطوط : الجزء الأول - النماذج - نماذج من مختلف مكنتبات العالم تظهر الخط العربى فى تطوره من القرن الثانى إلى القرن العاشر الهجرى ، مع الخصائص التى اختص بها الكتاب العربى القديم . ١١٢ لوحة .
- ١٦ - معجم المخطوطات العربية بين سنتى ١٩٥٤ - ١٩٦٠ .
- ١٧ - سورية ومصر بين الوحدة والانفصال - وثائق ونصوص رسمية - .
- ١٨ - اليمن والجمهورية العربية المتحدة بين الاتحاد والانفصال - وثائق ونصوص رسمية - .
- ١٩ - الحركات التقدمية فى العراق حتى غزو التتار .
- ٢٠ - مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين - نصوص - .
- ٢١ - المشرق فى نظر المغاربة والأندلسيين فى القرون الوسطى .

بديع حتى

١٩٢٠

شاعر قصصى أديب . أنيق اللفظ . جزل الأسلوب .
 شقّ طريقه بين أدباء الشباب بالمقطوعات الشعرية التي نشرها وبالقصص
 التي كتبها والروايات التي ترجمها .
 يجمع بين الثقافتين العربية والأجنبية .
 وهو دائم المطالعة لا يكاد يفلت كتاب « الأغاني » من يديه ليل نهار .
 يقرأ ويدرس ويغوص في أعماق الحياة الأدبية قديمها وحديثها ، شرقها
 وغربها ، يختار طريف الطريف مما يطالعه فما يكاد يسوغه حتى يحلوه بأسلوب
 فيطرف القارئ بصور جميلة من روائع الأدب الحى .

ولد في دمشق في السادس والعشرين من حزيران (يونيو) عام ١٩٢٠ ،
 وقد فقد والده وعمره أربع سنوات فسهرت أمه على تربيته ورعاية طفولته ولم يتح له
 دخول المدرسة الابتدائية إلا وهو في العاشرة من عمره لحوادث وظروف نأت به
 عن الدراسة المبكرة . . . وبعد أن نال الشهادة الابتدائية من مدرسة البحصّة
 دخل مدرسة التجهيز حيث تتلمذ على أساتذة في الأدب كان لهم فضل كبير
 في تشجيعه والأخذ بيده إلى مناهل الأدب الشهية ، منهم الشيخ عبد القادر المبارك
 وهو حجة في اللغة ، والأستاذ سليم الجندى وهو ثقة وإمام في النحو والصرف ،
 والدكتور زكى المحاسنى والدكتور جميل سلطان والشيخ زين العابدين التونسي .
 وإلى متابعة دروسه كان كثير الشغف بقراءة القصص والأساطير . وقد
 كتب إلى يقول :

« ... وفي هذه السن المبكرة شغفت بالمطالعة وقراءة القصص الأسطورية :
 قرأت ألف ليلة وليلة ، التي رفدت خيالى بالصور الرائعة الساحرة ، وقرأت
 سيرة عنترة والملاك الظاهر — فى مخطوطة بلغت ٣٦٠ جزءاً — . والملاك سيف
 ابن ذى يؤن .

« ثم تحولت إلى الروايات العاطفية ، فقرأت كل ما كتبه وترجمه المنفلوطي :
 ماجدولين ، بول وفرجينى . الشاعر ، العبرات ، الذى أروى ظمئى إلى الدمع .
 وقرأت أدب المهجر ، وأحببت جبران والريحانى ونعيمه وفوزى المعلوف .
 وهفت نظراتى المتطلعة إلى الأدب الحديث ، فقرأت كل ما كتبه طه حسين
 والرافعى والبشرى وهيكىل والمازنى والعقاد والحكيم وتيمور وغيرهم وغيرهم .
 وأحببت أسلوب المازنى وامتحت الكثير من ألفاظه الحلاوة المنتقا ورشيت
 بها أسلوبى » .

وفى حديثه عن الشعر قال :

« وأغريت بالشعر ، وأنا فى عُفْرة العمر وغرب الشباب ، فقرزمت
 بعض القصائد وكتبت بعض القصص وشغفت بالشعر الإفرنسى الحديث ،
 وبخاصة شعر فاليرى . وأخذت بمدرجته ، فى الحرص على موسيقية اللفظ
 وصفائه ونقائه ، مع رمزية شفافه ، تحسر عن بعض المعنى ، وتوئى إليه .
 وقد حفظت بعض قصائده على صعوبتها والتواء معناها . ولكنى كنت أجتزئ
 بما كان يتسم فى ألفاظها من نغم موسيقى رقيق » . . .

وحين أنهى دراسته الثانوية ونال شهادة البكالوريا الثانية — الفلسفة —
 انتسب إلى معهد الحقوق — إذ لم يكن فى سورية آنذاك ، معهد أو كلية للآداب
 فنال شهادة ليسانس الحقوق عام ١٩٤٤ ، وفى عام ١٩٤٥ انتسب إلى السلك
 السياسى وتنقل فى مدى عشرين عاماً أو تزيد بين باريس وبرن وموسكو
 وإستانبول وكابل . وظلّ ، وهو فى السلك السياسى ، وثيق الاتصال بالحياة
 الفكرية ، ففى باريس لم ينقطع عن الدراسة ونال شهادة الدكتوراه فى الحقوق
 الدولية ، وكانت أطروحته عن فلسطين ، وقد هدف بها إلى الدفاع عن حق
 العرب فى هذه الأرض العربية المنكوبة . . . وفى موسكو تعلم الروسية ونقل
 منها كتابين إلى اللغة العربية : اللوحة والمعطف لفوغول .

ومن جولاته فى الأدب العربى والإفرنسى والروسى انتقل إلى آداب الهند
 فقرأ تاغور ، شاعر الهند العظيم الذى أحبه فانطبع فى نفسه الكثير من صور

أدبه - أحبه شاعراً وقاصّاً وإنساناً ورسول حكمة . يرتل الصلوات وينشد من أعماق ذاته ، أحر النبرات وأصنى الابتهالات والتوسلات .

هذا الحب هو الذى دفعه أن ينقل بعض آثاره إلى العربية ، ولا سيما القصص والأشعار التى كتبها تاغور بعفوية مطلقة والتى تتحدث عن الطفولة البريئة والحب العفّ والإخاء الذى لا تشوبه أوصار المادة ، فنقل « البستانى » و « جيتنجالى » و « جنى الثمار » و « الهلال » و « شيترا » وأخيراً « دورة الربيع » وقد قدم لها بدراسة عنه دلّت على تفهمه العميق لرسالة الشاعر ، وهى ، بمضمونها تصوير بارع لحياته وكتبه ، وكأن المقدمة قطعة من أدب تاغور . وقبل هذه الترجمات بدأ بديع حتى حياته الأدبية بالشعر . وكان فى طليعة الشباب الذين همجروا أسلوب القصيدة القديمة وجلبابها الطويل . فالواقع أنه لم يخرج عن الوزن والقافية إلاّ أنه خرج من حيث المضمون عن الكثير من شكل القصيدة القديمة التى عاش فى جوائها جبرى ومردم والبزم وبدوى الجبل ، فشعره مقطوعات تعبّر عن الأشواق والمواجيد ، عن الألم والحب ، عن النغم والصدى . وهى تنبع من الذات الشاعرة التى تعيش فى جوّ من النغم المسكر ، ولأسلوبه هذا الجمال الذى يشرك ويجعلك تعيش جوّ الشاعر ، جوه النفسى والعاطفى ، الحزين منه والمبهج ، ولاكلمة عنده قداستها وجمالها ، وقد كتب لديوانه « شجر » مقدمة فى معنى الشعر هى من العمق والدقة بمكان عظيم :

« حين أنظر إلى فن الشعر يخيّل إلىّ أنه الفن الوحيد الذى تأتّى له أن يصوّر النفس - وأن يسبر أغوارها فيجلو ما يصطارع فيها من نزوات وبدوات ، ويخيّل إلىّ أن الفنون الأخرى التى ابتدعها الإنسان ، إنما تعدّ ، فى جوهرها ولبابها ، لـحَقّاً به ، وتبَعاً له .

« ليست مهمةُ الشاعر أن يريقَ النور على فكرته ، ولكن أن يحياها ، أن يترك هذا الجهدَ للعالم النفسى الذى يستشرف مثله أعماقَ النفس ، متكئاً على منطقهِ الواضح البارد ، ليحللَ ويستنتجَ ويفرش فوق طريقهِ النور .

« الشاعر كالجداول الثائه ، وهو يشقّ دروبه اللاحبة المنبسطة ، المظلمة الملتوية ، إنه يمنح عِذارَ شاطئه الخصبَ والراءَ والاختضار ، ثم يجور عليه

فيرفده بالخصى والتراب . إنه يسير مطمئنًا أو ثائرًا ويسعى في ظلمات ومataهات ، ثم ينقر الصخر ويتفجر وينحدر ويوافي منتهاه ، حاءلاً ذكرى السهل والصخر والشوك والزهر .

« على الشاعر أن لا يقبسَ من ألق النور فحسبُ . النور المتلألئ قد يعشى بصره ، ويلويه ، وهو ظامئ ، عن النبع الذى ينشده ، عليه أن يتسلل إلى الأعماق ليظفر بخلجات النفس ، الواضح منها والمبهم ، ثم ينفذها واضحة مبهمة ، يتعانق فيها النور والظل ، ويحظى فيها اللفظ والمعنى بقاء لا تهيبه الصدفة ولكن حظًا سعيداً خلاقاً هو الذى يهيئه ويعدُّ أسبابه . . .

« ترى أى "سحر" غريب يقود الشاعر إلى أعماق الحياة ليجلو مشاكلتها وينصح عن أمانيتها . يشير إلى الواقع المؤلم ، ويرع الغد بدفعات من الأمل الباسم الرفاف .

« ترى أى "سحر" غريب يقوده إلى أغوار النفس ، إلى تلك الجنة الخصلة بالأخيلة ، الآهله بأوابد الذكريات ، الفاعمة بطيب الوجد والشوق والحنين . . .

« ترى أى "سحر" غريب يقوده إلى طبيعته الرائعة فيرى إلى صورها وألوانها كيف تتزوق لعينيه ، وإلى عطورها كيف تضمخ مواعيده . وإلى أنغامها كيف تمتلخ جناح طائر خفي وتنحو إلى أفقه البعيد .

« إن الموسيقى التى تنسق فى شعره هى خلاصة ذلك السحر الغريب .

نشر ديوانه « سحر » فى عام ١٩٥٤ ، ثم انقطع عن نظم الشعر ، وانصرف إلى القصة فنشر عام ١٩٦٠ مجموعة قصص بعنوان « التراب الحزين » استلهم جلها من نكبة فلسطين . وقد نالت هذه المجموعة جائزة الدولة التشجيعية للقصة عام ١٩٦١ .

هذا ، ولم يقف لإنتاجه القصصى عند هذا الحد ، فهو ما زال يرصد الأحداث القومية والتيارات الإنسانية ، ولا سيما ذات الطابع المحلى ، فيصورها ، بروح شاعرية ونزعة قصصية ، ولديه مجموعة لما تنشر بعد عنوانها « حين تتمزق الظلال » وهو اسم القصة الأولى . فيها ينحو أسلوبه القصصى منحى جديداً ، وكتاب

آخر لم ينشر بعد تضمن دراسات عن قمم الأدب العالمى تناول فيه سير بروست وجيمس جويس ومالارميه وجيد وفاليرى وتولستوى ولوركا وكامو . . وما يزال ، فى كهولته الباسمة ، يعيش فى الجوّ الأدبى الشرق ، يقرأ ويكتب ويطرف القارئ بنتاجه الفكرى الحصب ، ويحرص أكثر ما يحرص على توشية الفكرة التى يعرضها والموضوع الذى يتناوله بأناقة اللفظ وجمال الأسلوب .

ومن شعره :

الطهر

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| أحبك فى ميسة الزنبق | وفى غفوة الياسمين النقى |
| تلوحين لونا رغيدا سعيدا | فأغمض جفنى على شيتق |
| وأفرق إن بحت ، عفوا ، بحبى | فأجرح طهر غرام نقى |
| ويبسم نغرك إما قصصت | عليك أحاديث حبي الشقى |
| يداعبنى منك خبت برىء | فأهتف : ويحى متى نلتقى |
| — متى ارتعش الحب فى خافقى | — تقولين لا بد — لا تشفى |
| وأنت خيال غوج سرى | على مربع الوهم لم يتق |
| وفرعك ليل يغيم سوادا | ويسفح فجر جبين نقى |
| وجفئك جنح حمام يرف | ويهفو إلى مأمل مشرق |
| يسامر فى الحلم سرب طيور | ويفتح ملء غد مورك |
| بلى أنت طرفة حلمى الشهى | تلوح على أفق أزرق |
| فتنهذ ، دونك ، قبله نغز | ذبيح وتحبو على المفرق |

أحبك فى غفوة الياسمين وفى ميسة الفل والزنبق

سليمان العيسى

١٩٢٢

شاعر ناثر الإحساس ، ملتهب العاطفة ، جعل من شعره أداة لرسم صور البعث العربى ، وإثارة لقوى الجيل الطالع ، وصيحة مدوية فى وجه المستعمرين .

أنا فى أعماق قومي صرخة تتشظى لا قصيد يقرأ
حسب لحن ينتهى فى وترى أنه فى صدر غيرى يبدأ

... ولد فى قرية من قرى أنطاكية على نهر العاصى سنة ١٩٢٢ .

... تلقى بواكير الدراسة فى البيت ، فكان أستاذه الأول : القرآن ، والشعر الجاهلى ، والمتنبى وهو لا يزال فى « الكتاب » .

نظم الشعر فى التاسعة . . . وكانت مجموعته الأولى تحمل صورة طفولته الساذجة فى القرية .

... دخل المدرسة الابتدائية فى أنطاكية ، وتفتحت شاعرية الطفولة على

ثورة اللواء العربية التى انتهت باغتصاب وطنه الصغير ، وضمه إلى تركيا .

... نزح إلى سورية مع عدد كبير من رفاقه ، وكان هؤلاء الطلاب

اللوائيون يمثلون الثورة المتطرفة على الاستعمار وأعوانه فى الوطن العربى كله .

... تابع تحصيله الثانوى فى دمشق فى عهد كله ثورة على الاستعمار

الإفرنسى ونضال من أجل الحرية والاستقلال .

... أتمّ تحصيله العالى فى دار المعلمين العالية ببغداد ، ونال إجازة

الآداب منها ، ثم عاد إلى سورية حيث عين مدرّساً للأدب العربى فى ثانوية المأمون بحلب . . .

* * *

أصدر حتى الآن الدواوين الآتية :

١ - مع الفجر .

- ٢ - أعاصير في السلاسل .
 - ٣ - رمال عطشى .
 - ٤ - شاعر بين الجدران - قصة في قصيدة نظمت في السجن .
 - ٥ - ثائر من غفار - ملحمة صغيرة عن نضال أبي ذر الغفارى .
 - ٦ - قصائد عربية .
 - ٧ - الدم والنجوم الخضر .
 - ٨ - صلاة لأرض الثورة .
 - ٩ - أمواج بلا شاطئ* .
 - ١٠ - أزهار الضياع .
 - ١١ - رسائل مؤرقة .
- ومن مسرحياته الشعرية :
- ١٢ - أغنيات صغيرة .
 - ١٣ - أبو محجن الثقفى الفارس الضائع .
 - ١٤ - ابن الأيهم الإزار الجريح .
 - ١٥ - عبد القادر الجزائرى - الثورة التى لم تهدأ - .
 - ١٦ - إنسان - مسرحية قصيرة - .

وأكثر القصائد التى انتظمتها مجموعاته الشعرية فى أحداث الوطن العربى ...
فما من حادث قومى إلا وله فيه شعر رائع ينبض من دم القلب . . . وتكاد تكون
كل كلمة من قصائده تتجسد شرراً متطايراً . . .
إنه يريد دنيا العرب أن تصبح ثورة على الغاصبين ، فالوطن العربى فى
نظره وحدة متماسكة ، وكل لا يتجزأ ، وبدهى ، وهذا هو مذهبه الشعرى ، أن
يدور كل شعره حول فلسطين ومصر والجزائر ووطنه الحبيب سورية وكل بقعة
من بقاع العرب .

إنه بحق شاعر المناسبات القومية الصارخة . . .

وهو ذو نزعة جديدة فى شعره . . .

« تتبع خطى عمر أبو ريشة فى مسرح معين . . .

ولا أعلم شاعراً يستجيب لعاطفته بحرارة ودفع وثورة كهذا الشاعر . . .
 وإذا صَحَّحت عبارة الفيلسوف الكندي لأبي تمام: « إن عقله يأكل من جسده ،
 كما يأكل السيف من غمده » ، فإنها لتصح حتى في هذا الشاعر الفتي الذي
 « تأكل عاطفته من روحه ، كما يأكل السيف من غمده » .

ولعل قارئه الذي يحس ، للوهلة الأولى ، أنه شاعر يلون شعره بدم قلبه ،
 لا يأخذ عليه تآلف صوره . وتهافت بعضها على بعض ، لأن المجال الذي
 اختاره لنفسه ضيق محدود ، في نوع واحد ، وأن من تمام المعجزة أن يعطيك
 الشاعر معجزته في المجال المحدود ، وإن كانت نفسه تحيا في اللامحدود ^(١) .

ويتميز سليمان العيسى على غيره من شعراء الشباب أنه « ليس من الشعراء
 المقلدين الذين تستعبدهم القوافي والأوزان وتسيطر على أذواقهم التعبيرات المتداولة
 جيلا عن جيل ، كما أنه ليس من الشعراء الذين يسمون أنفسهم أصحاب الطريقة
 الجديدة في الشعر كعبد الوهاب البياتي ، وبدر شاكر السياب ، وصالح الدين
 عبد الصبور ^(٢) . . .

فإذا كان الشعراء التقليديون تأسروهم الأوزان المعروفة ، ومعانيهم تكاد
 تكون متشابهة ، ولا يجمع بين أبيات القصيدة لديهم إلا خيط واضح ضعيف
 هو القافية ، إذ هي تخلو من وحدة الغرض والتجربة ، وليس لصاحبها أى موقف
 فكري ، ويسيطر عليها عنصر الخطابة ، ولا يهم صاحبها أن تصدر عن تجربة
 بمقدار ما يهمه أن تنفجر فيها الألفاظ وتزدحم الاستعارات . وهذا ما أفضى
 بالشعر التقليدي إلى الجمود عند الأرياء القديمة والافتقار إلى الجدة والأصالة
 والطرافة . التي يتميز بها العمل الفني الناجح — فإن الشاعر سليمان العيسى يتحرر من
 هذه القيود وينطلق في أجواء الخيال المبدع يعبر بصدق وإحساس مرهف عن قضية
 أمته ، عن وحدتها وتحررها وطرد آخر أجنبي عن أرض الوطن العربي الكبير . . .

(١) خليل الهنداوى : مجلة « الرسالة » السنة ٣ العدد ٤ ص ٣٧ .

(٢) لقد لجأ أخيراً إلى الشعر المرسل ، فدعا وهو في لجنة تعديل كتب البكالوريا إلى الاهتمام
 به ، وبأن يستعاض بالنصوص من شعر العالقة من شوق إلى الرصافي إلى غيرها بشعر هذه الزمرة —
 وبشعر بدر شاكر السياب بصورة خاصة .

وبتعبير أدق « إنه أديب ملتزم ، له رسالة كبرى في الوحدة والحرية والعدالة الاجتماعية . . . وإن الصديق والإخلاص للمبدأ الذي رسمه لنفسه يشفع له إذا ما قصر في الصياغة الفنية والأسلوب الشكلي ، فالبيان والأداء قد لا يبلغان مرتبة الأفكار الكبرى » (١) .

ومن شعره :

نشيد البترول

لو تكلم البترول العربي لقال أكثر من نشيد متواضع ، لو تكلم لغير وجه الإنسانية الأسود

ورأسي دوى في النجوم عنيد
من التبر ، يطغى بأسها ويزيد
وأبدع في لونيها . . . وأجيد
ولفظي وأنتم : سيد وعبيد
تريدون ما أوى به وأريد
فأفرغه ثورة ، ويبيد
لها ، حيث ينهار الخيال ، وجود
يزخرّف في ساح النضال عمود
ويعبر فيه الكنز وهو سعيد
إذا ما جرى فيها دم ووريد
وأورق في غير « العمالة » عود
ملايين . . بل قلها : بمقابر سود
لسكينه المذبوح ، وهو وثيد
تريدون ما أوى به ، وأريد . .

أنا المارد الجبار . . . رجلاى فى الثرى
تكدست فى الصحراء دنيا عريضة
ورحت أصوغ الأرض رغداً ولعنة
وما زلت مذ فجرت أول قطرة
أجميعكم . . . أنقص فيكم مجازراً
والمح فى الأعماق طيف تمرد
وأغرب من زرق الأساطير إصبعي
أبيعكم التيجان حينئذ ، وتارة
وتشقون ، يشقى الرمل ، يقتله الظما (٢)
أنا المارد الجبار . . . طوع يمينكم
إذا ما انتحى سيف لغير نخاسة
وما ضررتنى أنى أمر بمجوعكم ؟
أمر على الصمت الدليل ، وينحنى
يدى فى الرقاب الصاغرات ، ومخلى

(١) عبد الكريم سعود : « الآداب » السنة ٥ العدد ٥ ص ٥٧ .

(٢) إشارة إلى البيت العربى المشهور :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

نزار القباني

١٩٢٣

بزغ في سماء دمشق ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، نجم شاعر فتي هجر
الطريقة الكلاسيكية في الشعر ونحا نحواً جديداً في التعبير عن عواطفه الهائجة
وأمنياته العذاب .

كتب « ذاته » بصدق وحرارة ، وبواقعية لا تتلاءم ومحيطه الذي تكتنفه
شئى التقاليد ، أى لم يشأ أن يكون صوت فكرة من الأفكار أو صدى مذهب
من المذاهب بل كان مرآة نفسه وصدى شعوره وحسه . . . كتب تجاربه ،
وصور ذاته بشئى انفعالاتها — « ذات » شاب محب وامق في رونق العمر —
والشباب والحب صنوان متلازمان — وهو في هذه الفترة الندية من عقب الشباب
لم يتحرج أن يصور « بوهيمته » بواقعية مطلقة غير مقيدة . . . خرج في
تعبيره على أساليب القدماء وعلى جميع الشعراء الكلاسيكيين الذين عاصروهم ،
وحتى على شباب جيله الذين آثروا أو آثر أكثرهم « التقليد » على « التجديد » .
ذلك لأن مذهبه في تفهم الشعر « كره » عنيد للشعر الذي يراد من نظمه إقامة
ملجأ ، أو بناء تكية ، أو حصر قواعد اللغة العربية ، أو تاريخ ميلاد صبي . . .
أو تعداد مآثر ميت على رخامة قبره » .

يقول :

« قرأت في طفولتي تعاريف كثيرة للشعر . . . وأهزل هذه التعاريف :
الشعر هو الكلام الموزون المقفى . . . »

أليس من المنجمل أن يلقن المعلمون العرب تلاميذهم في هذا العصر ، عصر
فلق الذرة . . . ومرادة القمر . . . مثل هذه الأكذوبة البلهاء ؟

ماذا نقول للشاعر . . . هذا الرجل الذي يحمل بين رثتيه قلب الله .
ويضطرب على أصابعه الجحيم ؟

وكيف نعتذر ، لهذا الإنسان الإله الذي تداعب أشواقه النجوم . . . وتفرغ

تنهداته الليل . ويتكىء على مخدته الصباح . . . كيف نعتذر له بعد أن نقول له عن قصيدته التي حبكها من وهج شرايينه . . . ونسجها من ريش أهدابه ، إنها «كلام» .

ثم يقول :

« لا أجزأ على تحديد جوهر الشعر . . . لأنه يهزأ بالحدود . . . ثم ماذا يضير الشعر إذا لم نجد له تعريفاً » . . .

إن الشعر في عقيدته « كهربية جميلة . . . لا تعمر طويلاً . . . تكون النفس خلالها بجميع عناصرها من عاطفة ، وخيال ، وذاكرة ، وغريزة . . . مسرلة بالموسيقى . ومتى اكتست الهنيهة النفسية ريش النغم . . . كان الشعر . . . فهو بتعبير موجز «النفس الملحنة» .

والذى أقرره أن الشعر «يصنع نفسه بنفسه» . . . وينسج ثوبه بيديه وراء ستائر النفس . . . حتى إذا تمت له أسباب الوجود ، واكتسى رداء النغم ، ارتجف أحرفاً على الورق » (١) .

هذا هو منهج نزار القباني في قول الشعر .

والذين عاشوا جو القصيدة العربية القديمة . . . وتلمذوا على الطائيين . أبى تمام والبحرئى . . . وعلى المتنبي — يهزون أكتافهم هزواً وسخرية حين يسمعون هذا الكلام . . . وحين يقرءون شعر نزار . . .

فشعره في عقيدتهم : كلام مشوش . . . مضطرب . . . غير موزون . . . وهم يريدونه «كلاماً موزوناً مقفى» وإن خلا من وهج العاطفة ورهافة الحس . . . أما الجرس . . . أما إحساس الشاعر العميق . . . أما تعبيره الصادق بكلمات من وهج قلبه ، وهينمة نفسه . . . فهذا كله ، في نظرهم ، هراء في هراء . . . مع العلم أن الطريقة التي ابتدعها في تجديد أوزان الشعر تحتل اليوم مكانتها في قلوب الكثيرين من أدباء الشباب . وحتى من النقاد أنفسهم . . . وقد يتفلسف بعضهم ، وقد يغمزون . . . ولكنهم لا يستطيعون أن ينكروا قيمة هذا الشعر

الذى ينفذ إلى الأعماق في تعابيره ، وفي مضمونه . . . وفي ملاءمته طبيعة الحياة . . .

* * *

في سؤال وجهه أديب ناشئ إلى الدكتور طه حسين عن الشعر الحديث الذى لا يعتمد على القافية والوزن أجاب عميد الأدب بقوله :
« أنا شخصياً أفهم أن تتجدد أوزان الشعر مع تغير الحياة . . . وتتجدد الأوضاع من حول الشعراء . . . وليس المهم أن نحافظ على الأوزان ، كما قررها الخليل الفراهيدى . . . أما أن توضع قواعد وأسس لهذا الشعر الجديد، فهذا شيء يأتى بعد حين ، حين ينشأ الشعر بأوزان مختلفة، فيأتى العلماء يلاحظون الشعر الجديد ويضعون له القواعد الخاصة به . . .

ولا بد أن نترك لهؤلاء الشعراء المجددين حريتهم، ولا نطالبهم إلا بأمرين اثنين .
أولاً : أن تكون لغتهم العربية صحيحة .

ثانياً : أن يقولوا في شعرهم شيئاً .

ولا يشذّ نزار عن هذه القاعدة التى أفتى بها عميد الأدب في هذا العصر .

* * *

ثم إن هناك من يقول إن نزار القباني هذا حذو الشاعر اللبناني سعيد عقل^(١) . . . وهو قول فيه جنوح وظلم وتعجن على نزار . . . فسعيد عقل

(١) يقول مارون عبود في « نقداً طائر » ص ٦٥ :

« قلد للشاعر سعيد عقل الشاعر العاى ميشيل طراد في موضوعاته الشعرية ، فناجى ما ناجى من أشعاره وأنت قلدت الاثنين ، بيد أن شخصيتك الفذة ظلت بارزة فلم تنعدم في هؤلاء وأولئك كما يتمنى البهائي أن ينعدم في ذات وحدانية الله .
ويقول عنه أيضاً :

« شاعر في كلامه حلاوة كلام جرير ، ولكن يفوقه خيالا ، لأنه يصور بكلمة واحدة ما يصوره غيره بكلام ، وفي اعتداده بنفسه هو مثل عمر بن أبي ربيعة . هو المحبوب دائماً والتارك لا المتروك ، وأن تحرق عمر على بعضهن فنزار لا يرى فيهن جميعاً غير لعبة يلهو بها ، فشعره كله في وصف الزوات الجاحقة والقشعريات المتوثبة .

نفس المصدر ص ٦٨ .

« رمزى » . . . الفكرة عنده مبهمة جدّ مبهمة . . . لا تعرف أرومتها أهى ذات أصل فينيقي . . . أم لإغريق . . . أم مسيحي . . . فذاته ضائعة بين هذه العوالم اللامحدودة . . . أى أن « رمزيته » أميل إلى الغموض منها إلى الوضوح . . . بينا « رمزية » نزار تشع بالأضواء . . . قد تكون أضواء معتمة . . . ذات غبش . . . ولكنها تشع ببريق مثلاًلى ينفذ إلى النفس ، لا تختلط أمسياته بأصبوحاته . . . فالصفاء أظهر ألوانها . . . أريد أن أقول إن شعره يحافظ إلى جزالته ، على لونه المتميز الذى يريك أعمق مشاعره . . . ويقص قصص حبه وحكايات وجده بأسلوب رمزى لا ينقصه الوضوح ..

إن نزار قبانى ، كشاعر حسى واسع الأفق، التقى مع صنوه عمر بن أبى ربيعة، فى تصوير أحاسيسه نحو المرأة .. على أنه لم يقف فى شعره عند هذه الآفاق الجميلة المشعة ، بل خطا خطوات فى التعبير عن « مجتمعه » . . . عن « قوميته » . . . عن « وطنه العربى » . . . عن « نزعتة الإنسانية » . . . من « الذاتية » انطلق إلى « الموضوعية » فكتب قصائد مجنحة عن « المجتمع » المصفد بالتقاليد . . . عن « القومية العربية » الثائرة المفتحة . . . عن « الوطن » فكان فى جميع هذه الألوان التى طرقها هو هو فى صدقه . . . وفى موسيقية تعبيره . . . المتوثب . . . عن « الإنسانية » التى تشكو ختل الأبالة من ثعالب الاستعمار . . . وحين تتلاقى « الذاتية » و « الموضوعية » فى رحاب واسع من الشعر الذى ينبعث من الأعماق يكون له قيمته . . . ويكون له صداه وأثره .

وبعد فنكتفى بهذه الخطوط لنقدم صورة حياته خطها لنا ببراعته وفيها الكثير من ظواهر نشأته التى تفسر نهجه وطريقته .
قال :

« ولدت فى دمشق فى ٢١ آذار (مارس) ١٩٢٣ فى بيت وسيع كثير الماء والزهر من منازل دمشق الوسيعة القديمة . والذى توفيق القبانى تاجر وجيه فى حيه ، عمل فى الحركة الوطنية "ووهب حياته وماله لها" تميز أبى بحساسية نادرة وبجبه للشعر ولكل ما هو جميل ، ورث الحس الفنى المرهف بدوره عن عمه أبى خليل القبانى الشاعر والمؤلف والملحن والممثل وبأذر أول بذرة فى نهضة المسرح المصرى .

امتازت طفولتى بحب عجيب للاكتشاف وتفكيك الأشياء وردّها إلى
أجزائها . . . ومطاردة الأشكال النادرة . . . وتحطيم الجميل من الألعاب بحثًا
عن المجهول الأجمل . . .

عنيت أول ما عنيت بالرسم . فمن الخامسة إلى الثانية عشرة من عمرى
كنت أعيش فى بحرة أصباغ . أرسم على الأرض . . . وعلى الجدران . . . وعلى
الهواء ، وألطح كل ما تقع عليه يدى بحثًا عن أشكال جديدة . . .

ثم ذهبت عنى حمى الخطوط والدوائر والألوان . . . لتأتينى حمى من
نوع آخر : الموسيقى : مشيت فى هذا الدرب لفترة قصيرة ولكن مشاكل الدراسة
الثانوية صرفتنى عن هذه الهواية التى كان لها الفضل الأكبر بعد ذلك فى تكوين
ملكة انتقاء الحروف الأغنى إرئانًا فيما نظمت من شعر . وهكذا كان الرسم
والموسيقى عاملين جاريتين فى تهيئة للمرحلة الثالثة التى انتهت إليها وهى "الشعر" .

فى عام ١٩٣٩ - وكنت فى السادسة عشرة - توضح مصيرى كشاعر حين
كتبت وأنا مبحر إلى إيطاليا فى رحلة مدرسية أول قصيدة فى الحنين إلى بلادى
وأذعتها من راديو روما .

ثم رجعت وقضيت فترة الحرب فى استكمال دراسة الحقوق ، وفى هذه
الفترة أصدرت ديوانى الأول "قالت لى السمراء" فى سبتمبر ١٩٤٢ الذى كان
لدى صدوره صيحة نزقة حارة عبّرت - ربما بصورة بدائية - عن أهواء ومشاعر
جيل فترة الحرب ، وإذا كانت هذه المجموعة قد لاقت من لعنات المتزمتين
واستنكارهم الشئ الكثير فلأنها كانت الفأس الأولى فى تابوت هيكلنا الاجتماعى
والفنى النخر .

أنهيت دراسة الحقوق عام ١٩٤٥ والتحقت مباشرة بوزارة الخارجية ، وذهبت
فى نفس العام بأول بعثة سياسية إلى القاهرة حيث بقيت إلى عام ١٩٤٨ .
وقبل أن أترك مصر طبعت ديوانى الثانى "طفولة نهد" ١٩٤٨ وفى هذا الديوان
ارتفع التكتيك الشعرى إلى درجة عالية ، وأصبحت رقابتى على الحروف من
القسوة بحيث كنت أختار الكلمة بين المائة ، وأستعرض حشود الكلمات قبل أن
أمدّ يدى لألتقط واحدة منها . . .

هذه المسؤولية الفنية التي ربطت بها نفسى - على قسوتها - كانت بابى إلى الحديد . وهى التى حفظتني من اجتار التاريخ وارتداء أزياء الآخرين والسطو على أرزاقهم ، والنش في أوراقهم .

ثم كان السفر إلى تركيا عام ١٩٤٨ ولندن عام ١٩٥٢ ، وكان الاحتكاك مع دائرة حضارية شديدة الفن والاتساع . وأتاح لى العمل فى السلك السياسى رؤية أوروبا كلها تقريباً : فرنسا وألمانيا وإنكلترا وبلجيكا وأسبانيا والسويد والدانمرك ، واتسع مدى الرؤية الشعرية عندى وامتلات يداى بالمواد الأولية .

وعلى لهيب هذه الحضارات العريقة أعدت تكوين حروفي وتدويرها، وأخذ الصلصال الساخن فى اليد الشرقية أشكالاً جديدة ، والقصيدة العربية التى كنا نلحظ إليها كشكل أبدي لا يجوز اللعب به أخذ شكلاً مرناً دون أن تتخلى عن ركيزتيها التقليديتين : القافية ، والنغم ، إلا أن النغم لم يعد مدرجاً من ست عشرة نغمة ، وإنما أصبح صالة تعزف فيها ألوان النغمات بأساليب لا تنقصها الإجابة والإطراب . »

* * *

إن نزار القباني شاعر ولد ولادة جديدة . . . قطع صلته أو كاد بجميع الشعراء الكلاسيكيين . . . من المتنبي إلى شوقي . . . واختط لنفسه طريقة فى التعبير تلائم ذوق العصر .

وفى حديث له عن الشعراء الذين تأثر بهم قال :

« الحقيقة أننى لم أتأثر بشاعر ذى ملامح معينة ، فقد كنت أقرأ وأنسى ما قرأت ، لأننى مؤمن بالشئ الجديد ، وبالكلمات التى لم تمضغها الشفاه قبلى ! »

وصفه منير العجلانى بقوله : « إنه "شئ جديد" فى عالمنا . . . و "مخلوق غريب" . . . فى طبيعته الشاعرة روائح بودلير وفيرلين والبير سامان وغيرهم من أصحاب الشعر الرمزي Symbolisme والشعر النقي Poésie Pure » .

ومع أنه على عتبة الكهولة . فقد أصدر حتى الآن جملة دواوين وهى : « قالت لى السمراء » ، « طفولة نهد » ، « سامبا » ، « أنت لى » ، « قصائد من

نزار قباني « حبيبتي » « الشعر قنديل أخضر » طبع بعضها أكثر من طبعة واحدة ..
وصدر له ديوان شعر باللغة الإسبانية تحت عنوان :

Poemas Amarosos Arales

أى « أشعار حب عربية » وهو عبارة عن مختارات شعرية انتقيت من جميع دواوينه بالإضافة إلى القصائد والكلمات النثرية التي ألقاها في مناسبات أدبية ومؤتمرات ثقافية مختلفة خلال فترة وجوده في إسبانيا .

وقد قام بترجمة القصائد إلى الإسبانية المستشرق بدر ومارتنيث حيث قدم الكتاب بمقدمة شعرية صافية عن شعر نزار وعن الشعر المعاصر ، ونشر الكتاب المعهد الإسباني العربى للثقافة .

وآخر ما صدر له ديوان « الرسم بالكلمات » فلم يلق من النقاد ما لقيته دواوينه السابقة التي كتب قصائدها وهو شاب تضطرم عواطفه بلهب الحب .
وقد قدمه بهذه المقطوعة :

| | |
|------------------------------|--------------------------|
| عشرون عاماً فوق درب الهوى | ولا يزال الدرب مجهولاً |
| فرة كنت أنا قاتلاً | وأكثر المرات مقتولاً |
| عشرون عاماً .. يا كتاب الهوى | ولم أزل في الصفحة الأولى |

ومن شعره :

غرناطة

| | |
|-----------------------------------|------------------------------|
| في مدخل « الحمراء » كان لقاءنا | ما أطيب اللقيا بلا ميعاد |
| عينان سوداوان في حَجَرٍ رِيْهُمَا | تتوالد الأبعاد من أبعاد |
| هل أنت إسبانية ... ساءلتها | قالت : وفي غرناطة ميلادى |
| غرناطة ! وصحت قرونٌ سبعة | في تينك العينين ... بعد رقاد |
| وأمية ... راياتُها مرفوعة | وجيادها موصولة بجياد ... |
| ما أغرب التاريخ . كيف أعادنى | لحفيدة سمراء ... من أحفادى |
| وجه دمشق ... رأيت خلاله | أحفاد بلقيس ... وجيد سعاد |

ورأيت منزلنا التاييم . . . وحجرة
والياسمينسة ، رُصِّعت بنجومها
كانت بها أُمى تمدّ وسادى
والبحرّة الذهبية الإنشاد . . .

* * *

ودمشقُ . أين تكون ؟ قلت تَريّنها
في وجهك العربى ، في الثغر الذى
في طيب « جنّات العريف » ومائها
سارت معى ، والشعر يلهثُ خلفها
يتألق القُرط الطويل بجيدها
ومشيتُ مثل الطفل خلف دليلتى
الزخرفاتُ أكادُ أسمع نَسَبَ ضَهِها
قالت : هنا الحمراءُ . . زهرُ جدودنا
أعجادُها !! ومسحتُ جرحاً نازفاً
يا لبت وارثى الجميلةُ أدركتُ
في شعرك المنساب نهرَ سواد . . .
ما زال محتزناً شمس بلادى
في الفلّ ، في الريحان ، في الكباد
كسنايل تُركت بغير حصاد . . .
مثل الشموع بليلة الميلاد . . .
وورائى التاريخُ . . . كومُ رماد . . .
والزركشاتُ على السقوف تنادى
فاقرأ على جدرانها أعجادى . . .
ومسحتُ جرحاً ثانياً بفؤادى
أن الذين عَنَتَتْهُمْ أجدادى

* * *

عانقتُ فيها عند ما ودّعْتُها
رجلاً يسمّى « طارق بن زياد » ..

من مذكرات أندلسية

في أزقة قرطبة الضيقة . . .
مددت يدى إلى جيبى أكثر من مرة . . .
لأخرج مفتاح بيتنا في دمشق . . .
مقابض الأبواب النحاسية . . .
أدواض الشمشير . . . والليلاك . . . والقرطاسيا . . .
البحرّة الوسطى . . . عين الدار الزرقاء . . .
الياسمين الزاحف على أكتاف المخادع . . .
وعلى أكتافنا . . .
الفؤارة . . . طفلة البيت المدللة التى لا تنشف لها حنجرة . . .
والقاعات . . . أوانى الرطوبة ومخبأها . . .

كل هذه الدنيا المطيبة . . . التي حضنت طفولتي في دمشق . . .
 وجدتها هنا . . .
 فيا سيدتي المتكئة على خصائص نافذتها الخشبية . . .
 لا تراعى . . .
 إذا غسلت يدي في بحرتك الصغيرة . . .
 وقطعت واحدة من ياسميناتك . . .
 ثم . . . صعدت الدرج . . . إلى حجرة صغيرة . . .
 حجرة شمالية . . .
 تتسلق شبابيكها الشمس . . . ولا تسأل . . .
 ويتسلق أستارها الليلك . . . ولا يسأل . . .
 حجرة شمالية . . .
 كانت أمي تنصب فيها سريري . . .

قرطبة ٥٥/٨/١٢

تريدين . . .

تريدين مثل جميع النساء . . .
 كنوز سليمان . . .
 مثل جميع النساء . . .
 وأحواض عطر .
 وأمشاط عاج .
 وشرب إماء .
 تريدين مولى .
 يُسَبِّحُ باسمك كالبيغاء .
 يقول : « أحبك » عند الصباح .
 يقول : « أحبك » عند المساء .
 ويغسل بالخمير رجلتيك . . .

يا شهرزاد النساء . . .

* * *

تريدين مثل جميع النساء .
 تريدين منى نجوم السماء .
 وأطباق مسن .
 وأطباق سلوى . . .
 وخففين من زهر الكستناء . . .
 تريدين . . .
 من شغهاى الحرير . . .
 ومن أصفهان .
 جلود الفراء .
 ولست نبيياً من الأنبياء . . .
 لألقى عصاى . . .
 فينشقّ بحر .
 ويولد بين الغمام قصر .
 جميع حجارته من ضياء . . .

* * *

تريدين مثل جميع النساء . . .
 مرواح ريش .
 وكُحلاً . . .
 وعطراً . . .
 تريدين عبداً شديداً الغباء . . .
 ليقرأ عند سيرك شعراً . . .
 تريدين . . .
 فى لحظتين اثنتين . . .
 بكلاط الرشيد . . .

وإيوان كِسرى
 وقافلة من عبيد وأسرى .
 تعجر ذبولك
 يا كليو بتر
 وامت أنا
 سندباد الفضاء
 لأحضر بابل بين يديك .
 وأهرام مصر
 وإيوان كِسرى
 وليس لدى سراج علاء
 لآتيك بالشمس فوق إناء
 كما تتمنى . . . جميع النساء . . .

* * *

وبعد
 أيا شهر زاد النساء
 أنا عامل من دمشق . . . فقير .
 رغبني أغمسه بالدماء
 شعورى بسيط
 وأجرى بسيط
 وأومن بالخبز والأولياء
 وأحلم بالحب كالآخرين
 وزوج تخيط ثقوب ردائي
 وطفل ينام على ركبتي
 كعصفور حقل
 كزهرة مساء
 أفكر بالحب كالآخرين

لأن المحبة مثل الهواء . . .
 لأن المحبة شمس "تضيء" . . .
 على الحالمين وراء القصور . . .
 على الكادحين . . .
 على الأشتياء . . .
 ومنْ يملكون سرير حرير . . .
 ومنْ يملكونَ سرير بُكاء . . .

* * *

تريدون مثل جميع النساء . . .
 تريدون ثامنة المعجزات . . .
 وليس لدى . . .
 سوى كبريائي . . .

... أكاد أشعر ، والطبعة الثانية من هذا الكتاب بين يدي القراء - أن ثمة ثغرات بين صفحاته لم تسد ، وفجوات لم تملأ ، ولا سيما في قسم التراجم .. فكثيرون ممن لهم آثار مطبوعة أو مخطوطة : أدباء وشعراء ومفكرون كان يجب أن أعرض لهم وأن أعطي القارئ نماذج عن أدبهم .. ولكن لم يتم ... وهذا نقص لا يد لي فيه ..

فحين حاولت تذليله نقصتي المصادر ، وبعضهم لم يجب على رسائي .. قد يقول قائل إن هذا العذر لا ينجي المؤلف من التقصير أو العتاب - عتاب القراء وعتاب الأدباء الذين ساهم بعضهم في الحركة الفكرية . فكتب وأنتج إنتاجاً حسناً ، وبعضهم قدّم للمكتبة العربية نفحات من المنظوم والمنثور ، إلى دراسات منهجية يفيد منها طلاب الأدب ، وتؤرخ بعض مظاهر الحياة الأدبية وهو عتاب مرّ ، يهزّ ، علم الله ، ضميري كإنسان تصدّي لهذه المحاولة ، وأرجو مخلصاً أن أتبع هذا الكتاب بجزء تال أضمنه لمحات واسعة عن أدبهم . وما أنتجوه من رسائل وكتب ، وما نشره من ذخائر سواء منهم الأدباء الذين يعيشون في البيئة الجامعية أو في غيرها من البيئات .

* * *

وإذا كان لا بدّ من الإلماع إلى الأسماء الذين وددت أن أسلكهم إلى جانب زملائهم، فلاذكر على سبيل التمثيل لا الحصر الأساتذة الدكاترة : إبراهيم الكيلاني ، أمجد الطرابلسي ، شكرى فيصل ، حكمت هاشم ، شاكر مصطفى ، محمد المبارك ، عبد الله عبد الدايم ، سامى الدروبي ، صالح الأشر ، عبد الكريم الأشر ، محمد روى فيصل ، عبد المعين الملوحي ، عادل العوا ...

ومن الشعراء : سليم الزركلي ، عمر النص ، رفيق فخورى ، عمر أبو قوس . نديم محمد ، وغيرهم وغيرهم ممن أسهموا ، ولا يزالون يسهمون في الحركة الفكرية المعاصرة ...

وفي هذا الإلماع اعتراف بفضل هؤلاء الذين أضمر لهم كل ود وتقدير ،
واعترف بوجود ثغرة في الكتاب لخلوة من الإشارة إلى ما أنتجوه . . .

٢

لقد عرف القارئ من مقدمة هذا الكتاب أنني عرضت لثلاث مراحل من
الحياة الأدبية خلال قرن « ١٨٥٠ - ١٩٥٠ » وهي مراحل ترينا بوضوح تطور
الحياة الفكرية بشتى مظاهرها ، إلى تطور النثر وتطور الشعر فيما كتبه الكتاب
ونظمه الشعراء . . .

فالحركة الأدبية ، خلال هذه الفترات ، ولا سيما بعد الحرب العالمية الأولى وحتى
نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩١٩ - ١٩٤٥) ^(١) لم يتوقف سيرها وعطاؤها - سيرها
المتشد تارة والمنطلق تارة أخرى ، فقد رافقت سير الزمن ، وقبست من هنا وهناك ،
ومن أدب الغرب بصورة خاصة ، إلى تصوير حياة المجتمع العربي في نضاله وكفاحه ،
وما يعتلج في ضمير الإنسان العربي من هموم ومشاكل . قومية وإنسانية ، وإلى
ما هدف إليه من نزعات مثالية تربط بين ماضيه المشرق ومستقبل يريد أفضل ...
وبدون الإشارة إلى الصراع الذي احتدم بين المحافظين والمجددين ، أو بين الشيوخ
والشباب ، وهو صراع أعطى الفكر العربي الكثير من الثمرات ، فقد تميز أدب الفئتين
بالروح العربية العارمة التي لم تنأ قط عن سيرها القومي والاجتماعي . وحتى الإنساني .
ففي عالم الشعر .. وفي عالم القصة والرواية اتجاهات ذات مدلول أوضح لتصوير
حياتنا بشتى ملابساتها ومختلف تياراتها . .

* * *

ومن هنا نستطيع أن نقرر ؛ أن الحركة الأدبية المعاصرة في سورية سارت

(١) الحرب العالمية الأولى « ١٩١٤ - ١٩١٨ » وقد دارت بين الدول الحليفة « بريطانيا ، فرنسا ،
الولايات المتحدة ، روسيا ، إيطاليا ، اليابان ، البلجيكي ، صربيا ، الجبل الأسود ، اليونان ، رومانيا ،
البرتغال » ودول الوسط « ألمانيا ، أستريا والمجر والسلطنة العثمانية وبلغاريا » . والحرب العالمية الثانية « ١٩٣٩ -
١٩٤٥ » دارت بين بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وحلفائها من جهة ، وألمانيا وإيطاليا واليابان من
جهة أخرى .

متجاوبة ومنطلقة مع مصر في نزعاتها التحريرية المطلقة ، والمعبرة عن خصائص هذه التربة : أرضها وسمائها ، وخصائص الإنسان العربي الذي يعيش في خضم الأحداث ، إلى متابعة التيارات المتطورة في الأدب العالمي . .

* * *

قد يقول قائل : أين أنت من هذا الغناء الذي يقذفه متأدبون ما زالوا في بداية الطريق ، وقد حسبوا هراءهم الذي ينقصه عمق التجربة وإشرافه الأسلوب والفهم الصحيح لرسالة الأدب — حسبوا أدبهم الغث المائع الذي يصور هواجسهم الجنسية وأحلامهم الرومانطية هو الأدب الذي يخلد ، وما دونه أدب مومياء — أدب ميت تنقصه رعشة الحياة ! . . .

ولا بأس هنا من وقفة قصيرة حول أدب الشباب . .

٣

بعض شيوخ الأدب المتزمتين يذهبون مذاهب مختلفة حول أدب الشباب ... وكثيراً ما يصفون أدبهم بالميوعة والترخص . . . وليس هذا فقط بل يأخذون عليهم ضعف اللغة وهلهلة الأسلوب وبعدهم عن أصول العربية الصحيحة . . . وقد يعيبون عليهم ضحالة ثقافتهم الأدب القديم وأخذهم بالقشور مما تنشره الصحف من آراء فطيرة . . .

ربما كان هذا الذي يقولونه على حق مع الكثرة المطلقة من الشباب الذين دخلوا ميدان الأدب الفسيح وهم خليون من أبسط أدواته ، غير مزودين بما يجب أن يتزوّد به الأديب الذي يفرض عليه أن يعرف لغته تمام المعرفة ، وأن يقرأ الأدب القديم قراءة فهم ووعي ، وأن يقف وقفات طويلة مع الشعراء والأدباء بدءاً من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث . . .

أقول قد تكون نظرة شيوخ الأدب نحو الكثيرين من أدباء الشباب صحيحة ، وعلى حق ، ولكن ليسوا كلهم من هذا النمط . . .

فأنت تقرأ اليوم لشباب مغمورين ليس لهم هذا الدوى في مملكة الألقاب

الخواوية — تقرأ أدباً تتدفق النضارة والحيوية من كلماته ، يجمع بين رشاقة الأسلوب وأناقة الفكر ، إلى تجاوب عميق مع الأحداث التي تواجه الإنسان العربي في شتى مشاكاله القومية والإنسانية — تقرأ ألواناً من أدب المقالة ، إلى نفحات عطرة من الشعر ، إلى قصص وتمثيلات — وكلها براعم جميلة تتفتح عن أزهار ذات عبق — أدب يمثل ظاهرة حية من ظواهر التطور في التفكير والتعبير . . .

ومرة ثانية أقول لئن تعثر الكثيرون في التعبير عن خوالجهم بلغة صحيحة ، وكان أسلوبهم ينأى عن الفصحى ، فليسوا كلهم ذلك . . .

إن أدب أولئك — الأدب المهلهل ، الضعيف ، المائع — لا يكاد يولد حتى يموت .. أما الذين صقلت الثقافة الأدبية ملكاتهم ، وعبوا من الأدب القديم حتى الثمالة ، وتجاوبوا مع التيارات الفكرية المعاصرة تجاوباً عفويّاً ، ومركزاً على دعائم من الآداب الحية بحيث استطاعوا أن يعبروا عن أفكارهم بسهولة ويسر ، فلا مبرر للازدراء لأدبهم لأنهم شباب .

فالقطة الأدبية حين تستكمل عناصرها من حيث المعنى والمبنى ، كما يقول القدماء ، والشكل والمضمون كما يقول المحدثون — كالقطة الأثرية النفيسة سواء بسواء ...

وكما تحتل القطة الفنية ، قديمةً كانت أو حديثة — مكانتها في المتاحف — تدخل القطة الأدبية مملكة الأدب وقصورها الرحبة لتأخذ مكانتها بزهو واطمئنان ، ولا فرق أكان كاتبها شيخاً في الثمانين من عمره أم شاباً في الثلاثين . .

لهذا أقول إن نظرة الهزؤ والسخرية التي ينظر بها بعض الشيوخ إلى أدباء الشباب هي نظرة يجانبها الصواب .

فبعضهم وهم غير قليلين ، يملكون كل أدات الأدب ، يعبرون عن « ذواتهم » وعن « مجتمعهم » بكثير من الصدق ، ولا عبرة إذا اختلفت آراؤهم عن آراء من عاشوا قبل نصف قرن ، فمط الحياة في تغير مستمر . . . المهم الصدق في التعبير . . .

فحين يعبرون عن قلقهم وشكوكهم ، عن حبههم وبغضهم ، عن تفاؤلهم وتشاؤلهم — حين يعبرون عن شتى الظواهر التي تمس « ذواتهم » و « مجتمعهم » لغة صحيحة وأسلوب رشيق وعاطفة زاخرة وشعور متقد صادق فليس لنا أن ننكر

أدبهم وأن نعتبره غثاء : بل علينا أن نرحب به ، لينمو ويزدهر ويعطى أكله
وثمراته . . وأن نفسح المجال للمواهب الندية أن تأخذ طريقها لتتألق . . ولتبدع
وتخلق . . .

٤

إن أكثر ما استهوى الشباب من فنون الأدب : القصة والشعر . . واجتذبتهم
القصة أكثر . . .

منهم من كان ذا موهبة قصصية فأجاد بعض الإجادة ، ومنهم من جانبهم
التوفيق . . .

وقد قرأ أكثرهم الكثير من قصص الغرب . . « المترجم منها بصورة خاصة » ،
وما كتبه عمالقة القصة في مصر . . فاحتذوهم وحاولوا أن ينهجوا نهجهم ، ولا سيما في
القصة القصيرة . . فتعثروا ولم يبلغوا شأوهم . .

وفاتهم أن كتابة القصة ليست بالأمر السهل . . وقد تكون أصعب فنون الأدب ،
وفي محاولة قمنا بها في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب لإجراء مسابقة
للقصة الطويلة — الرواية — وأعلنا عنها أكثر من مرة ، ولدد طويلة ، لم نظفر
إلا ببضع روايات لم تصل إلى المستوى الفني الرفيع . .

وقد يكون من المفيد لتاريخ الأدب أن أشير هنا إلى الملابس التي مرت بها
هذه المسابقة التي اشترط فيها :

أولاً : ترك للمؤلف مطلق الحرية في اختيار موضوع الرواية على ألا يخل
بالقيم الخلقية والقومية . .

ثانياً : ألا يكون النتاج المقدم مقتبساً أو مترجماً .

ولدى درس الروايات المقدمة ، وكان عددها إحدى عشرة رواية ، استبعدت
سبع روايات ، اعتبرتها اللجنة دون المستوى المطلوب ، إلى إخلال بعضها بشروط
المسابقة وبالقيم الخلقية بصورة خاصة . . .

ثم نوقشت الروايات ، وبعد جدال طويل حول أساليبها وموضوعاتها وطابعها
الفني منحت الجوائز لمستحقيها . . أو « للمحاولات التي لا تخفى فيها طلائع

الإبداع» وقد أشارت اللجنة في تقريرها إلى ظاهرة ضعف الإمام باللغة العربية وإلى العديد من الأخطاء النحوية في معظم الروايات المقدمة للمسابقة . .

ثم ، وهذه ناحية تمسّ العمل الفني مباشرة « الطابع الذاتي الضيق » و « اعتماد التجربة الحياتية الفجة » و « ظهور الجنس بمستوى المراهقة » مما « أضعف العمل الفني وضيق أفقه وحرمه من بعده الإنساني » .

ومع الاستبشار بهذه المحاولات لاحظت اللجنة : ضعف الثقافة الروائية ، وتأثرها بالترجمات الرائجة في السوق ، دون التوسع والتعمق من طريق المراجع الأمهات بلغاتها الأجنبية .

وانتهت، بعد هذه الملاحظات إلى بسط وجهة نظرها بالتقرير الذي أثبت نصه لأهميته :

« إن اللجنة إذ تشير إلى المستوى الجيد الذي بلغه فن الرواية ، على يد المتقدمين لجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، مما يدعو إلى الاستبشار والتفاؤل ، ترى من واجبها ، من جهة ثانية ، أن تشير بصفة خاصة إلى ناحيتي ضعف في البناء الفني الروائي السوري ، لا بدّ من تداركهما ، ومعالجتهما ، والتأكيد عليهما .

الناحية الأولى : في لغة الرواية

والناحية الثانية : في ثقافتها العامة

ففي الناحية الأولى :

رأى اللجنة أن لغة الإنشاء الرائي ، لغة ضعيفة ، — على سلاستها — مترددة غير متمكنة من أسباب قوتها وحسن تصرفها ، وأغلب الظن أنها تكونت لدى الروائي من مختلف الترجمات الروائية إلى اللغة العربية ، وهي لغة معظمها سقيم ، وحرفي ، وتجاري . صاغها مترجمون غير متمكنين بأنفسهم من لغتهم ، وغير متمكنين ، في الوقت نفسه ، من أسرار اللغة التي يترجمون عنها ، وهذه الروايات المترجمة تملأ أسواقنا الأدبية التجارية ، وبها وحدها يتأثر روائيونا الجدد . .

وعلى هذا ، فاللغة العربية الروائية « مسوقة » تسويقاً سريعاً من هنا ومن

هناك عن طريق الترجمات ، دون أن يكون للروائي من قبل قاعدة لغوية صالحة للانطلاق تغنيه فعلا عن عملية « التسوق » السريعة غير الواعية .

وترى اللجنة من واجبها أن تؤكد على أهمية إغناء اللغة العربية بالعمل الفني فلا يقتصر هذا العمل على مجرد إتقان « التقنية » الوائية المكتسبة بممارسة المطالعة والتأثر بها مباشرة

إن الروايات الكبرى في أية لغة من لغات العالم ، كما يقول تاريخ الأدب العالمي ، قد أسهمت إسهاماً فعلياً في تفجير طاقة اللغة من جهة ، وإغائها وتطويرها من جهة ثانية ، فكان الروائيون الناجحون على قدر كبير من الاهتمام بلغتهم وإتقانها وحبها ، في سبيلهم إلى إتقان « العمل الفني » بالذات . أما أن يترك تكوين اللغة العربية الفنية ، لتأثير الترجمات السقيمة ، فليس ذلك إلا إساءة إلى اللغة ، وخنقاً لمحاولات الإبداع الفنية ، التي لا يمكن أن تزدي إلى « إبداع » إلا عبر لغة قادرة على الإبداع .

وفي الناحية الثانية :

تلاحظ اللجنة أن هذه الروايات المترجمة بالذات ، لا يقتصر تأثيرها على تكوين لغة سقيمة ، لدى من ليس لديهم زاد لغوي قاعدى من المؤلفين ، بل هي تشكل كل زادهم الثقافى والفنى ، بحيث تضرب حولهم نطاقاً ضيقاً من الأفكار والمصطلحات والأساليب وأنماط الحياة وأزياء المجتمع ، فلا يستطيعون تجاوز النطاق المضروب ، إلى مصطلحات وأساليب وأزياء قسوها من حياتهم ومجتمعهم وتقاليدهم وكل ما فى بيئتهم .

لا تنكر اللجنة أن « الترجمات الروائية » قد حركت مواهب الفنانين الروائيين وأغنت حركتهم الروائية ونوعتها ، ونفخت فى أشعتها ، ولكن من المؤكد أن مؤلفينا باقتصارهم عليها ، أو بقصر ثقافتهم العامة عليها - والثقافة العامة ليست ثقافة روائية فحسب - قد أخضعوا أنفسهم لقولها وأفكارها إخضاعاً ، يبدو أحياناً أنه خائق للمواهب بدلا من أن يكون مطلقها ومحررها ومفجرها ، فإذا علمنا أن معظم الروايات المترجمة ، إنتاج تجارى ينشد الرواج عن طريق الإثارة ، وأن جزءاً كبيراً من الأدب العالمى غير منقول

إلى اللغة العربية من رواية وشعر وثقافة عامة — أدركنا أية خسارة تلحق بأدبنا الناشئ ، وهو يترسّم خطى نوع من « الإنتاج » سائد وحده ، عندما لا يكون هذا الأدب ملماً بلغة أجنبية عالمية ، أو عندما لا ينشد الثقافة العامة ، إلا عن طريق (الفن الروائي) وحده .

من هنا نلاحظ أن الاستغراق والغرق في الجنس ظاهرة سائدة في أدبنا الروائي ، تحت تأثير المطالعات الروائية المترجمة الرائجة ، أكثر مما هو من تأثير البيئة والحياة والمجتمع حولنا ، ومع التسليم بأن الجنس « الأروتيزم » موجود في كل أدب ، فمن المسلم به أيضاً أن التعبير عنه ، يختلف في وسط ، عنه في وسط آخر ، وفي أدبنا الجنسي ، الذي طالعنا نماذج منه في الروايات المتقدمة للمسابقة ، يلاحظ بوضوح أنه خاضع ذهنياً لتأثير المطالعات والتلقيح بها ، أكثر مما هو انفعال مفتوح على مشاكل الحياة التي نحيها ، والبيئة التي نخضع لمؤثراتها ، فإذا أضيف إلى هذا « التأثير الذهني » أن تجربة كاتب الرواية الجنسية — تجربة ضيقة تافهة لا يتجاوز خطها غرفة الطالب ومدرسته ورفاقه من إناث وذكور ، وخمارة البلد ، أدركنا كيف يأتي الإنتاج الروائي في حدود مذكرات ومغامرات شخصية غير ذات أفق ، وغير ذات عمق .

واللجنة إذ تتأمل ملياً في هذا الإنتاج الجنسي ، لا تلومه على أنه « غير أخلاقي » فحسب بل لأنه أيضاً غير معبر تعبيراً فنياً ملائماً لأحوال الوسط العربي الذي نعيش فيه ، إذ ليس من « الفن » ومن « الأخلاق » في شيء ، أن يطمح أديبنا أن يكون مؤلف « عشيق اللادى تشاترلى » وعلى الأخص عندما يطمح إلى نيل جائزة مؤسسة رسمية ، في بلد عربي .

واللجنة بعد كل هذا ، وهي تبدي تحفظاتها إزاء بعض الأعمال الفنية المقدمة للمسابقة ، ترى لزماً عليها الإشادة بالعملين الروائيين اللذين فازا بالجائزة الأولى^(١) ، وبالجائزة الثانية^(٢) ، ليس لأنهما قد اختارا موضوعين جليلين من صميم تاريخنا وحياتنا ونضالنا وآلامنا ، فأحسننا كل الإحسان ،

(١) الفائز بالجائزة الأولى فارس زرزور على روايته « حسن جبل » .

(٢) والفائز بالجائزة الثانية : سلامة عبيد على روايته « أبو صابر »

وجود اكل التجويد ، بل لأن الجمال الفنى ، جاء متمماً لجلال الموضوع أيضاً .
 وكان واضحاً أن العمل الفنى ، قد ألزم المؤلفين الفائزين بجهود كبيرة
 بذلاها فى التدقيق والتقصى ، والدراسة المساعدة لإبراز واقعية الحدث وصدقه ،
 وعفوية الحركة وانطلاقها ، بلا تزوير أو تصنع ، فاستحقا شكر اللجنة وتقديرها .
 ١٩٦٦/٢/٢١

صدق إسماعيل ، أنطون مقدسى ، خليل هنداوى ، إلفة أدلبى ، سامى الكيالى ،
 فؤاد الشايب .

* * *

هذا التقرير ، وقد كتب بكثير من الدقة والتحفظ ، يُعطى أبلغ صورة عن
 القصص السورى الذى دخل ميدانه الشباب .
 وهو يمسّ الكثيرين ممن دخلوا المسابقة أو الذين عزفوا عن دخولها .
 وما زالت دوايب المطابع تقذف القصص المتباينة الأهداف لناشئين أو الذين
 تمرسوا على كتابة القصة ، ومنهم من سلك الطريق السوى وأخذ يعالج مشاكل
 المجتمع العربى وقلق الإنسان العربى والتيارات التى تواجهه بلونها العابس المكفهر
 تارة ، والباسم المشرق أحياناً ، ولم يفث البعض أن يجعل محور قصص الكفاح
 العربى فى سبيل التحرر والسيادة ، والثورات الجارفة التى قلبت الكثير من
 المفاهيم ، ونكبة فلسطين ، والإقطاع والرأسمالية وفوارق الطبقات والنزعة الاشتراكية
 والكثير من الظواهر التى مست حياتنا ومجتمعنا . إلى غير ذلك من تصوير للهواجس
 الذاتية والأهواء الوجدانية والكبت الجنسي . . .

هذه الموضوعات وهى ذات اتصال وثيق بحياة مجتمعنا المتطور ، ولا سيما
 فى العقدين الستين والسبعين من هذا العصر ، أى عقب منتصف القرن العشرين
 مباشرة ، وهى ألوان واضحة كل الوضوح ومادة خصبة للرواى ، وبالرغم من كل
 هذا الخصب الثرى لم يستطع أحدهم أن يعطينا رواية اتسمت بالإطار الفنى الذى
 يجعلها تعيش فى أذهان القراء لشهور وأسابيع ، بله سنوات ! .

على أن هذا لا يمنع أن يحظى أدبنا قريباً بمجموعة من القصص والروايات
 تسجل كل هذه الظواهرات وتقف إلى جانب رواة القصص العالمية .

وهذا ما نرجوه مخلصين (١) .

* * *

في رأي لأديب معاصر قوله (٢) : « إن الروايات من أسرع أشكال الفن زوالاً ، لأنها ذات صلة قوية بالأحداث الجارية ، وقد حدد عمرها بالشكل الآتي :

١ - روايات تعيش الأشهر الأولى التي يستغرقها نفاذ الطبعة الأولى

٢ - روايات تموت في مدى سنتين

٣ - روايات يصيبها المرض في سنتين

(١) أشير هنا إشارة عابرة إلى ما صدر من قصص وروايات وتمثيلات للأدباء الشباب الذين دخلوا الميدان القصصى بروح منطلقة وشعور جياش ترفد أكثرهم ثقافة ذات اتصال وثيق بثقافة العصر وبما ينتجه أعلام كتاب القصة .. وهو الإنتاج الذى صدر بين سنة ١٩٥٠ وسنة ١٩٦٧ فقد أصدر إسكندر لوقا « حب في كنيسة » و « ليلة قمراء » و « العامل المجهول » و « أنصاف مخلوقات » و « نافذة على الحياة » و « رأس سمكة » و « النفق والأرقام » وأصدر حبيب الكيالى « مكاتيب الغرام » و « أجراس البنفسج » و « مع الناس » و « أخبار من البلد » و « قارعو الأبواب » عدا بعض تمثيلات نشرت مسلسلة في الصحف اليومية ، وأصدر سعيد حورانية « وفي الناس المسرة » و « شتاء قاس آخر » و « ستان وتحترق الغابة » وأصدر ياسين رفاعية « الحزن في كل مكان » و « جراح » و « العالم يفرق » وأصدر فاضل السباعي « الشوق واللقاء » و « ضيف من الشرق » و « مواطن أمام القضاء » و « الليلة الأخيرة » و « نجوم لا تحصى » و « ثريا » و « ثم أزهى الحزن » و « الظنم والينبوع » وأصدر عادل أبو شنب « عالم ولكنه صغير » و « زهرة استوائية في القطب » و « الثوار مروا بيننا » وأصدر جان الكسان « نداء الأرض » و « أعواد البنفسج » و « نهر من الشمال » وأصدر نزار مؤيد العظم « سلاسل الماضي » و « ستة عشر عاماً وأكثر » وأصدر مراد السباعي ملهات في ثلاثة فصول عنوانها « شيطان في البيت » إلى مجموعة قصص قصيرة وأصدر وليد إخلاصى « العالم من قبل ومن بعد » - مسرحيتان . و « شتاء البحر اليابس » ومجموعة « قصص » وأصدر عدنان الداعوق « ذات الخال » و « سترشق الشمس زرقاء » و « السمكة والبحار الزرق » وأصدر وليد مدغنى « غروب في الفجر » و « مذكرات منحوس أفندى » وأصدر زكريا تامر « صهيل الخواد الأبيض » وأصدر فارس زرزور « حتى القطرة الأخيرة » وأصدر نواف أبو الهجا « والحيمة أيضاً » و « الطريد » وأصدر محمد حيدر « العالم المسحور » وناشد سعيد « مآرب أخرى » ومحمد الراشد « المحمومون » وهاني الراهب « المهزومون » .

وهناك غير واحد من الشباب لم أطلع على إنتاجهم القصصى . وقد تناول الأستاذ عدنان بن ذريل تاريخ نشوء القصة في سورية وتطورها خلال قرن كامل ، فرصد ألوان هذا التطور على ضوء ما صدر من قصص وروايات في عقود متتابعة ، وقد نقد وحلل واهم أكثر ما اهتم به بإنتاج كتاب القصة للشباب بعد منتصف القرن العشرين ، أما قبل ذلك فقد اعتمد على الأستاذ شاكر مصطفى في كتابه « القصة في سورية »

(٢) كورنيليوس هيرشبرغ : رائد الثقافة العامة ص ١٥٨ .

٤ - روايات تبقى حية

٥ - روايات تستمر ويقرأها الناس في الجيل الذي يتبع موت مؤلفها

٦ - روايات امتدت بها الحياة إلى أبعد الحدود

٧ - روايات يمتدّ بها البقاء لميزات فيها نفسها .

* * *

لقد استرسلت في الإلماع إلى ظاهرة الفن الروائي أكثر مما قدرت ، وعلى كل فإن الموضوع على جانب غير قليل من الأهمية ، وهو اليوم عنصر قوى في حياتنا الأدبية .

وكل ما أرجوه أن يأخذ هذا الفن طريقه إلى النمو ، وأن يتاح للقصة السورية أن تخلد وأن تمتدّ بها الحياة إلى أبعد الحدود .

٥

ثمّة ظاهرة في أدبنا المعاصر من واجب المؤرخ أن يشير إليها ، وهي « الأدب النسائي » - لا أريد الأدب الذي يتناول شئون المرأة ، بل الميدان الذي اقتحمته سيدات أعطين الأدب زهرات عبقة .

إن إضفاء صفة « الأدب النسائي » على ما تدبجه براعة الكاتبات الأدبيات هو ، في اعتقادي ، خطأ فادح ، وما من واحدة إلا وتتناول قضاياها بنفس النزعة التي يعرض لها الكتاب . . .

ودخول المرأة السورية ميدان الأدب ظاهرة جديدة ، فقد ظلّ هذا الميدان خالياً سنوات طويلة من عنصر المرأة .

حتى إذا دخلت المدرسة وأخذت تقرأ وتثقف نفسها وتتجاوب مع المجتمع في تطوره ، وفي اندفاعه نحو المعرفة . . انجذب بعضهن إلى الحياة الأدبية . وأخذن في الإنتاج ، وإذا بنا مع غير واحدة يجارين الأدباء في المنظوم والمثنو . . وكان للقصة أثرها في نفوسهن ، وقد تكون المرأة أقدر من الرجل في رواية أحداث المجتمع ، وأحداث مجتمعهما النسائي بصورة خاصة .

وفى طليعة اللواتى دخلن الحياة الأدبية بروح منطلقة « مريانا مراش » و « مارى عجمى » و « وداد سكاكيني » ، وقد أشير إليهن وأعطى نماذج من أدبهن فى صلب الكتاب .

ثم جاءت بعدهن فلك طرزى التى لم تكد تشعّ حتى خبا نورها ، ولم يعد يُسمع لها صوت ، ولو تابعت السير لأعطت الأدب نتاجاً حسناً .

ومن أديبات دمشق اللواتى انجذبن إلى عالم القصة السيدة إلفة أدلى التى صورت فى قصصها البيئة الشامية تصويراً غاية فى الدقة والبراعة و « الواقعية » ، فقد نشرت عدة قصص ولا يزال إنتاجها وفيراً ، فن مجموعاتها القصصية : « قصص شامية » و « وداعاً يا دمشق » و « المنوليا وقصص أخرى » .

والسيدة سلمى الحفار الكزبرى التى تنوّع لون أدبها من قوى ، إلى تصويرى إلى قصص ، وقد نالت القصة من ذاتها الجانب الأكبر فصدر لها « حرمان » و « زوايا » و « عينان من أشيلية » .

وكوليت سهيل الخورى التى صدر لها « أيام معه » و « ليلة واحدة » و « أنا والمدي » إلى دواوينها باللغة الإفرنسية : « عشرون عاماً » و « رعشة » .

وغادة السمان التى صدر لها « عيناك قدرى » و « لا بحر فى بيروت »

وأم عصام ، وقصصها منشورة فى الصحف والمجلات ، وهيام نويلاتى ، وقمر كيلانى ، وأميرة الحسنى ، وجورجيت حنوش فى روايتها « ذهب بعيداً » و « عشيقه حبيبى » ، ولىلى الياقنى فى روايتها « الثلوج تحت الشمس » وغيرهن كثيرات ..

وإن دلّ هذا على شىء فعلى دخول العنصر النسائى ميدان حياتنا الأدبية وتجاوبه مع حياتنا الفكرية فى شتى مظاهرها . .

وكما عرفت حياتنا الأدبية غير واحدة ممن عاجلن القصة فقد عرفت غير واحدة ممن عاجلن الشعر .

وفى طليعتهن الدكتورة طلعة الرفاعى وعزيرة هارون . .

ولكل واحدة صورها المعبرة عن « الذات » و « المجتمع » . . وقد شاركنا فى شتى المناسبات القومية والاجتماعية ، ولم يخل شعرهن من نبضات حية وندمات

جلوة في التعبير عن هواجسهن . ومع أن لدى كل واحدة محصولا يؤلف أكثر من ديوان فما زال شعرهن مبعثراً في حقول الصحف والمجلات . . .

٦

وبعد ، فأقف في كلمتي الختامية عند هذا الحد لأقول مرة ثانية إن ثمة ثغرات في هذا الكتاب لم تسدّ وفجوات لم تملأ ، وإن المجال ، إذا كتب الله لنا الحياة ومدة في العمر ، أن أستدرك هذا كله في جولة واسعة مع من لم يرد ذكرهم من الكهول والشيوخ ، وجولات أوسع مع أدباء الشباب الذين يختلف أدهم كل الاختلاف عن تقديمهم ، فهم يؤرخون بحق فترة جديدة من حياتنا وحياة مجتمعنا في تطوره واندفاعه نحو حياة أفضل .

والأدب هو صورة من حياة الأمة في شتى ظواهر حياتها ، يعبر بصدق عن خواجلها ونوازعها ونبضاتها وثوراتها وتحولاتها الاجتماعية والفكرية ، والشباب يؤرخون كل هذا فيما يكتبونه وما ينشرون من كتب ودواوين وقصص وتمثيلات .

ومهما قيل في أدبنا المعاصر فهو صورة صادقة من حياة أمتنا التي كافحت ولا تزال تكافح في سبيل حياة حرة كريمة — حياة تعطي الإنسان العربي حقوقه وتصون سيادته ، وتفسح له المجال لبدع ويخلق كلمات طيبة تضاف بمحتواها ومضمونها إلى التراث الإنساني . وهذا أقصى ما يحلم به الأديب . وأقصى ما تعتز به أمة حية ذات ماض مشرق يؤدي أدباؤها رسالة القومية العربية ورسالة الحضارة الإنسانية بإيمان وإخلاص .

الفهرس

| الصفحة | الموضوع | الصفحة | الموضوع |
|--------|--------------------------|--------|-------------------------|
| ١٨١ | عبد المسيح الأنطاكي | ٥ | تقديم للدكتور طه حسين |
| ١٨٧ | الأب جرجس منش | ٧ | مقدمة للأستاذ شفيق جبرى |
| ١٩٣ | محمد كرد علي | ٩ | الحركة الأدبية فى سورية |
| ٢٠٣ | سليم الجندى | ٤٢ | رزق الله حسنون |
| ٢١١ | الشيخ بدر الدين النعسانى | ٥٣ | فرنسيس المراس |
| ٢١٥ | ساطع الحصرى | ٦٠ | جبرائيل الدلال |
| ٢٢٠ | محمد البزم | ٧٢ | عبد الله مراث |
| ٢٢٦ | مارى عجمى | ٧٧ | الدكتور لويس صابونجى |
| ٢٣٧ | عزالدين التنوخى | ٨٦ | الشيخ إبراهيم الخوراني |
| ٢٤١ | محمد الفراتى | ٩٣ | مريانا المراثش |
| ٢٥٠ | معروف الأرنؤوط | ١٠٠ | الشيخ طاهر الجزائري |
| ٢٥٨ | خير الدين الزركلى | ١٠٣ | الشيخ كامل الغزى |
| ٢٦٨ | جورج صيدح | ١٠٨ | ميخائيل الصقال |
| ٢٨٠ | خايل مردم بك | ١١٧ | عبد الرحمن الكواكبي |
| ٢٨٧ | على الناصر | ١٢٨ | أديب إسحق |
| ٢٩٩ | الأمير مصطفى الشهابى | ١٣٣ | سليم عنحورى |
| ٣٠٤ | شفيق جبرى | ١٣٧ | الشيخ بشير الغزى |
| ٣١٦ | بدر الدين الحامد | ١٤٣ | قسطنطين الحمصى |
| ٣٢٦ | نظير زيتون | ١٤٨ | رفيق العظم |
| ٣٣٤ | جميل صليبا | ١٥٤ | جمال الدين القاسمى |
| ٣٣٩ | عمر يحيى | ١٥٨ | عبد القادر المغربى |
| ٣٤٦ | محمد سليمان الأحمد | ١٦٥ | حنا خباز |
| ٣٥٧ | خليل الهنداوى | ١٦٦ | فارس الخورى |

| الصفحة | الموضوع | الصفحة | الموضوع |
|--------|--------------------|--------|---------------------|
| ٤١٠ | وداد سكاكيني | ٣٦٢ | قسطنطين زريق |
| ٤١٥ | عدنان مردم بك | ٣٦٨ | عمر أبو ريشة |
| ٤١٩ | عبد السلام العجيلي | ٣٧٦ | الدكتور جميل سلطان |
| ٤٢١ | صلاح الدين المنجد | ٣٨١ | زكي المحاسني |
| ٤٢٩ | بديع حقي | ٣٨٧ | فؤاد الشايب |
| ٤٣٤ | سليمان العيسى | ٣٩٣ | عبد الله يوركي حلاق |
| ٤٣٨ | نزار القباني | ٣٩٩ | سامي الدهان |
| ٤٥٠ | كلمة ختامية | ٤٠٤ | أنور العطار |

الأدب العربي المعاصر في سورية

لأول مرة يكتب تاريخ الأدب في سورية خلال قرن كامل من ١٨٥٠ إلى ١٩٥٠ ؛ فقد عهدت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية إلى الأستاذ سامي الكيالي في كتابة تاريخ هذه الفترة من الحياة الأدبية في سورية فقام بالمهمة خير قيام وأرخ للحياة الفكرية والحياة الأدبية معاً ، وترجم لصفوة كبيرة من أعلام الفكر فجاء الكتاب صورة دقيقة لحياة الأدب في سورية ومرجعاً ثباتاً لمعرفة الكثير من خصائص أدباء سورية ومنازعهم إلى مختارات من شعرهم ونثرهم .

مكتبة الدراسات الأدبية

صدر منها :

- | | |
|---|---|
| ١ - مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية | ٢٤ - الغفران |
| ٢ - شعراء الرابطة القلمية | ٢٥ - التفسير البياني للقرآن الكريم |
| ٣ - شوقي شاعر العصر الحديث | ٢٦ - في النقد الأدبي |
| ٤ - الأدب العربي المعاصر في مصر | ٢٧ - النيل في الأدب المصري |
| ٥ - فارس بن عيس | ٢٨ - الجاحظ (حياته وآثاره) |
| ٦ - ألف ليلة وليلة (دراسة) | ٢٩ - اتجاهات في الشعر العربي في القرن الثاني الهجري |
| ٧ - خليل مطران شاعر الأقطار العربية | ٣٠ - الخطابة العربية في عصرها الذهبي |
| ٨ - الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي | ٣١ - ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق |
| ٩ - منهج الزخشي في تفسير القرآن | ٣٢ - تطور الرواية العربية الحديثة في مصر |
| ١٠ - التطور والتجديد في الشعر الأموي | ٣٣ - القصة في الأدب الفارسي |
| ١١ - دراسات في الشعر العربي المعاصر | ٣٤ - الأدب الصوفي في مصر |
| ١٢ - شوقي وشعره الإسلامي | ٣٥ - المتنبي بين ناquديه في القديم والحديث |
| ١٣ - حافظ إبراهيم شاعر النيل | ٣٦ - النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ |
| ١٤ - أدب المهجر | ٣٧ - البارودي رائد الشعر الحديث |
| ١٥ - الأدب العربي المعاصر في سورية | ٣٨ - المتنبي وشوقي (دراسة ونقد وموازنة) |
| ١٦ - الأدب اليوناني القديم | ٣٩ - ابن الكيزاني الشاعر الصوفي المصري |
| ١٧ - النابغة الذبياني | ٤٠ - علي بن الجهم (حياته وشعره) |
| ١٨ - ابن دقيق العيد | ٤١ - الأخطل شاعر بني أمية |
| ١٩ - الفن ومذاهبه في النثر العربي | ٤٢ - السلطان الخطاب |
| ٢٠ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي | ٤٣ - حسان بن ثابت |
| ٢١ - الأمير شكيب أرسلان (حياته وآثاره) | ٤٤ - كثير عزة |
| ٢٢ - في الأدب الأندلسي | ٤٥ - الشماخ بن ضرار الذبياني |
| ٢٣ - شعر الحرب في أدب العرب | ٤٦ - شعرنا الحديث . . . إلى أين ؟ |